



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُؤَيْيْفِ الْقِزْصَاوِيِّ

المجلد السابع والستون





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

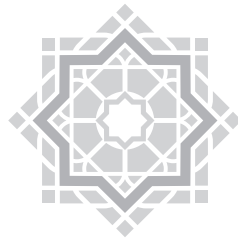
الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



للطباعة والنشر والتوزيع

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُيُوتِ الْقُرْآنِ



الْجُورُ السَّابِعُ

فَقِيرَ الْأَمْتِ وَكَانَ عَوْنُهَا وَصَحْوَتُهَا وَحُكْمُهَا الْإِسْلَامِيَّةُ

١٢٩ الصَّحْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
من المراهقة إلى الرشد

١٣٠ من أجل صحوة راشدة





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ

المحور السابع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلامية

١٢٩

الصحوة الإسلامية
من المراهقة إلى الرشد

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل». ثم تلا هذه الآية ﴿ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

عن جابرٍ قال: خرجنا في سفرٍ، فأصاب رجلاً منا حَجَرٌ، فشجّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العيِّ السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر - أو يعصب - على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده». رواه أبو داود والدارقطني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشـد، ورحمة الله للعالمين، سيّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبیبنا محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اتّبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(أمّا بعد)

فمن فضل الله علينا - نحن المسلمين - أن أكرمنا بهذا الدين العظيم، الذي أكمله لنا، وأتمّ به علينا النعمة، وجعله لنا هدى وشفاء ورحمة، وامتنّ به علينا، فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد ختم الله تعالى برسالة محمّد رسالات السماء جميعاً، فهو خاتم الرسل والنبیین، وقرآنه خاتمة الكتب المنزّلة من عند الله، وشريعته آخر الشرائع، كما أن أمّته آخر الأمم التي حمّلها الله تعالى رسالة للناس.

ولا غرو أن أودع في رسالة الإسلام عناصر الخلود والبقاء، كما أودع في أمّته عوامل الخلود والبقاء إلى يوم القيامة.

ومن هذه العوامل أو العناصر: أَنَّ الله سبحانه قضى كما أخبرنا رسوله أَنَّ هذه الأُمَّة باقيةٌ إلى يوم الدين، وَأَنَّ أعداءها لا يُسلِّطون عليها بحيث يستأصلون شأفتها.

ومن ذلك: أَنَّها لا تجتمع على ضلالة أبدًا، فلا يزال فيها من ينصر الحق، ومن يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال رَجُلٌ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وجاء عنه ﷺ جملة أحاديث مستفيضة عن عدد من الصحابة، تبشّر بأنّه لا يزال في هذه الأُمَّة طائفة قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتّى يأتي أمر الله وهم على ذلك^(١).

كما ثبت في الحديث: «أَنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سنة مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٢). وقد أثبت في دراسة لنا: أَنَّ هذا المجدد قد يكون فردًا، وقد يكون جماعة، أو مدرسة، أو حركة، أو مجموعة حركات تقوم برسالة التجديد.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٦)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، من حديث معاوية مرفوعًا بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس». وقد صح الحديث عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (٢٨١/٢)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. عن أبي هريرة.

ولقد دلّتنا قراءة تاريخ الأُمّة الممتدّ، واستقراء واقعها الماثل للأعين: أنّ هذه الأُمّة يمكن أن تنام أو تُنوّم، فترات تقصر أو تطول، ولكنها لا تموت أبداً، بل تظلّ عروقتها تنبض بالحياة.

ولا يرتاب دارس متعمّق أنّ في كيان هذه الأُمّة المعنويّ عوامل ذاتيّة، خليقة بأن تبعثها من همود، وأن توقظها من رقود، وأن تحرّكها من جمود.

وحسبها أنّ الله تعالى تكفل بحفظ مصادرها الأصليّة من الضياع أو النسيان أو التحريف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والذّكر هو القرآن، وقد حفظه الله تعالى أكثر من أربعة عشر قرناً، فلا زال كما أنزل، بألفاظه وحروفه، محفوظاً في الصدور، مكتوباً في السطور، متلوّاً بالأسنة، مقروءاً كما كان منذ عهد النبوة بغنّه ومدّه.

وحفظ القرآن - كما ذكر الإمام الشاطبي - يستلزم حفظ السنّة معه؛ لأنّها بيان له^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وحفظ المبين يقتضي حفظ بيانه، حتّى لا يبقى بلا بيان.

وكثيراً ما تمر على هذه الأُمّة فترات حالكة، يظنّ الناس فيها الظنون، ويبتلى المؤمنون، ويزلزلون زلزالاً شديداً. ويحسب من يحسب أنّ شمس الإسلام قد غربت إلى الأبد، وأن جذوة أمّته قد أطفئت فلن

(١) الموافقات في أصول الشريعة (٣/٤) وما بعدها، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

تشتعل أبداً. وسرعان ما يرون الأحداث تُكذَّب ظنونهم، وتُخَيَّب فآلهم، وإذا بالسقيم يُشفى، والهامد يتحرَّك، والمارد يخرج من قُمقمه، ويرى النَّاس منه الأعاجيب.

وأجلى ما يكون ذلك حين تشتدُّ بالأُمَّة الأزمات، وتحيط بها الشدائد والنكبات، وتنزل بها البلايا والكربات، ويترَبَّص بها أعداؤها من كلِّ مكان، وقد يُهاجمونها في عَقَر دارها، وربَّما انتصروا عليها وكسبوا المعركة ضدها في أوَّل الأمر، ثمَّ ما أسرع ما تُفجَّر الأزمات طاقات الأُمَّة، وتستخرج مكنون قُواها، وتستثير دفائنها، فتنهض من عثرتها، وتتجمَّع من فُرقتها، وتهبُّ من نومها، ويرى أعداؤها منها ما كانوا يكرهون أو يخافون ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

رأينا ذلك في حروب الفرنجة الذين قدموا من الغرب، والتي سمَّاها الغرب «الحروب الصليبيَّة». وشهدنا ذلك في حروب التتار الذين زحفوا من الشرق، وقد انتصر كلاهما في أوَّل الأمر نصراً ظنُّوا معه أنَّ بساط الإسلام قد طوي، وأنَّ الأمر قد استتبَّ لهم إلى الأبد.

ثم انتصرت الأُمَّة على الصليبيين فردَّتهم مدحورين، ثمَّ انتصرت على التتار مرَّتين، عسكرياً في معركة «عين جالوت» الحاسمة، ومعنويًا بدخولهم مختارين في الإسلام.

وفي عصرنا احتلَّ الاستعمارُ الغربيُّ بفروعه المختلفة ديار المسلمين، وحكمها عقوداً طالت في بعضها إلى قرنٍ وثلاث قرنٍ من الزمان، كما في الجزائر، ثمَّ ثارت القوى الكامنة في الأُمَّة، فطردت الاستعمار وتحرَّرت من نيره.

وبعد ذلك دخلت الأمة معركة «العودة إلى الذات» بعد أن اكتشفت نفسها، وعرفت أنها لا شرقية ولا غربية، بل ربّانية قرآنية إسلامية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

وجرت بينها وبين دعاة التغريب أو عبید الفكر الغربي، من عبید اليمين وعبید اليسار، معارك شتّى فكرية وسياسية، وكان التغريبيون مسنودين بالقوى المعادية من الخارج، ممّن يُعادون الإسلام جهلاً أو حقداً، أو خوفاً أو طمعاً، والقوى المستبدة من الداخل، ممّن يعملون لحساب الخارج، أو يجهلون حقائق الإسلام، أو يخافون منه أن يحرمهم من امتيازاتهم المحرّمة، أو يحرم عليهم شهواتهم المحظورة، فقالوا كما قال قوم لوط من قبل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولكن من فضل الله تعالى: أن هياً للأمة رجالاً وجماعات من أهل الإصلاح والتجديد حاولوا أن يجددوا لهذه الأمة دينها، وأن يحيوا يقينها، وأن يهدوها بكتاب ربّها للتي هي أقوم.

وبعد معارك خاضوها، ومحن اجتازوها، وتضحيات قدّموها، لم يضيع الله تعالى جهادهم ولا جهدهم، فإنّه سبحانه لا يضيع عمل المحسنين، كما لا يصلح عمل المفسدين.

فكان من ثمار هذه الجهود: هذه الصحة المباركة، التي عمّ نورها المشرق والمغرب، وهبت نفحاتها في الشمال والجنوب، داخل العالم الإسلامي وخارجه، وشملت المدن والقرى، وضمت الرجال والنساء، وكان عمودها الفقري هم الشباب، ولا سيّما الشباب المتعلّم في الجامعات والمعاهد والمدارس.

وقد رأيناها صحوةً شاملةً جامعة؛ صحوةً عقولٍ وأفكار، وصحوةً قلوبٍ ومشاعر، وصحوةً إراداتٍ وعزائم، وصحوةً عملٍ وسلوك، وصحوةً توعيةٍ ودعوة، وصحوةً جهادٍ وغيره.

ولقد شملت كلَّ الميادين: التربويّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، وحتى العسكريّة، فقد رأينا أثرها في فلسطين وفي أفغانستان وفي كشمير، وفي البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيخان والفلبين وغيرها.

ولقد كان من آثار هذه الصحوة امتلاءُ المساجد بالمصلّين، وامتلاءُ المواسم بالحجّاج والمعتمرين، وغدا جُلُّ هؤلاء وأولئك من الشبان والشابات، وعاد حجاب المرأة المسلمة طوعية إلى الظهور.

ولكنّ شاب هذه الصحوة بعضُ الشوائب، التي كدّرت صفاءها، وشوّشت عليها، وغبّشت حقيقةً جوهرها، وأساءت إلى سمعتها، ممّا اعتبرناه «أمراضاً لهذه الصحوة» يجب أن تُعالج ولا تُترك، وأن تُقوّم ولا تُهمل.

تجلّى ذلك في مظاهرٍ من الغلو والتطرّف، ومن الاستعجال والانفعال، ومن الاشتغال بالشكل أكثر من الاشتغال بالجوهر، وبالمراء والجدل أكثر من العطاء والعمل، وبرز في بعض فصائلها ميلٌ إلى التعصّب والانغلاق، وإلى الجمود والتقليد، وإلى التعسير والتنفير، وإلى العاطفيّة والغوغائيّة، وإلى العناية بالفروع الجزئيّة بدل الأصول الكلّيّة، وإلى الركون إلى العنف والنقمة، بدل الرفق والرحمة.

فكان على العلماء والدعاة والمُفكّرين والمُربّين: أن يبذلوا جهدهم لترشيد هذه الصحوة وتسديدها، والأخذ بيدها، حتّى تستكمل مسيرتها، وتحقق غايتها، وتؤتي أكلها كلّ حينٍ بإذن ربّها.

وهذا ما شُغِلْتُ به منذ نحو ثلث قرنٍ، وأصدرتُ فيه عدّة كتبٍ تحمل عنوان الصحوة في بعض الأحيان، مثل: «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرّف»، و«الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي»، و«الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرّق المذموم»، و«من أجل صحوة راشدة تجدد الدّين وتنهض بالدنيا». وبعضها لا يحمل عنوان الصحوة، مثل: «الحلّ الإسلامي فريضة وضرورة»، و«أين الخل؟»، و«جيل النصر المنشود»، و«أولويّات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة»، و«في فقه الأولويّات»، وسلسلة «نحو وحدة فكريّة للعاملين للإسلام» وقد صدر منها خمسة أجزاء.

ثمّ هأنذا أضيف إلى هذا الجهد: هذا الكتاب الذي سمّيته: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» راجياً أن يوفّقني الله تعالى لأشدّ به ثغرة، وأقوم به عوجاً، وأحقّق به هدفاً: أعلم به جاهلاً، أو أنبّه به غافلاً، أو أذكّر به ناسياً، أو أشدّ به عزم متردّد، أو أقويّ به إرادة ضعيف. ولا أقول إلّا ما قال نبيّ الله شعيب من قبل: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفقير إلى عفو ربّه

يوسف القضاوي

الدوحة في ذي القعدة ١٤٢٢هـ

يناير ٢٠٠٢م



تمهيد

خصائص مرحلة المراهقة:

المراهقة مرحلة يمرُّ بها الإنسان الفرد في طريقه إلى الرجولة والرشد، وهي تتميز بعدة سمات:

- ١ - القوة والنمو المتصاعد.
- ٢ - الحيويّة والنشاط الزائد.
- ٣ - الأحلام الوردية والأمني العريضة، والإغراق في الخيال.
- ٤ - تأجج العاطفة، وغلبة الحماس والانفعال.
- ٥ - الاستعجال وقلة الصبر، والاندفاع الثوري إلى حدّ الطيش أحياناً.
- ٦ - الرغبة في إثبات الذات، ولو بالتمرد على من لهم حقُّ الطاعة كالآباء والأمّهات والمعلّمين.
- ٧ - الإعجاب بالبطولات والمثاليّات، ومحاولة تقليدها.
- ٨ - المبالغة والتطرف في تقدير الأمور، بالتهويل حيناً، والتهوين حيناً آخر.

وهذه السمات ليست شرًّا في ذاتها، ولكنها إذا لم تضبط قد تؤدي إلى شرٍّ على أصحابها، وعلى غيرهم أيضًا.

ومرحلة الرشد تشترك مع المراهقة في استمرار القوة والنمو، واستمرار الحيوية والنشاط.

ولكنها تتميز عنها بأنّها أكثر قابليّة لتغليب العقل على العاطفة، والحكمة على القوة، والهدوء على الثورة، والأناة على العجلة، والواقع على المثال، والتفاهم على التمرد، والاعتدال على التطرّف، والتسامح على التعصّب، والجوهر على الشكل، والعمل على الجدل، والتعاون على التشاحن، والرفق على العنف، ورعاية السنن في الخلق وفي المجتمع، بدل الإغراق في الخيال، إلى حدّ طلب المحال.

الجماعات تمرُّ بالمراهقة أيضًا:

والجماعات والحركات البشرية كثيرًا ما يعرض لها في مراحل نموّها، ما يعرض للأفراد من طفولة ومراهقة ورشد وكهولة.

والصحوة الإسلامية المعاصرة: مرّت بها فترة أشبه بفترة المراهقة، وهي تحاول الآن - أو ينبغي أن تحاول - أن تجتاز مرحلة المراهقة بسماتها وخصائصها، لتدخل في مرحلة جديدة، هي مرحلة الرشد والنضج بسماتها وخصائصها كذلك.

وينبغي على أهل العلم والفكر من المسلمين الذين رزقهم الله الرشد والاستقامة في التصوّر والسلوك، أن يقوموا بواجبهم في ترشيد هذه الصحوة، وتسديد خطاها، عملاً بفريضة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة في الدين، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.



اهتمامي بترشيد الصحة:

ومنذ أوائل العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري - السبعينيات من القرن العشرين الميلادي - وأنا مشغول الفكر والقلب بالصحة الإسلامية، وبخاصة صحة الشباب، الذي هو العمود الفقري للصحة. ولا عجب أن غدت هذه الصحة أول همومي وأولاهها، وما أكثر هموم العالم المسلم، والداعية المسلم، والمفكر المسلم، في الزمن الذي نعيش فيه.

ولكن الصحة تأخذ المكان الأول، وتحتل الحيز الأوسع، بما لها من أهمية بالغة في حاضر الأمة ومستقبلها.

لهذا كان من الضروري تقويتها أبداً حتى لا تضعف، وتوعيتها دائماً حتى لا تستغل، وترشيدها باستمرار حتى لا تنحرف، وتنبيهها على المهاوي والحفر في الطريق حتى لا تسقط، وإضاءة الإشارات الحمر عند المخاطر ومفارق الطرق حتى لا تضدّم أو تضدّم، فتحطّم أو تتحطّم. ودفعها إلى السير قدماً إلى الغاية المنشودة، فلا تنقطع في منتصف الطريق، ولا ترتدّ القهقري، ولا تميل عن الخطّ المستقيم إلى اليمين أو اليسار.

وهذا هو دوري ودور أهل العلم والفكر عموماً: أن يسهموا بإخلاص في «ترشيد» هذه الصحة، وبعبارة أوضح: في نقلها من عاطفة المراهقة إلى عقلانية الرشد؛ قياماً بواجب النصيحة، التي هي رأس الدين.

وكنت منذ سنوات في ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر، بجمهورية الجزائر الشقيقة سنة (١٩٨٤م) - وكان موضوع الملتقى هو الصحة الإسلامية - قد أشرت إلى عدّة نقاط - بلغت العشرين - لترشيد الصحة، ذكرتها في دراسة لي بعنوان: «أين الخل؟» والتي

اعتبرها المشاركون في المؤتمر: بمثابة برنامج مستقبلي، أو ورقة عمل للصحوة المنشودة.

واليوم أحاول أن أدمج هذه النقاط، أو الخطوط العشرين، بعضها في بعض، منعا للتكرار وطلبًا للاختصار، لأجعل منها عشرة كاملة، يمكن أن نسميها: «الخطوط العشرة، لترشيد الصحوة». أي لنقلها من مرحلة المراهقة والأحلام والطيش أحيانا، إلى مرحلة الرشد والنضج والالتزان، مرحلة الفعل لا الانفعال ولا ردّ الفعل.

الخطوط العشرة لترشيد الصحوة:

هذه هي الخطوط العشرة:

- ١ - من الشكل والمظهر، إلى الحقيقة والجوهر.
- ٢ - من الكلام والجدل، إلى العطاء والعمل.
- ٣ - من العاطفية والغوغائية، إلى العقلانية والعلمية.
- ٤ - من الفروع والذيل، إلى الرؤوس والأصول.
- ٥ - من التعسير والتنفير، إلى التيسير والتبشير.
- ٦ - من الجمود والتقليد، إلى الاجتهاد والتجديد.
- ٧ - من التعصّب والانغلاق، إلى التسامح والانطلاق.
- ٨ - من الغلو والانحلال، إلى الوسطية والاعتدال.
- ٩ - من العنف والنقمة، إلى الرفق والرحمة.
- ١٠ - من الاختلاف والتشاحن، إلى الائتلاف والتضامن.



وستحدّث في الفصول القادمة - إن شاء الله - عن كلّ نقطة من هذه النقاط، أو كلّ خط من هذه الخطوط: بما يشرحه ويلقي الضوء عليه، حتّى تتّضح المفاهيم، وتقوم الحجّة، ولا تلبس الحقائق بالأباطيل، وحتّى يتعلّم الجاهل، ويقتنع المتردّد، وينهزم المكابر، ويهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بيّنة. وبالله التوفيق.

* * *





من الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر

من النَّاسِ مَنْ لَا يَكَادُ يُهَمُّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا الشَّكْلَ لَا الْجَوْهَرَ، والصُّورَةَ لَا الْحَقِيقَةَ، فَأَهْمُّ مَا يَعْنِي بِهِ فِي دِينِهِ: إِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ وَتَطْوِيلُهَا، وَتَقْصِيرُ الثَّوْبِ، وَحَمْلُ الْمَسْوَاكِ، وَلِصْقُ الْقَدَمِ بِالْقَدَمِ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ وَضْعُ الْيَدَيْنِ فِي الْقِيَامِ عِنْدَ الصَّدْرِ أَوْ فَوْقَ السَّرَةِ، وَالشَّرْبُ قَاعِدًا لَا قَائِمًا، وَتَحْرِيمُ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْغِنَاءِ وَالْمَوْسِيقَى، وَإِجَابُ لُبْسِ النِّقَابِ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَظْهَرِ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِالْجَوْهَرِ، وَكَنتِ أَوْدُ مِنْ إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ لَوْ وَجَّهُوا أَكْبَرَ عَنَائِتِهِمْ إِلَى الْجَوْهَرِ وَالرُّوحِ فِي تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ، بَدَلَ الشَّكْلِ وَالْمَادَّةِ.

فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ جَوْهَرُهَا التَّوْحِيدُ، وَعِبَادَةٌ جَوْهَرُهَا الْإِخْلَاصُ، وَمُعَامَلَةٌ جَوْهَرُهَا الصَّدَقُ، وَخُلُقٌ جَوْهَرُهَا الرَّحْمَةُ، وَتَشْرِيعٌ جَوْهَرُهَا الْعَدْلُ، وَعَمَلٌ جَوْهَرُهَا الْإِتْقَانُ، وَأَدَبٌ جَوْهَرُهَا الذَّوْقُ، وَعِلَاقَةٌ جَوْهَرُهَا الْأَخْوَةُ، وَحَضَارَةٌ جَوْهَرُهَا التَّوَازُنُ.

فَمَنْ ضَيَّعَ التَّوْحِيدَ فِي الْعَقِيدَةِ، وَالْإِخْلَاصَ فِي الْعِبَادَةِ، وَالصَّدَقَ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَالرَّحْمَةَ فِي الْخُلُقِ، وَالْعَدْلَ فِي التَّشْرِيعِ، وَالْإِتْقَانَ فِي الْعَمَلِ، وَالذَّوْقَ فِي الْأَدَبِ، وَالْأَخْوَةَ فِي الْعِلَاقَةِ، وَالتَّوَازُنَ فِي الْحَضَارَةِ؛ فَقَدْ ضَيَّعَ جَوْهَرَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ تَمَسَّكَ بِظَوَاهِرِ الرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ.

وليس هذا القول مجرد دعوى بلا دليل، بل الأدلة على هذا القول من القرآن والسنة كثيرة.

يقول الرسول ﷺ: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه واحدةٌ منهم كان فيه شعبة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا أُوْتِمَن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١)، وفي رواية: «وإنَّ صَلَّى وصام وزعم أنه مسلم»^(٢).

الإيمان بين الشكل والجوهر:

يحسب بعض الناس: أنَّ الإيمان الذي يُنْجِي الإنسان من النار، ويؤهِّله لدخول الجنة في الآخرة، ويجعله أهلاً لولاية الله تعالى ونصرته ودفاعه في الدنيا: مجرد معرفة ذهنية، كثيرًا ما يُحشَى بها عقله. وبعبارة أدق: تخزن في ذاكرته - في فترة الصبا - ويُلقَّنها تلقينًا: أنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له، وأنَّه سبحانه متَّصفٌ بكلِّ كمال، منزَّه عن كلِّ نقص، وأنَّ له صفات عُلِّيا هذه كذا وكذا.

وما زلت أذكر كيف كانوا يُلقِّنوننا - ونحن في الكتاب - العقيدة، على مذهب الأشاعرة المتأخرين، وهي: أنَّ الله تعالى صفات عشرين هي: الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية، والعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه تعالى عالمًا، ومريدًا، وقادرًا، وحيا، وسميعًا، وبصيرًا، ومُتكلِّمًا.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٩) (١٠٩)، عن أبي هريرة.

وكنّا نحفظ هذه الصفات بترتيبها هكذا، ولا نعرف من معناها شيئاً. وبعد أن كَبُرْتُ ووَغَيْتُ: حاولتُ أن أفهم الفرق بين العلم، وكونه تعالى عالماً. وبين القدرة، وكونه تعالى قادراً، إلخ. ولم أستطع أن أفهم، ولم أجِدْ من قدر على أن يفهمني، برغم أننا درسنا هذه الصفات: في المراحل الابتدائية، والثانوية، والعالية، من الدراسة في الأزهر الشريف. وأهمُّ من ذلك: أنَّ هذه الدراسة للعقيدة، لم تكن تلمس في رُوح الإنسان وترّاً، أو تحرّك له قلباً، أو تُحيي فيه ضميراً. إنّها دراسة جافّة، خاوية من رحيق الإيمان الحق، الذي يقوم عليه منهج القرآن: في تكوين الإيمان، وفي تثبيت الإيمان.

وهو منهجٌ يقوم على النظر والتفكير في آيات الله تعالى: في الأنفس، والآفاق: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقد أعجبتُ بالمنهج السلفي، لعنايته بالرجوع إلى القرآن الكريم والسُّنة المطهّرة في إثبات العقيدة وتثبيتها، مرجّحاً أساليب القرآن على أساليب فلسفة اليونان، حسب تعبير العلامة ابن الوزير اليماني^(١).

كما أعجبني من هذا المنهج: تركيزه على تحرير التوحيد، من كلِّ شوائب الشرك أكبره وأصغره، جليّه وخفيّه، وتحرير الإنسان من العبوديّة للإنسان، وتجريد العبوديّة لله وحده.

(١) إشارة إلى مؤلّف ابن الوزير اليماني (ت: ٨٤٠هـ): ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان.



ولكنَّ الاتجاه السلفي المعاصر: غرق في خضم الجدل في مسائل العقيدة، وغدا شغله الشاغل ما يتعلّق بما سمّاه: «آيات الصفات»، و«أحاديث الصفات». والمراد بها: الصفات الخبريّة، التي وقع النزاع بين السلف والخلف حول تأويلها أو عدمه. وكأنّما هي لبُّ العقيدة، وجوهر التوحيد!

وماأخذي على هذا الاتجاه - كما يُلقّن الآن - أمران:

الأوّل: تركيزه على هذا الموضوع المختلف فيه، على حساب المتّفق عليه، والذي هو الأصل في العقيدة: من إثبات وجود الله تعالى، ووحدانيّته في ذاته وصفاته وأفعاله، وتجريد العبادة له وحده، ووصفه بكلِّ كمالٍ يليق به **وَعَلَّك**، ونفي كلّ نقصٍ عنه: من الشرك والولد والندّ والشبيه: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى: ١١]، **﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾** * **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [الإخلاص: ٣، ٤].

والواجب تدريس هذه الأشياء المختلف فيها، كما جاءت في القرآن والسُّنة، لا أن يُجمع بعضها مع بعض، في سياقٍ واحد، يعطي من الظلال ما لا يُعطيه سياقها في مواقعها المتفرّقة من الكتاب والسُّنة.

الثاني: أنّ هذا الاتجاه وقع فيما وقع فيه الاتجاه العقلاني الأشعري الآخر، من اعتبار الإيمان: مسألة معرفيّة ذهنيّة، وبعبارة أخرى: استيعاب عباراتٍ مرصوفة، وحفظ جملٍ ومصطلحات مصبوبة في قوالب جامدة.

فمن حفظ هذه العبارات أو المصطلحات: فقد سلمت عقيدته، وصحَّ إيمانه، وتحرّر توحيده من الشككيّات والكفريّات.

وقد حضرتُ مجلساً ضمَّ بعضَ أهل العلم، فكان ممّا قاله واحدٌ منهم في الإنكار على شخصٍ ما: إنّه مختلُّ العقيدة، مشوب التوحيد، إنّه

لا يعرف معنى «الرّب»، ولا معنى «الطاغوت»، ولا معنى «توحيد الأسماء والصفات».

وكأنّ كلّ ما هو مطلوب من الإنسان ليسعد في الدنيا، ويفوز في الآخرة: أن يحفظ هذه التعريفات أو المصطلحات عن ظهر قلب، ويُسمّعها عندما تُطلب منه.

وليس هذا بالإيمان الذي ذكر في القرآن، وذكرته السُّنّة، وربّما عليه آثاره وثماره في الدنيا والآخرة.

إيمان القرآن والسُّنّة:

إنّ إيمان القرآن والسُّنّة شيءٌ آخر.

إنّه نورٌ يضيء كلّ جوانب النفس، يُنير العقل، وينعش الوجدان، ويُحرّك المشاعر، ويُحفّز الإرادة. إنّه قوّة هادية، وقوّة مُحركة، وقوّة ضابطة، وقوّة مطمّنة.

الإيمان قوّة هادية:

هو قوّة هادية؛ لأنّه يُحدّد للإنسان وجهته، ويعرفه غايته ومنهاجه، فيحيا على نورٍ، ويمضي على بصيرة.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

هذه القوّة هي التي جعلت إبراهيم الخليل عليه السلام: يرفض رُبوبيّة الكواكب والقمر والشمس، إذ يقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قوة حافزة:

وهو قوة مُحَرِّكة، تُحَفِّز الإنسان إلى العطاء والبناء، وعمل الصالحات، واستباق الخيرات، ولذا قرن القرآن الإيمان بالعمل في نحو تسعين موضعًا، ولهذا قال السلف: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل^(١).

وحين قال اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١] ردَّ عليهم القرآن بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

فهذا هو البرهان على صدق الإيمان: إسلام الوجه لله مع إحسان العمل.

والقرآن يُجَسِّد الإيمان في أخلاق ومشاعر وأعمال، لا في جُمَلٍ وعبارات، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

يؤكد ذلك أحاديث الرسول الكريم، التي جعلت الإيمان بضعةً وستين، أو بضعةً وسبعين شعبة، ألفت فيها كُتُبٌ جامعة، لبيانها وإحصائها وشرحها.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨)، من قول الحسن البصري.

وفي «الصحيحين»: «الإيمان بضغٌ وسُتُون - أو بضغٌ وسبعون - شُعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق. والحياء شُعبة من الإيمان»^(١).

الإيمان هو الذي جعل إبراهيم الخليل، يُقدِّم على ذبح ولده وفلذة كبده طاعةً لله، وجعل ابنه الفتى المترعرع يقول لأبيه بعد أن قال له: ﴿يَبْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

قوة ضابطة:

والإيمان - كما أنه قوة دافعة إلى فعل الخير - هو كذلك قوة ضابطة تزع صاحبها عن الشرِّ، وتلجمه بلجام التقوى، وتردعه عن الإثم، وعن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الإيمان هو الذي يضع نُصبَ عَيْنِي المؤمن دائماً: رقابة الله تعالى، وحساب الآخرة، وعقيدة الثواب والعقاب، والجنة والنار، وبذلك يكون هو رقيباً على نفسه، يشارطها قبل العمل، ويحاسبها بعد العمل، ويلومها عند التقصير، وقد يعاقبها بالتقريع والتأنيب، وبغيرهما من وسائل التأديب. كما هو شأن «النفس اللوامة».

الإيمان هو الذي جعل ابن آدم الخير يقول لأخيه الشرير: ﴿لَيْنُ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

الإيمان هو الذي جعل يوسف بن يعقوب يرفض الشهوة الحرام، وهو في عنفوان شبابه، وقوة رجولته، وهي التي سعت إليه، ولم يسع إليها، فهو يقول للمرأة التي هو في بيتها، والتي تملك أمره، والتي راودته عن نفسه بالتصريح لا بالتلميح. ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وحين لم يفلح معه الإغراء، جرّبت معه التهديد، فمن لم يثنه الوعد، فربما ألانه الوعيد، فقالت أمام النسوة: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فما كان من هذا الشاب المؤمن، إلا أن لاذ بالركن الركين، والحصن الحصين، لاذ برّبه، قائلاً: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

مصدر السكينة:

والإيمان بعد ذلك قوة تزرع في النفس السكينة، وفي القلب الأمن والطمأنينة، وهما ينبوع السعادة الحقيقية، التي تنبع من الداخل، ولا تستجلب من الخارج.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

يُحَدِّثُنَا الْقُرْآنُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ حَاجَّهُ قَوْمُهُ وَجَادَلُوهُ، وَخَوَّفُوهُ مِنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ تُصِيبَهُ بِسُوءٍ! فَقَالَ:

﴿أَتُحْجَبُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا

أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

ومعنى لم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم: أي لم يخلطوا توحيدهم بشرك، فهم
لا يدينون إلا لله، ولا ينحنون إلا لله، ولا يرجون أو يخافون إلا الله.

وهذا التوحيد الخالص هو الذي وهبهم الأمن النفسي الذي حرّمه
غيرهم، ممّن يخافون من كلّ شيء، حتّى من الأوهام. كما هو شأن أهل
الشرك الذين قال الله فيهم: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١].

ومن هنا نجد المؤمن كالطود الأشمّ، تضطرب الدنيا من حوله،
وتثور العواصف، وتزمرجر الرعود، وتبرق البروق، وتنقلع الأشجار،
وتفيض الأنهار، وتعلو أمواج البحار، وهو هو: ثابت لا يتزعزع، راسخ
لا يتأرجح، فقد وضع قدمه على باب الله، ووضع يده في يد الله، ووصل
حباله بحبل الله، فبه يعتصم، ومنه يستمدّ، وإليه يتوجّه، وعليه يتوكّل
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

شعاره ما قاله الله لرسوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ
مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

لا تزيده الشدائد إلا إيماناً واطمئناناً، كالذهب الأصيل لا تزيده النار
إلا صفاءً ولمعاناً. وهكذا وصف الله المؤمنين من أصحاب رسوله ﷺ،
في أشدّ الأوقات حُلَكة وسواداً، وأشدّ الأزمات حرّاً وقلقاً، كما في
غزوة الأحزاب، حيث أحاط جيش المغيرين بالمدينة، إحاطة الأمواج



بالسفينه، وظنَّ الناس بالله الظنون، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا. هنا برز دور الإيمان، يبعث الأمل، ويحيي الثقة، ويمنح القوة، كما نرى ذلك في وصف القرآن لجماعة المؤمنين ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ولا أستطيع أن أذكر هنا - ولو بالإيجاز - ثمار الإيمان القرآني، في النفس وفي الحياة. فقد كتبت في ذلك كتابًا كاملاً هو «الإيمان والحياة»، بيّنت فيه أثر الإيمان في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع، وأنه ضرورة للفرد ليسعد ويتزكى، وضرورة للمجتمع ليتماسك ويرقى.

المهم أن هذا الإيمان هو الإيمان الحق، وهو الذي جاء به كتاب الله، وفصلته سنة رسول الله، وهو الذي عرفه وعاشه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وعرفه الربانيون من أبناء هذه الأمة، فعاشوا به في جنة رُوحية دخلوها في الدنيا قبل الآخرة، وأحسوا معه بسعادة قال فيها قائلهم: لو علم بقيمتها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!^(١)

أمّا آفة مسلمي عصور الانحطاط، ومسلمي اليوم كذلك: فهي غياب هذا الإيمان الإيجابي الذي لا يقوم شيء مقامه من علم ولا أدب ولا فلسفة ولا قانون.

أجل، إنَّ غياب المعاني الإيمانية الربانية، التي تربط القلوب ببرد اليقين، وتنعش الأرواح بنسائم المحبة والشوق إلى الله، وتمدُّ العزائم ببواعث الرجاء في رحمة الله تعالى والخشية من عذابه: أبرز ثغرة في

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٧)، من قول إبراهيم بن أدهم.

حياة الإنسان المسلم، تحتاج إلى أن تسدَّ، فلجأ إلى رحاب التصوُّف يحاول أن يجد فيه ضالَّته التي ينشُدُها، والتي لم يجدها عند الذين أغرقوا النَّاسَ بفروع الفقه وخلافاته، ولا عند المجادلين في العقائد: من علماء الكلام الذين شغلوا النَّاسَ عن الله جَلَّالَهُ، بالجدل الحارِّ الدائم حول أسمائه وصفاته سبحانه.

وإذا وجد المسلم صوفيًّا ملتزمًا بالكتاب والسُّنة، بعيدًا عن الشكَّيات في العقيدة، والبدع في العبادة، والخلل في السلوك: فهذا من حسن حظِّه، ومن فضل الله عليه.

ولكنَّ الخطر يتمثَّل في المُخَرِّفين والمُنحَرِّفين من أدعياء التصوُّف، من الذين اتَّخذوه مُرتزقًا وتجارة، أو من الذين لم يحسنوا فهم حقيقة التصوُّف؛ لأنَّهم لم يُحَسِّنُوا فهم حقيقة الإسلام. وهؤلاء هم جلُّ الموجودين على الساحة باسم التصوُّف، وما هم من التصوُّف في كثيرٍ ولا قليل.

التقوى بين الشكل والجوهر:

ومن أعظم مقامات الدِّين، وأطيب ثمار الإيمان، وأفضل ما يحرص عليه المؤمنون، ويتنافس فيه المتنافسون: مقام «التقوى» التي ناط القرآن بها كلَّ خيرٍ وكلَّ فضل، وكلَّ أثرٍ طيبٍ في الدنيا والآخرة.

فهي سبب النجاة، والخروج من كلِّ مأزقٍ ومضيقٍ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وهي سبب اليسر والسعة كذلك: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾

[الطلاق: ٤].

وهي سبب تكفير السيئات وإعظام الأجر: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وهي سبب معية الله تعالى لعبده: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
[البقرة: ١٩٤، والتوبة: ١٢٣].

وهي سبب محبة الله تعالى لعبده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧].

وهي سبب ولاية الله تعالى لعبده: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وهي سبب لحفظه تعالى إياه من كيد أعدائه: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وهي سبب لإعطائه الفرقان، الذي يفرق به بين الحق والباطل:
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهي سبب للنجاة من النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [مريم: ٧١، ٧٢].

وهي سبب دخول الجنة: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾
[مريم: ٦٣].

وهي سبب قبول العمل عند الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾
[المائدة: ٢٧].

ولا غرو أن أمر الله بها عباده أجمعين، فقال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١].

كما أمر بها عباده المؤمنين خاصة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وهي وصية الله للأوليين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

هذه التقوى لها شكل وصورة، ولها جوهر وحقيقة.

فأما شكلها: فالمحافظة على رسوم العبادة، وطقوسها الظاهرة، والاهتمام بأعمال الجوارح، وطاعات الأبدان، لا بأعمال القلوب، وطاعات القلوب. والحرص على تجنب معاصي الجوارح، دون الحذر من الوقوع في معاصي القلوب، والعناية بالآداب الظاهرة التي تراها أعين الناس، دون الآداب الباطنة التي قلما يلتفتون إليها.

فأما جوهر التقوى وحقيقتها، فتجلى في «القلب»، الذي هو موضع نظر الله تعالى، والذي هو أساس النجاة في الآخرة. كما قال تعالى على لسان إبراهيم حين دعا ربه، فكان من دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]. ولقد وصف الله إبراهيم بعد ذكر قصة نوح، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * [الصافات: ٨٣، ٨٤].

وإذا كانت سلامة القلب يوم القيامة هي محور النجاة، فإن إنابته إلى الله هي أساس الفوز بالجنة: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * [ق: ٣١ - ٣٣].

ولهذا كانت حقيقة التقوى متعلقة بالقلوب، أكثر من تعلقها بالأبدان. ومن أجل هذا أضيفت إليها في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الحديث الصحيح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أشار إلى صدره، وقال: «التقوى هاهنا». قالها ثلاثاً^(١).

ومن هنا عَظَّمَ ﷺ أمر القلب، وبيّن عظيم خطره، حين قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢).

كم عَظَّمَ رسولُ الله ﷺ أمر «النّية» وجعلها مناط قبول الأعمال عند الله، فقال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٣).

ومن أجل هذا عَظَّمَ علماء الإسلام شأن هذا الحديث، فمنهم من جعله رُبع الإسلام، ومنهم من جعله ثلث الإسلام، ومنهم من جعله نِصْفَ الإسلام، بناءً على أَنَّ الإسلام ظاهرٌ وباطنٌ، وهذا يُمثّل قسم الباطن، وأساسه النّية.

ولأهمّيّته ابتدأ الإمام البخاري كتابه: «الجامع الصحيح» به، واقتدى به كثيرون من العلماء. وجعله الإمام النووي أوّل حديث في «أربعينه» الشهيرة.

وجاءت جملة من الأحاديث الصحيحة، كلها تبين أهميّة النّية في دين الله، وفي قبول الأعمال عند الله.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

حَتَّىٰ إِنَّ النَّيَّةَ لَتَشْفَعُ لَصَاحِبِهَا إِذَا أَخْطَأَ فِي عَمَلِهِ، فَتُصَحِّحَ لَهُ الْعَمَلُ،
كما في حديث الرجل الَّذِي تَصَدَّقَ فِي اللَّيْلِ بِصَدَقَةٍ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ مَنْ
لَا يَسْتَحِقُّهَا: مِنْ سَارِقٍ، وَمِنْ زَانِيَةٍ، وَمِنْ غَنِيِّ، وَظَنَّ أَنَّ صَدَقَتَهُ ضَاعَتْ
هَدْرًا. فَأُتِيَ فِي نَوْمِهِ، وَقِيلَ لَهُ: «أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ، فَلَعَلَّهُ أَنْ
يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرَقَتِهِ، وَأَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ
زَنَاهَا، وَأَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى غَنِيِّ، فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ، فَيُنْفِقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ»^(١).

ويخبرنا القرآن أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَوْفِي أَجْرَ عَمَلِهِ كَامِلًا، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّه
بِالْفِعْلِ، بِفَضْلِ نِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُوَدِّعْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لِيَجْعَلَ الْمُؤْمِنَ يُثَابَ عَلَى الْعَمَلِ، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهُ، كَمَا
فِي حَدِيثٍ: «لَقَدْ خَلَّفْنَا بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سَلَكَنَا شَعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ
مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ»^(٢).

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ
مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(٣).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّيَ مِنْ
اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ
مِنْ رَبِّهِ»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٣٩)، عن أنس.

(٣) رواه مسلم في الإمامة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، عن سهل بن حنيف.

(٤) رواه النسائي في قيام الليل (١٧٨٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٤)، وابن خزيمة في

الصلاة (١١٧٢)، وابن حبان في قيام الليل (٢٥٨٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. وصححه

الألباني في الإرواء (٤٥٤)، من حديث أبي ذر أو أبي الدرداء على الشك.



إنَّ شكل التقوى: أن تهتم بأعمال العبادة الظاهرة، وحركات البدن المرئية، مثل: القيام والركوع والسجود في الصلاة، دون أن تهتم بالخشوع وهو روح الصلاة، وهو الذي رتب الله تعالى عليه الفلاح، حين قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وهكذا رأينا صلاته ﷺ، وصلاة أصحابه، وصلاة المتقين من خيرة هذه الأمة.

وهذا ما جعله ﷺ يقول: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وجعله يقول لمؤذنه بلال إذا جاء وقتها: «أرْحْنَا بِهَا يَا بَلَالُ»^(٢). فهو يجد في الصلاة راحة نفسه، وقرة عينه، وما أعظم الفرق بين من يقول: «أرْحْنَا بِهَا» ومن يقول: أرْحْنَا منها!

على حين نجده ﷺ، يقول: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب قُرْصَ الشمس، حتَّى إذا كانت بين قرني شيطانٍ - أي: اقتربت من الغروب - قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلَّا قليلًا»^(٣).

وقال: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرَقَةً: الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ، لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»^(٤).

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والنسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (١٣٢٣٢)، وحسنه ابن حجر في التلخيص (١١٦/٣)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرجه: رجاله ثقات لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٦٢٢)، وأحمد (١٢٩٢٩)، عن أنس.

(٤) رواه أحمد (٢٢٦٤٢)، وقال مخرجه: صحيح. وابن خزيمة في الصلاة (٦٦٣)، والطبراني في الأوسط (٨١٧٩)، وفي الكبير (٢٤٢/٣)، والحاكم في الصلاة (٢٢٩/١)، ووافقه الذهبي على =

وفي الصيام: نرى شكل الصيام في الامتناع عن شهوتي البطن والفرج، أي عن الطعام والشراب والنساء، وهو ما يسميه الإمام الغزالي: «صيام العَوام»^(١). ولكن جوهر الصيام في الامتناع عن كل المعاصي، فيصوم لسانه عن اللغو والرفث، ويصوم سمعه عن اللهو والخنا، وتصوم يده عن الأذى للناس، وتصوم جوارحه كلها عن معصية الله. وبهذا يكون الصيام له جُنة حقًا. وفي الحديث الصحيح: «من لم يدع قول الزُّور والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامه وشرابه»^(٢).

وقال: «رُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلَّا السهر، ورُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلَّا الجوع»^(٣).

وكان ﷺ يتلذذ بصيامه، كما كان يتلذذ بصلاته، ويواصل الصيام، وينهى أصحابه عن الوصال، أي: يصل أكثر من يوم ولا يفطر، فلما قالوا له: تنهانا عن الوصال وتواصل؟ قال: «وأَيْكُمْ مثلي؟ إني أبيتُ يُطعمني ربِّي ويسقيني»^(٤).

وهو كناية عن استغراقه في صلته برَّبِّه، ومحبته له، وقرّة عينه بعبادته، بحيث ينسى طعامه وشرابه وحاجة جسمه، كما قال الشاعر^(٥):

= تصحيحه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧١٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح. عن أبي قتادة.

(١) إحياء علوم الدين (٢٣٤/).

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

(٥) هو إدريس ابن أبي حفصة. انظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (٦٣/١)، نشر دار الجيل، بيروت.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغُلُهَا عَنْ الطَّعَامِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ

والحجُّ له شكلٌ وله جوهرٌ أيضًا. فشكله: أداء المناسك الظاهرة، وإن لم تكن له نيّة خالصة، ولا نفقة طيبة، ولا رحلة سالمة من الرفت والفسوق والجدال، وقد جاء في الحديث: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفُث ولم يفسُق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه»^(١). وقال: «الحجُّ المبرور، ليس له جزاءٌ إلا الجنة»^(٢).

وقال تعالى في هدايا الحجِّ من بهيمة الأنعام: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وفي الصدقة أو الزكاة، لها شكل وجوهر: شكل الصدقة أن تخرج المال للفقير، وإن كان مالك غير طيب، وكانت نيتك فيه غير خالصة.

وحقيقة الصدقة المقبولة: أن تتصدق من مالك الحلال؛ فإنَّ الصدقة بالحرام لا تقبل، «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٣). والزكاة لا تطهر المال الحرام، ولا يطهره إلا رَدُّه إلى أصحابه. إنَّ المال الحرام لا يطهره إخراج ربع عشره منه، بل إخراج كله، وإرجاعه إلى أهله. وأن تكون قاصدًا بإنفاقك وجه الله وحده. لا كالذي ينفق ماله رياء الناس كما وصف الله الأبرار بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

والعبادات كلها لا تقبل عند الله، إلا بشرط أساسي لا بد منه، وهو الإخلاص لله تعالى، كما قال **وَعَلَىٰ**: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

طاعات القلوب:

وهناك عبادات قلبية، وهي التي تعرف بـ «طاعات القلوب». وهي أهم من طاعات الجوارح، حتى قال الإمام الغزالي: إن ذرة من أعمال القلوب، قد ترجح أوزان الجبال من أعمال الجوارح^(١).

وهي التي يُعنى بها المتّقون، ويوجّهون إليها أكبر جهدهم، مثل: التوكّل على الله تعالى، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والحياء منه، والمحبة له، والشوق إليه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والحبّ فيه، والبغض فيه، والإنابة إليه، والاستعانة به، والتوبة إليه. وهي التي يُسمّيها رجال التصوّف والسلوك: مقامات.

وهذه المعاني الربّانيّة، والمقامات الرّوحيّة، إنّما هي من دلائل الإيمان وثماره كذلك. فمن اكتمل إيمانه، تجلّت فيه هذه المعاني وترسّخت.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يتأثّر

(١) إحياء علوم الدين (٢٣٦/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ١٥٢ - ١٥٥﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وقال: ﴿وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومما يؤسف له حقًا: أن كثيرًا من شباب الصحة الإسلامية، ورجال الدعوة الإسلامية، مشغولون عن هذه الطاعات التي هي جوهر الدين ولُبُّه، والتي تُمثِّل أهمَّ شُعَبِ الإيمان، بالأعمال الظاهرة، أعمال الجوارح التي تراها الأعين، أو تسمعها الأذان، أو تلمسها الأيدي، وهي مطلوبةٌ ولا شكَّ، ولكن دون طلب أعمال القلوب، مع أنَّها أساس الفلاح في الآخرة، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وهي كذلك أساس الإمامة والتمكين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِءَايَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر واليقين نالوا الإمامة في العالمين.

معاصي القلوب:

وكما رَغِبَ الإسلام في «طاعات القلوب»، التي هي جوهر التقوى، وروح الدين، حذَّرَ أبلغ التحذير من «معاصي القلوب» لعظم خطرهما،

وعميق أثرها، وتفاقم شرّها وشرّرها، على الإنسان فردًا ومجتمعًا، على دينه ودنياه، على معنوياته ومادّياته معًا.

والإسلام - بلا ريب - يطارد المعاصي والخطايا كلها، ظاهرة كانت أو باطنة، من أعمال الجوارح أم من أعمال القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ولكنّه - كما بيّنا في كتابنا «التوبة إلى الله» - يرى المعاصي الباطنة أشدّ خطرًا من المعاصي الظاهرة. وبعبارة أخرى: معاصي القلوب أشدّ خطرًا من معاصي الجوارح، كما أنّ طاعات القلوب أهمّ وأعظم من طاعات الجوارح، حتّى إنّ أعمال الجوارح كلّها لا تقبل إلّا بعمل قلبيّ، وهو النية والإخلاص.

ونقصد بمعاصي القلوب: ما كانت آلتها القلب، مثل: الكبر، والعُجب، والغرور، والرياء، والشحّ، وحبّ الدنيا، وحبّ المال والجاه، والحسد، والبغضاء، والغضب، ونحوها، ممّا سماه الإمام الغزالي في «إحيائه»: المهلكات، أخذًا من الحديث الشريف: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متَّبِع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١).

وإنّما اشتدّ خطرُ هذه المعاصي والذنوب، لعدّة أمور:

أولّها: أنّها تتعلق بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدي الطيني، الذي يأكل ويشرب وينمو، بل هو الجوهر

(١) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٦٥٤): هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس بن مالك.

الَّتِي تَسْكُنُهُ، وَالَّتِي نَسْمِيهَا: القلب، أو الرُّوح، أو الفؤاد، أو ما شئت من الأسماء. وفي هذا قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

وقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَصُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢).

وجعل القرآن أساس النجاة في الآخرة: هو سلامة القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وسلامة القلب تعني: سلامته من الشرك جليّه وخفيّه، ومن النفاق أكبره وأصغره، ومن الآفات الأخرى التي تلوثه، من الكبر والحسد والحقْد، وغيرها.

وقال ابن القيم: سلامته من خمسة أشياء: من الشُّرك الذي يناقض التوحيد، ومن البدعة التي تناقض السُّنَّة، ومن الشهوة التي تخالف الأمر، ومن الغفلة التي تناقض الذُّكر، ومن الهوى الذي يناقض التجرُّد والإخلاص^(٣).

ثانيها: أَنَّ هذه الذنوب والآفات القلبية، هي التي تدفع إلى معاصي الجوارح، فكلُّ هذه المعاصي الظاهرة إنَّما يدفع إليها: اتِّباع الهوى، أو حُبُّ الدنيا، أو الحسد، أو الكبر، أو حُبُّ المال والثروة، أو حُبُّ الجاه والشهرة، أو غير ذلك.

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٣) الجواب الكافي ص ١٢٢، نشر دار المعرفة، المغرب، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

حتى الكفر نفسه، كثيرًا ما يدفع إليه الحسد، كما حدث لليهود، فقد قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أو يدفع إليه الكبر والعلو في الأرض، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى ﷺ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

أو حب الدنيا وزينتها، كما رأينا في قصة هرقل ملك الروم، وكيف تبين له صدق الرسول ﷺ في دعوته، وصحة نبوته، ثم لما هاج عليه القسيسون، غلب حب ملكه على اتباع الحق، فباء بإثمه وإثم رعيته^(١).

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسًا بغير حق، وجدت وراءه دافعًا نفسيًا أو قلبيًا، من حقد أو غضب، أو حب لدنيا، حتى إن أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، كان سببها الحسد، وذلك في قصة ابني آدم: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. إلى أن قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة: من شهادة زور أو نسيئة، أو غيبة أو غيرها، فلا بد أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية، وفي هذا جاء الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشَّحِّ، أَمْرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخَلُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا»^(٢).

(١) إشارة إلى حديث هرقل الطويل المتفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥١٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٩)، عن عبد الله بن عمرو.



ثالثها: أنَّ المعاصي الظاهرة التي سببها ضعف الإنسان وغفلته، سرعان ما يتوب منها، بخلاف المعاصي الباطنة، التي سببها فساد القلوب، وتمكَّن الشرُّ منها، فقلَّما يتوب صاحبها منها، ويرجع عنها. وهذا هو الفارق بين معصية آدم، ومعصية إبليس.

معصية آدم كانت معصية جارحة، حين أكل من الشجرة. ومعصية إبليس كانت معصية قلب، حين أبى واستكبر، وكان من الكافرين. ومعصية آدم كانت زلة عارضة، نتيجة النسيان وضعف الإرادة، أمَّا معصية إبليس فكانت غائرة متمكِّنة، ساكنة في أعماقه.

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بزلته، وقرع باب ربِّه نادماً تائباً هو وزوجته! ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أمَّا إبليس، فاستمرَّ في غلوائه، متمرداً على ربه، مجادلاً بالباطل، حين قال له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٥، ٧٦].

ولهذا كانت عاقبة آدم: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وكانت عاقبة إبليس: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿وَلِإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨].

رابعها: وهذا ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس، لشدة خطرهما، كما في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه مسلم عن

ابن مسعود^(١)، وقوله: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ»^(٢).

وقوله: «لَا تَغْضَبْ» وَكَرَّرَهَا ثَلَاثًا، لَمَنْ قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي^(٣).

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتَهُ وَشِرْكَهُ»^(٤).

وقوله: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحْلَوْا مُحَارِمَهُمْ»^(٥).

اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالْجَوْهَرِ:

القرآن هو رُوح الوجود الإسلامي، وعمدة الملة والأمة، وينبوع عقائدها وأخلاقياتها، ومصدر تشريعاتها وأحكامها. وكل المصادر الأخرى: من السنة والإجماع والقياس وغيرها، إنما تستمد شرعيتها من نصوصه وأدلته، فهو الذي يمنحها الحجية، ويعطيها الثقة، باعتباره النص الإلهي المعصوم، الذي أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَالَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٩٤٧)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة

(٢٥١٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن

الزبير بن العوام.

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٨)، وأحمد (١٤٤٦١)، عن جابر.

أمر الله تعالى مُنْزِلُ الْقُرْآنِ الْأَمَّةَ بِاتِّبَاعِهِ، وَالنَّزُولِ عَلَى حَكَمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وَأَمْرُ الْأَمَّةِ كُلِّهَا: أَنْ تَحْتَكِمَ إِلَيْهِ، رِعَاةً وَرِعِيَّةً، حَاكِمِينَ وَمَحْكُومِينَ، فَإِنَّمَا أُنْزِلَهُ اللَّهُ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّا أُنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَأُنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وَقَالَ: ﴿وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وَيَبِينُ سَبْحَانَهُ أَنَّ بَرَكَةَ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ: إِنَّهَا هِيَ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فَرْتَّبَ بَرَكَةَ الْكِتَابِ: عَلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَتَقْوَى اللَّهِ فِيهِ، لِيَكُونُوا عَلَى رَجَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ، تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ.

وَهَذَا مَا عَرَفَهُ الصَّحَابَةُ وَتَابِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ هَذِهِ الْأَمَّةِ، الَّذِينَ أَحْسَنُوا التَّعَامُلَ مَعَ هَذَا الْقُرْآنِ: تَلَوْهُ فَأَحْسَنُوا تِلَاوَتَهُ، وَخَشَعَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَدَمَعَتْ لَهُ أَعْيُنُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

واستمعوا إليه يُتلى عليهم، فأحسنوا الاستماع والإنصات له، بأذانهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ولقد كان القرآن: هو المؤثر الأول في حياتهم عقلياً ووجدانياً وسلوكياً، فهو الذي غيّر ما بأنفسهم، وبدّل حياتهم تبديلاً، يسمعون غصّاً طريّاً من فم رسول الله ﷺ، فيحرك سواكنهم، ويظهر بواطنهم، ويحوّل مناهجهم وقيمهم، وكثير منهم إنّما دخل في الإسلام باستماع آيات من القرآن، كعمر بن الخطّاب وغيره.

ولما بعث الرسول ﷺ مصعب بن عمير إلى «يثرب»، كان عمله الأول: أن يتلو عليهم القرآن، فدخل أهل يثرب في دين الله أفواجا؛ باستماعهم القرآن.

وتجاوبوا مع القرآن في حياتهم الفرديّة، وحياتهم الأسريّة، وحياتهم الاجتماعيّة، وحياتهم الجهاديّة، وحياتهم الاقتصاديّة، وحياتهم السياسيّة، فكانوا «أمة قرآنيّة» حقّاً، منه تستمدّ، وعليه تعتمد، وبه تعتصم، وإليه تحتكم، وعنه تصدر.

وكانوا يتلقّون الوحي القرآني ليسارعوا بتنفيذه، ويتسابقوا في تطبيق أحكامه ووصاياه، رجالاً كانوا أم نساء، كما دلّت على ذلك وقائع وفيرة.

ورأينا الخلفاء منهم، حين يحاجّهم أحد بالقرآن؛ لا يملكون إلّا الإذعان له، والوقوف عند حدوده.

ولقد غضب عمر من كلمة نابية، قالها له أحد زعماء البدو، ولكن ابن أخي هذا الأعرابي ذكّر عمر بقول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فسُرّي عن عمر، وكان وقفاً عند كتاب الله^(١).

وعارضته امرأة في المسجد، عندما أراد تحديد حدّ أعلى للمهور، فذكرته بقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْتُمُوهُنَّ قِنْطَارًا ﴾ [النساء: ٢٠]. فرجع عن قراره، وقال: أصابت المرأة وأخطأ عمر^(٢)!

بل إنّ الحجاج بن يوسف - على طغيانه وجبروته - حين أراد تبرير أخذ أحد السجناء، وهو بريء، ولكنه أخذ مكان قريب له، واستشهد في ذلك ببعض الشعر، فقال السجين: ولكن الله تعالى قال غير ذلك. قال: ماذا قال؟ فقال الرجل: قال على لسان يوسف: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعِنَا عِنْدَهُ؛ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ ﴾ [يوسف: ٧٩]. فما كان من الحجاج الطاغية إلا أن أخلى سبيل الرجل، وقال: صدق الله وكذب الشاعر^(٣)!

ولقد كان قراء القرآن: هم أهل العلم والفقه في عصر النبوة، وعصر الصحابة، وكان القراء: هم أصحاب مشورة عمر، ولو كانوا شُبَّانًا، مثل: عبد الله بن عباس.

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٤٢).

(٢) رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٠٥٩)، والبيهقي في الصداق (٢٣٣/٧)، وقال: منقطع. ورواه من طريق آخر عن بكر بن عبد الله المزني عن عمر، وقال عقبه: مرسل جيد. وساقه ابن كثير في تفسيره (٢٤٣/٢ - ٢٤٤) بإسناد أبي يعلى، عن مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عمر، وقال عقبه: إسناده جيد قوي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥٠١) رواه أبو في الكبير وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف، وقد وثق.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٩/١ - ٣٠)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

وكان القراء في المعارك: أكثر الناس إقدامًا واقتحامًا للمخاطر، وخصوصًا في حروب الردة، حتى كانوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة^(١)! وقال بعضهم في معركة اليمامة - الشهيرة مع مسيلمة الكذاب وقبيلته -: يا أهل القرآن! زينوا القرآن بالأفعال^(٢).

وحفر بعضهم حفرةً وقاتل فيها، وهو يقول: بئس حامل القرآن أنا، إن لم أقتل في سبيل الله^(٣).

لقد كان حامل القرآن إنما يحمل «نورًا»، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وهذا النور المبين المنزل من الله تعالى هدى عقولهم، وأضاء قلوبهم، وأنار حياتهم، وعرفهم غايتهم وطريقهم، فبعد أن اهتموا بهداه، هدوا به العالم، وأخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور.

موقف المسلمين اليوم من القرآن:

ولكن السؤال الذي يبرز أمامنا الآن، هو: ما موقف المسلمين اليوم من القرآن؟

إنهم يُعَنُونَ بالقرآن شكلاً، ولا يعنون به جوهرًا، يحفظونه حروفاً، ولا يحفظونه حدوداً، يعقدون المسابقات، ترصد فيها الألوف بل

(١) رواه البلاذري في فتوح البلدان ص ٩٥، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) ذكره من قول أبي حذيفة ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٨١/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٣) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٢٢٧/٣)، وسكت عنه هو والذهبي.



الملايين لحفظه، ولكنهم لا يعطون مثل هذه العناية لتطبيقه، وإقامة أحكامه وتعاليمه.

وقد عبّرتُ عن هذه الظاهرة الغريبة: عن موقف مسلمي اليوم من القرآن في كتابي: كيف نتعامل مع القرآن العظيم. فقلت: «ما رأيت غائبًا أشبه بحاضر، ومنسيًا أشبه بمحتفًى به: من القرآن الكريم في حياة المسلمين.

إن عشرات الألوف بل مئات الألوف، يحفظونه عن ظهر قلب، ومئات الملايين يتلونه أو يستمعون إليه صباحًا ومساءً، آناء الليل وأطراف النهار، وملايين آخرين يزينون بآياته الجدران، أو يتبركون بحمل المصحف في جيوبهم أو في سياراتهم، أو بحمل آية من آياته في حلية تزدان بها صدورهم، أو تميمة يستشفي بها عوائهم، بل رأينا بعضهم يفتحون عيادات للاستشفاء بالقرآن، والعلاج بالقرآن!

نرى المسلمين تفتح إذاعاتهم وتلفازاتهم بالقرآن، وتختتم بالقرآن، بل هناك إذاعات كاملة مخصصة كلها للقرآن، ترتله وتجوده وتفسره.

ومع هذا كله، نرى المسلمين مقصرين في حق القرآن أبلغ تقصير؛ فالقرآن لم يصبح هو الموجّه الأوّل لعقول المسلمين، ولا المؤثر الأوّل في قلوب المسلمين، ولا المحرك الأوّل لسلوك المسلمين، ولا المغيّر الأوّل لما بأنفس المسلمين.

مظاهر العناية بالقرآن التي أشرنا إلى جملتها، بعضها يتّصل بالشكل لا بالجوهر، بالصورة لا بالحقيقة، بالظاهر لا بالباطن، وبالفضول لا بالأصول. وبعضها يدخل في باب «المُحدثات»، التي اخترعها الناس

بأهوائهم، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من شرع الله برهان. وقد حذّرنا رسولنا الكريم من هذه المحدثات، فقال فيما رواه عنه العرباض بن سارية: «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

فاتّخاذ القرآن «تمائم» في الصدور أو الأعناق، لم يكن من عمل الصحابة وتلاميذهم رضي الله عنهم وإن أجاز ذلك بعض العلماء، ولكن النهي عن «التمائم» جاء عامًّا، والأولى أن يبقى على عمومته، وسدًّا للذريعة أيضًا، ولئلا يدخل به المسلم أماكن النجاسة، أو يحمله وهو جنب، أو تحمله المرأة وهي حائض.

والتداوي بالقرآن، أو الاستشفاء به من الأمراض المادّية العضوية: لم يعرف عن عصر النبوة وعصر الصحابة. وكل ما عرف عن الصحابة: ما اقتبسوه من هدي نبيهم من الرقية بالقرآن وبالأدعية المأثورة، مثل ما صح في الحديث: «اللهم ربّ الناس، أذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»^(٢). والرقية بالفاتحة وبالمعوذات ونحوها. وهذا بجوار الأخذ بالأسباب، ومراعاة سنن الله في دفع الداء وإزالته بما يلائمه من الدواء. فالمسلم الحق يتخذ الأدوية الرُّوحِيَّة إلى جانب الأدوية المادّية، ولا يلغيها.

لم يُعَرَف عن الصحابة وتلاميذهم أنّهم اشتغلوا بمداواة النَّاس بالقرآن وترك أدوية الأطباء، لم يفتح عمر، ولا علي، ولا ابن مسعود،

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرجه: صحيح. وأبو داود في السُّنَّة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في العلم (١٧٤/١)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، عن العرباض بن سارية.

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٧٤٢)، عن أنس بن مالك.

ولا أبِي، ولا زيْد، ولا ابن عبّاس، ولا ابن عمر، ولا مجاهد، ولا سعيد بن جبّير، ولا الحسن، ولا عكرمة، ولا قتادة، ولا غيرهم من أهل القرآن وعلماء الأُمَّة؛ عياداتٍ لمداواة المرضى وعلاجهم بالآيات القرآنيّة، كما يفعل بعضهم اليوم.

بل قال النبي ﷺ: «إنّما الشفاء في ثلاثة: شربةٌ عسل، أو شرطةٌ مِخْجَم، أو كَيّة نار»^(١).

ويلاحظ أنّ الحديث جاء بصيغة «إنّما» المفيدة للحصر، وهي تشير إلى أنواع المداواة، وهي: إمّا بالفم، أو الجراحة، أو الكي، ومثله العلاج بالكيماويّات ونحوها.

وقد تداوى النبي ﷺ: بالأدوية المعروفة المختلفة، وأمر أصحابه بالتداوي بها. ولما سأله الأعراب عن التداوي، قال: «تداووا عبَاد الله؛ فإنّ الله ما أنزل داءً إلّا أنزل له شفاء»^(٢). ولما سُئل عن الأدوية: هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قَدَرِ الله»^(٣).

وهي كلمة نبويّة تُعدُّ غاية في الحكمة وبيان الحقيقة. فكما أنّ الأمراض من قدر الله، فالأدوية من قدر الله، فالله هو الذي قدّر الأسباب، وقدر المسببات. والمؤمن الحق: هو الذي يدفع قدر الله بقدر الله.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٠٢)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥)، عن جابر.

(٢) رواه أحمد (١٨٤٥٥)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، ثلاثتهم في الطب، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠)، عن أسامة بن شريك.

(٣) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسّنه الألباني في تخريج مشكّلة الفقر (١١)، عن أبي خزيمة.

وقد أرشد النبي ﷺ بعض أصحابه للذهاب إلى «الحارث بن كلدة» الطبيب العربي المعروف، يطلب العلاج عنده^(١).

أما قول الله تعالى عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، فالمراد هنا: الشفاء المعنوي لا المادي والعضوي، شفاء العقول من الضلالة، والقلوب من العمى، ولذا قال في الآية الأخرى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. فبينت الآية: أَنَّ الشفاء إنما هو ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي أنه شفاء معنوي، يحمل الهداية للضالين، والنور للمتخبطين.

ولو أَنَّ المسلمين الأوائل ساروا على طريق هؤلاء الأواخر، الذين فتحوا «عيادات» يزعمون أَنَّهُم يعالجون النَّاس فيها بالقرآن، ما قامت للطب قائمة في الحضارة الإسلامية، ولا ظهر في الأمة عباقرة الأطباء، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وكانت كتبهم مراجع علمية عالمية لعدة قرون، ومنهم من جمع بين علم الطب وعلوم الدين، ونبغ في كلٍّ من المجالين، مثل: «ابن رشد» صاحب «الكليات في الطب»، الذي ترجم إلى اللاتينية، وانتفع به الأوربيون لعدة قرون. ومثل «الفخر الرازي» الذي كانت شهرته في الطب لا تقلُّ عن شهرته في التفسير والأصول وعلوم الدين. ومثل

(١) إشارة إلى الحديث: عن سعد قال: مرضت مرضاً أتاني رسول الله ﷺ يعودني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي فقال: «إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْوُودٌ، ائْتِ الْحَارِثَ بْنَ كُلْدَةَ أَخَا ثَقِيفٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ». رواه أبو داود في الطب (٣٨٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٨٣٤)، وقال الأرناؤوط في تخريجه لسنن أبي داود: رجاله ثقات لكنّه مرسل.

«ابن النفيس» مكتشف الدورة الدموية الصغرى، الذي ترجم له ابن السبكي في «طبقات الشافعية»^(١).

لقد عرف المسلمون منذ عصر الصحابة: أنَّ بركة القرآن ليست في حمله، ولا تعليقه ولا تزيين البيوت به، ولا في الاستشفاء بآيات يتلوها شيخٌ أو مُطَّوعٌ، أو يكتبها في صحنٍ ثمَّ يمحوها ويشرب ماءها، إلخ هذه الغرائب. إنّما بركة القرآن حقًّا في اتباعه والعمل به، وهو ما ذكره القرآن نفسه حين قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، فالبركة - كما تشير الآية الكريمة - في اتباعه واتقاء الله به، وبهذا تُرجى رحمة الله أيضًا: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

لا بدّيل إذن عن اتّباع القرآن، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ومعنى اتّباع القرآن: أن نجعله لنا إمامًا، يقودنا ونحن نمضي وراءه، لا أن نجعله خلفنا، ونتخذه وراءنا ظهرًا. فمن جعل القرآن أمامه: قاده إلى الجنة، ومن جعل القرآن وراءه: زخّه في قفاه حتّى يرديه في النار، وبئس القرار.

بل إنّ القرآن ليطالبنا: أن نتّبع «أحسن ما أنزل إلينا من ربنا». ولا يكتفي بمجرد اتّباع ما أنزل إلينا، يقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْيِسَ لَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

(١) انظر ترجمته (٣٠٥/٨، ٣٠٦)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو،

نشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٣هـ.

وأثنى الله على قوم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وبهذا لا يقف الإنسان المؤمن عند «الحسن» فحسب، بل يرنو ببصره، ويتوق قلبه إلى «الأحسن».

وقد بيّن لنا القرآن: أَنَّ الله تعالى خلق هذا الكون بسماواته وأرضه، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف وحكمة: أن يبلونا ويختبرنا: أيُّنا أحسن عملاً؟!

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢].

تشير هذه الآيات: أَنَّ الاختبار الإلهي هنا، ليس المراد به أن يتبين المحسن من المسيء، بل المنشود: أن يعرف من الأحسن عملاً؟ فالسباق ليس بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن منه.

ولا عجب أن رأينا القرآن يأمر باستثمار مال اليتيم: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤]، ودفع السيئة: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦، وفصلت: ٣٤]، والجدال: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وذلك ليكون «الأحسن» في كل شيء، هو ما ينشده الإنسان المسلم القرآني.

إننا نريد أن يكون للقرآن تأثيره العملي في حياتنا، كما أثر في حياة الصحابة والمسلمين الأوائل، وصنع منهم رجالاً، والرجال قليل.



إنَّ القرآن لم يعد - كما كان عند سلف الأُمَّة - : مفجّر الطاقات، ومجنّد القدرات، وحافز الإرادات، بل أصبحت قراءته أو الاستماع له: للتسلية أو التلذذ بالألحان، وما عاد يُحرّك فينا ساكنًا، حتّى إنّنا لنسمعه من إذاعات أجنبية لا تؤمن بالقرآن، بل هي معادية للمسلمين؛ لأنّها مطمئنة إلى أنّه لم يعد ينبّه من الأُمَّة غافلاً، أو يُحيي فيها مواتًا.

وفي قصيدة قديمة لي، قلتها بمناسبة «ليلة القدر»: ذكرت رسالة القرآن، وموقف المسلمين منها، وعنايتهم بالشكل لا بالجواهر من واجبهم نحو القرآن، فكان منها:

يَا لَيْلَةَ زَانَهَا رَبِّي وَشَرَّفَهَا	تَنْزِيلُهُ فِي دُجَاهَا نُورَ قُرْآنٍ
دُسْتُورَ حَقٍّ وَتَشْرِيعٍ وَتَرْبِيَةٍ	يَبْقَى وَإِنْ زَالَ هَذَا الْعَالَمُ الْفَانِي
رَبِّي رَجَالًا مَيَّامِينَ اهْتَدَوْا وَغَزَوْا	إِنَّ الرُّجُولَةَ مِنْ نُورٍ وَنِيرَانٍ
أَمْسَى بِلَالٌ بِهِ مِنْ ذِلَّةٍ مَلَكًا	وَصَارَ سَلْمَانٌ شَيْئًا غَيْرَ سَلْمَانٍ!
لِلَّهِ فِتْيَانُ حَقٍّ، لَوْ رَأَيْتَ فَتَى	مِنْهُمْ تَرَى مَلَكًا فِي زِيِّ إِنْسَانٍ!
هَذَا الْكِتَابُ غَدَا فِي الشَّرْقِ وَآسَفَا	شَمْسًا تُضِيءُ، وَلَكِنْ بَيْنَ عَمِيَانٍ!
يُحَاطُ بِالطُّفْلِ حِرْزًا مِنْ أَذَى وَرَدَى	وَفِيهِ حِرْزُ الْوَرَى مِنْ كُلِّ خُسْرَانٍ!
يُثَلَّى عَلَى مَيِّتٍ فِي جَوْفٍ مَقْبَرَةٍ	وَلَيْسَ يَحْكُمُ فِي حَيٍّ بِدِيَوَانٍ!
فَكَيْفَ نَرْقَى، وَمِعْرَاجُ الرُّقِيِّ لَنَا	أَمْسَى يُجَرُّ عَلَيْهِ ذَيْلُ نِسْيَانٍ ^(١) ؟!

الخلق القرآني:

ومن القيم الغائبة في حياة المسلمين - إلّا من رحم ربك - : الخلق القرآني. وهو الذي وصفت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ،

(١) نفحات ولفحات ص ٥٣، ٥٤، مكتبة وهبة، القاهرة.

حين سألها سائل: أخبريني عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: إِنَّ خُلُق نبي الله كان القرآن^(١).

ولله دُرٌّ عائشة! ما كان أبلغها وأصدقها وأروعها في هذه الكلمة الموجزة! التي لخصت بها السيرة المحمدية، والفضائل النبوية كلها.

فمن أراد أن يعرف أخلاق محمد ﷺ في حياته الخاصة والعامة، في تعامله في نهاره، وتعامله في ليله، تعامله مع ربه، وتعامله مع أهله، تعامله مع أصحابه، وتعامله مع أعدائه، تعامله في سلمه، وتعامله في حربته: فليفتح المصحف، وليقرأ فيه: أوصاف المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، وأولي الألباب، وعباد الرحمن، وليقرأ أوامر الله تعالى ونواهيه، ليعرف من هذا كله كيف كان محمد ﷺ.

وليقرأ سير الأنبياء السابقين، وما خصهم الله به من فضائل ومكارم، ليعلم أَنَّ مُحَمَّدًا قد جمع الله له هذه المكارم كلها. فقد قال سبحانه له - بعد أن سرد عليه عددًا من الرسل المقربين عند الله، بلغ ثمانية عشر رسولاً -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدُهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ولهذا أعلن ﷺ عن نفسه، وعن هدف رسالته فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

ومن هنا جعله الله أسوة وإمامًا للمؤمنين؛ ليقتدوا به فيهدتوا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق

(٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي،

وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

وكلُّ مراقب لحياة المسلمين يلاحظ أنَّ عواطفهم نحو رسول الله ﷺ عواطف جياشة بالحبِّ، لا يذكر اسمه في مجلسٍ إلَّا ضجَّ بالصلاة والسلام عليه، ولا تكاد توجد أسرة مسلمة إلَّا وفي أبنائها محمَّد^(١) أو أحمد أو غيرها من أسمائه، ولا تمرُّ ذكرى مولده أو هجرته في معظم ديار المسلمين إلَّا احتفلوا بها.

ولكنَّ أين هذا كله من خُلُق محمَّد، الَّذي هو خلق القرآن؟ وهو الَّذي تخلَّق به أصحابه الكرام، وتلاميذهم من بعدهم، واقتبسوا من ضيائه، وتغذوا من غذائه، فكانوا بحقَّ خير أمة أخرجت للنَّاس، وكانوا الشَّهداء على النَّاس حقًّا بأخلاقهم وأعمالهم، لا بدعاويهم وأقوالهم. وهم بأخلاقهم القرآنيَّة نشروا الإسلام في العالم^(٢).

اتباع السُّنَّة بين الشكل والجوهر:

إنَّ السُّنَّة النبويَّة، هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن، وقد أوجب الله طاعة رسوله واتباع سنته، حتَّى تنال محبة الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ويقول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(١) بل رأينا بعض الأسر يسمون كل أبنائهم محمَّدًا، ثم يضيفون إليه اسمًا أو لقبًا آخر، وقد يرقمون الأبناء محمد الأول، والثاني، إلى الرابع أو الخامس، كما رأيت في الهند، ونيجيريا.

(٢) انظر كتابنا: كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص ٤٠٥ - ٤١٠، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٧،

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

إن كثيراً من الذين يباهون بأنهم يحافظون على السُّنة، إنما يحافظون على شكلياتهم، أكثر ممّا يحافظون على جوهرها.

حسن أن تهتم بالشكل والمظهر، فتعفي لحيتك، وتقصر ثوبك، وتحمل في يدك أو في جيبك سِوَاكًا، ولكن ليس حسنًا أن تجعل هذه الأشياء هي حقيقة السُّنة، أو هي الدين كله، كأنها من أركان الإيمان، أو مباني الإسلام، أو قواعد الإحسان.

وليس حسنًا أن تتهم من لم يحافظ عليها بقلّة الدين، أو بضعف اليقين، أو اتّباع غير سبيل المؤمنين، وهي من التحسينيّات في أمور الدين، لا من الضروريّات ولا من الحاجيّات، الّتي فصلّها الراسخون من أهل الفقه والأصول.

وليس حسنًا أن تنسى ما أوصت به السُّنة من التيسير والتبشير، وما حذرت منه من التعسير والتنفير، «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا»^(١).

وأن تذكر دائماً الوعيد، وتنسى الوعد، وترهب من النار، ولا ترغب في الجنّة، وتحذر من غضب الجبّار، ولا تُرجّي في مغفرة الرحمن الرحيم.

ليس حسنًا أن تغفل طريق رسول الله ﷺ، الّذي كان يُقلّل التكاليف على النّاس ما استطاع، وينهاهم عن كثرة السؤال، حتّى لا يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم - كما فعل بنو إسرائيل مع موسى - يرغب في

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

الأخذ بالرخص تخفيفًا وتيسيرًا على خلق الله ويقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(١).

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»^(٢).

ويزجر من شدد على نفسه، فترك الرخصة وهو محتاج إليها كالذي صام وهو مسافر، والصيام شاق عليه، فقال له ولأمثاله: «ليس من البرّ الصيام في السفر»^(٣).

واشتد نكيره على من نفر الناس بطول القراءة في الصلاة، وذلك عندما قال لمعاذ: «أَفَتَأْنُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟!»^(٤).

وكان أشدّ النَّاسَ رفقا وإشفاقا على من أخطأ وهو حديث عهد بالإسلام، أو من أهل البادية، ونحوهم: مَمَّنْ لَمْ يُتَحَ لَهُمْ أَنْ يَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِ أَهْلِ الْحَضَرِ.

وهكذا عامل الأعرابي، الذي بال في مسجده، بروح المربي الرفيق، لا بعصا الشرطي الغليظة، وقال لأصحابه حين همُّوا به: «دَعُوهُ، لَا تُزِرُّمُوهُ - أَيُّ لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ بَوْلَهُ - وَضُبُّوا عَلَيْهِ ذَنْوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بَعَثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٥).

(١) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وقال مخرجه: صحيح. وابن خزيمة في الصلاة (٩٥٠)، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل (٥٦٤)، عن ابن عمر.

(٢) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٣٥٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. والطبراني (٣٢٣/١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٩٤٠): رواه الطبراني في الكبير والبخاري، ورجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبراني. عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥)، كلاهما في الصوم، عن جابر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٦)، ومسلم في الصلاة (٤٦٥)، عن جابر.

(٥) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

وأعظم من ذلك: أن يدعو إلى الرفق بأهل الخطيئة، إذا لمح في حناياهم بقايا الخير، وجذور الإيمان، فهو لا يقصر بصره على السطح الذي طفت عليه المعصية. بل ينفذ ببصيرته إلى الأعماق، فيجد فيها بذور اليقين والحب لله ورسوله.

وهذا ما قاله في شأن ذلك الصحابي، الذي ابتلي بشرب الخمر حتى أدمن، وضعفت إرادة الإيمان أمام مرض الإدمان، فأتى به مرة بعد مرة سكران عند رسول الله ﷺ، فيضرب ويؤدب، ثم يعود فيشرب، فيؤتى به فيؤدب، فقال بعض الصحابة متبرماً ضجراً: اللهم عنه! ما أكثر ما يؤتى به! فما كان من رسول الله ﷺ - حين سمع الكلمة - إلا أن قال: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»^(١).

وفي حديث آخر قال: «لا تكونوا عونَ الشيطانِ على أخيك»^(٢).

هذا وهو شارب للخمر سكران، فكيف يلعن أو يفسق من لم يغفر لحيته أو يقصر ثوبه، أو صور له صورة فوتوغرافية أو زيتية؟! وهي من أمور اختلف الناس في حرماتها وحلها قديماً وحديثاً، ولا يزالون مختلفين. وليس حسناً دائماً أن تضيق على الناس فيما وسع الله عليهم فيه، وتفتيهم بالأثقل دائماً، وتأخذهم بالأحوط أبداً، وتغيب عنهم الرخصة وهم أحوج شيء إليها.

فإن كنت تجهل السنة، فلم تقحم نفسك فيما لا تحسن، وتقول على الله ورسوله ما لا تعلم؟

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، عن أبي هريرة.

ألم تقرأ: كيف أنكر النبي ﷺ أشدَّ الإنكار على قوم أفتوا رجلاً أصابته جراحة بضرورة الاغتسال من الجنابة، فاغتسل فمات، فقال ﷺ: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيِّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمَّم»^(١).

ما أبلغ هذه الكلمة «قتلوه قتلهم الله!» خبر عن جريمتهم، ودعاء عليهم! قتلوه بفتواهم الجاهلة المعسرة، وكان عليهم أن يسألوا إذ لم يعلموا.

وإن كنت تعرف السُّنة، وما فيها من تيسير وسماحة ورفق، ولكنك تتبع طبيعتك الخاصة في التشديد والتغليظ، فأنت إذن مُتَّبِع لَهْوَكَ، لا لهدي محمد ﷺ.

وإن كنت تحسب أن هذا هو الفقه، فقد خالفت الثقات الأعلام من سلف الأُمَّة.

وحسبك ما جاء عن إمام الفقه والحديث والورع سفيان بن سعيد الثوري، أنه قال: «إنما الفقه: الرخصة من ثقة. أمّا التشديد فيُحْسِنُه كُلُّ واحدٍ»^(٢)!

لقد قَفَّ شَعْرُ رَأْسِي - حين سمعت أن واحداً من هؤلاء الذين يلصقون أنفسهم بالسُّنة - ذكر عنده داعية فاضل مجاهد، فقال: إنه فاسق! لا تُؤخذ منه رواية، ولا تقبل له شهادة!

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (٧٢٩)، كلاهما في الطهارة، ونقل الدارقطني عن شيخه فيه أبي بكر ابن أبي داود قوله: هذه سُنَّة تفرد بها أهل مكة، وحملها أهل الجزيرة، لم يروه عن عطاء، عن جابر غير الزُّبير بن خريق، وليس بالقوي، وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء، عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إنما كان يكفيه».

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٤٦٧)، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

وأنا أعلم أن الرجل مسلم، ملتزمٌ غيورٌ على دينه، مؤدٌّ لفرائض ربّه، حريصٌ على اجتناب ما نهى الله عنه. فكيف وُصِفَ بالفسق، والله تعالى يقول: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]؟!

ثم عرفت أن سبب اتِّهام الرجل بالفسق: هو حلق اللحية، فحلق اللحية في نظر ممثِّل الاتِّهام هذا حرامٌ قطعي.

قلت لمن نقل إليّ هذا الكلام: سلّمنا أنّه حرام، أليس من الصغائر التي تُكفّرُها الصلوات والصيام والصدقات، بل يُكفّرُها مُجَرَّدُ اجتناب الكبائر؟

قال مُحدّثي: صاحبي كان يقول ذلك من قبل، ثمّ عدل عنه فقال: بل حلق اللحية من الكبائر والموبقات!

وهذه قضية أخرى، ممّا سقط فيه الذين يفخرون بالانتماء إلى السُّنّة، أو الحديث وأهله، وهي التوسُّع في «الكبائر» إلى درجة أدخلوا فيها بعض الأمور المشتبهات التي اختلف فيها الكثير من الناس، ما بين مُحَرَّم وِكَارِهٍ ومُبِيحٍ، والتي لم يفصل في حكمها نصٌّ مُحْكَمٌ صحيحٌ الثبوت صريح الدلالة، مثل الغناء بآلة، وبغير آلة، وهو مجالٌ خلافٌ طويل الذيول بين السلف والخلف.

والمأثور عن الصحابة وعمّن تتلمذ عليهم: أنّهم لم يكونوا يقولون عن شيءٍ ما: «حرام»، إلّا إذا علم تحريمه من دين الله جزمًا.

وهذا واضح من موقف الصحابة من شرب الخمر، فقد ظلّ عددٌ منهم يشربونها، برغم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]،



وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ويقولون: اللهم بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا^(١). حَتَّىٰ نَزَلَ آيَةُ الْمَائِدَةِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فدلَّ هذا على أن بيان الآيتين السابقتين، لم يكن شافياً لهم. ولا قاطعاً في التحريم، لوجود بعض الاحتمال في الدليل. وهذا وأمثاله ما جعل علماءنا يقررون أنَّ الدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال.

ولكنَّ بعض الذين كتبوا في «الكبائر»: أغفلوا هذه القاعدة، وأسرفوا في إدخال عدد من الأعمال في الكبائر، وهي محلُّ خلاف، حتَّى في مجرَّد أنَّها حرام، بله أن تكون كبيرة، مثل خضب اللحية بالسواد، مع أن كثيراً من السلف خضبوا بالسواد.

بل أدخلوا في الكبائر: ما لم يثبت فيه حديثٌ قطُّ مثل «الشَّطْرَنَج» الَّذِي لم ينقل إلى المسلمين إلَّا بعد العصر النبوي.

بركة السُّنَّة:

أخطأ المسلمون - في بعض عصور التخلُّف الثقافي الحضاري -: حين توهَّموا أن بركة الحديث النبوي في مجرَّد قراءته، ولا غرو أن

(١) رواه أحمد (٣٧٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٠)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٩)، وقال: وقد روي عن إسرائيل هذا الحديث مرسلًا. ورجَّح المرسل. والنسائي في الأشربة (٥٥٤٠)، عن عمر بن الخطاب.

نجدهم عندما تعصف بسفينتهم رياح المحن، وتحيط بهم أمواج الشر من كل مكان، من عدو كافر يغير على ديارهم، أو حاكم فاجر يسلط على حرمتهم، أو أزمة خانقة تُهدّد حياتهم، يلجؤون إلى «صحيح البخاري» يقرؤونه في المساجد، يرجون أن ينزل الله به النصر، أو يُفرّج به الكرب.

وقد نقل المؤرّخون من ذلك الكثير.

وهذا أمرٌ لم يكن من هدي سلف الأمة، من الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ في خير القرون.

إنّما بركة السُّنّة - كبركة القرآن - في اتّباعها، والعمل بها، الاهتداء بهُداها، واتّخاذ الأسوة من هدي صاحبها، ﷺ.

يقول تعالى في شأن القرآن: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فبركة القرآن الكريم: في اتّباعه، واتّقاء الله تعالى بالعمل به، لتكون على رجاء رحمة الله تعالى، والسُّنّة هي شقيقة القرآن.

وهل كان رسول الله ﷺ، عند الشدائد: يكتفي بمجرد تلاوة القرآن، ويدع إعداد العدة، واتّخاذ الأسباب، والعمل الواعي الدؤوب لمواجهة الموقف؟

هذا، مع أن من خصائص القرآن: أنّه مُتَعَبَّد بتلاوته، وكلُّ حرفٍ يُتلى منه بعشر حسنات، بخلاف السُّنّة.

ولكن ما المقصود باتّباع السُّنّة؟ أهو اتّباع الجوهر، أم الشكل وحده؟ أهو التشبُّث بالأصول، أم التعلُّق بالفروع؟ أهو العناية بأداب الظاهر أكثر من غيرها، أم التركيز على تزكية الأنفس وأعمال القلوب؟

دعوى من قال: ليس في الدين شكل وجوهر:

لَكُمْ سَاءَ نِي حِين قَرَأْت لِبَعْضِ الشَّبَابِ الْمَتَحَمِّسِ - فِي مَعْرِضِ دِفَاعِهِ عَنِ تَحْرِيمِ حَلْقِ اللِّحْيَةِ، وَتَأْثِيمِ كُلِّ حَلِيقٍ حَمَلَهُ بِقَسْوَةِ عَلَيِّ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ فِي الدِّينِ شَكْلًا وَجَوْهَرًا، وَصُورًا وَحَقَائِقَ، كَأَنَّمَا يَرَى أَنَّ أَحْكَامَ الدِّينِ وَتَعَالِيمَهُ، كُلُّهَا فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَفْتَرِقُ بَعْضُهَا عَنِ بَعْضٍ.

وهذا الفهم مُخَالِفٌ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا جَاءَ عَنِ سَلَفِ الْأُمَّةِ.

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَأْخُذُ عَلَيَّ الْيَهُودَ: التَّفَاتِهِمْ إِلَى الرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَاعْتِبَارِهِمْ ذَلِكَ هُوَ حَقِيقَةُ الْبِرِّ أَوْ التَّدِينِ، وَإِهْمَالِهِمْ حَقِيقَةَ الْبِرِّ الَّتِي تَتِمُّثَلُ فِي صَدَقِ الْإِيمَانِ، وَفَعْلِ الْخَيْرِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ، وَالتَّحَلِّيِّ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَفِي ذَلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويعتبر القرآن أنَّ محور النجاة في الآخرة: هو سلامة القلب وإنابته إلى الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

ومن قرأ أوصاف عباد الله، المقبولين عنده في القرآن، سواء سمّاهم المؤمنين أم المتقين، أم عباد الرحمن، أم أولي الألباب، أم غير ذلك: عرف بيقين ماذا يحب الله من عباده وأوليائه. إنّها صفات تتعلّق كلّها بجوهر الإنسان لا بشكله. اقرأ في ذلك - إن شئت - أوائل سورة البقرة، أو أوائل سورة الأنفال، أو أوائل سورة المؤمنون، أو أواخر سورة الفرقان، أو أواسط سورة الرعد، وغيرها؛ تعرف حقيقة الإنسان، الذي ينشده القرآن.

والسُّنَّة كالقرآن في ذلك، فتركيزها على الجوهر لا على المظهر، على نيات القلوب، قبل أعمال الجوارح.

ولعلّ هذا هو الذي جعل الإمام البخاري: يبدأ «جامعه الصحيح» بالحديث المشهور: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١). وتبعه في ذلك كثير من المصنفين؛ دلالة على أهميّة النية وراء الأعمال.

وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم: «إنّ الله لا ينظرُ إلى أجسامكم ولا إلى صُوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

كما روي أيضًا من حديث أبي هريرة: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره - بحسبِ امرئ من الشرّ: أن يحقر أخاه المسلم»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٤١.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) وأحمد (٧٧٢٧).

وروى الشيخان، من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

وَالسُّنَّةُ تُحَذِّرُ كُلَّ التَّحْذِيرِ، مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِصُورِ الْعِبَادَةِ، عَلَى حَسَابِ رُوحِهَا، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِيهَا، وَأَدَاؤُهَا كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى.

وَفِي هَذَا جَاءَ الْحَدِيثُ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٢).

وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ: «رُبَّ صَائِمٍ، لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ، لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»^(٣).

كَمَا تُؤَكِّدُ السُّنَّةُ كُلَّ التَّأَكِيدِ، الْعَنَاءَ بِالْأَخْلَاقِ، تَحْلِيًّا بِالْفَضَائِلِ، وَتَخْلِيًّا عَنِ الرِّذَائِلِ، حَتَّى إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ غَايَةَ رِسَالَتِهِ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أَوْ «مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٤).

وَيَقُولُ: «أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلُقٌ حَسَنٌ»^(٥).

وَيُوصِي أَبَا ذَرٍّ فَيَقُولُ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٦).

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٦.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٦.

(٥) رواه أحمد (٢٧٥٥٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٢)، وقال: حسن صحيح. عن أبي الدرداء.

(٦) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن أبي ذر.

لقد صحَّ في الحديث، عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ بَضْعٌ وَسُتُونٌ شُعْبَةٌ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

وصحَّ أيضًا: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(٢).

وبين أعلى الشُّعب - التي نَيْفَت على السبعين - وأدناها: يقع كثير من الأعمال التي تزكو بها النفس، أو ينتفع بها الفرد، أو تسعد بها الأسرة، أو ينهض بها المجتمع، أو ترقى بها الأمة، أو يستفيد من ورائها العالم.

فالإيمان في السُّنَّة - كما هو في القرآن -: ليس كلمة يتفوّه بها اللسان، ولا دعوى يدّعيها الإنسان، ولا ظواهر براققة، تُخفي تحتها بواطن منتنة، إنّما الإيمان عقيدة راسخة تستقرُّ في قلب صاحبها، فتثمر في حياته: ربّانيّة خالصة، وإنسانيّة فارعة، وأخلاقاً فاضلة، وأعمالاً صالحة.

الإيمان: كلمة طيّبة، كشجرة طيّبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تُؤتي أكلها كلّ حين، بإذن ربّها.

وقد لفت - الحديث المذكور في «تشعيب» الإيمان، وتفرّيعه إلى بضع وستين أو بضع وسبعين شعبة - أنظار علماء الأمة، فرأينا منهم من حاول استقصاء هذه الشعب، التي دلّت عليها نصوص القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) (٥٧)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٣٥) (٥٨)، عن أبي هريرة.



وألف في ذلك الإمام البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) كتابه الكبير: «الجامع
لشعب الإيمان» واختصره من بعده أبو المعالي القزويني: في جزء.
وفي رحاب هذه الشعب الفساح: يتنافس أهل الإيمان، وفي ذلك
فليتنافس المتنافسون.

* * *





من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل

من مظاهر المراهقة في الصحو: التشدُّق بالكلام، وكثرة القيل والقال فيما لا يبني ولا يجدي، على حساب العمل المنتج البناء، الذي ينفع النَّاس ويمكث في الأرض.

ولهذا المرض: عدَّة أعراض، نتحدَّث عن أهمها هنا:

الكلام عن أمجاد الماضي:

من المواقف السلبية، التي ينبغي أن تتجاوزها الصحو: الإسراف في الكلام عن الماضي، والتغني بأمجاده، وما كان لنا فيه من مآثر ومناقب، دون أن يتحول ذلك إلى عمل، في تحسين الحاضر وتطويره إلى ما هو أفضل، بغية أن يكون يوم المسلم خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومه.

لا أعني هنا: أن ينسى الإنسان ماضيه، وألا يذكر مآثره، فهذا غير محمود شرعًا، ولا عرفًا، ولا عقلاً، والإنسان يولد، وهو يحمل في إهابه موارث أمته، وخصائص فصيلته وأسرته. وليس من المعقول أن يبدأ يومه منفصلًا عن أمسه، ولا من المقبول أن يتخلَّى عن مجد آبائه وأجداده، وقد قال النبي ﷺ يوم حنين:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(١)

وقال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى هَاشِمًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ هَاشِمٍ»^(٢).

ومع هذا، قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ»^(٣).

الكلام عن أمجاد الماضي حسن، إذا كان بقدر ما يدفعنا إلى مواصلة السير في طريق الأمجاد، وأن يكون لنا دورٌ في صنع الأمجاد، لا في مجرد الحديث عنها.

وقديماً قال الشاعر العربي^(٤):

إِنَّا وَإِنْ كَرُمْتَ أَوَائِلُنَا لَسْنَا عَلَى الْأَبَاءِ نَتَكَلُّ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي، وَنَفْعُلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وقال الآخر^(٥):

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، كلاهما في الجهاد، عن البراء بن عازب.
(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٦)، وأحمد (١٦٩٨٦)، عن واثلة بن الأسقع.
(٣) رواه أحمد (٨٧٣٦)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧)، عن أبي هريرة.

(٤) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كما في الحيوان للجاحظ (٩٥/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ.

(٥) هو أبو ربيعة النحوي الأصبهاني كما في الوافي بالوفيات للصفدي (٤٠/٢٦)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
وهو في الديوان المنسوب إلى سيدنا علي بن أبي طالب ص ١٦، جمع عبد العزيز الكرم، ط ١، ١٩٨٨م.

كُنْ ابْنُ مَنْ شِئْتَ، وَاکْتَسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: هَآنَذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي!
وقال غيره:

لَيْنٌ فَخَرْتُ بِآبَاءِ ذَوِي حَسَبٍ لَقَدْ صَدَقْتَ، وَلَكِنْ بُسَّ مَنْ وَلَدُوا^(١)!

الكلام عن أخطاء الماضي ومآسيه:

ومثل ذلك في السلبية: الكلام عن الماضي، وما فيه من مآسٍ، ومحنٍ، واجترار هذه الذكريات المريرة، دون السعي الإيجابي في تلافيها، أو تلافي وقوع أمثالها.

والمرء إذا عاش في هذا الجو القاتم: لم يقدم شيئاً لنفسه ولا لدينه، إلا التحسّر على ما فات، والوقوع في أسر «لو» المتحسّرة، و«ليت» المتمنية، وقد قال الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِي، وَأَيْنَ مِنِّي «لَيْتٌ»؟ إِنَّ «لَيْتًا» وَإِنَّ «لَوْ» عَنَاءٌ^(٢)!
وقال الآخر:

وَلَيْسَ بَرَّاجِعٍ مَا فَاتَ مِنِّي بِ «لَهْفٍ» وَلَا بِ «لَيْتٍ» وَلَا «لَوْ أَنِّي»^(٣)!

(١) من شعر ابن الرومي، كما في ديوانه (٥٢٥/١)، شرح أحمد حسن بسج، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢م.

(٢) البيت لأبي زيد الطائي، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٩٥/١)، نشر دار الحديث، القاهرة.

(٣) ذكره ابن مالك ولم ينسبه في شرح تسهيل الفوائد (٢٨٢/٣)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، نشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

وقال الرسول ﷺ، وهو يرشدنا إلى معاني القوة، ويحذّرنا من أسباب الضعف: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»^(١)، وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

الكلام عن أخطاء الآخرين:

ومثل ذلك: الحديث عن أخطاء الآخرين، والإسراف في ذكرها، ولوك اللسان بها تحت عنوان: «النقد»، أو «النصيحة»، أو غير ذلك من العناوين.

ولكن النقد شيء، والغيبة شيء آخر. والنصيحة شيء، والتشهير شيء آخر. وهناك من يبحث عن الأخطاء، كأنها هواية عنده، فهو يفرح بها إذا وجدها ويضخمها إذا عرضها، وهو يذكر دائماً الخطأ، ولا يذكر أبداً الصواب، وينشر المساوئ، ولا ينشر المحاسن في مقابلها، ويرى القذى في عين غيره، ولا يرى الخشبة في عينه هو! وطوبى لمن شغله عيبه، عن عيوب الناس.

وكان أولى من مهنة البحث عن الأخطاء، وتجسيمها وتجريح أصحابها، وتركية النفس - صراحة أو ضمناً - بالسلامة منها: أن نقوم نحن بعمل إيجابي، وإن لم يخل من أخطاء، فمن يعمل ويخطئ: خير

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

من القاعد الذي لا يعمل شيئاً، إلّا نقد العاملين. والله درّ أبي الطيب حين قال:

وَكُلُّ اغْتِيَابٍ، جُهْدٌ مَنْ لَا لَهُ جُهْدٌ^(١)!

والعجيب: أنّا نوجّه سهام النقد إلى غيرنا، بدعوى النصيحة والإشفاق والحرص، والتواصي بالحقّ، إلى غير ذلك، ولكنّا لا نُرحّب بنقد غيرنا إيّانا، مع أنّ العاقل يستفيد من نصح صديقه، ونقد عدوّه معاً؛ لأنّ الصديق ينظر إليه بعين الرضا، فقد لا يبصر فيه كثيراً من العيوب، على حين ينظر العدو بعين السخط، فيبصر المساوئ ويتحدث بها.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يقول: رحم الله امرأً أهدي إليّ عيوب نفسي^(٢).

الجدل العقيم:

ومن السليبيّات المذمومة كذلك: الاشتغال بالجدل العقيم، في مسائل لا يجدي الجدل فيها شيئاً، إلّا إيغار الصدور، وتضييع الأوقات، والإلهاء عمّا هو أجدى، وهو الذي أطلقوا عليه قديماً اسم: «الجدل البيزنطي»، حيث زعموا أنّ أساقفة بيزنطة ورهبانها، ظلّوا زمناً طويلاً يتجادلون في موضوع: أيّهما خلّق أولاً: الدجاجة أم البيضة؟ أي هل وجدت البيضة، ثمّ فقست وانبثقت عنها دجاجة، أم الدجاجة وجدت، ثمّ خرجت منها البيضة؟ وظلّوا على هذا الجدل، حتّى فوجئوا بالمسلمين يفتحون مدينتهم ويدخلون عليهم، وهم لا يزالون يتجادلون دون الوصول إلى نتيجة!

(١) ديوان المتنبي ص ١٩٩، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ٢١٧، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.



وسواء صحت هذه الحكاية أم لم تصح، فإن هذا النوع من الجدل موجود في الواقع، ولا يزال بعض الناس مولعين به. وهو الذي حذر منه النبي ﷺ، حين قال: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ^(١).

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بقوم شرًا، رزقهم الجدل، وحرّمهم العمل ^(٢).

ومن الناس من يحتدّ في جدله، إلى حد اللدد في الخصومة، وهو الذي قال فيه الرسول الكريم: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى: الألد الخصم» ^(٣). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وقد يبلغ اللدد في الخصومة ببعض الناس حتّى تراه يحاول أن يقلب الباطل حقًا، والحق باطلًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

ولهذا، أمر القرآن بجدال المخالفين بالتي هي أحسن، أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأجودها وأمثلها، على معنى إذا كانت هناك طريقتان للجدال - أي للحوار - إحداها حسنة جيدة، والأخرى أحسن

(١) رواه أحمد (٢٢١٦٤)، وقال مخرجه: حسن بطرقه وشواهده. والترمذي في التفسير (٣٢٥٣)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٤٨)، والحاكم في التفسير (٤٤٧/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي أمامة.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠١/٣٥)، عن الأوزاعي. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٨)، عن عائشة.

منها وأجود، فإنَّ القرآن يأمرنا أن يكون جدالنا وحوارنا: بالطريقة التي هي أحسن وأجود.

والجدال بهذه الطريقة، وهذه الصورة: عمل إيجابي ببناء؛ لأنَّه يقنع العقول، ويقرب القلوب، ويوضح الحقائق، بدون إثارة ولا تهيج لعداوة المخالفين.

وممَّا يدخل في هذا الجدل العقيم: الانشغال بالمسائل الخلافية بين العلماء، والتي لم تحسم في أيِّ عصرٍ من العصور، وضيق الصدر بها، وتبني رأي منها، ثمَّ محاولة إبطال الآراء الأخرى، وشن الغارة عليها، وإشعال المعارك حولها، مع أنَّها موجودة منذ القرون الأولى، التي هي خير قرون هذه الأمة، وقد وسعتها صدورهم وعقولهم، ولم يضق بعضهم ببعض ذرعًا، ولم يحاولوا يومًا أن يمحوا هذا الخلاف، كما يحاول بعض المتدينين في أزماننا. بل وسِعَ بعضهم بعضًا، وصلى بعضهم خلف بعض، وعاشوا بنعمة الله إخوانًا، كما أمرهم الله تعالى.

ولو شاء الله تعالى: أن يجمع النَّاس على رأي واحد، لأنزل كتابه كله آيات محكمات، لا تحتمل إلا تفسيرًا واحدًا، ووجهًا واحدًا، ولجعل أدلَّة الدين كلّها نصوصًا قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فلا مجال فيها لاجتهاد ولا اختلاف.

ولهذا، سيظلُّ النَّاس يختلفون، في كلّ ما ليس بقطعيٍّ من أمر الدِّين، وهو معظم الدين، وسيظلُّ الراسخون في العلم يأخذون بما ترجَّح لديهم من الأقوال والآراء، ولا ينكرون على غيرهم ما ترجَّح لديهم من أقوال تخالفهم، فلغيرك من حقِّ الاجتهاد والترجيح ما لك،



ولا يجوز للمسلم أن يترك رأيه الذي اقتنع بأنه الحق والصواب، لرأي غيره بالغاً ما بلغ، وهو مسؤول أمام الله جلّ شأنه عن رأيه واجتهاده هو، وأن يدين به لا بغيره.

ولا ينبغي أن يحاول بعضنا - ولو كان مخلصاً - رفع الخلاف في العلم والفقه، فإنّ هذه المحاولة تزيد الخلاف، وتوسّع دائرته. كما قلنا للذين يحاولون أن يمنعوا التمدّج بأيّ مذهبٍ لكلّ الناس، وعلى كلّ المستويات، إنكم لم تزيدوا على أن تكونوا مذهباً جديداً، يضاف إلى المذاهب القديمة.

الخوض في الأغاليط:

ومن السليبيّات المنهي عنها هنا: البحث عن «أغاليط المسائل». ويراد بها: صعب المسائل التي لا ينبغي عليها عمل، أو لا يترتب عليها تصحيح عبادة أو معاملة، أو توضيح فكرة، أو إقامة حُجّة أو إزالة شبهة. وقد جاء في «الصحيحين» مرفوعاً: «ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة أسئلتهم، واختلافهم على أنبيائهم»^(١). يشير إلى ما ذكره الإمام الشاطبي من قصّة أصحاب البقرة. فقد روي عن ابن عبّاس أنّه قال: «لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم، ولكن شدّدوا فشّد الله عليهم، حتّى ذبحوها وما كادوا يفعلون»^(٢).

وقال الرّبيع بن خثيم: يا عبد الله، ما علّمك الله في كتابه من علم، فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علم؛ فكلّه إلى عالمه، ولا تتكلف،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٠٤/٢)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والترات، مكة المكرمة.

فإن الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] ^(١).

وعن ابن عمر؛ قال: لا تسألوا عما لم يكن، فإنني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن ^(٢).

وفي الحديث: أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات ^(٣). فسره الأوزاعي، فقال: يعني صعب المسائل.

وذكرت المسائل عند معاوية، فقال: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن غُضَلِ المسائل ^(٤)؟

وعن عبدة بن أبي لبابة، قال: وددت أن حظي من أهل هذا الزمان ألا أسألهم عن شيء ولا يسألوني، يتكاثرون بالمسائل، كما يتكاثرون أهل الدراهم بالدراهم ^(٥).

وورد في الحديث: «إيّاكم وكثرة السؤال» ^(٦).

- (١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠١١).
- (٢) رواه الدارمي في المقدمة (١٢٣)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٣٦).
- (٣) رواه أحمد (٢٣٦٨٨)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود في العلم (٣٦٥٦)، وقال ابن الملقن في بيان الوهم والإيهام (٦٦/٤): ولا أعلم أن أحداً من المحدثين يقول فيه: صحيح. عن معاوية.
- (٤) رواه الطبراني (٣٦٨/١٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٣٩)، وفيه سليمان الواسطي قال عنه ابن عدي في الكامل ترجمة (٧٦٢): يسرق الحديث ويشتبه عليه.
- (٥) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٤٥).
- (٦) كما في الحديث المتفق عليه: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع هات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال». رواه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة.



وسئل مالك عن حديث: «نهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال»، فقال: أمّا كثرة السؤال، فلا أدري أهو ما أنتم فيه ممّا أنهاكم عنه، من كثرة المسائل؟ فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، وقال الله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. فلا أدري: أهو هذا، أم السؤال في الاستعطاء^(١)؟

وعن عمر بن الخطاب، أنّه قال على المنبر: أُحَرِّجُ بِاللّهِ كُلَّ امْرِئٍ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ^(٢)، فَإِنَّ اللَّهَ بَيِّنَ مَا هُوَ كَائِنٌ^(٣).

وقال ابن وهب: قال لي مالك - وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل - : يا عبد الله، ما علمته فقل به ودلّ عليه. وما لم تعلم، فاسكت عنه، وإياك أن تتقلد للناس، قلادة سوء^(٤).

وقال الأوزاعي: إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم، ألقى على لسانه الأغاليط^(٥).

وعن الحسن، قال: إنّ شرار عباد الله، الذي يجيئون بشار المسائل، يُعْنِتُونَ بها عباد الله^(٦).

وقال الشَّعْبِيُّ: والله، لقد بغض هؤلاء القوم إليّ المسجد، حتّى لهو

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٠٤٧).

(٢) يريد الافتراضات الصرفية، أما ما يقع في العادة، فإنّ الشريعة تكفلت به لا ينقصها منه شيء، وهذا معنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ».

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٥١).

(٤) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٨٢٢).

(٥) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٨٣).

(٦) رواه ابن بطة في الإبانة (٣٠٥).

أبغض إليّ من كناسة داري! قلت: من هم يا أبا عمر؟ قال: الأرايتيون^(١)!
قال: ما كلمة أبغض إليّ من «أرايت»^(٢).

قال الشاطبي:

«والحاصل، أن كثرة السؤال، ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية
والاحتمالات النظرية مذموم. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وعظوا
في كثرة السؤال، حتى امتنعوا منه. وكانوا يحبون أن يجيء الأعراب
فيسألوا، حتى يسمعوا كلامه. ويحفظوا منه العلم»^(٣).

الثثرة الفارغة:

ومن المذموم هنا كذلك: الثثرة الفارغة، والتشّدق بالقول، وملء
المجالس بالكلام الخالي من الفائدة.

ولهذا كان من أخلاق المؤمنين في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

واللغو: كل كلام لا فائدة فيه، ولا جدوى من وراءه، في دين ولا دنيا.
وقال تعالى - في الثناء على قوم مؤمنين -: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلِينَ﴾
[القصص: ٥٥].

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ - في بعض أحاديثه - أحب الناس إليه،
وأبغض الناس إليه، فقال: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٨٩).

(٢) المصدر السابق (٢٠٩٥).

(٣) الموافقات (٣١٦/٤ - ٣١٧). وقد أفضنا الحديث عن قضية «الأغاليط» في كتابنا: كيف نتعامل مع
التراث والتمذهب والاختلاف ص ٢٨٣ - ٢٩٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ، مَسَاوِيُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرَثَارُونَ، الْمُتَفِيهَقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ»^(١).

قال المنذري: الثرثار: هو الكثير الكلام تكلفًا. والمتشدد: هو المتكلم بملء فيه تفاصيلًا.

والمتفيهق: أصله من الفهق والامتلاء. وهو بمعنى المتشدد؛ لأنه الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه إظهارًا لفصاحته وفضله، واستعلاءً على غيره. ولهذا فُسِّر في إحدى الروايات بـ «المُتَكَبِّر»^(٢).

كما مدح النبي ﷺ الحياء و«العِيَّ»، وذمَّ البذاء والبيان، كما في الحديث الذي رواه أبو أمامة: «الحياء والعِيَّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ»^(٣).

قال الحافظ المنذري: والعِيَّ: قلة الكلام. والبذاء: هو الفحش في الكلام.

والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء: الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام، ويفصحون فيه؛ من مدح الناس فيما لا يرضي الله^(٤) انتهى.

(١) رواه أحمد (١٧٧٣٢)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وابن حبان في حسن الخلق (٤٨٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٤٠): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦٦٥)، عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٤٠٤٠) تحقيق إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ.

(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٢٧)، وقال: حسن غريب. والحاكم في الإيمان (١٨/١) وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) الترغيب والترهيب (٣٩٩٢).

وفي حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَلِغَ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا»^(١).

والمراد بالبلاغة هنا: تزويق ظاهر الكلام وإن خالف الباطن، والتصنع فيه إرضاء للناس.

القول المخالف للفعل:

ومن المذموم هنا بلا ريب: الكلام الذي لا يتبعه عمل، أو القول المخالف للفعل، فقولُه مُشَرِّق، وفعله مُغَرَّب. وهو الذي أنكره القرآن بشدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ومثل هذا المسكين، تُكْذِبُ أفعاله أقواله، وتقيم الحُجَّة عليه عند خصومه، ولا سيَّما إذا كان ممَّن نصب نفسه لدعوة النَّاس إلى الخير، وأمرهم بالمعروف، ونهْيهم عن المنكر، وهو ما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل، في كتابه الخالد حين قال: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ * وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِعَاهَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٤].

(١) رواه أحمد (٦٥٤٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وقال: حسن غريب. كلاهما في الأدب. عن عبد الله بن عمرو.



ولهذا يقول الناس لمن أمرهم بالبر والخير، ونسي نفسه ما قاله الشاعر العربي قديماً وينسب لأبي الأسود الدؤلي^(١):

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّغْلِيمِ؟
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غِيَّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

ومن هنا، كان واجب الذين نصبوا أنفسهم للدعوة، أن يكونوا أمثلة عملية للناس بأخلاقهم وسلوكهم، لا بمجرد أقوالهم ودعاويهم، فما أكثر الدعوى، وما أعز المعنى!

والمسلمون الأولون، لم ينشروا الإسلام بالخطب، ولا بالرسائل والكتب، وإنما نشروه بحسن الأخلاق، واستقامة السلوك، وحب الخير للناس، وبذل المعروف لهم، وكف الشر عنهم. وبهذا أحبهم الناس، وأحبوا الدين الذي ربّاهم على هذه الفضائل، ودعاهم إلى هذه المكارم، فدخلوا في دين الله أفواجا، طائعين غير مكرهين.

ضرورة العمل:

إنّ الصحة الإسلامية يجب أن تشغل نفسها وفكرها ووقتها بالعمل والعطاء، لا بالجدال والمراء. وهذا ما يفرضه الإسلام على المسلم في

(١) ذكره الماوردي من غير نسبة في أدب الدنيا والدين ص ٣٤، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م. وهو دون البيت الثاني منسوب للمتوكل الليثي في حماسة البحتري ص ٢٤٧، تحقيق د. محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، نشر هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م. وفي تاريخ دمشق (١٥٩/٣٤) بلفظ مشابه لابن السمّاك. وبعض أبياته في ديوان أبي الأسود الدؤلي صنعة أبي سعيد السكري ص ٤٠٣، نشر دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط ٢، ١٩٩٨م - ١٤١٨هـ، ضمن شعره المشكوك.

كلّ حين، وخصوصًا في أوقات المحن والفتن، التي تصيب الأمة، وتذر الحليم فيها حيران.

يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ؛ الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ». وفي بعض الروايات: قالوا: مَنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»^(١).

ويقول الله تعالى في كتابه مخاطبًا رسوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ولقد اختلف علماء الكلام وغيرهم، في مكان العمل من الإيمان؛ أهو جزء منه، أو شرط له، أو مكمل له؟ ولكن الشيء الذي لا خلاف عليه: أَنَّ الإيمان الصادق لا يتحقق إلا بالعمل.

ولهذا رأينا القرآن الكريم يعرض الإيمان في صورة أعمال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٩].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤)، وابن حبان في البر والإحسان (٣٨٥)، والحاكم في الرقاق (٣٢٢/٤) وصححه، ووافقه الذهبي. عن أبي ثعلبة الخشني.



﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي أحيانٍ أخرى، يقرن القرآن العمل بالإيمان، وذلك في عشرات الآيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وفي سياقٍ آخر، يجعل دخول الجنة بالعمل: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

واعتبرت السُّنَّة النبوية الأعمال الصالحة «شُعْبًا» للإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: «الإيمان بضْعٌ وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان»^(١).

وقد ألَّف الإمام البيهقي كتابًا كبيرًا، سمَّاه: «الجامع لشُعَبِ الإيمان»، فصَّل فيه هذه الشُّعَب، بما ورد فيها من القرآن والحديث.

أيكم أحسن عملاً:

وممَّا يحسن التنبيه عليه هنا: ما أشار إليه القرآن العظيم، في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، والملك: ٢]. وقد ورد هذا التعبير ثلاث مرَّات في كتاب الله:

(١) سبق تخريجه ص ٢٦.

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وفي قوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله جل شأنه خلق هذا العالم علويّه وسفليّه، بسماواته وأرضه، وجعل ما على الأرض زينة لها، وخلق الموت والحياة لحكمة بالغة، عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي ليمتحنكم ويختبركم: أيكم أحسن عملاً. لم يقل: ليبلوكم: أيكم يعمل صالحاً، وأيكم يعمل سيئاً. فكأن الاختبار المقصود هنا، ليس للتمييز بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن، وهذا ما تفيدته عبارة: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ و﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فهم يتنافسون في هذه «الأحسنية» المطلوبة.

ولهذا لم يطلب الإسلام مجرد عمل، بل يطلب العمل المتقن، ويجعل إحسان العمل فريضة دينيّة، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَةَ»^(١). وكلمة «كتب»: تستعمل في القرآن لما هو فرض مؤكد، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.



ولهذا، رأينا الصحابة في عهد النبوة يتنافسون في عمل الصالحات، ويتسابقون في الخيرات، حتى بين الفقراء والأغنياء. فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه : أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ! قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»^(١).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرجات العُلا والنعم المُقيم. فقال: «وما ذاك؟». قالوا: يَصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «أَفَلَا أَعَلَّمَكُم شَيْئًا تَدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلَّا مِنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيعِكُمْ؟». قالوا: بلى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتُحَمِّدُونَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فقالوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، ففعلوا مثله! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٢).

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٥).

العمل المطلوب:

ليس المهم أن نعمل، ولكن المهم أن نعمل صالحًا، كما هو شأن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]. المهم أن نحسن العمل، بل نسعى إلى العمل الأحسن، ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فالمسلم لا ينشد العمل الحسن فحسب، بل العمل الذي هو أحسن.

ومن إحسان العمل: أن نعمل الشيء في إبانه، وفي موضعه، فلا نعمله قبل أوانه، ولا نؤخره عن أوانه، وبهذا علّمنا الإسلام دقة التوقيت في الصلاة والصيام: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومن إحسان العمل: أن نقدّم ما حقه التقديم، ونؤخر ما حقه التأخير، ونضع كل عمل في مرتبته التي وضعها له الشرع، فلا نقدم النافلة على الفريضة، ولا الفرع على الأصل، ولا نقترف حرامًا لنفعل مندوبًا، أو نضيع فرضًا لتجنب مكروهًا، أو نقدّم فرض الكفاية على فرض العين، أو نقدّم فرض الكفاية الذي قام به عدد كاف، على فرض الكفاية الذي لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي ويغني. أو نقدّم فرض العين المتعلّق بحق الأفراد، على فرض العين المتعلّق بحق الأمة، وهكذا. وهذا ما سمّيته: «فقه الأولويات».

ومن المهم هنا كذلك: أن يكون عملنا محدّد الهدف، واضح الغاية، فإنّ المسلم لا يعيش لغير غاية، ولا يعمل شيئاً اعتباطاً. كما أنّ علينا أن نحدّد بوضوح - ما استطعنا - طريقنا إلى تحقيق أهدافنا، في ضوء ظروفنا وإمكاناتنا، مُراعين قاعدة التدرّج، والعمل بالمراحل، بحيث تُسَلِّم كلُّ مرحلةٍ إلى ما بعدها، حتّى تصل إلى الغاية المنشودة. ومن سار على الدرب وصل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

العمل للدين والدنيا معاً:

ومن الواجب هنا: أن ندرك أنّ العمل للدنيا جزء من العمل بالدين، وأننا إذا أضعنا دُنيانا، فلن يبقى لنا دين.

إنّ ميزة الإسلام: أنّه لم يُفَرِّق بين الدنيا والآخرة، ولم يُقِمَّ عداوةً بينهما، كيف؟ وقد كان النبي ﷺ أكثر ما يدعو بدعاء القرآن الجامع: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وجعل القرآن إعطاء الدنيا وطيباتها وزينتها، بعض جزاء المؤمنين، يُعَجِّلُهُمْ لهم قبل الجزاء الأوفى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ ثَوَابٌ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبِينُ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

والعمل إذن، ليس مطلوباً في أمر الدين وحده، بل هو مطلوب كذلك في أمر الدنيا، فمن أراد أن يعيش في الدنيا عيشة طيبة، ويحيا حياة حسنة،

فلا يمكنه أن يتوصل إلى ذلك إلا بالعمل؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].
وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

فمن استجاب لأمر الله تعالى، ومشى في مناكب الأرض التي ذللها الله له، والتمس رزقه في خباياها، كان خليقاً أن يأكل من رزق الله فيها، ومن تكاسل وتقاعس وقعد في قعر بيته، ولم يمش في مناكب الأرض، كان حريّاً أن يُحرّم من رزق الله.

ذلك أن الله تعالى أقام هذا الكون على سُنَنِ يجب أن تُراعى، وعلى شبكة متوازنة من الأسباب والمسببات، فكلُّ سببٍ استوفى مقوماته وشرائطه، ولم يقم مانعٌ يمنع تأثيره؛ فإنه يفضي إلى مُسبِّبه قدراً وشرعاً. ومن هنا رأينا الصحابة وتابعيهم بإحسانٍ حينما أخذوا بأسباب النصر، واستوفوا شروطه الدينيّة والدنيويّة، الماديّة والرُّوحيّة، استحقُّوا النصر على أعظم إمبراطوريات الأرض.

ورأينا: أن حضارة الإسلام حينما أخذت بأسباب الرقي والتقدم العلمي والإبداع الماديّ أقامت أرقى حضارة في العالم، تعلّمت منها الدُّنيا كلها، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الرُّوحانيّة والماديّة، ووصلت الأرض بالسماء، والدُّنيا بالآخرة.

العمل السياسي وحده لا يكفي:

ومن فصائل الصحوة الإسلاميّة من يجعل أكبر همّه: العمل السياسي، واستغراق الجهود في تجنيد الأفراد له، وتعبئتهم الفكريّة والشعوريّة

والتنظيمية، ضدَّ الحُكَّام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، ويغفل عن ألوان كثيرة من العمل النافع والضروري والممكن، مثل العمل الفكري، والعمل التربوي، والعمل الاجتماعي.

وهذه الأعمال ليست منفصلةً عن العمل السياسي، بل هي مقدمات لازمة له، إذ لا بدَّ من تكوين قاعدة جماهيرية عريضة، تناصر العمل السياسي الإسلامي، وتؤيّد المطالبة بالحكم بما أنزل الله، كما لا بدَّ من تحرير «النخبة المثقفة»، من رواسب الغزو الفكري، التي غرسها في عقولها الاستعمار الثقافي إبان سطوته وسيطرته على ديار الإسلام. وذلك من خلال خطاب علميٍّ موضوعيٍّ معاصر، يلائم ثقافتها، ويخاطب عقولها، ويناقش أصولها الفكرية التي اعتمدت عليها، ولا يكتفي بمخاطبتها بما تخاطب به الجماهير التي تكفيها الموعظة الحسنة، وتُحرّكها الكلمة المخلصة. وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلا بدَّ للعالم والداعية: أن يخاطب خواصَّ المثقفين، بغير ما يخاطب به عوامَّ المسلمين، فلهؤلاء لسان، ولأولئك لسان، وكلُّ ينبغي أن يُكلّم بلسانه حتّى يُبيّن له.

ولا بدَّ كذلك من تربية جيلٍ مسلمٍ واعٍ لدينه، فاهمٍ لدينه، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم الأخلاق، قادرٍ على البناء والعطاء، صالحٍ في نفسه، مُصلِحٍ لغيره، وكلُّ أولئك لازمٌ لنجاح العمل السياسي.

ومن المهم هنا: ألا تضيع جهود الدعاة وأوقاتهم وطاقاتهم المتنوعة في «الصراع مع الحُكَّام»، والدخول في معارك غير مُجدية، ليس وراءها

إلا تبديد القوى، وتعطيل الطاقات، وشغل الأمة بعضها ببعض. وبذلك تقرُّ أعينُ القوى المعادية للإسلام وأمتّه، والتي زرعت فتيل الفتنة بينهم، وأغرت بعضهم ببعض، لتجعل بأسهم بينهم، وتقف هي متفرجة مسرورة بما أنتجه كيدها لهم، ومكرها بهم.

والواجب على أهل الدعوة: أن يبحثوا كيف يُفوّتون عليها غرضها، وأن يفتحوا باب الحوار مع عقلاء الحُكّام، للتفاهم على ما فيه خير الدّين والوطن، ما وجد إليه سبيل، ولو في الحدود الدُّنيا^(١).

العمل العسكري، لمن لا يقدر عليه:

ومن فصائل الصّحوة: من يرى أنّ العمل المفيد، والعمل الوحيد، الذي لا عمل غيره، ولا فائدة للنجاح سواه، هو العمل العسكري، شعارهم قول أبي تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُثُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ^(٢)

ويحتج بعضهم بالحديث الصحيح المشهور: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣).

(١) انظر حديثنا عن هذا الحوار في كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية ص ١٥٣ - ١٥٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (٣٢/١)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٩٤م.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد (١١٤٦٠)، عن أبي سعيد الخدري.



قالوا: إننا لا نرضى لأنفسنا المرتبة الدنيا؛ مرتبة التغيير بالقلب، وهي أضعف الإيمان، بل ولا المرتبة الوسطى وهي التغيير باللسان. إنما نطمح إلى المرتبة العليا؛ التغيير باليد.

ونسوا أن كل مرتبة من المراتب الثلاث: إنما شرعت لمن يقدر عليها. فالتغيير باليد: لكل ذي سلطان في سلطانه، كالأب مع صغار أولاده، وكذلك كل ولي في غيبة الأب مع من يلي عليهم، والزوج مع زوجته، باعتبار أن الرجال قوامون على النساء، والرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته.

ومثل ذلك الحاكم في دائرة حكمه، وصاحب الشركة في حدود شركته.

فهؤلاء: لهم حق التغيير بالقوة، بل هو عليهم واجب.

ومن المقرر فقهاً: أن المنكر يُسكت عنه، إذا ترتب على محاولة تغييره بالقوة منكر أكبر منه.

ولهذا ليس العمل العسكري أو التغيير بالقوة كلاً مباحاً، يراه كل من شاء، متى شاء، وإن ترتب عليه سفك الدماء، وهدم البناء، وبقاء الحال على ما كان، بل ربما زاد الطين بلة، والداء علة.

ولقد تعلمنا من التاريخ ومن الواقع أن محاولة الخروج المسلح على الحكام - من فعل أفراد أو جماعات - باءت كلها بالإخفاق والفشل، وخلفت وراءها ضحايا بغير ضرورة، وسنعرض لهذا بتفصيل أكثر في حديثنا عن العنف.

المعوّقات عن العمل المنشود:

ولا بدّ لدعاة الإسلام من العمل وبذل الجهد، من أجل التغلب على العقبات في الطريق، والمعوّقات عن العمل المنشود؛ لتمكين دين الله في دنيا الناس.

ولا نزاع أنّ هناك عوائق خارجية، وعوائق داخلية.

فالعوائق الخارجية: تتمثل في القوى التي تكيد للإسلام، وتتربّص بأهله، وتبذل الأنفس والأموال للحيلولة دون تحقيق نمائه، ونشر ضيائه، وتكثّل أبنائه، وقوّة علمائه، وصلاح أمرائه، وبذل أغنيائه.

وهذا أمر متوقّع، وقد نبّهنا عليه القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وهذا بيّن معروف لكل الدارسين، من تعاون القوى المعادية للإسلام على المسلمين، وتداعيتها عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، كما صوّرهم الحديث النبوي المعروف^(١). وكما نجد ذلك مجسّداً في الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، والوثنية الشرقية، والشيعية الإلحادية، والفلسفة الإباحية، والاتجاهات العلمانية، ونحوها.

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.



ولكن الذي أحبُّ أن أركّز عليه هنا: هو العوائق الداخلية، ولا سيّما العوائق المعنوية منها: الفكرية، والدينية، والنفسية خاصة.

عائق اليأس من جدوى العمل:

أول هذه العوائق المعنوية: اليأس من جدوى العمل.

فمن المسلمين المتديّنين من يدع العمل؛ لأنّه يئس من مستقبل أي عمل إسلامي، وأنّ العمل الإسلامي كله زرع بلا حصاد، وغرس بلا ثمر.

يقول هذا الصنف: لقد مضت عشرات السنين على الحركة الإسلامية، ولم نرها في بلدٍ واحدٍ حققت أهدافها، وأنجزت موعودها، بل نراها تضرب من خارجها، أو تتآكل من داخلها. فما قيمة عملٍ لا يُحقّق نتائجه المرجوة منه؟ وما فائدة غرس تقضي عليه الآفات قبل إثماره؟ الخلاصة: أنّ العمل الإسلامي لا مستقبل له!

وردّنا على مقولة هؤلاء، من عدّة أوجه:

أولاً: أنّ اليأس ليس من شيمة المؤمن أبداً، وإن اكفهر الجوُّ من حوله، وضائق عليه الأرض بما رحبت، يقول تعالى على لسان يعقوب: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال على لسان جدّه إبراهيم: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالمسلم الحقُّ، لا يئس ولا يقنط، وهو يعلم أنّ مع اليوم غداً، وأنّ مع العسر يسراً، وأن بعد الليل فجرًا، وأن دوام الحال من المحال، وأن كثيراً من حقائق اليوم كانت أحلام الأمس، فلا غرو أن تصبح أحلام اليوم، حقائق الغد.

وقد قال الشاعر:

لَا تَيْئَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ إِنْ اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا
أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَأَ^(١)

ثانيًا: أَنَّ المؤمن لا يعمل لمجرد النجاح والانتصار، وإنما يعمل امتثالًا لأمر الله تعالى، وقيامًا بحق عبوديته له، وابتغاءً لمرضاته.

فإنَّ تحققَّ له مع ذلك النجاح في مسعاه، والانتصار في معركته، فهو خيرٌ وبركة، وفضلٌ من الله ونعمة.

وإذا لم يتحقق ذلك، فحسبُه أَنَّهُ أدَّى واجبه، وبلغ رسالته.

وقد قلت في كتابي: «الحلُّ الإسلامي فريضةٌ وضرورة»: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِمَاذَا لَمْ تَنْتَصِرُوا؟ وَلَكِنْ سَيَسْأَلُهُمْ: لِمَاذَا لَمْ تَعْمَلُوا؟»^(٢).

وكم رأينا من أصحاب الرسالات من الأنبياء والمؤمنين، من خَرَّ شهيدًا من أجل دعوته، ولم يُحَقِّق في حياته آماله من ورائها.

وحسبنا في ذلك المؤمنون، الَّذِينَ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى قِصَّتِهِمْ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ، فَقَدْ اسْتَشْهَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ، إِحْرَاقًا بِالنَّارِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعَذَّبَ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ بَقِيَ ثَبَاتُهُمْ وَصَبْرُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَثَلًا يُحْتَذَى، وَعِبْرَةٌ تُحْكَى لِلْأَجْيَالِ: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ

(١) هو محمد بن يسير. انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٩/٥)، نشر دار صادر، بيروت

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) انظر كتابنا: الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢٢٥، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦،

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿البروج: ٤ - ٩﴾.

وفي سورة الأعراف: قصّة فيها عبرة أيّ عبرة، لكلّ داعية إلى حقّ لا يجد قبولاً له في أنفس النّاس من حوله، كما نرى من خلال الحوار الذي سجّله القرآن بين اليائسين من نتيجة الدعوة والموعظة، والمؤمنين بوجوب الدعوة على أيّ حال، يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونُ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿
[الأعراف: ١٦٤، ١٦٥]، فهؤلاء الدعاة قاموا بالدعوة؛ إغذاراً إلى الله، وأملًا في
استجابة الآخرين: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونُ﴾.

وهكذا كانت عاقبة المصّرّين على الموعظة والدعوة، الناهين عن
السُّوء: النجاة من العذاب البئيس، الذي أخذ الظالمين والساكتين.

ثالثاً: أنّ من الظلم البين والإجحاف الصارخ أن يقال: إنّ الدعوة
الإسلامية لم تُحقّق أيّ هدف لها، وإنّ العمل الإسلامي بآء بالإخفاق
الكامل، وإنّ جهوده خلال تلك العقود ذهبت سُدى.

وحسبنا من ثمار العمل الإسلامي: هذه الصحة الإسلامية
المعاصرة، التي شرّقت وغرّبت، وأثرت في العقول والمشاعر والإرادات،
وبرز أثرها في الرجال والنساء، وخصوصاً الشباب والشابات، وكان لها
تأثيرها في مجالات الحياة المختلفة، في الالتزام بالفرائض والعبادات،
في الأخلاقيّات والسلوكيّات، في التزام المرأة بالحجاب، في الاقتصاد
والسياسة، في الجهاد والتحرير، في التربية والثقافة في الدعوة والإعلام،

في الصحافة والإذاعة والقنوات الفضائية، وثراء المكتبة الإسلامية في تخصصات شتى.

وفي قيام منظمات إسلامية كبيرة في مجالات مختلفة، مثل: منظمة المؤتمر الإسلامي، والبنك الإسلامي للتنمية، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والمصارف الإسلامية في عدد من الأقطار، وجمعيات العمل الخيري الإسلامي وغيرها.

وكان من آثارها: قيام دولة شيعية، تعلن الالتزام بالإسلام في إيران، وأخرى سنية، تعلن الالتزام بالإسلام في السودان.

وانتصار الإسلام على الشيوعية، في أفغانستان، والمقاومة الإسلامية في فلسطين ولبنان.

وازدهار الدعوة الإسلامية بين الأقليات الإسلامية في الغرب والشرق.

عائق المثالية الحاملة:

وهناك أناس لا يعملون؛ لأنهم يعيشون في عالم مثالي، وفي دنيا النظريات الطوباوية، لا يخرجون منها، يريدون أن يبدأ الشيء كاملاً، وأن يولد الإنسان شاباً، وأن يولد القمر بدرًا، وأن تثمر الشجرة منذ توضع البذرة، وهكذا يريدون أن يولد العمل الإسلامي عملاقاً، لا يمرُّ بمراحل النمو، ولا يتعرض لأمراض البيئة، وآفات الحياة، ومتاعب الطريق الطويل.

فهم لا يُعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب، كما يقول المثل، وهم للأسف لا يعملون، ولا يدعون العاملين يعملون.



كلُّ ما لديهم لسانٌ طويل، على ذراعٍ قصيرة، وبراعةٍ في النقد، وإخفاقٍ في العمل، وهمّة في الهدم، وقعودٍ عن البناء.

أكبر همّ هؤلاء تتبّع العثرات والأخطاء للعاملين، وتجميعها من هنا وهناك، ثمّ النظر إليها من خلال مجهرٍ مكبّرٍ مُقَرَّبٍ، فإذا الحَبّة قُبّة، وإذا النملة فيل!

لا يلتمسون لعاملٍ عذراً، ولا يُحسنون بأحدٍ ظنّاً، ولا يقدرّون للظروف المحيطة قدرها، ولا يعرفون أنّ للضرورات أحكامها.

وهؤلاء لأنّهم لا يعملون تجدّهم لا يخطئون؛ لأنّ الخطأ نتيجة الاجتهاد في العمل.

وهؤلاء الإخوة الطيّبون مغرورون، غرّتهم الأمانى، وغرّهم بالله الغرور.

فالذي يعمل وفق ما هداه إليه اجتهاده وإن أخطأ معذور، بل مأجور عند الله تعالى، له أجر الاجتهاد، إذا حُرِمَ أجر الإصابتة للحق.

والخطأ عادة: إنّما يكون في الوسائل والكيفيات، التي تتطوّر بتطوّر الحياة، وتغيّر الأوضاع، وتبدّل الزمان والمكان والإنسان.

أمّا المهمّ، فهو تحديد الأهداف بما يتّفق مع نصوص الإسلام ومقاصده الكلّية، وقواعده العامّة، ثمّ ليجتهد كلّ في تحقيقها بما يهديه الله إليه، مهتدياً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مستفيداً من تراث السابقين، وتجارب اللاحقين، ملتمساً الحكمة من أيّ وعاء خرجت، غير مغلق على نفسه باباً يُمكن أن يدخل عليه منه الضياء والهواء.

أَمَّا أَنْ يَدَعَ الْعَمَلَ، وَيَقِفَ مَتَفَرِّجًا عَلَى الْعَامِلِينَ، يُوَسِّعُهُمْ نَقْدًا وَذَمًّا،
فَمَا أَجْدَرُ أَنْ نَذْكُرَهُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَيُّهَا النَّاقِدُ أَعْمَالَ الْوَرَى
لَا تَقُلْ عَنْ عَمَلٍ: ذَا نَاقِصٍ
جِئْ بِأَوْفَى، ثُمَّ قُلْ: ذَا أَكْمَلٍ
إِنْ يَغِبُ عَنْ لَيْلٍ سَارٍ قَمَرٌ
فَحَرَامٌ أَنْ يُلَامَ الْمِشْعَلُ!

وفي الحديث الصحيح: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ»^(١)، رُوِيَ بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِهَا. ومعنى الحديث بضم الكاف: أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ وَأَشَدَّهُمْ هَلَاكًا؛ لَغُرُورِهِ بِنَفْسِهِ، وَإِعْجَابِهِ بِعَمَلِهِ، وَسُوءِ ظَنِّهِ بِالْآخِرِينَ. فقولُه هَذَا يَتَضَمَّنُ تَرْكِ مَبْطُنَةِ لِشَخْصِهِ.

ومعناه بفتح الكاف: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَهْلَكَهُمْ، أَيِ تَسَبَّبَ فِي هَلَاكِهِمْ بِاسْتِعْلَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَيَأْسِهِ مِنْهُمْ، وَسُوءِ ظَنِّهِ بِهِمْ.

ولهذا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ وَالشُّرَّاحُ عَلَى أَنَّ هَذَا الذَّمَّ، إِنَّمَا هُوَ فِيمَنْ قَالَ عَلَى سَبِيلِ الْإِزْرَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَاحْتِقَارِهِمْ، وَتَفْضِيلِ نَفْسِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ ذَلِكَ تَحْزُنًا لِمَا يَرَى فِي نَفْسِهِ وَفِي النَّاسِ، مِنَ النِّقْصِ فِي أَمْرِ الدِّينِ؛ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ.

قال الإمام الخطَّابي: معناه: لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَعْيبُ النَّاسَ وَيَذْكُرُ مَسَاوِيَهُمْ، وَيَقُولُ: فَسَدَ النَّاسُ وَهَلَكُوا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ، أَيِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْهُمْ، بِمَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْإِثْمِ فِي عَيْبِهِمْ، وَالْوَقِيعَةِ فِيهِمْ، وَرَبَّمَا أَدَاهُ ذَلِكَ إِلَى الْعُجْبِ بِنَفْسِهِ، وَرَوَيْتُهُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ^(٢).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٣)، وأحمد (٧٦٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) معالم السنن (١٣٢/٤)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط ١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

دور أحاديث الفتن وأشراط الساعة:

ومن جماهير المتدينين المسلمين من يدع العمل لنصرة الإسلام وتمكينه في الأرض، بدعوى أننا اليوم في آخر الزمان، وفي عصر «الفتن» التي تذر الحليم حيران.

وعلى المسلم في زمن الفتن أن يسعه بيته، ويبكي على خطيئته، ويعنى بخويصة نفسه، ويدع أمر العامة أو الجمهور، فالشر أقوى من أن يقاوم، والخير أضعف من أن يصمد، والباطل يزداد ظهوراً، والحق يختفي أمام طغيانه، والساعة على وشك القيام.

ويستند هؤلاء إلى أحاديث نبوية، وردت في أبواب «الفتن» و«أشراط الساعة»: من كتب الحديث. فهموا منها ألا فائدة في أي محاولة للإصلاح، أو أي جهد يبذل للتغيير.

وقد ناقشنا هذه الأفهام المغلوطة للأحاديث، في مواضع من كتبنا، مثل حديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١)، وحديث: «لا يأتي على أمتي زمان إلا والذي بعده شر منه»^(٢). وبيننا أن الرسول الكريم: لا يمكن أن يؤسس المسلمين من العمل لإصلاح حالهم، وتغيير ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم. كيف وقد أمر المسلم أن يعمل لصلاح دنياه إلى آخر رمق في الحياة، في حديثه البليغ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - نخلة صغيرة - فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»^(٣).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، عن أنس.

(٣) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

فليُغْرِسْهَا، والساعة تقوم، وهو لن ينتفع بها، ولا أحد من بعده، ليظلَّ المسلم عاملاً في الحياة معطاء لها حتَّى تلفظ آخر أنفاسها. فإذا كان هذا موقفه من العمل للدُّنيا، فهل يكون الدِّين عنده أهون من الدنيا، حتَّى يدع العمل له، والدعوة إليه، بمجرد ظهور الفتن والفساد؟

ولقد بيّنت في رسالتي: «المبشّرات بانتصار الإسلام» من رسائل ترشيد الصحوة: الآيات القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، المُبشّرة بمستقبل هذا الدِّين، والقاضية بأنَّ الغد له ولأُمَّته. فلا يجوز أن ندع هذه النصوص المُحكّمات ببعض المتشابهات، ولا أن نغفل الأدلّة القطعيّة ببعض الظنّيات المؤوّلّات.

الاتّجاه إلى العمل بدل الانتظار:

لقد آن للتفكير عندنا أن يتغيّر من انتظار عبقرٍ فذٍّ موهوب يصنع المعجزات، ويتخطّى المستحيلات، للتوجّه إلى حركة شعبيّة جماعيّة، تقوم بقيادة سفينة التغيير والإصلاح.

لقد كنّا ننتظر دائماً هذا المُنقذ الفرد، سواء على المستوى السياسي، أم على المستوى الديني.

وعلى المستوى السياسي: نجد الجماهير معلقة أبداً بزعيم ملهم، يقود مسيرتها في معركة التحرير أو معركة البناء.

وعلى المستوى الديني: ننتظر دائماً «مهديّاً» أو «مجدداً» واحداً، تبعثه العناية الإلهيّة، ليقوم عن النَّاس بإصلاح ما أفسد الدهر.

وطالما سادت هذه الفكرة عند أقوام كثيرين، حتّى تحرروا منها، وأخذوا يتحملون المسؤوليّة: أمام الله، والناس والتاريخ.

كان اليهود من قديم: ينتظرون «قدوم مسيح» ترسله السماء، ليخرجهم من الشتات والضياع، ويُقيم لهم مُلك إسرائيل الموعود.

وظلوا قرونًا ينتظرون هذا المسيح الموعود، حتّى ظهرت الحركة الصهيونيّة العالميّة، لتقوم هي بدور المسيح، وتعدّ العدة لإقامة ملك إسرائيل، وأمكنها أن تحقق الحلم، على حسابنا، بل على أنقاضنا، في فلسطين. وإن كان بعض اليهود المتدينين يرون أنّ ظهور هذه الدولة مضادّ لدينهم، ومعارض لقضاء الله عليهم أن يظلّوا مشتتين؛ ولذلك يؤمنون بأنّ هذه الدولة ستزول حتمًا.

وكان الشيعة الاثنا عشرية من اثني عشر قرنًا، ينتظرون عودة «الإمام الغائب» يملأ الأرض عدلًا، كما ملئت ظلُمًا وجورًا، يقيم لهم الدولة التي طالما حلموا بها، وكان كلُّ ما يصنعون أن يدعّوا الله له في صلواتهم وخطبهم: أن يُفرّج الله عنه، ويردّ غيبتَه.

ثم تغيّر تفكير القوم، حين طفق الإمام الخميني يدعو إلى ما سمّاه: «ولاية الفقيه» نيابة عن الإمام، ومضى العمل جادًا دائبًا حتّى قامت الثورة الإسلاميّة، والجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

وعند كثيرٍ من المسلمين من أهل السُنّة، ينتظرون المهديّ الذي يملأ الأرض عدلًا، بعد أن ملئت جورًا، ويسمّونه: «المهدي المنتظر». فهم يرتقبون ظهوره، ليحلّ العقد المزمّنة، ويعالج المشاكل العويصة، ويحارب الأعداء الأقوياء، ويُحرّر الأُمّة من ظلم الحكّام، وحكم الظّلام.

والآن، قد ثار تيار الصحة على مفهوم «الانتظار»، ليخرج إلى مفهوم العمل والعطاء المتواصل.

إِنَّ «الانتظار» أمرٌ سلبيٌّ لا يُغَيِّرُ من الواقع شيئاً، فلا بدَّ من عملٍ إيجابيٍّ، ولا بدَّ أن يكون هذا العمل جماعياً، ولا بدَّ أن يستند إلى قاعدة جماهيرية كبرى، فإنَّ يد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً.

من يُجَدِّدُ الدِّينَ؟

وأوَّدُ أن أناقش قضية، كثيراً ما فهمت خطأ، وهي قضية: «تجديد الدين»، وانتظار «مجدد» فردٍ يجود به القدر الأعلى على الناس، دون جهدٍ منهم ولا عملٍ من جانبهم، ليُجددَ لهم دينهم الذي ضيَّعه منهم من ضيَّعه، وأضعفه منهم من أضعفه.

وَحُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ: الْحَدِيثُ الشَّهِيرُ، الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مِنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(١).

وقد ذهب أكثر سُرَّاحِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّ الْمُجَدِّدَ «فَرْدٌ مُتَمَيِّزٌ» تَبَعْتَهُ الْعَنَاءَةُ الْإِلَهِيَّةُ، لِتَجْدِيدِ الدِّينِ وَإِحْيَائِهِ وَتَقْوِيَتِهِ. وَقَدْ حَدَّدُوا بِالْفِعْلِ الْمُجَدِّدِينَ وَسَمَّوْهُمْ عَلَى رَأْسِ الْقُرُونِ الْهَجْرِيَّةِ، وَاتَّفَقُوا أَحْيَاناً، كَمَا فِي مُجَدِّدِ الْمِائَةِ الْأُولَى الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (ت: ١٠١هـ)، وَمُجَدِّدِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ الْإِمَامُ الْفَقِيهَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِي (ت: ٢٠٤هـ)، وَمُجَدِّدِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ الْإِمَامُ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِي (ت: ٥٠٥هـ)، وَمُجَدِّدِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ الْإِمَامُ تَقِيُّ الدِّينِ بْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ (ت: ٧٠٢هـ)، وَاخْتَلَفُوا فِي مُجَدِّدِي الْمِائَةِ الْآخَرَى.

(١) سبق تخريجه ص ٨.

ولكن هناك رأيٌ معتبر ذهب إليه عددٌ من كبار الشُّراح، كابن الأثير^(١) والذهبي^(٢)، يقول: إن كلمة «مَنْ» في الحديث المذكور تصدق على «الجمع» كما تصدق على «الفرد». فلماذا نحملها على المفرد فقط؟ والأولى أن تُحمَل على الجمع هنا. فقد يكون المجدد أكثر من واحد، في أكثر من بلدٍ، وأكثر من مجالٍ. فقد يُجدد بعضهم في مجال العلم، وبعضهم في مجال العمل، بعضهم فقيهٌ، وبعضهم قائدٌ مجاهد، وبعضهم حاكمٌ عادل، وبعضهم داعيةٌ بليغ، وبعضهم مربٍّ مؤثر.

وأنا أقول: قد يكون المجدد جماعة، أو مدرسة فكرية أو دعوة أو تربوية، أو جهادية، تعمل في مجال أو أكثر لإصلاح المجتمع، وتغيير حال الأمة، وتجديد دينها: تجديد الفهم له، والإيمان به، والعمل به، والعمل له، والدعوة إليه.

وأرى أن هذا الفهم لا يخرج عن مفهوم الحديث: «يُجدد لها دينها»، ولكنه يوسّع دائرة التجديد ويُعمّقها.

وهذا الفهم الواسع للحديث يخرج الأمة من السلبية، أي من مجرد الانتظار، فبدل أن يكون سؤال المسلم هنا: متى يظهر المجدد؟ يكون سؤاله: ما دوري في حركة التجديد؟ فالتجديد قائمٌ عن طريق الجماعات، والحركات الداعية إلى الإسلام على تفاوتها في الأهداف والمناهج، وقربها أو بعدها عن الرشد والصواب، أو الأرشد والأصوب، وعلى

(١) انظر: جامع الأصول (٣١٩/١١)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، نشر مكتبة الحلواني، ط ١،

١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠٣/١٤)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

المسلم أن يختار المدرسة التي ينتمي إليها، والجماعة التي يعمل من خلالها، متعاوناً مع إخوانه على البر والتقوى، متواصياً بالحق والصبر.

منتظرو الدولة الإسلامية:

وشبيهة بهؤلاء «المهدويين» الذين يوقفون كل سائر، ويجمّدون كل متحرّك، حتّى تقوم «الدولة الإسلامية»، وعلى رأسها خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين!

فلا جهاد لعدوّ، حتّى تقوم الدولة الإسلامية.

ولا أمرٍ بمعروفٍ ولا نهْيٍ عن منكر، حتّى تقوم الدولة الإسلامية. ولا قيام بعملٍ إصلاحي في المجتمع، من معالجة مريض، أو إطعام جائع، أو رعاية يتيّم، أو إيواء مشرّد، حتّى تقوم الدولة الإسلامية! بل يرون فعل الخيرات، وتضميد الجراحات، وسد جوعات الجائعين، ومسح دموع المحزونين من البشر: معوّفاً للدعوة الإسلامية، ومؤخراً لقيام الدولة الإسلامية!

وهذا هو رأي «حزب التحرير»، وقد سمعته شفاهاً من عددٍ من قادتهم في الأردن، حينما زرته لأوّل مرّة في صيف سنة (١٩٥٢م)، وناقشوني فيه مناقشة حامية الوطيس، وكنت في مقتبل الشباب، منتقلاً إلى السنة النهائية بكلّيّة أصول الدين، واستنكروا أشد الاستنكار أن يشغل أصحاب الدعوة أنفسهم بغير الدعوة.

وكان ردّي عليهم يتلخّص في الحجج التالية:

١- أنّ فعل الخير جزءٌ من مهمّة المسلم في الحياة، كما أمر الله، فقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ

وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿٢﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]. فعلاقة المسلم بربه العباد، وعلاقته بمجتمعه فعل الخير، وعلاقته بأعدائه الجهاد في الله. وفعل الخير داخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. ولا يسع المسلم أن يعيش في قرية لا يجد مرضاها العلاج، أو لا يجد أيتامها الكفالة، أو لا يجد فقراؤها القوت، ثم يقف متفرجاً، لا يمدُّ إليهم بالعون يدًا، ولا يضمّد لهم جرحًا، ولا يمسخ دَمعة، حتّى تقوم الدولة المسلمة!

٢ - أن هذا يُعدُّ جزءاً من نشر الدعوة أيضاً، فنشر الدعوة لا يتخذ صورة المحاضرة أو الحديث أو الكتاب فقط؛ فإنّ ممّا يُحبّب فكرتك إلى الناس أن تُقدّم إليهم عملاً صالحاً، أو تُسدي إليهم معروفاً، فتفتح قلوبهم لحُبّك، وعقولهم لفهمك، وآذانهم للإصغاء إليك. وقديماً قالوا: الإنسان أسير الإحسان. وقال أبو الفتح البستي^(١):

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْعِبُ قُلُوبُهُمْ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ!

وروي عن الإمام الشافعي قوله:

اللهم، لا تجعل لفاجرٍ عليّ منّة، فتجعل له في قلبي محبة!

ولقد رأينا إرساليّات التبشير المسيحي: تعتمد اعتماداً كثيراً على هذا الأسلوب، فتؤسس مشروعاً خيرياً أو مستشفى أو نحو ذلك، لتنفّذ من ورائه إلى نشر العقيدة الكاثوليكية، أو البروتستانتية.

(١) انظر: قصيدة عنوان الحكم لأبي الفتح البستي ص ٣٦، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

كما أنّ في هذه الأعمال الاجتماعية مجالاً للتعرف على أحوال الناس، ودراسة مشكلاتهم، والاتصال اليوميّ معهم، وهذا مهمٌّ لأصحاب الدعوات.

٣ - ليس كلّ أعضاء الحركة الإسلامية قادرين على نشر الدعوة باللسان أو القلم؛ فإنّ مواهب النَّاس تختلف، وقدراتهم تتنوّع، ولا عجب أن تجد كثيرين قادرين على العمل الاجتماعي، غير قادرين على العمل الفكري أو الثقافي أو الدعوي، فمن الخير أن يُشغل هؤلاء بما يناسب استعدادهم وخبراتهم، بدل أن يتركوا في فراغ، فيملّوا، أو يفتروا، أو ينقطعوا.

٤ - أنّ هناك هدفًا بعيدًا هو الهدف الأساسي، وهو إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي، وهذا الذي ينبغي أن ينال القسط الأوّل من الاهتمام والجهود. ولكن بجواره أهداف قريبة يمكن تحقيقها بجهود أقل، دون أن تؤثر على الأهداف الأساسيّة. وقد ضربت لذلك مثلاً: ببستان يغرّس صاحبه فيه الشجر والنخيل، وهذا هو الهدف الأساسي منه. ولكن حيث كانت بعض الأشجار تظلّ عدّة سنين حتّى تُثمر. فإنّ البستانيّ الناجح هو الذي يستغلّ الأرض في زراعة بعض الخضراوات السريعة الإنتاج، فيستفيد ويفيد، ما دام ذلك لا يعوق خدمة الهدف الأساسي، وهو الأشجار والنخيل^(١).

لا بديل عن العمل:

والحقُّ أنّه لا بديل عن «العمل»، والعمل الدائب، والعمل المستطاع لخدمة الإسلام، وإعلاء كلمته، ونصرة شريعته، وتوحيد أمّته، وتحريرها وتطويرها.

(١) انظر كتابنا: الحل الإسلامي لفريضة وضرورة ص ١٨٩ - ١٩١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦،



وهو عمل في جملة ميادين، كلٌّ منها يستغرق جهودًا وجهودًا.
 إنَّه العمل مع النفس، والعمل مع الأسرة، والعمل مع المجتمع.
 العمل مع المسلمين، والعمل مع غير المسلمين.
 إنَّه العمل بالإسلام، والعمل للإسلام.
 العمل باللسان، والعمل بالقلم، والعمل باليد، والعمل بالفكر،
 والعمل بالبذل.

العمل في الدعوة، والعمل في التربية، والعمل في الثقافة، والعمل
 في الاقتصاد، والعمل في خدمة المجتمع.
 إنَّه العطاء المتجدد من كلِّ حَسَب طاقته، ولا يُكَلِّف الله نفسًا إلَّا
 ما آتاها، على المُوَسِّع قَدْرَه وعلى المُقْتَرِ قَدْرَه، عطاء بالمعروف حقًّا
 على المؤمنين.

حسن البناء والعمل:

ولم أرَ من الدعاة المصلحين في عصرنا من أشاد بالجانب العملي،
 ودعا إلى العمل وأكَّده، بكل أنواعه، وعلى كل مستوياته، وفي كلِّ
 مجالاته، مثل الإمام الشهيد حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ.

لقد كان حريصًا كلَّ الحرص على الجانب العلمي، والثقافي، في
 حركته وتربية إخوانه، ولهذا جعل «الفهم» هو الركن الأوَّل في أركان
 «البيعة»، التي تعني الالتزام الصادق بالجماعة وأهدافها، ومناهجها،
 ولكنَّه كان حريصًا كلَّ الحرص، كذلك على ألاَّ يعيش أبنائُه ورجال
 دعوته، في الآفاق النظرية وحدها، وألَّا يستهلكهم الجدل في المثاليات

والفرعيات والخلافيات التي لا تنتهي، وكان كثيرًا ما يذكر الحديث النبوي الشريف الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه، إلَّا أُوتوا الجَدَل»^(١).

ومن هنا، جعل «العمل» أحد أركان البيعة، وجعل له عدّة مجالات حيويّة، بعضها يعمل فيه الأخ المسلم فردًا، وبعضها يعمل فيه بوصفه عضوًا في الجماعة، حتّى إنّه سمّي الصفوة من جنوده ورجال فكرته: «الإخوان العاملين» فاختار وصف «العمل»، على أيّ وصفٍ آخر.

مراتب العمل السبع:

لنقرأ شرحه لمعنى «العمل» ومجالاته، كما ذكره في رسالة «التعاليم» يقول: «وأريدُ بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]»^(٢).

ومراتب العمل، المطلوبة من الأخ الصادق، هي:

- ١ - إصلاح نفسه حتّى يكون: قويّ الجسم، متين الخلق، مثقّف الفكر، قادرًا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدًا لنفسه، حريصًا على وقته، منظمًا في شؤونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كلّ أخٍ على حدّته.
- ٢ - تكوين بيت مسلم، بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزليّة، وحسن اختيار الزوجة،

(١) سبق تخريجه ص ٧٥.

(٢) انظر: رسالة التعاليم ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٣٥٩ - ٣٦١، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

وتوقيفها على حقّها وواجبها، وحسن تربية الأولاد والخدم، وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كلّ أخٍ على حدّته كذلك.

٣ - وإرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العامّ إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائماً، وذلك واجب كلّ أخٍ على حدّته، وواجب الجماعة كهيئة عاملة.

٤ - وتحرير الوطن: بتخليصه من كلّ سلطان أجنبيّ - غير إسلامي - سياسي، أو اقتصادي، أو رُوحاني.

٥ - وإصلاح الحكومة حتّى تكون إسلاميّة بحق، وبذلك تؤدّي مهمّتها كخادمٍ للأمة، وأجيرٍ عندها، وعاملٍ على مصلحتها، والحكومة إسلاميّة ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدّين لفرائض الإسلام، غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ولا بأس بأن تستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة، ولا عبرة بالشكل الذي تتّخذه، ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي^(١).

٦ - وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلاميّة، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافتها، وجمع كلمتها، حتّى يؤدي إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

(١) انظر كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام ص ١٩٣ - ١٩٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٦،

٧ - وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه، ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

وهذه المراتب الأربع الأخيرة تجب على الجماعة متحدة، وعلى كل أخٍ باعتباره عضوًا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها الناس خيالًا ويرأها الأخ المسلم حقيقةً، ولن نئس أبدًا، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ونراه في «الأصول العشرين»، التي وضعها لتكون أساسًا لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام يحذر من الأغلوطات، والمسائل النظرية والجدلية التي تستهلك الجهود والأوقات، ولا يترتب عليها عملٌ نافع، فنراه يقول في «الأصل التاسع»:

«وكلُّ مسألة لا يبنى عليها عمل، فالحوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعًا، ومن ذلك: كثرة التفرعات للأحكام التي لم تقع، والحوض في معاني الآيات القرآنية، التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما شجر بينهم من خلاف، ولكلٍّ منهم فضلٌ صحبتته، وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة»^(١).

(١) انظر: الأصول العشرين في رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل ص ٣٥٧. وراجع: شرحنا لهذا الأصل في كتابنا: كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف، وهو الجزء الخامس من سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام.



ثم نراه بعد ذلك في نهاية رسالة: «التعاليم» أو «البيعة»، يضع «برنامجاً مفصلاً»، يشتمل على كل ما ينبغي للأخ «العامل» أن يراعيه ويلتزم بتنفيذه.

فيفصل له ما يجب عليه نحو بدنه، وخلق، وماله، ومجتمعه، ودعوته.

حتى بلغت هذه الواجبات التفصيلية (٣٨) ثمانية وثلاثين بنداً، استغرقت كل جوانب الحياة.





من العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية

العاطفة جزء من الكيان الإنساني:

العاطفة، أو الوجدان، أو الشعور، أو الانفعال - سمّه ما تسميه -: هو جزء من كيان الإنسان النفسي، الذي يقسمه علماء النفس إلى: الجانب الفكري، والجانب العاطفي أو الانفعالي، والجانب الإرادي أو النزوعي. وكان العرب يعبرون قديمًا عن العاطفة بـ «القلب»؛ فهو الذي يحب ويكره، وهو الذي يرضى ويغضب، وهو الذي يرغب ويرهب، وهو الذي يفرح ويحزن، إلى آخر هذا النوع من الوجدانات والمشاعر.

الإنسان - إذن - ليس عقلاً فقط، وليس إرادة فحسب، بل هو كذلك عاطفة وشعور. وإذن لا تدمّ العاطفة في الإنسان لذاتها، ولا يذم الجانب الانفعالي في الإنسان لذاته؛ ما دام جزءًا من كيانه الذي فطره الله عليه.

وإذا كان الفيلسوف الشهير «ديكارت» قال: أنا أفكر؛ إذن أنا موجود^(١)! فمن حق غيره أن يقول: أنا أريد؛ إذن أنا موجود! وأن يقول آخر: أنا أحبُّ وأكره؛ إذن أنا موجود!

(١) انظر كتابه: مقال عن المنهج، ص ١٤٩، ترجمة محمود محمد الخضير، مراجعة وتقديم دكتور محمد مصطفى حلمي، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.



صحيح: أن عقل الإنسان هو الرئيس، وهو المميز عن الحيوان، وهو مناط التكليف الإلهي للإنسان؛ فبه يخاطب، وبه يُثاب ويُعاقب؛ ولهذا رفع قلم التكليف عن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يفيق. ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينفي أن العاطفة جزء من الإنسان، كل إنسان.

ليس مطلوباً من الإنسان إذن أن يعلن الحرب على عواطفه، ويعيش «عقلانياً» صِرَفًا، فهذا غير مُمكن، كما أنه غير مطلوب.

وقد وصف الله المؤمنين من عباده في القرآن بصفات عاطفية متنوعة، مثل: الوجل من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا... ﴾ [الأنفال: ٢].

ومثل: الفرح بفضل الله، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

ومثل: الرجاء في رحمة الله، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ الْآئِلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩].

ومثل: الرضا عن الله، كما قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].

وهذه الوجدانات الروحية، هي التي غني بها علماء التصوف والسلوك في الإسلام، وسموها: «الأحوال»، أو «المنازل»، أو غير ذلك، كما تحدث عنها شيخ الإسلام الهروي، في رسالة: «منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين»، وشرحها ابن القيم في كتابه الكبير: «مدارج السالكين»، وهي التي كتب فيها الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي كتابه: «الجانب العاطفي من الإسلام».

ولكن ليست كل العواطف والمشاعر والانفعالات من هذا النوع الراقى من العواطف والوجدانات الروحية. فإنَّ العواطف الطبيعية والعادية لها تأثيرها على الإنسان، كل إنسان.

وما جاء في القرآن والسُّنة في شأن العواطف والوجدانات، أو الانفعالات النفسية، لا يسلم منها إنسان، حتَّى الأنبياء أنفسهم، فهم يفرحون ويحزنون، ويضحكون ويبكون، ويرجون ويخافون، ويرضون ويغضبون.

وقد قال نبينا ﷺ: «إنَّما أنا بشرٌ، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأئِماً مسلمٍ سببته أو جلدته، فاجعلها له كفَّارة»^(١).

وقد قصَّ علينا القرآن قصَّة غضب موسى على قومه، حين رجع إليهم، فوجدهم قد عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بَلْأَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ...﴾ [الأعراف: ١٥٠].

لقد غضب لله حقًّا، ولكنَّ الغضب جعله يلقي ألواح التوراة، وفيها كلام الله، ويأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، وهو نبيُّ مرسلٌ معه.

ما ننكره، هو تغليب العاطفة على العقل:

وإذا كان هذا شأن العاطفة وضرورتها في حياة البشر، فما الذي ننكره منها؟

لا ريب أنَّ الذي ننكره هنا، هو أن تغلب العاطفة على عقل الإنسان، فتؤثِّر على صواب إدراكه، وتحرفه عن طريق السداد. إذ الواجب على

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦١)، ومسلم في البر والصلوة (٢٦٠١)، عن أبي هريرة.

الإنسان أن يحكم عقله في عواطفه وانفعالاته، لا العكس، فإنّ الذي يتبع عواطفه، ويسير وراءها حيثما وجهته، إنّما يتبع هواه؛ واتباع الهوى يُغمي ويصم، ويضل عن الطريق المستقيم.

ولهذا قال الله لنبيه داود: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والآية تشير إلى أن من اتَّخذ إلهه هواه، لا يستفيد من أدوات الإدراك التي وهب الله له، من: السمع، والبصر، والفؤاد، فإنه قد عطلها؛ ومن عطل هذه الوسائل، فقد غدا أشبه بالأنعام أو أسوأ، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ومن هنا؛ جاءت التوجيهات النبوية، تنهى الإنسان المسلم أن يستسلم لعواطفه وانفعالاته مثل الغضب؛ فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، وقال له: أوصني. قال: «لا تغضب»، فردد مراراً، قال: «لا تغضب»^(١).

وذلك أن الإنسان إذا غضب، قد يقع منه من الأقوال والأعمال ما لا يرضى عواقبه، حتّى إنّه قد يدعو بالشرّ على نفسه وعلى أهله وولده

(١) سبق تخريجه ص ٤٤.

ومن يحبُّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين: أنهم كانوا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت، فلعتها، فسمع النبي ﷺ، فقال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا»^(١).

وفيه أيضاً، عن جابر قال: سِرْنَا مع رسول الله ﷺ في غزوة، ورجل من الأنصار على ناضح له (أي بعير)، فتلدن (تلكأ وتوقف) عليه بعض التلدن، فقال له: شَأْ لَعْنِكَ اللَّهُ! فقال رسول الله ﷺ: «من هذا اللاعن بعيره؟». قال: أنا يا رسول الله. قال: «انزل عنه، فلا تصحبنا بملعون! لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم»^(٢). وكلمة «شَأْ» كلمة زجر للبعير.

وإنما يدعو الإنسان على نفسه أو على ولده، أو على ماله مثل البعير والناقة؛ بدافع انفعال الغضب والضجر، وقد يستجيب الله هذا الدعاء، فيصيبه شرٌّ كثير، لم يكن يريد.

وقال عطاء بن رباح: ما أبكى العلماء بكاء آخر العمر من غصبة يغضبها أحدهم فتهدم عمل خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة! ورُبَّ غصبة قد أقحمت صاحبها مقحماً ما استقاله^(٣)!

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٥)، وأحمد (١٩٨٧٠).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٩).

(٣) عزاه لابن أبي الدنيا ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٧٤/١)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.



وقال عليه السلام: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»^(١).

وإنما نُهي القاضي عن القضاء بين اثنين في حالة الغضب؛ لأنَّ الغضب يُؤثر في سلامة حكمه، ويُشوّش عليه تفكيره. ويصيبه بشيء من الغشاوة، التي قد تحجب عنه الرؤية الصحيحة والكاملة للأشياء، وتدفعه لأن يقول ما لم يكن يحبُّ أن يقوله، ويفعل ما لم يكن يريد أن يفعله، ويُقرّر ما لم يكن يريد أن يُقرّر. وهذا ما جعل عددًا من الفقهاء المُحقّقين يقولون بعدم إيقاع طلاق الغضبان، مستدلّين بالحديث الشريف: «لا طلاق ولا عِتاقَ في إغلاق»^(٢). فسّرهُ بعضهم بالإكراه،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥٨)، ومسلم في الأفضية (١٧١٧)، عن أبي بكرة بلفظ: «لا يقضينَّ حَكَمَ...».

(٢) رواه أحمد (٢٦٣٦٠)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والحاكم (١٩٨/٢)، ثلاثهم في الطلاق، وحسّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٦٥)، عن عائشة. قلت: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصحّحه على شرط مسلم. وقد أخرجه الحاكم من طريقين عن عائشة وقال: صحيح على شرط مسلم. وردّه الذهبي بأن فيه من إحدى طريقه: محمد بن عبيد بن أبي صالح لم يحتج به مسلم، وضعفه أبو حاتم. ومن الأخرى نعيم بن حماد، صاحب منكير.

قلت: أما محمد بن عبيد فقد ذكره ابن حبان في الثقات كما في التهذيب، فليس مجمّعاً على تضعيفه، وبخاصة أن أبا حاتم لم يبين سبب ضعفه. وأما نعيم بن حماد الخزاعي فقد أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو من الرجال الذين انتقّدوا على البخاري. وقال الحافظ في مقدمة الفتح عنه: «مشهور من الحفاظ الكبار، لقيه البخاري، ولكنّه لم يخرج عنه في الصحيح سوى موضع أو موضعين، وعلق له أشياء أخر. وروى له مسلم في المقدمة موضعاً واحداً، وأصحاب السنن إلّا النسائي. وكان أحمد يوثقه، وقال ابن معين: كان من أهل الصدق، إلّا أنّه يتوهم الشيء فيخطئ فيه. وقال العجلي: ثقة. وقال أبو حاتم: صدوق. وقال النسائي: ضعيف ونسبه أبو بشر الدولابي إلى الوضع. وتعقب ذلك ابن عدي بأن الدولابي كان متعصباً عليه؛ لأنّه كان شديداً على أهل الرأي، وهذا هو الصواب، والله أعلم» انتهى من مقدمة فتح الباري (٤٤٧/١). وأخرجه البيهقي في السنن (٣٥٧/٧) من طريق ثالثة عن عائشة، على خلاف ما ذكر ابن حجر في التلخيص.

وبعضهم بالغضب. وكتب ابن القيم رسالته القيمة: «إغاثة اللهفان، في حكم طلاق الغضبان».

وجاء النهي عن قضاء القاضي وهو غضبان، حتّى يذهب عنه الغضب، ويعود إلى حالته السويّة من الرضا والهدوء، وسكينة النفس. وقد قاس العلماء عليه كل أنواع الانفعال الأخرى، من شدّة الحزن، أو شدّة الفرح، أو شدّة الخوف، أو شدّة الجوع، ونحوها ممّا يُخرج الإنسان عن سواء حالته، ويُعرّضه لخطر البعد عن السداد.

ومن المعروف أنّ الإنسان في حالة الطفولة، وفي حالة المراهقة، يتصرّف وفّق العواطف والغرائز، أكثر ممّا يتصرّف وفّق مقتضى العقل والحكمة.

فالإنسان الراشد هو الذي يُحكّم عقله في عاطفته، ويزن أقواله وأعماله بميزان العقل. وأنا أعني: العقل المؤمن، المهتدي بنور الوحي، ليكون له نوراً على نور.

وكثير من النّاس إذا غضب، أخرجته غضبه عن الحقّ، وإذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا اشتدّ فرحه أو حزنه، شرد عن الصواب. وينشدون قول الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا^(١)!

= وبهذا يظهر أنّ الحديث بطرقه لا ينزل عن درجة الصحة التي ادّعاها الحاكم، وأقرّه عليها ابن القيم وغيره، فإن نزل عنها فليس إلى أقل من درجة الحسن المحتج به، وقد سكت عليه أبو داود، واحتج به البيهقي لمذهب الشافعي: أن طلاق المكره لا يقع على أساس تفسير الإغلاق بالإكراه وهو لا ينافي تفسيره بالغضب. ورواية أبي داود: «في إغلاق»، قال: أظنه الغضب.

(١) البيت لعبد الله بن معاوية، هو أول من ذكر (عين الرضا) في شعره، وأرسل مثلاً، كما قال =

ومن المأثور: «حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ»^(١).

ومن هنا، كان خطر «العاطفة» إذا غلبت العقل في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة. والمطلوب - إذن - أن يوازن المرء بين عاطفته وعقله، فلا يُلغي عاطفته ومشاعره تمامًا، فهذا ليس بمطلوبٍ، وليس بممكن، ولكن لا يدع عواطفه تحكم عقله، وتوجّه سيره، فهو يحبُّ ولكن حبّه لا يجعله يتحيّز لمن يُحبّه في الحقِّ والباطل، وهو يُبغض، ولكنّ بُغْضَه لا يجعله ينحاز ضدَّ من يُبغضه في كلّ حالٍ، وهذا ما أمر به القرآن أهل الإيمان.

فقد أمرنا بالقيام بالقسط والعدل مع من نحُبُّ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

كما أمرنا بالقسط والعدل مع من نُبغِضُه أو يُبغِضُنَا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. والشنان: هو شدة البغض، سواء كان مِنَّا أم منهم.

عاطفيّة الجماعات:

وإذا كانت غلبة العاطفيّة على العقلانيّة مذمومة في الأفراد، فلا ريب أنّها كذلك مذمومة في الجماعات والحركات.

= الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٣٢٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف، ط ١، ١٩٦٥ م.

(١) رواه أحمد (٢١٦٩٤) عن أبي الدرداء مرفوعاً وقال: وحدثنا أبو اليمان، ولم يرفعه. وقال مخرجه: صحيح موقوفاً.

وقد غلب على كثير من فصائل الصحوة الإسلامية في بعض الأوقات: الجانب العاطفي، والخطاب العاطفي، وتقلص الخطاب العقلاني والعلمي الذي يقوم على الدراسة المتأنية، وعلى الموازنة الموضوعية، ويستند إلى الأرقام والإحصاء.

ولذا تروج في هذه الحال بضاعة الخطباء المهيّجين، والكتّاب المثيرين، والصحفيين المبالغين.

وهذا النوع من الخطاب يدغدغ عواطف الجماهير، ويسلب عقولهم من رؤوسهم، ويُيقِهم أجسامًا بلا أحلام، يسوقهم من يريد سوقهم إلى ما يريد، دون أن يناقشه أحدٌ قبل القرار، أو يُحاسبه بعد القرار، وكأنّه لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون!

مظاهر العاطفية في الصحوة:

ولا شك أنّ الصحوة الإسلامية في بدايتها - وخصوصًا لدى عدد من فصائلها - اتّسمت بكثيرٍ من مظاهر العاطفية في توجيهاتها وأحكامها وتصرفاتها، منها:

تمجيد الذات:

١ - المبالغة في تزكية النفس، وتمجيد الذات وتضخيمها، بحيث يُغَطّي ذلك على عيوبها، ويُبرز حسناتها، ويخفي سيئاتها، وبهذا لا تُقوّم نفسها تقويمًا عادلًا، لا طغيان فيه ولا إحصار، وقد أمرنا أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسنا أو الوالدين والأقربين. كما نهينا أن نزكّي أنفسنا، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

[النجم: ٣٢].

وقد ذمَّ القرآن اليهود الذين يزكُّون أنفسهم، ويزعمون أنهم وحدهم «شعب الله المختار»، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

وقال تعالى أمرًا المؤمنين: ﴿يَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسِطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

إنَّ تزكية النفس وتضخيم الذات كثيرًا ما تؤدي إلى عمى الإنسان عن رؤية عيوب نفسه، ومعرفة جوانب القصور والتقصير فيها، ابتغاء إصلاحها، والاشتغال بعيوب الآخرين، وهذه آفة خطيرة، ينبغي على فصائل الصحة تلافيتها.

ومما يُذكر هنا: أَنَّ يهود بني قَيْنُقَاع بعد أن انتصر الرسول الكريم وأصحابه في غزوة بدر الكبرى، قال له هؤلاء اليهود في عَجَب وغُرور: لا يغرّنك أنّك لقيت قومًا لا خبرة لهم بالحرب، فانتصرت عليهم، فلو لقيتنا لعلمت أننا الناس! ^(١)

وكان هذا التبجح والإعجاب بالنفس سبب جلائهم عن المدينة، بعد أن نقضوا العهد الذي أبرمه الرسول ﷺ معهم.

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

(١) رواه الطبري في تاريخه (٤٧٩/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

الإسراف في الحب والبغض:

٢ - الإسراف في الحب والبغض، وقد ورد: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»^(١). وفي الأمثال: لا يكن حُبُّكَ كَلْفًا، ولا بُغْضُكَ تَلْفًا. وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

الاستغراق في الأحلام:

٣ - الاستغراق في الخيال، ومدُّ حبال الأمانى والأحلام، دون أن يكون لها رصيد من واقع الأشياء، وقد ذمَّ الله اليهود والنصارى حين تعلقوا بدخول الجنة دون عمل يؤهلهم لها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وفي الحديث: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢).

وقال علي رضي الله عنه لابنه محمد بن الحنفية: «إياك والاتكال على المني؛ فإنها بضائع النوكى»^(٣) أي: الحمقى.

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٩٧)، وقال: هذا حديث غريب، والصحيح عن علي موقوف قوله. والطبراني في الأوسط (٣٣٩٥)، قال العراقي في تخريج الإحياء ص ٦٤٣: رجاله ثقات رجال مسلم، لكن الراوي تردّد في رفعه. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨)، عن أبي هريرة. (٢) رواه أحمد (١٧١٢٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة والرفائق (٢٤٥٩)، وقال: حسن. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٢٨٠/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن شداد بن أوس.

(٣) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٠١/٣ - ١٠٢)، وابن حمدون في التذكرة (٣٣٠/٣)، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ.

وقال الشاعر:

وَلَا تَكُنْ عَبْدَ الْمُنَى، فَالْمُنَى رُؤُوسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ^(١)!

الاستعجال في قطف الثمرة:

٤ - الاستعجال في قطف الثمرة قبل أوانها، وهذا ما أوقع كثيرًا من الشباب المخلصين في أعمال ليس لها جدوى، إلا الانتحار الجماعي، وتقديم ضحايا في غير عدو، وفي غير ميدان جهاد حقيقي.

وكثير من الشباب: يريد أن يزرع اليوم، ويحصد بعد شهر أو أسبوع، بل ربّما زرع اليوم، وأراد أن يحصد غدًا، على خلاف سُنّة الله في الزرع والحصاد، ومن صادم سُنّة الله تعالى صدمته وقهرته؛ لأنّها غلابة قهّارة، ولا تخضع لعواطف الناس ولا لأمانيتهم.

الاعتماد على حسن النية، دون تحرّي الصواب:

٥ - ومن دلائل العاطفية وغياب العلمية والعقلانية: الاعتماد في الأمور على مُجرّد «حسن النية» وتوافر الإخلاص، دون بذل الجهد في تحرّي الصواب والأصوب.

وهذه آفة كثير من الناس «الطيبين»، كما نسميهم. فهم يكتفون بأن لديهم نوايا حسنة، ورغبة في الخير، ومحبة للحق، ولكنهم يرتكبون من الأخطاء، ويقعون في خطايا قد تُضيع دينهم ودنياهم معًا.

فهم لا يتصوّرون الأمور على حقيقتها، ولا يتعرّفون على الأشياء، كما ينبغي أن تعرف، ولا يميّزون بين طيبٍ وخبيث، ومن أخطأ تصوّر

(١) هو أبو بكر الخالدي. كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ١١٣، نشر الدار العربية للكتاب.

الأمر الذي يريده، أو أخطأ الطريق إليه، فلا يمكنه أن يصل إليه، فقد يُشَرِّق، ومراده في الغرب. أو يُغَرِّب، ومقصوده في الشرق. ومعظم البدع التي لحقت بالدين، ولوَّثت نقاءه، وكدَّرت صفاءه، كان سببها: الرغبة الصالحة في عبادة الله، والإخلاص له، دون الاجتهاد في «تصويب العمل» والاطمئنان إلى صحَّته، ومضائه على النهج القويم الذي يُعبَّر عنه بـ «السُّنة».

وهذا ما نبّه عليه سلف الأمة الواعون، كما روي عن الفضيل بن عياض أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿أَتُكْمَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المك: ٢]. يا أبا عليّ، ما أحسنُ العمل؟ قال: أحسنُ العمل أخلصُه وأصوبُه، إنَّ العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا؛ لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقبل، ولا يُقبل إلا إذا كان خالصًا وصوابًا، وخلوصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السُّنة^(١).

فما لم يكن على السُّنة، أعني المنهج الشرعي، لم يُقبل، وإن كان خالصًا لله.

ولهذا كان من الأدعية الماثورة: اللهم، أرنا الحقَّ حقًّا، وارزُقنا اتِّباعه، وأرنا الباطلَ باطلاً، وارزُقنا اجتنابه.

ومعنى هذا، أن رؤية الحقَّ حقًّا، ورؤية الباطل باطلاً، أي تصوُّر الأمور وإدراكها على ما هي عليه أمرٌ مطلوب، بل ضروريٌّ.

من أجل هذا حذّر القرآن من غَبَشِ الرؤية، وضلال المرء عن الحقيقة، فتزَيَّن له الأشياء، فيراها عكس ما هي عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٨).



وكان من عمل الشيطان في إضلال البشر: «التزيين»، و«الإغواء»، كما قال تعالى على لسانه: ﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُيُوتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿[الحجر: ٣٩، ٤٠].

والتزيين يعني: تزويق الأشياء لهم، بحيث يرونها على غير حقيقتها، فيُريهم الباطل في صورة الحق، والشر في صورة الخير، ويُريهم السراب يظنونه ماءً، حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً، ويُريهم السيئات، تُخيل إليهم حسنات.

ولا غرو أن زين الشيطان لكثير من الناس أعمالهم، فصدهم عن السبيل، وعن الصراط المستقيم.

كما قال تعالى على لسان الهدد في ملكة سبأ وقومها: ﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿[النمل: ٢٤].

ولم ضل كثير من الناس عن الحق؟ لأنهم لم يبحثوا عنه كما يجب، ولم يعملوا عقولهم في التمييز بين التوحيد والشرك، وبين النور والظلمات، فوقعوا في الضلال المبين. استمع إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿[الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهذا هو الخطر الأكبر على الإنسان العاقل المكلف، أن يعيش تابعا لغيره، ويمشي وراء الآخرين، فاقداً عقله الذي ميزه الله به، لا يفكر ولا يوازن، ولا يختبر ما عنده وما عند الآخرين، يأخذ القضايا الكبيرة «مُسَلَّمات»، دون أن يمتحنها ويعرف صدقها وصوابها. كما قال تعالى:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

خطوات في طريق البحث عن الصواب والأصوب:

إنَّ المطلوب من المسلم - مع حسن النية وإخلاص القصد - هو تحرّي الصواب، بل البحث عن الأصوب، ما استطاع.

والبحث عن الصواب والأصوب، يلزمه جملة أشياء:

١ - ألا يأخذ كلَّ ما يُلقَّنه قضيّة مُسلّمة، بل يمتحن ما عنده حتّى يطمئنَّ إلى صحته تمامًا، مترقيًا من مرتبة إلى مرتبة حتّى يصل إلى «حقّ اليقين»، وقد ذكر القرآن لنا نموذجًا يتمثل في أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم»^(١).

والمُرَاد بالشكِّ هنا: طلب اليقين الحقّ بالمشاهدة.

٢ - أن يوازن بين ما عنده ممّا يعتقده صوابًا، وما عند غيره، فلعله يستفيد من ذلك تصويب بعض ما عنده، أو الوصول إلى أصوب وأمثل، أو ينتهي بتثبيت ما عنده، فبضدّها تتميَّز الأشياء^(٢)، والضدُّ يُظهر حُسْنَهُ الضدُّ^(٣)، كما قال الشعراء قديمًا.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) شطر بيت للمتنبي غير أن فيه: (تبيين) بدل (تتميز). انظر ديوانه ص ١٢٧.

(٣) شطر بيت من القصيدة اليتيمة المنسوبة لكل من ذي الرمة ودوقلة المنبجي، انظر: القصيدة اليتيمة برواية التنوخي ص ٣٠، تقديم د. صلاح الدين المنجد، نشر دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.

٣ - أن يسأل غيره فيما يجهله كُليّة، أو يعرف بعضه ويجهل بعضاً آخر، فليس هنا من يعلم كلّ شيءٍ إلّا الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ويخاطب خاتم رسله وصفوة خلقه، فيقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. والناس يتعلّم بعضهم من بعض، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وقديماً تعلّم ابنُ آدم الأوّل من غراب، وتعلّم نبيّ الله سليمان من الهدهد، حين أحاط بما لم يحط به، وجاءه من سبأ نبأ يقين.

وفي حديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال عن قوم أخطؤوا الفتوى: «هَلَّا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(١).

ولكن من المهمّ هنا، ألاّ يسأل جاهلاً بالمسألة مثله أو أجهل منه، إنّما عليه أن يسأل خبيراً بها، عارفاً متقناً لها، كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. قال غير واحد من السلف: أولو الأمر العلماء^(٢). وقال بعضهم: الأمراء حُكَّامٌ على الناس، والعلماء حُكَّامٌ على الأمراء^(٣).

٤ - ألاّ يقحم نفسه فيما لا يُحسِنه، فيفسد أكثر ممّا يصلح، ويهدم أكثر ممّا يبني، كالطبيب الذي يعالج المرضى وهو غير مُتخصّص، وهذا

(١) سبق تخريجه ص ٦١.

(٢) انظر تفسير الطبري (٤٩٩/٨ - ٥٠١).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢٥٥/١) والقائل: أبو الأسود الدؤلي.

يضمن ما أتلفه من النفوس والأعضاء، ولا يغتفر له خطؤه، كما يغتفر لأهل الاختصاص إذا لم يقصروا تقصيرًا بيّنًا. وفي الحديث: «من تطبّب، ولم يُعلم عنه طبٌّ؛ فهو ضامن»^(١).

وكذلك الذي يدخل نفسه في ميدان الفتوى، فيفتي بغير علم فيضل ويضل، كما في الحديث المتفق عليه: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتّى إذا لم يترك عالمًا، اتّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»^(٢).

وفي حديث الرجل الذي أصابته جراحة، فأفتاه جماعة - وقد أصابته جنابة - أن يغتسل برغم جراحته، فاغتسل فمات، من تفاقم جرحه، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فقال: «قتلوه قتلهم الله! هَلَّا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما دواء العِيِّ السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيّم»^(٣).

فمن الفتاوى - الصادرة عن الجهل - ما يقتل، ولا عجب أن دعا عليهم النبي الكريم: «قتلوه قتلهم الله»!

العجلة والارتجال:

ومما يجانب العقلانيّة والعلميّة: الارتجال، والاستعجال في رسم السياسات المهمة، واتّخاذ القرارات الخطيرة، دون أن تأخذ حقّها من

(١) رواه أبو داود في الديات (٤٥٨٦)، والنسائي في القسامة (٤٨٣٠)، وابن ماجه (٣٤٦٦)، والحاكم (٢١٢/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٣٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) سبق تخريجه ص ٦١.

الدراسة والمناقشة والإنضاج، بل تسلق الأمور سلقًا، وتلهب الظهور بالسوط والعصا لما يريد السلطان تنفيذه، بدعوى أن «خير البر عاجله»، وأن البطء والتواني يقتل الحركة، ويضيع البركة.

وغفل هؤلاء، أن بديل العجلة والارتجال ليس هو التواني أو التباطؤ والتمادي، بل بديل ذلك هو التأني والترث، حتى تستبين المعالم، وتتضح المحجة ويزول الالتباس.

وفي الحكمة الماثورة: «في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة»، و«من تأنى نال ما تمنى».

وفي الحديث الشريف: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»^(١).

وقال الرسول الكريم لأشج عبد القيس: «إنَّ فيك لخصلتين، يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة»^(٢).

والواجب على كل من يريد أن يرسم سياسة أو يصدر قرارًا في أمر من الأمور العامّة، ألا يتعجل في ذلك، دون أن يُعدَّ العدة له، بتقديم الدراسة الواعية، لقضية يريد أن يقدم عليها ويتخذ فيها موقفًا، بالإيجاب أو السلب، على معنى أنّه ينبغي عليه أن يتأنى ويتريث في اتخاذ المواقف، وإصدار القرارات في الموضوعات والقضايا ذات الأهمية، وليحذر الرأي الفطير^(٣)، أو الرغبة الجامحة، أو الاستجابة لتحريض من حوله، من ذوي المصالح والأهواء، أو العاطفيين المستعجلين من الناس.

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٢)، وقال: هذا حديث غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيم بن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه. والطبراني (١٢٢/٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٣٠٣)، عن سهل الساعدي

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رأي فطير: خَطَرٌ بالبال وَأُبدى بِلَا تَثْبُت. المعجم الوسيط مادة (ف. ط. ر).

وفي عصرنا - عصر المعلومات - يستطيع الباحث في أمر ما، أن يجد له من المراجع المتصلة به، ومن المصادر التي تتحدث عنه الكثير الكثير، وخصوصًا على شبكة المعلومات الشهيرة: «الإنترنت»، وسيجد من الإحصاءات والأرقام والرسوم البيانية والمقارنات، ما لم يخطر له على بال.

فلا يجوز لنا في القرن الخامس عشر - أو القرن الحادي والعشرين - أن ندع هذا الكم الهائل، من المعلومات الحية والجديدة «الطازجة»، ونكتفي بمعلومات قديمة جزئية قاصرة، غير موثقة ولا مقنعة.

ويجب على من يريد تبني موقف، أو اتخاذ قرار مهم، أن يستشير أهل الشورى، فمن الأمور ما يحتاج منه إلى أن يشاور المختصين الفنيين في الموضوع، الخبراء فيه، الذين يعرفون موارده ومصدره، وأوله وآخره، فعليه أن يشاورهم، وينصت إليهم.

ومن الأمور ما يحتاج إلى مشاورة «أهل الحل والعقد» في الأمر، كالأمر المتعلقة بالسياسة والسلم والحرب، والعلاقات الدولية، والقرارات الاقتصادية الخطيرة، كفرض الضرائب، ونحوها، مما يتعلق بـ «الأمر العام»، الذي جاءت النصوص الشرعية تطلب المشاورة فيه، كما في قوله تعالى في سورة الشورى، في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وفي سورة آل عمران: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فـ «الأمر» في الآيتين: هو الأمر العام، الذي يهم المجتمع المسلم كله؛ فيجب على ولي الأمر المسلم - وكل ذي سلطان في سلطانه - أن يشاور أهل الحل والعقد، وهم أهل شوره في الموضوع،

وعلى كل منهم أن يشير برأيه بشجاعة وصراحة، دون لفّ ولا دوران، لا يخاف في الله لومة لائم. وعليه أن يناقشهم، فإن أجمعوا نزل على إجماعهم، وإن اختلفوا أخذ برأي الأكثرية، فرأي الاثنين، أقرب إلى الصواب من رأي الواحد، وقد جاء في الحديث: «إنَّ الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد»^(١).

التوكل دون أن يعقل الناقة:

جاء في الحديث: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، ومعه ناقته، وأراد أن يدخل عند النبي ﷺ في المسجد، فسأله: أأعقل ناقتي (أقيدها)، يا رسول الله أم أدعها وأتوكل على الله؟

فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل»^(٢).

وصارت مثلاً بين المسلمين من يومها وإلى الآن، وما بعد الآن، «اعقلها وتوكل»، أو «قيدها وتوكل».

ومعنى الحديث: أن التوكل لا ينافي اتخاذ الأسباب المشروعة، التي ربط الله تعالى بها مسبباتها.

فمن أراد أن يحصد، فلا بد أن يزرع، ومن أراد أن يجني، فلا بد أن يغرس، ومن أراد أن يشفي، فلا بد من أن يتناول الدواء، ومن أراد أن يأكل من رزق الله، فلا بد أن يمشي في مناكب الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

(١) رواه أحمد (١١٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي في الفتن (٢١٦٥)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٨١)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة الفقر (٢٢)، عن أنس.

ولما رأى سيدنا عمر جماعة في المسجد بعد صلاة الجمعة، قد بقوا جالسين، والناس قد انتشروا في الأرض، سألهم: من أنتم؟ قالوا: متوكلون! قال: بل أنتم متأكلون. لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم! ارزقني. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]؟ وأخرجهم من المسجد^(١).

إننا نجني على الدين، ونجني على الحياة، ونجني على أنفسنا؛ إذا أهملنا الأسباب، بدعوى أننا متوكلون على الله تعالى. فقد كان أفضل الخلق وسيد الرسل: محمد ﷺ، أعظم المتوكلين على ربه، ولكنه لم يُغفل الأسباب في حياته، وسيرته الشخصية والعامة.

إغفال السنن في الكون والمجتمع:

ومن دلائل العاطفية والغوغائية في التفكير والسلوك: تجاهل سنن الله في الكون والمجتمع، وإسقاطها من الاعتبار، وإجراء الأمور على أعنتها، كأن هذا الكون يمضي اعتباطًا، أو تُسيّره المصادفات وحدها، فهو يتخبّط يمينًا حينًا، وشمالًا أخرى، فليس يجري على قاعدة ولا نظام ولا قانون. وأقول: للأسف هذا ما يدور في أذهان كثير من العوام، وأشباه العوام من المتعلمين، فهم يفهمون «القدر» فهمًا أعوج أعرج، كأنما يعني الفوضى في الكون والحياة والمجتمع. يقول أحدهم:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا وَلَا تَبْتَئَنَّ إِلَّا خَالِي الْبَالِ
يَوْمًا تَرِيشُ خَسِيسَ الْحَالِ تَرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي^(٢)!

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

(٢) عزاه ابن أيدمر المستعصمي إلى الوزير أبو إسماعيل الحسن بن علي الطغرائي. انظر: الدر =

وكانَّ الشاعر، يحسب أنَّ المقادير ترفع الخسيس إلى السماء، وتُنزل العالي إلى الحضيض، على غير سنن معلومة، وقوانين مرسومة. وهذا ليس بصحيح، فإن هذا كله يجري على سنن مرعية، من عرفها ووعاها ورعاها؛ رعته، ومن لم يعرفها ولم يرعها؛ صدمته، ولم تبال به، أيًا كان مكانه ومكانته.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَخْطَوْا، فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ - وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ - فَدَفَعُوا ثَمَنَ غَلْطِهِمْ، وَانْكَسَرُوا بَعْدَ انْتِصَارٍ، وَسَقَطَ مِنْهُمْ شَهْدَاءُ سَبْعُونَ مِنْ أَمْثَالِ حَمْزَةٍ وَمَصْعَبٍ، وَسَجَّلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حِينَ قَالَ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْبَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سُنَّنا فِي «النَّصْرِ»، لَا بَدَّ أَنْ تَرَاعَى، وَسُنَّنا فِي «التَّغْيِيرِ» لَا بَدَّ أَنْ تَرَاعَى. وَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطْمَعُ فِي النَّصْرِ وَنَحْنُ نَتَجَاهَلُ سُنْنَ النَّصْرِ، الَّتِي عَرَفَهَا النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ، وَعَرَفَهَا لَنَا الشَّرْعُ بِآيَاتِهِ وَنُصُوصِهِ. وَعَرَفَهَا النَّاسُ بِتَجَارِبِهِمْ وَمُمَارَسَاتِهِمْ، طَوَالَ التَّارِيخِ.

= الفريد وبيت القصيد (٤٤١/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م. وهو في ديوان الطغرائي بلفظ:

في ظل عيش رقيق ناعم البال
يقلب الدهر من حال إلى حال

لا تسهرن إذا ما الرزق ضاق ونم
فبين غفوة عين وانتباهتها

من سنن النصر: أن تُعد لعدوك ما تستطيع من قوّة، سواء كانت هذه القوّة مادّيّة، أم معنويّة، عسكريّة أم اقتصاديّة، وهو ما أمر به الله تعالى في كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومن هذه العُدّة المعنويّة: تجميع قوى الأمة، لدخول المعركة صفّاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ [الصف: ٤]. والتحذير من التنازع والتفرّق، ولا سيّما عند لقاء الأعداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومن سنن النصر: أنّه لا يتمّ إلاّ بالمؤمنين، ولا يكون إلاّ بالمؤمنين، فالنصر لهم، والنصر بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

وقال أيضاً، يخاطب رسوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ * وألّف بين قلوبهم * [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فهو سبحانه كما أيّده بنصره، أيّده بالمؤمنين المؤتلفة قلوبهم.

صحيح أنّه أنزل عليهم ملائكته في أكثر من غزوة، ولكنّ الملائكة لا تنزل في فراغ، إنّما تنزل على المؤمنين، ليكثر سوادهم، وتشدّ أزهرهم، ويكون ذلك بُشرى لهم، وليطمئنّ به قلوبهم، كما قال تعالى في غزوة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وهكذا رأينا أمر الله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، لا بدّ أن يوجد: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وأن يثبتوا وجودهم، حتّى ينزل عليهم، وتنزل عليهم الملائكة بشرى وتثبيتاً.

اعتماد المبالغة:

وممّا ينافي الاتجاه العقلاني والعلمي، ويدخل في العاطفية والغوغائية: اعتماد أسلوب «المبالغة» في تصوير الأشياء، وعرضها، مادّية أو معنوية، مشاكل كانت أو حلولاً.

فهي تُصَوِّر «مكبّرة» بأضعاف حجمها، إن أريد لها «التهويل»، أو «مُصَغَّرة» دون حجمها بكثير، إن أريد «التهوين»، وبين التهويل والتهوين، تضع الحقيقة.

خذ مثلاً: الحديث عن «الكيان الصهيوني»، فهناك من يهون من أمره، ويعتبره شيئاً تافهاً، وأنا قادرون على أن نلقي الصهاينة في البحر، كما كان يقال في السّتينات.

وفي مقابل هؤلاء: من يهول من أمر الصهاينة، ويعتبرهم كأنهم حكام العالم، وأنهم يحركون قوى العالم من وراء ستار، كما نرى بعض الكتب التي تتحدث بأن «الدنيا لعبة إسرائيل»، وأنّ العالم «أحجار على رقعة الشّطرنج». وعن «الحكومة الخفية» التي تحكم العالم، وأن دولة الكيان الصهيوني هي «القوة التي لا تقهر» إلى آخر تلك المقولات، التي تزرع الرعب في القلوب، وتضخم أمر العدو في النفوس، ناسين ما ذكره الله تعالى في كتابه، من أوصافهم: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾

[البقرة: ٩٦].

التهريج و«الديماغوجية»:

ومما يدخل في ذلك أيضًا: أسلوب «التهريج» والصراخ، ومحاولة كسب الآخرين، أو التغطية عليهم بإعلاء الصوت، وإظهار الضجيج، على نحو ما قال المشركون قديمًا، فيما حكاه عنهم القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فهم يريدون أن يغلبوا بهذا الأسلوب الرخيص: اللغو، والتشويش بالباطل على الحق، حتى لا يحسن الناس أن ينصتوا إليه ويتفهموه.

وهناك أساليب كثيرة، يتخذها هذا النوع من الناس، الذين يسمونهم: «الديماغوجيين» منها: «السفسطة»، وهي تزيين بالأباطيل، لتقبل عند العوام الذين لا يزنون الأمور بميزان المنطق، ولا يدققون في فهمها، بحيث توصل مقدماتها إلى نتائجها، دون خلل أو اضطراب.

خذ مثلاً ما ينسب إلى أبي نواس:

دَعِ الْمَسَاجِدَ لِلْعِبَادِ تَعْمُرْهَا وَطُفْ بِنَا نَحْوَ خَمَارٍ لِيَسْقِينَا
مَا قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلْأَلَى سَكِرُوا بَلْ قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا!

فقد يروج هذا الكلام لأوّل وهلة، عند الأغبياء من الناس، ولكنهم إذا تأملوه، وجدوه زائفاً، وعارياً عن الحقيقة. فإنّ الله لم يقل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾. ثمّ سكت، بل قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ [الماعون: ٤، ٥].

وقوله: «ما قال ربك: ويل للألى سكروا» ليس صواباً، بل قال ما هو أشد من ذلك، حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ومن الكُتّاب والصحفيين والإعلاميين، بل ومن المؤلفين، من يستخدم هذا الأسلوب النواصي في التسويق لما يعتنقه من أفكار، وما يدعو إليه من فلسفات.

السطحية في فهم القضايا ومعالجتها:

ومن دلائل العاطفية ومنافاة العقلانية: السطحية في معالجة الأمور الكبيرة، والقضايا الخطيرة، وتبسيط الأشياء المعقدة، على طريقة ما يسميه العامة بـ «الفهلوة».

من مظاهر هذه السطحية، في فهم القضايا الكبيرة ومعالجتها، ما يأتي:

أ - التسليم بما يشيع بين الناس، وما يشتهر على الألسنة والأقلام، إذا كان فيه مدح لنا، أو قدح لعدونا، وإن لم يكن له أساس علمي، مثل التصديق لما سمي: «بروتوكولات حكماء صهيون»، وإن لم يقدّم عليها دليل عند الراسخين في العلم، والمختصين في هذا المجال.

على أنّ هذا يُقيم الحُجّة علينا أكثر، أن أعداءنا خطّطوا ورتّبوا، واجتمعوا ودبّروا، ثمّ صمّموا ونفّذوا، ونحن نكتفي بالتشجيع عليهم، ولم نجتهد أن نجتمع كما اجتمعوا، نُخطّط كما خطّطوا، ونُدبّر كما دبّروا، بل ما زلنا نُبدئ ونُعيد، ونُكرّر: أنّنا ضحايا لمخطّط جهنميّ يَكيد لنا، ويمكر بنا. فإلى متى نظلّ ضحايا تخطيط غيرنا، ولا نُخطّط نحن لأنفسنا؟!

ب - تقبل التفسير التأمري للتاريخ، وللأحداث والوقائع الحديثة والمعاصرة، فكلّ ما يقع في الكون عامّة، وفي كوننا نحن خاصّة، إنّما هو من تدبير الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، والإمبريالية

الأمريكية، وما نحن إلا «أحجار على رقعة الشطرنج»، وما الدنيا كلها إلا «لعبة إسرائيل»!

وهذا يوقعنا في لون من «الجبرية السياسية»، التي تسلبنا كلَّ حولٍ وقوّة، وتنفي عنا الإرادة والاختيار، فهي أشبه بـ «الجبرية الدينية»، التي تجعل الإنسان كريشة في مهبّ رياح الأقدار، تعبث بها كيف تشاء.

ثم إنَّ هذا - كما أشرت في بعض كتبي^(١) - يعوقنا عن محاسبة أنفسنا، أو النقد الذاتي لها، والمحاولة المخلصة لاكتشاف عيوبنا، ومعرفة حقيقة أمراضنا، ودراسة أخطائنا وخطايانا: الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والاجتهاد في تقصي الأسباب، لتشخيص الداء، ووصف الدواء. فلن يكون هذا ممكناً ما دام كلُّ قصورٍ أو تقصير، أو فسادٍ، أو خرابٍ أو خللٍ، سببه تخطيطٌ أجنبيٌّ مكر، وليس من عند أنفسنا. مع أنَّ المنهج القرآني يُعلِّمنا أن نرجع - قبل كلِّ شيء - باللوم على أنفسنا، والبحث عن السبب في داخلنا، كلما ألّمت بنا هزيمة، أو أصابتنا مصيبة، كما قال تعالى بعد غزوة أحد: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ج - البكاء على الأطلال، والتغني بالأمجاد، والتفاخر بما حقّقه الأسلاف الكرام، من حضارةٍ شمّاء، ومن إنجازاتٍ في مجال العلم ومجال السلوك، على أنَّ هذا لا يجدينا نفعا في حاضرنا، إذا لم نصله بماضيّنا. وماذا يفيد الرماد البارد أن يقول: كنت في الزمن الماضي جمراً ملتهباً؟! وماذا ينفع العظام النخرة أن تقول: كنت قديماً جسداً نابضاً بالحياة والحركة؟!

(١) أولويات الحركة الإسلامية ص ٨٠ وما بعدها.

إِنَّ الَّذِي يَثْبُتُ وجودنا حقًا هو عملنا نحن اليوم، لا أعمال أجدادنا بالأمس. وإنَّ النَّاسَ سيردون علينا - إذا تباهينا بهم - بقول الشاعر:

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءِ ذَوِي حَسَبٍ لَقَدْ صَدَقْتَ، وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا^(١)!

د - مواجهة عصر الثورة الإلكترونية، والثورة الفضائية، والثورة الجينية، والثورة الاتصالية، والثورة المعلوماتية، بعقلية عصور ما قبل الثورة الصناعية الأولى، كأنما نريد أن نواجه عصر سفن الفضاء، بعصر الجَمَل سفينة الصحراء!

وما زال بعض المتدينين منا يحسبون أننا بـ «العلم الديني» وحده، نستطيع أن نرقى بالأُمَّة، وأن بحسبنا أن نأخذ «العلم الدنيوي»، أي العلوم الطبيعيّة والرياضيّة، وتطبيقاتها التكنولوجية من الغرب، الذي سخره الله لنا، كما زعم بعض الدُّعاة القاصرين، الَّذِي خطب يومًا فقال: الحمد لله الَّذِي سَخَّرَ لنا الإفرنج الكفرة ليصنعوا لنا ما نريد من آلاتٍ وأدواتٍ ومنتجاتٍ، وسَخَّرَنا نحن لطاعته ومعرفة دينه!

وما يدري هذا المسكين، أَنَّ هذا الَّذِي يعتبره نعمة وفضلًا، إنّما هو جريمة في حقِّ الدِّين، وفي حقِّ الأُمَّة التي يفرض عليها دينها فرضًا كفايًا، أن يكون فيها من الخبراء والعلماء بعلوم الدُّنيا والطبيعة، ما يكفي الأُمَّة كفاية ذاتيّة، ويسد ثغراتها، ويغطي حاجاتها، وإلاَّ أثمت الأُمَّة كلها. كما قرّره المُحَقِّقون من فقهاءها.

ومن عجيب ما قرأته: أن بعض مشايخ الدِّين، ذهب إلى أن كل ما ورد في القرآن والسُّنة من الثناء على العلم، والتنويه بفضله وأهله،

(١) من شعر ابن الرومي، كما في ديوانه (٥٢٥/١).

إنَّما يقصد به علم الدين وحده، ولا يدخل فيه علم الدنيا، أي العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية ونحوها.

وهو قول ترد عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، كما بيَّنا ذلك في كتابنا: «العقل والعلم في القرآن الكريم»^(١).

هـ - الاستكثار من المرجَّيات والمُبشَّرات ومُنْعِشات الآمال، مع تعمُّد إغفال العوائق والعقبات الكبرى، والمثبِّطات عن السير، وقاطعات الطريق، من الأعداء الحقيقيين، ومن المُخدِّلين وضيق الأفق من أبناء قومنا.

صحيحٌ أنَّ العمل الإسلامي في حاجة إلى بواعث الأمل، وطوارد اليأس، حتَّى يمضي في طريقه، وإلَّا قتله المؤيِّسات والمثبِّطات وما أكثرها. وهذا ما جعلني: أخطب وأكتب في «المبشرات بانتصار الإسلام»، معتمداً على مبشرات القرآن، ومبشرات الحديث، ومبشرات التاريخ، ومبشرات الواقع، ومبشرات السنن. وإنَّما فعلت ذلك لأواجه دعاة اليأس، ومرَّوجي القنوط، حتَّى باسم الدين نفسه، عن طريق إشاعة «أحاديث الفتن»، التي ستقوم وتظهر في آخر الزمان.

ولكنِّي لم أغفل العوائق والعقبات من خارج الحركة الإسلامية، ومن داخلها. وقد سجَّلت ذلك من قديم، في كتابي: «الحلُّ الإسلامي لفريضة وضرورة»، وفي كتابي: «أين الخلل؟» وغيرهما.

ومن المهمِّ هنا، التركيز على العوائق الذاتية والداخلية، بدل التركيز على العوائق والعقبات الموضوعة في طريقنا بالمؤامرات الخارجية.

(١) انظر كتابنا: العقل والعلم في القرآن ص ١٤٩ - ١٦٦، فصل: شمول العلم وتنوعه في لسان القرآن، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.



إلى العلميّة والتخطيط:

إننا نريد للصحوة الإسلامية - وقد أدركت سنّ الرُّشد - أن تنتقل فكريًا وسلوكيًا من مرحلة «العاطفيّة» وما يصحبها من ارتجالٍ واعتباطيّة وغوغائيّة، إلى مرحلة «العقليّة» أو «العلميّة»، وما يلزمها من تخطيط وإعداد للمستقبل.

معنى «العلميّة» المنشودة:

فماذا نريد بـ «العلميّة» في هذا المقام؟

لسنا نريد بـ «العلميّة» تحصيل «العلوم» الطبيعيّة والرياضيّة، التي تعمقت وتعاضم شأنها في هذا العصر، وبلغت شأواً بعيداً، استطاع به الإنسان أن يصعد إلى القمر، وأن يحاول غزو الكواكب التي هي أبعد منه بكثير، وأن يربط العالم بشبكة من آليات الاتّصال، من الطائرات المتطوّرة، إلى الفاكس والهاتف المحمول، وشبكة الإنترنت، إلى غيرها، ممّا سُمّي: «ثورة الاتّصالات»، حتّى أصبح العالم اليوم قرية صغيرة.

واستطاع هذا العلم أخيراً أن يكتشف «الجينوم البشري»، أو «الخريطة الجينيّة» للإنسان، وهو اكتشاف خطير قد يترتب عليه آثار لا يعلم عواقبها إلّا الله.

وقبل ذلك، اكتشف هذا العلم الذرة وحطمها، واستخدمها في الحرب وفي السلم، كما صنع هذا الجهاز العجيب الذي تطور تطوراً هائلاً، حتّى قلب حياة النّاس رأساً على عقب، ألا وهو «الكمبيوتر».

لسنا نريد بـ «العلميّة» تحصيل هذا العلم، وإن كان تحصيله وهضمه والتفوّق فيه، من فروض الكفاية على الأُمّة، التي لا تزال عالّة على غيرها في معظم مجالاته.

وكل ما أريد أن أثبته هنا، هو أن العلم الذي نؤه به الإسلام، وأثنى على أهله القرآن، ليس مقصوراً على علم الدين، كما زعم زاعمون، أو توهم متوهمون.

فليس علم آدم، الذي علمه ربُّه الأسماء كلها، ولا علم يوسف تأويل الأحاديث، ولا علم داود وسليمان، ولا علم صاحب سليمان الذي أحضر له عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في لمح البصر، ولا علم طالوت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ليس هذا كله من «علم الدين» الخاص بالعقيدة أو بالشرعة.

وإنما المراد بـ «العلم» كل ما تنكشف به حقائق الأشياء، سواء كان موضوعه: الكون، أم الإنسان، أو الغيب، وسواء كانت وسيلة معرفته: العقل، أم الحس، أم الوحي.

على كل حال، أودُّ أن أوكد أن «العلمية» التي أقصدها هنا: أن تتحرر الصحو الإسلامية من النزعة العاطفية، والذاتية، والتبريرية، والتمجيدية، والخيالية، لتتجه إلى «النزعة العقلانية الموضوعية الحيادية الواقعية» في تقدير الأمور، وفي تقويم الأعمال، وفي تفسير الأحداث، وفي تفسير التاريخ، وفي النظر إلى الأنصار والخصوم، وفي تحديد المواقف واتخاذ القرار.

١ - سيادة الروح العلمية:

أؤكد هنا ما ذكرته في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية» في فصل «فكر علمي» وهو: أن يسود «التفكير العلمي» و«الروح العلمية».

نريد أن يسود «التفكير العلمي»، وتسود «الروح العلمية» كل علاقتنا ومواقفنا وشؤون حياتنا، بحيث ننظر إلى الأشياء والأشخاص والأعمال،

والقضايا والمواقف «نظرة علمية»، ونُصدر قراراتنا إستراتيجية والتكتيكية، في الاقتصاد والسياسة والتعليم، وغيرها بعقلية علمية، وبروح علمية، بعيدًا عن الارتجالية والذاتية، والانفعالية، والعاطفية، والغوغائية، والتحكمية، والتبريرية التي تسود مناخنا اليوم، وتصبغ تصرّفاتنا إلى حدّ بعيد. فمن سلم من أصحاب القرار من اتّباع هواه الشخصي، أو هوى فئته وحزبه، كان أكبر همّه اتّباع ما يُرضي أهواء الجماهير، لا ما يُحقّق مصالحها، ويؤمن مستقبلها، في وطنها الصغير، ووطنها الكبير، والأكبر.

و«للروح العلمية» دلائل ومظاهر أو سمات، كنت أشرت إليها، أو إلى أهمها في كتابي: «الحلّ الإسلاميّ فريضة وضرورة»، في مجال «النقد الذاتي» للحركة الإسلامية، يحسن بي أن أذكر بها هنا، وأؤكدّها، في مجال تأكيد حاجة الصحة الإسلامية إليها، وفي بعض الإعادة إفادة.

سمات الروح العلميّة المطلوبة:

وللروح العلميّة سمات، أشرنا إليها في بعض ما كتبنا قديمًا، ولا بأس من إعادته هنا، مع بعض الإضافة والتهذيب^(١)، أبرز هذه السمات:

أ - النظرة الموضوعيّة إلى المواقف والأشياء، والأقوال، بغض النظر عن الأشخاص، كما قال علي بن أبي طالب: «لا تعرف الحقّ بالرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله»^(٢).

(١) انظر كتابنا: الحل الإسلاميّ فريضة وضرورة ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) رواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢٧٤/٢)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

ب - احترام الاختصاصات، كما قال القرآن: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، فللدين أهله، وللاقتصاد أهله، وللعسكرة أهله، ولكل فن رجاله، وخاصة في عصرنا، عصر التخصص الدقيق، أما الذي يعرف في الدين، والسياسة، والفنون، والشؤون الاقتصادية والعسكرية، ويفتي في كل شيء، فهو في حقيقته لا يعرف شيئاً.

ج - القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه وتقويم تجارب الماضي تقويماً عادلاً، بعيداً عن النظرة «المنقبيّة» التي تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد! أو النظرة «التبريرية» التي تحاول أن تبرر كل خطأ أو انحراف، ولو بطريقة غير مقبولة، لا شرعاً ولا وضعاً.

د - استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية، والاستفادة من تجارب الغير حتى من الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن، أئنّى وجدها فهو أحق الناس بها. وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والآليات، كالتقنيات ونحوها، فنحن في سعة من استخداماتها ما دامت تخدم مقاصدنا وغاياتنا الشرعيّة.

هـ - إخضاع كل شيء - فيما عدا المُسلّمات الدينيّة والعقليّة - للفحص والاختبار، والرضا بالنتائج كانت للإنسان أو عليه.

و - عدم التعجّل في إصدار الأحكام والقرارات، وتبني المواقف إلاّ بعد دراسة متأنية مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتنكشف المآخذ والعيوب.

ز - تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، في الفقه وغيره، ما دام لكل دليله ووجهته، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع، ومن المقرر عند علمائنا أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية، إذ لا فضل لمجتهد على آخر. ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه في ظل التسامح والحب.

٢ - سيادة العقلية العلمية لدى أبناء الصحة:

نريد أن تكون لدى أبناء الصحة «العقلية العلمية»، التي حرصت تعاليم القرآن على إنشائها وتكوينها لدى المسلم. لا «العقلية العامة» الخرافية، التي تقبل كل ما يلقي إليها، ولو كان من الأباطيل والأوهام. والعقلية العلمية التي ينشئها القرآن، تقوم على دعائم معروفة^(١):

أ - فهي ترفض اتباع الظن، في مقام يطلب فيه اليقين، مثل تأسيس العقائد ونحوها؛ ولهذا ذم القرآن المشركين بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

ب - ترفض اتباع الهوى، والإذعان للعواطف، حيث تكون «الموضوعية» هي المطلوبة ولا يغني غيرها. ولذا قال تعالى عن المشركين أيضًا: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

ج - تنكر التقليد الأعمى، والجمود على ما كان عليه الآباء، أو السادة الكبراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

(١) بيَّناها بتفصيل بأدلتها في كتابنا: العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٤٧ - ٢٨٢.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

د - تؤمن بوجوب النظر والتأمل في آيات الله في الكون كله، وفي النفس، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ * من يضل الله فلا هادي له، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ [الأعراف: ١٨٥، ١٨٦]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُجْرِ يُفْرَدَى ثُمَّ تَنْفَكُّوْا ﴾ [سبا: ٤٦].

هـ - لا تقبل دعوى بغير برهان يثبتها في أي مجال؛ ولذا تكرر في القرآن قوله للمخاطبين: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]. والبرهان يعني: الدليل العقلي في العقليات، والدليل التجريبي في الحسيات، والدليل التاريخي في النقلات.

و - الخضوع لمنطق العلم في كل شيء، كما قال تعالى في مناقشة الكفار: ﴿ نَبْعُوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿ أَتُتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

٣ - استخدام لغة الأرقام والإحصاء:

ومن سمات «العقلية العلمية»، استخدام «لغة الأرقام»، التي يفهمها كل الناس مهما تختلف ألسنتهم، وهي لغة قاطعة الدلالة، إذا استوفت شرائطها. ولا يجوز لأبناء الصحوة، في القرن الحادي والعشرين الميلادي أن يستعملوا أساليب القرون البائدة، التي تعتمد الخطابات والوجدانيات

في الإقناع والتأثير، أو تعتمد على المصادفات والاعتباطات، فما عاد هذا يسوغ في عصرنا، كما لا يسوغ في منطق ديننا.

وإذا كان عصرنا، يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلميّة في معالجة الأمور، وهو فارق مميّز بين العلميين والعشوائيين - أو الغوغائيين - من الناس، فإنّ النبي ﷺ قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكّر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ، فقال: «أحصوا لي: كم يَلْفِظُ الإسلام؟»^(١).

وفي رواية للبخاري، أنّه قال: «اكتبوا لي: من تَلَفَّظَ بالإسلام من الناس»، قال حذيفة: فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل^(٢) الحديث.

فهو إحصاء كتابي، يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف ﷺ مقدار القوّة البشريّة الضاربة، التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تمّ في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة، وتمّ بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويُسر يُرينا إلى أيّ حدّ يُرحّب الإسلام باستخدام الوسائل العلميّة.

وفي مقابل هذا، نجد في «العهد القديم»: أنّ أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء، فنزلت عقوبة سماويّة بهم^(٣)! كأنّما «الإحصاء»

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٩) (٢٣٥).

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠).

(٣) انظر العهد القديم، سفر العدد، إصحاح (٢٣).

يمثل تحديًا للقدر أو للإرادة الإلهية، وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أنّ «التوراة» والكتاب المقدس، لا يتيحان مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية.

٤ - التخطيط للمستقبل:

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية، فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنّما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط: وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس من يتصوّرون، أو يُصوّرون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل؛ وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان، فهما ضدّان لا يجتمعان، أو خطّان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أنّ فكرة الدين في جوهرها، قائمة على أساس التخطيط للمستقبل؛ ففيه يأخذ المرء المتديّن من يومه لغده، وبعبارة أخرى: من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته. ولا بدّ له أن يُخطّط حياته، ويضع لنفسه منهاجًا يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

وفي القرآن الكريم قصّة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصّة نبي الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط، للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائية عامّة. عرف يوسف - بما ألهمه الله، وعلمه من تأويل الأحاديث - أنّها ستصيب المنطقة كلها، من خلال رؤيا ملك مصر يومئذ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة للملك، ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر

وما حولها، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ - ٤٩].

وقد كان لهذه الخطة المحكمة أثرها في الخلاص من الأزمة، لما فيها من الاحتياطات، والأخذ بكل الأسباب الممكنة، من ترك القمح في سنبله، وتقليل الأكل والاستهلاك، في أيام السعة والخصب، ادخاراً لأيام الشدة، والاستهلاك بحساب وتقدير في سنوات الأزمة، بدليل قوله لهم: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾. وإحصان بعض البذور وادخارها لإعادة بذرها، عندما يأتي الغيث والماء.

ويظن آخرون أَنَّ التخطيط للغد، ينافي التوكل على الله، أو الإيمان بقضائه وقدره؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحقُّ أَنَّ الَّذِي يتعمَّق في دراسة كتاب الله، وسنة رسوله، يتبيّن له أنّهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابطٍ، ولا رابطٍ، ولا نظامٍ. وقد بيّن الرسول ﷺ أَنَّ التوكل على الله لا يعني اطّراح الأسباب أو إغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلمٌ يجهل قصّة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً: يا رسول الله، أأعقل ناقتي وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟ فقال: «اعقلها وتوكل»^(١). وقد غدا هذا الحديث - الذي يعدُّ من جوامع الكلم - حكمةً شائعة، وقاعدة متوازنة، يحفظها الخاص والعام من المسلمين، ويتمثلون به في حياتهم.

(١) سبق تخريجه ص ١٣٣.

ومن قرأ سيرته ﷺ، وجد أنه كان يُعَدُّ لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأهبطه، آخذًا حذره، مقدّرًا جميع الاحتمالات، واضعًا ما أمكنه من الاحتياطات، مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى، كما بينتُ ذلك في كتابي: «الرسول والعلم».

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية، والسياسية، للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان - مهما بُعد في شبه جزيرة العرب - فإن قريشًا، بما لها من نفوذ ديني أو أدبي، تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة، لا يقبلون مثل هذه الدعوى الجديدة.

ولم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يذهبوا بعيدًا إلى بلاد الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافيًا، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينيًا؛ فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعَدُّون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيًا؛ فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا روي أن الرسول قال لأصحابه: «إِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ»^(١).

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم، برغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضًا، موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، ممّا نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣].

وهكذا، فقد كانوا - وهم في فجر الدعوة، وبرغم الضعف والاضطهاد - على صلة بالصراع العالمي، بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

٥ - إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم»، بالمفهوم العصري أو الغربي، أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياسي، الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع في نتائجه لما تأتيان به؛ ولهذا يسمى: «العلم التجريبي»، ويسمى منهجه: «المنهج التجريبي».

وهنا أيضًا، نجد الرسول ﷺ سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٣٠١/٢)، وجوّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ٦٩٠، عن أم سلمة.

أثبتت التجربة نفعه في هذا، فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره، فهو مرفوض شرعاً.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه السلام من قضية تأبير النخل، حين رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة، وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته، فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئاً، فلما علم ذلك عليه السلام، بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية، حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). فهذه الشؤون الدنيوية الفئّية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقاً لمصلحتهم، وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم من نبيهم صلى الله عليه وسلم.

والقصة في «صحيح مسلم»، و«مسند أحمد» وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم: طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس رضي الله عنهم.

ففي «صحيح مسلم» من رواية رافع بن خديج، أنه قال لهم: «إنما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي؛ فإنما أنا بشر»^(٢).

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) (١٤١)، وأحمد (١٢٥٤٤)، عن عائشة وأنس.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٢).

وفيه من رواية عائشة وأنس: أَنَّهُ ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شَيْصًا (بُسْرًا رديئًا): «ما لنخلكم؟!». قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: «أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْيَاكم»^(١).

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور، هاديًا ودليلاً. أما الوحي فحسبه أن يضع للناس القيم، والمبادئ العامة، والضوابط، ثم يدع البشر يتصرفون تبعًا لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

٦ - مراعاة السنن في الأنفس والآفاق:

ومن سمات العلميّة والعقلانيّة المطلوبة: مراعاة سنن الله تعالى وقوانينه في الآفاق والأنفس، في الكون والمجتمع.

وهي سنن تتميز بالشمول والصرامة والثبات، فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. فهي تجري على المؤمنين كما تجري على الكافرين، وتجري على أهل الشرق، كما تجري على أهل الغرب، وتجري على الناس قبل عشرين أو خمسين قرناً، كما تجري عليهم اليوم، وكما تجري عليهم غداً.

ومن هذه السنن:

١ - سنن الله في ترتيب المسببات على أسبابها، والنتائج على مقدماتها؛ فلا حصاد بغير زرع، ولا زرع بغير بذر، ولا بذر بغير سقي وتعهد.

(١) الحديث قبل السابق. وينظر: هذا البحث بطوله في كتابنا: كيف نتعامل مع السنّة ص ١٤٦،

١٤٧، نشر دار الشروق، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.



٢ - سنن الله في نشوء الحضارات وانحلالها، وقيام الدول وسقوطها، وازدهار المجتمعات وذبولها. كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

٣ - سنن تغيير الأقوام والمجتمعات، فهي لا تتغير إلا بمغير، وهو مغير من داخلها، لا من خارجها، وهو أن تغير ما بأنفسها ليغير الله ما بها، أي تغييره من الشر إلى الخير، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الرشd، فيغير الله حالها من الضعف إلى القوة، ومن الانفراط إلى التماسك، ومن التشرذم إلى الوحدة، ومن القنوط إلى الأمل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٤ - سنن النصر على الأعداء، فإن الله لا ينصر إلا من ينصره: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ولا ينصره إلا المؤمنون الذين ينصرون دينه، ويعلمون في الأرض كلمته، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فالنصر للمؤمنين، والنصر بالمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

* * *



من الفروع والذبول إلى الرؤوس والأصول

«العطاء والعمل، بدل الكلام والجدل» هذا هو شعار المرحلة القادمة للصحة الإسلامية، أو هكذا يجب أن يكون.

ولكن دوائر العمل رُخبة، ومراتبه متعدّدة، فأَيُّها ينبغي أن يُبدأ به، وأن تشير الأصابع إليه، وينصبُّ التوجيه والتوكيد عليه: أهو العمل الفكري، أم العمل التربوي، أم العمل الحركي، أم العمل الاجتماعي؟ ورأيي أن كلَّ مجال من هذه المجالات، ينبغي أن يكون له نصيب من العمل الواجب والمنشود.

ولكن العناية يجب أن توجه أولاً إلى الميدانين الأولين: ميدان الفكر والثقافة، وميدان التربية والتكوين.

إن تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة، ينبغي أن تكون له الأولوية المطلقة، فإن أعمال النَّاس وسلوكهم، إنما هي - في الغالب - ثمرة لما استقر في داخل أنفسهم، من أفكار وتصورات، تستقيم باستقامتها، وتعوج باعوجاجها.

فإذا صحَّحنا تصوُّرات وأفكار، كان عملنا التالي تربية النَّاس عليها، حتَّى يجتمع الوجدان والإرادة مع الفكر، لتكوين سلوك مستقيم.

مخاطر التركيز على الفروع والجزئيات:

وأول ما ينبغي تصحيح التصور فيه، وتوجيه الاهتمام إليه: هو ما وقع فيه بعض فصائل الصحوّة الإسلاميّة المعاصرة، من التركيز الشديد على الفروع والذيل والجزئيات والهامشيات من الأمور، كالنوافل من المأمورات، والمكروهات من المنهيات، بدل التركيز على الأصول والكليّات والأساسيّات، ومنها: الفرائض في المأمورات، والمحرمات - بل الكبائر - في المنهيات؛ ولهذا التركيز مثالبه وأخطاره، التي لا ريب فيها.

ومن هذه المثالب والأخطار:

١ - أنّه مخالف للمنهج القرآني والنبوي:

أول هذه المثالب والمآخذ، أنّه مخالف للمنهج القرآني والنبوي. فالقرآن الذي أنزله الله في ثلاث وعشرين سنة، ظلّ ثلاث عشرة منها، أي طوال العهد المكي، يُعنى بإيضاح الأصول والكليات، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، وغرسها في الأنفس والعقول، وتعبئة العزائم والمشاعر للالتزام بها، بالدعوة والتشويق والوعد والوعيد وضرب الأمثال، وسوق القصص عبرة لأولي الألباب، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والنبي ﷺ ظل طوال هذه المرحلة، يربي الجيل الأوّل على هذه المعاني الكبار، وهذه القيم العليا، اعتقاداً وتعبداً، وخلقاً وسلوكاً، وفكراً وعملاً.

بل العهد المدني نفسه - وهو عهد التشريع، والتفصيل للمنهج الإسلامي - لم ينس يوماً التذكير بهذه الأصول، كما نرى ذلك في السور

المدنية، (انظر على سبيل المثال: أوائل سورة البقرة، وأواخرها، وأوائل سورة آل عمران، وأواخرها).

وكثير من التشريعات تبدأ بصيغة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ دلالة على أنَّ الإيمان هو أساس الالتزام بالتشريع، والمُحرِّك للعمل به.

٢ - أن مفردات الجزئيات الفرعية والهامشية، لا تكاد تتناهى:

وثاني هذه المآخذ والمثالب: أن مفردات الجزئيات الفرعية والهامشية كثيرة جدًا، ولا تكاد تنتهي. فمن شغل نفسه بها أكلت جهده، والتهمت وقته، ولم تدع له من طاقة الجسم والفكر والنفس، ولا من الوقت، ما ينفقه في خدمة الأصول والقضايا الكلية.

والإنسان بلا شك محدود الطاقة، فما استهلك منها في الفروع والذبول والهوامش والنوافل، جدير أن يكون على حساب الأصول والرؤوس والفرائض. ولهذا جاء عن ابن مسعود، وغيره من السلف: ما اجتهد قوم في بدعة، إلَّا أضاعوا مثلها من السنة^(١).

ومثل ذلك نقوله لمن استفرغ وسعه في المسائل الجزئية، والخلافات الفرعية، والمعارك الجانبية. فهذا لا بد أن يكون على حساب قضايا كبيرة، كانت تحتاج إلى هذا الجهد والوقت والطاقة أن تنفق فيها؛ ولهذا قال بعض الحكماء: ما رأيت إسرافًا إلَّا وبجانبه حقٌّ مضيع^(٢).

(١) رواه أحمد (١٦٩٧٠)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وجوّد إسناده الحافظ في الفتح (٢٥٣/١٣)، عن غضيف بن الحارث مرفوعًا.

(٢) ذكره الجاحظ عن معاوية في البيان والتبيين (١٧٧/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٣ - أن هذه الجزئيات الفرعية، مظنة الخلاف دائماً أو غالباً:

وثالث هذه المآخذ والأخطار: أن هذه الفروع والجزئيات مظنة لكثرة الاختلاف؛ لأن أدلتها ظنيّة الثبوت، ظنيّة الدلالة، ولهذا يكثر فيها الاختلاف، وتتعدّد الآراء، تبعاً لتعدّد الأفهام، وتنوع المشارب والمدارس، ما بين مدرسة الرأي، ومدرسة الأثر، ومدرسة الظاهر، وورثة هذه المدارس، وما بين المشددين والميسرين، وكلاهما موجود.

والتركيز على هذه الفرعيات والجزئيات الخلافية، من أبناء الصحوة الإسلامية، يوقع الخلاف بينهم، بل قد يزرع بينهم الشقاق، ويورث الحقد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين!

لا يقال: لماذا لا يدعى الجميع إلى الرأي الصواب، والمذهب الحق، ويتفقون عليه، بدل الخلاف والاختلاف؟

والجواب: أنه ليس في هذه المسائل الجزئية الاجتهادية، رأي أو مذهب يُجزم بأنه الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، والحق الذي لا يشوبه الباطل.

والصواب فيها بالنسبة لكل مجتهد، ما أدّاه إليه اجتهاده، وهو معذور فيما أخطأ فيه، بل مأجور أجرًا واحدًا، وأقصى ما يقوله مجتهد عن اجتهاده: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب.

بل ذهب بعض الأصوليين إلى أن آراء المجتهدين جميعاً في المسائل الجزئية العملية صواب. يعنون: أن الشارع ليس له حكم معين في المسائل الاجتهادية، بل حكم الله فيها ما انتهى إليه اجتهاد المجتهد،

والمذهبان المذكوران في كتب الأصول، ولكل أدلته، وإن كان الأول أرجح فيما أرى.

وأياً ما كان الأمر، فلو أراد الله أن يجمع الناس على رأي واحد، في هذه الأمور؛ لأنزل فيها آيات محكمات، ونصوصاً قاطعات، ترفع الاشتباه، وتمنع الاحتمال، ولكنه تعالى بحكمته ورحمته، جعل فيها نصوصاً متشابهات، تحتل أكثر من دلالة، وأكثر من تفسير، وربما تركها «عفوًا» دون نص ينفي أو يثبت، رحمةً منه غير نسيان، توسعة على خلقه، وتيسيراً على عباده.

رفع الخلاف غير ممكن لأسباب:

والذين يظنون من «الظاهرية الجدد» أنهم قادرون على رفع الاختلاف، وردّ الناس إلى النصوص وحدها، وجمعهم عليها، وطرح آراء البشر واجتهاداتهم جملة؛ واهمون أشد الوهم، لجملة أسباب:

أولاً: لأن الآخرين، قد لا يسلمون لهم بثبوت النص الذي يستندون إليه؛ ولهذا أسباب كثيرة مبسوبة في مواضعها.

ثانياً: لأنهم قد يخالفونهم في دلالتهم على الحكم الذي فهموه منه، لاعتبارات متعددة: فقهية، أو أصولية.

ثالثاً: قد يكون عندهم معارض أقوى من النصّ المستدلّ به، من نصوص الشرع، أو قواعده، أو مقاصده العامة، أو الإجماع العلمي أو العملي، إلى غير ذلك.

وقد ضربت لذلك عدداً من الأمثلة العملية، في مسائل الفقه، ذكرتها في بعض كتبي.

من النوافل إلى الفرائض:

ويدخل في هذا الخط من خطوط ترشيد الصحوة: الانتقال من التركيز على النوافل، إلى التركيز على الفرائض. ذلك، أن ما طلب الشارع منا فعله، له مرتبتان:

مرتبة الفرض أو الواجب:

١ - ما تَشَدَّد في طلبه، فطلبه من المُكَلَّفِينَ طلبًا جازمًا، وهذا هو الفرض أو الواجب. وقد رَتَّب الشارع على فعله: الثواب، وعلى تركه: العقاب. وهو ينقسم إلى قسمين:

فرض عين:

وهو ما يفترض على كل مكلف أدائه بشروطه، مثل: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، ومثل: بر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، ونحوها.

فرض كفاية:

وهو ما يفترض على الأمة، أو على جماعة معينة - في مجموعها - لا على فرد معين فيها، بحيث إذا قام بها بعض كاف؛ سقط الإثم عن باقي الجماعة، أو الأمة، وإلا أثمت الجماعة، أو الأمة كلها.

مرتبة المندوب، أو النافلة، أو السنة:

٢ - ما لم يُشَدَّد الشارع في طلبه، على معنى أنه طلبه طلبًا غير جازم، وهذا هو المندوب أو المستحب، ويدخل تحت اسم: «السنة»، أو



«التطوع»، أو «التنفل»، أو «النافلة»؛ لأنَّ النفل: هو الزيادة، وهذه النوافل: هي زيادة على الفرائض التي ألزم الله بها.

ومن سنة الشارع أنَّه جعل في العبادات الشعائرية جانبًا إلزاميًا لا خيار لأحد في تركه، وهذا هو جانب الفرض فيها.

كما جعل فيها جانبًا اختياريًا، لمن قويت رغبته في الخير، وهذا هو جانب النوافل، أو التطوع.

ففي الصلاة: نجد الصلوات الخمس المكتوبة في كل يوم وليلة، وهي التي لا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلَّا بها، وهي الفاصل ما بين المؤمن والكافر.

ومثلها: صلاة الجمعة على الرجال، فقد ورد أن من تركها ثلاث مرَّات، تهاونًا بها؛ طبع الله على قلبه^(١).

وبجوار ذلك، نجد السنن الرواتب المتكررة، والمرتبطة بصلوات الفريضة: «ركعتان قبل الصبح، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعده، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، والوتر».

وهناك نوافل أخرى دون ذلك، مثل: صلاة الليل، وصلاة الضحى.

وفي الصيام نجد بعد رمضان: صيام ست من شوال، وصيام تسع من ذي الحجة، أو كدها يوم عرفة، وصيام عاشوراء وتاسوعاء، وصيام الثلاثة

(١) إشارة إلى حديث: «من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر طبع الله على قلبه». رواه أحمد (١٥٤٩٨)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (١٠٥٢)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٢٥)، وصحَّحه النووي في المجموع (٤٨٣/٤). عن أبي الجعد الضمري.

الأيام البيض من كل شهر، وصيام الاثنين والخميس، «وأحب الصيام إلى الله: صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا»^(١).

وفي الزكاة: نجد - بعد الزكاة المفروضة المحددة في الزروع والثمار، والأنعام، والنقود، وعروض التجارة، وغيرها، الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة.

ثم نجد الصدقات المندوبة، التي حث عليها القرآن والسُّنة، بأبلغ أساليب الترغيب والترهيب، وخصوصًا إذا كانت في يوم ذي مسغبة، على يتيم ذي مقربة، أو مسكين ذي متربة.

وفي الحج: نجد - بعد حجّ الفريضة، وهي في العمر مرّة واحدة - استحبابه للقادر عليه بين حين وآخر، واستحباب العمرة طوال العام، ولا سيّما في شهر رمضان^(٢).

الحكمة في شرعية السنن والنوافل:

وإنما حث الشارع على هذه السنن والنوافل والمستحبات بعد الفرائض، ليُحقّق عدة أهداف دينيّة:

أولها: أن تكون جبرًا لما عسى أن يحدث في أداء الفرائض، من خللٍ أو قصور، قلّمَا يسلم منه بشر، ففي النوافل، يكون العوض لما يقع في الفرض من قصور، أو تقصير.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) ما لم يعارضه أمر آخر مثل: شدة الزحام الذي قد يؤدي إلى قتل الناس، كما شوهد في أحيان كثيرة. أو تكون هناك مصارف للأموال أولى من الحج وأوجب، كمساعدة المجاهدين من المسلمين، وإنقاذ المحاصرين، وإغاثة الذين يتعرضون للموت من الجوع أو البرد، أو قلة الغذاء أو الكساء أو الدواء.

وقد صح في الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَنَجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ رَجُلٌ مَنكُورٌ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

ثانيها: أن تكون «رصيِّداً» احتياطياً للمؤمن، يكتب في سجل حسناته، يقاوم به ما يكتب عليه في سجل السيئات، وما أكثرها! سواء كانت سيئات اللسان، أم الجوارح، أم القلب!

وما أكثر ما يصدر عن المرء من سيئات يعدها هنات هينات، على حين تهوي بصاحبها في قعر جهنم مسافات ومسافات!

حتى إن كلمة واحدة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم، سبعين خريفاً^(٢)!

لقد قال النبي ﷺ لعائشة في جملة قائلتها - أشارت بها مجرد إشارة - إلى قصر امرأة أخرى: «يا عائشة، لقد قلت كلمة، لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٤١٣)، وقال: حديث حسن غريب. والنسائي (٤٦٥)، كلاهما في الصلاة، وصحَّحه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢٢٩/٥)، والألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٧٢١٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣١٤)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٠)، والحاكم في الأحوال (٥٩٧/٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٧٧/٤): في إسناده محمد بن إسحق وهو مدلس. عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).

هذه الخطايا التي يتعرض لها الإنسان كل يوم، بل كل ساعة تحتاج إلى «تغطية» من صالح العمل، حتّى لا «يكشف حسابه» عند الله، إذا استخدمنا لغة المصارف، والنوافل التي يتقرب بها المسلم إلى ربه، تسد هذه الثغرة.

ثالثها: أنّه الباب إلى الترقّي في مدارج القرب من الله تعالى، حتّى يصل إلى حبه سبحانه، ومن أحبه الله؛ فقد ارتقى مكاناً عليّاً، وغدا إلهي السمع والبصر والقوّة، واتّصل جهاز الإرسال عنده بأجهزة الاستقبال في السماوات العلا، وحتّى إنّه يدعو فيجاب، ويسأل فيعطى، ويستعيز فيُعَاذ. روى البخاري - في «صحيحه» - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ، أنّه قال:

«ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل، حتّى أحبه، فإذا أحببته، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»^(١).

أفاد هذا الحديث القدسي الشريف، معنيين كبيرين:

الأوّل: أنّ التقرب إلى الله بأداء الفرائض يعتبر في المقام الأوّل لمن أراد التعبّد لله تعالى، وسلوك الطريق إلى رضوانه ﷻ.

والثاني: أن باب التقرب إلى الله تعالى بالنوافل، باب مفتوح لأصحاب الهمم والرغبة فيما عند الله سبحانه، حتّى ينالوا محبة الله تعالى، وما أجلها منزلة!

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.



أداء الفرائض أولاً:

والواجب على المسلم أن يوجه همه وإرادته أولاً، إلى أداء الفرائض وأحكامها حتى تبرأ ذمته، ويسلم من عقاب الله وَعَلَى. فإذا أدى الفرائض ووفّأها حقها، كملها بالنوافل.

حتى الفرائض ذاتها، ينبغي أن يرتبها بعضها على بعض، حسب منزلتها في دين الله.

ينبغي أن يقدم فرض العين على فرض الكفاية، وفرض العين الأهم على فرض العين الأقل أهمية، وفرض الكفاية الذي لم يقم به أحد، على فرض الكفاية الذي قام به غيره^(١).

ومن هنا، قدّم النبي ﷺ بر الوالدين على الجهاد، إذا كان فرض كفاية، كما صحّ ذلك في أكثر من حديث^(٢).

أمّا إذا كان الجهاد فرض عين، كما إذا غزا الكفار بلدًا من بلاد الإسلام ودخلوه؛ فواجب على أهله جميعًا دفعهم وقتالهم بكل ما يقدرون عليه.

وهنا يخرج لقتالهم ودفعهم كل من لديه طاقة للدفاع، فيخرج الابن بغير إذن أبيه، والمرأة بغير إذن زوجها، والخادم بغير إذن سيده.

لأنّ القتال هنا فرض عين يتعلق بحق الجماعة كلها، وطاعة الوالدين فرض يتعلق بحق فرد أو فردين؛ فحق الجماعة أولى بالرعاية والتقديم.

(١) فصلنا القول في ذلك في كتابنا: في فقه الأولويات ص ١١٩ - ١٢١، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) من ذلك ما رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٤٩) عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، يستأذنه في الجهاد فقال: «أحيي والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد».

أخطاء بعض المتدينين:

وفي هذا المقام، نرى بعض المتدينين وبعض فصائل الصحوة - لقلة فقههم وضعف بصيرتهم بالتدين الصحيح - يقعون في عدة أخطاء:

١ - التشديد في النوافل:

الخطأ الأول: هو التشديد على عموم الناس في أداء السنن والنوافل، حتى كأنها فرائض لازمة، جاهلين أن مراتب الناس متفاوتة، وأن هممهم متباينة، وأن العوام غير الخواص، والخواص غير خواص الخواص، وكل يعمل على شاكلته.

وهذا التشديد مخالف لهدى النبي ﷺ، الذي فرّق بين الفرض والتطوع، تفرقة حاسمة، فالزم بالأول، وخيّر في الثاني.

روى الستة - إلا الترمذي - من حديث طلحة بن عبيد الله، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يسمع دويّ صوته، ولا يفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل عليّ غيرهن؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع». فقال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان». قال: هل عليّ غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع». وذكر له الزكاة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع». فأدبر، وهو يقول: والله! لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «أفّح إن صدق»، أو «دخل الجنة، إن صدق»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٨٩١)، ومسلم في الإيمان (١١)، كما رواه أبو داود (٣٩١)، والنسائي (٤٥٨)، كلاهما في الصلاة.



وروى الشيخان عن أبي هريرة: أَنَّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلّني على عمل إذا عملته دخلت الجنة! قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: والذي نفسي بيده! لا أزيد على هذا شيئاً أبداً، ولا أنقص منه. فلما ولى، قال النبي ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فليُنظر إلى هذا»^(١).

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله: أن رجلاً - في بعض الروايات أن اسمه: النعمان بن نوفل - سأل رسول الله ﷺ؛ فقال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أَدْخِل الجنة؟ قال: «نعم»، قال: والله لا أزيد على ذلك شيئاً^(٢).

٢ - تقديم النوافل على الفرائض:

والخطأ الثاني - لهذا النوع من المتدينين - هو: تقديم النوافل على الفرائض، وإعطاء النوافل من الاهتمام والتنبيه والرعاية، ما لا تعطى الفرائض على لزومها وأهميتها.

والقاعدة الإسلامية المتفق عليها تقرر أَنَّ الله لا يقبل النافلة، حتّى تؤدّى الفريضة.

ويقول السلف: من شغله الفرض عن النفل؛ فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض؛ فهو مغرور!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٥).

ولهذا نعجب، ممّن يحرص على أداء السنن والنوافل، ولا يضع شيئاً منها، ويحرص على ختم الصلاة، بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ومع هذا لا يؤدي الفرض كما ينبغي، قد يتهاون في بعض الشروط، أو في بعض الأركان، فلا يستنزه - أو لا يستبرئ - من بوله، ولا يسبغ الوضوء، ولا يتم الركوع ولا السجود، والخشوع، وهو روح الصلاة، مع قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وهو يتشاغل عن الصلاة حتّى يفوت وقتها، ويحق عليه وعيد الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وأكثر من ذلك، أن يهتم بعض المتدينين بالنوافل والذكر والتسبيح، وقد يحفظ من الأذكار والأدعية المأثورة الشيء الكثير، يردده في الصباح وفي المساء، وفي مناسبته الخاصة، وقد يحج ويعتمر كل عام، وخصوصاً عمرة رمضان، ولكنّه - مع هذا - مفرط في بر والديه، أو في صلة أرحامه، أو في حسن علاقته بجيرانه، أو في الوفاء بديونه، أو في أداء الأجر لمن استوفى منه العمل والجهد، أو مقصر في أدائه لعمله الدنيوي، الذي يتقاضى عليه أجرًا من فرد، أو من مؤسسة أو من حكومة!

وكثير ما تراه لا يتحرى الحلال في كسبه، ولا يتقي الشبهات، استبراء لدينه وعرضه، وبعدًا عن حمى الحرام خشية أن يقع فيه، بل قد يتورط في الحرام الصريح، كالاستقراض بالفوائد الربوية من البنوك، ودفع الرشوة - ولو بأسماء أخرى: كالعمولة والهدية - لموظف أو مندوب الشركة أو المؤسسة، لتسهيل أموره لدى إدارته أو شركته أو مؤسسته، وربّما كان تاجرًا، فيحتكر السلع ليغليها على المسلمين، أو يبخس الناس أشياءهم.

وهذا، من الخلل في فهم الدين، وسوء الترتيب بين أحكامه وأعماله، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم.

وهذا ما أنكره العلماء المحققون من قديم.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب: «ذم الغرور» من «إحيائه» - حين تحدث عن بعض أصناف المغترين -:

«فمنهم: فرقة أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة: قريبة - في النجاسة - . وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال - قدر الاحتمالات القريبة: بعيدة! - وربما أكل الحرام المحض. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام، لكان أشبه بسيرة الصحابة، فقد توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانيّة^(١)، مع ظهور احتمال النجاسة، وكان - مع هذا - يدع من الطعام الحلال، مخافة الوقوع في الحرام.

وفرقة أخرى: حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ - فيما يرويه عن ربه - : «ما تقرب المتقربون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»^(٢). وترك الترتيب بين الخيرات: من جملة الشرور.

(١) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (١٩٣)، ورواه الشافعي في الأم (٢٧/٢)، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب، نشر دار الوفاء، مصر، ط ١، ٢٠٠١م. وصححه النووي في خلاصة الأحكام (٨٢/١).

(٢) رواه البخاري في الرقائق (٦٠٢١) بلفظ: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه». عن أبي هريرة.

بل قد يتعيّن في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت، والآخر لا يفوت، أو فعلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه؛ كان مغرورًا.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإنّ المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنّما الغامض، تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به، على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان، على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت. وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة، على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ، ف قيل له: من أبرّ يا رسول الله؟ قال: «أمك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أباك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أدناك فأدناك»^(١).

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا؛ فبالأحوج، فإن استويا؛ فبالأتقى والأورع.

وكذلك، من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربّما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد «حينئذ» معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.



وكذلك قد تصيب ثوبه نجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله، بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء، أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك؛ فهو مغرور^(١).

وقد ألفت في هذا الموضوع المهم كتابي: «في فقه الأولويات»، لبيان مراتب الأعمال، وأيها أهم وأرجح في ميزان الشرع.

٣ - تضييع الحقوق اللازمة، بسبب النوافل:

والخطأ الثالث لبعض المتدينين هو: تضييع بعض الحقوق الواجبة لآخرين، بسبب الحرص على النوافل والمستحبات.

وحكم الشرع هنا: أن النوافل لا يجوز أن تطغى على حقوق الغير. وفي الحديث: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد، إلا بإذنه»^(٢). والمقصود صيام التطوع، (كما نصت على ذلك أحاديث أخرى)؛ لأن صيام الفريضة، لا يستأذن فيه أحد، وإنما اشترط إذن الزوج؛ لأن له حقاً في زوجته، لا يجوز أن تتجاهله بدعوى التطوع.

ونحن نرى أناساً من أهل التدبُّن، يشتغلون بنوافل العبادات، ويضيعون معها حقوق العباد.

يصوم أحدهم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولكنه - يقصر في تدريسه لتلاميذه، لما يجلبه الصوم عليه من مشقة وظماً، أو تراه

(١) إحياء علوم الدين (٣/٤٠٣ - ٤٠٤).

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥١٩٥)، عن أبي هريرة.

يؤخر عمل الناس إلى يوم فطره، ولو أفطر وقضى مصالح الخلق المعطلة، لكان خيرًا من التطوع بالصيام.

وترى آخرين، يحجون أو يعتمرون، فيحرصون كل الحرص على تقبيل الحجر الأسود، وهذا حسن ومحمود منهم، ولكن الذي لا يحسن ولا يحمد: ألا يبالوا في سبيل ذلك بإيذاء عباد الله، واستعمال العنف والقسوة معهم، ولو تنزهوا عن ذلك واكتفوا بالإشارة إليه بأيديهم، أو بشيء معهم، لكفاهم ذلك، وكان خيرًا لهم.

وآخرون يتزاحمون على مرمى الجمرات في الحج، ولو سقط الناس تحت أقدامهم، فهم لا يبالون بهم وإن زهقت أرواحهم، وما كلفهم الله أن يقتل بعضهم بعضًا من أجل منسك ليس بركن من أركان الحج، وإنما هو واجب أو سنة، يقع بعد التحلل التام من الإحرام بالحج، ويجوز فيه الإنابة والتأخير للحاجة والعذر، وأي عذر أكبر من تعرض الناس للهلاك؟!

ومن المتدينين من يحرصون على الحج في كل موسم، وعلى العمرة في كل رمضان، بل ربّما يعتمر في العام أكثر من مرة، وينفق في ذلك الكثير من المال، ولكنه مع هذا يماطل في الوفاء بديون عليه لعباد الله، مع ما جاء في الحديث الصحيح: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»^(١)، فإذا كانت الشهادة في سبيل الله - على ما لها من عظيم الفضل - لا تكفر أكل ديون الناس بالباطل، فكيف بغير الشهادة من الأعمال، وهي دونها يقينًا؟

ومن هؤلاء الحجّاج والمُعتمِرِين من يظلم عماله وموظفيه، أو المستأجرين لأرضه أو عقاره، مع أن الظلم من أكبر الذنوب عند الله تعالى، وهو ظلمات يوم القيامة.

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١)، عن عبد الله بن عمرو.



من المختلف فيه إلى المتفق عليه:

ومما يدخل في هذا الخط، من خطوط ترشيد الصحوة: الانتقال بها من التركيز على المختلف فيه، إلى التركيز على المتفق عليه. بحيث لا تكون المسائل الخلافية هي شغلها الشاغل، وهما الأكبر.

فإن ممّا شاب صفاء الصحوة الإسلامية: وجود عدد من المتديّنين - أو من المنتمين إلى الجماعات الدينية - جعلوا أكبر همّهم، البحث عن الأمور التي اختلف فيها العلماء، في الحلّ أو الحرمة، في الإيجاب أو الاستحباب، في الصحة أو الفساد.

وهم ينظرون إلى عباد الله من خلال مواقفهم من هذه الأمور الخلافية فهمًا وعملاً، وعلى أساسها ينزلون الناس منازلهم، فإمّا ارتقوا بهم إلى أعلى عليّين، وإمّا هبطوا بهم إلى أسفل سافلين، كأنّما هذه الأمور الخلافية، هي أساس الاعتقاد، وأساس التعبد، وأساس السلوك!

هكذا تجدهم، لا يوجهون عنايتهم إلى أركان الإيمان الستة، ولا إلى أركان الإسلام الخمسة، ولا إلى مكارم الأخلاق، التي بعث الرسول ليتّمّمها، ولا إلى الواجبات المتفق على وجوبها، ولا إلى المحرمات المقطوع بحرمتها.

إنما تراهم، ينصبون المعارك، حول أشياء أخرى:

إعفاء اللحية، أو تقصيرها، أو حلقها، أو الأخذ منها.

إطالة الثوب، أو تقصيره.

وضع اليدين عند القيام في الصلاة: عند السرة، أو فوقها، أو تحتها، أو عند الصدر، أو إرسالها.

جلسة الاستراحة، أو النزول بالركبة في الصلاة.

احتساب الركعة لمن أدرك الإمام في الركوع، أو عدم احتسابها، حتّى يدرك القيام والقراءة.

الغناء بآلة وبغير آلة (أي الموسيقى، أو غيرها): حلال أم حرام أم مكروه؟

وجه المرأة: عورة أم ليس بعورة، وتغطيته بالنقاب: واجب، أم ليس بواجب؟

ذبائح أهل الكتاب: حلال أم حرام؟

الرسم، والتصوير الفوتوغرافي: جائز، أم ممنوع؟

الذهب المحلّق للنساء: حلال، أم حرام؟

إلى آخر هذه المسائل الفروعية، والتي لا ينتهي الخلاف فيها.

حمل الخلاف إلى أوروبا وأمريكا:

والعجيب، أن هؤلاء المولعين بالخلافات، لما هاجروا من بلاد الشرق، إلى أوروبا وأمريكا وما وراء البحار، هاجروا مصطحبين هذه العقلية الغربية، فلا غرو أن وجدت - حيثما ذهبوا للقاء التجمعات الإسلامية في تلك الديار النائية - الأسئلة التقليدية الروتينية حول الخلافات، تلاحقني في كل مكان، فهي القاسم المشترك للأسئلة، بعد كل محاضرة ألقاها، وفي أي مؤتمر، أو ندوة أشارك فيها، وفي أي حلقة أشهدها.

وقد عرفت من بعض الإخوة أنهم سألوا فيها من زارهم من قبلي، كما سيسألون فيها من يزورهم من بعدي، وسيظلون يسألون ويسألون.



مأخذ على هذا الاتجاه:

وعيب هؤلاء «الخلافيين» يتمثل في عدة أمور:

١ - الولع الدائم بإثارة مسائل الخلاف، فلا تعقد محاضرة أو ندوة أو درس أو حديث، إلا وجدتهم يلفون ويدورون حول هذه المسائل، فهي شغلهم الشاغل، ومحور تفكيرهم واهتمامهم، وبها يثبتون وجودهم وذواتهم.

٢ - اعتبار ما يتبنونه من آراء في مسائل الخلاف، هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ. كما أن رأي الآخرين هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب! ويتبع هذا الشدة في الإنكار على الآخرين. وهذا إنما جاء ثمرة للجهل بحقائق يعرفها أهل العلم والتحقيق، وإن جهلها الذين يأتون البيوت من غير أبوابها، ويتلقون المعارف من غير أهلها.

ومن هذه الحقائق: أنه لا إنكار في المسائل الاجتهادية، التي تتعارض فيها الأدلة، وتختلف فيها وجهات النظر، لعدم وجود دليل قطعي فيها، فمن حق كل مجتهد أن يكون له فيها رأي، وأن يعارض رأي غيره، دون أن يطعن فيه أو يتهمه بما لا يليق، كما أن من حق المقلد أن يتبع أي إمام معتبر من أئمة الاجتهاد، ويأخذ بقوله، ما دام من أهل التقليد.

٣ - قلة العناية بالأمور المتفق عليها، في دين الله، مما أساء المسلمون فهمه، أو أسأؤوا تطبيقه، أو انحرفوا عن العمل به؛ لأنهم لما أفرغوا جهدهم ووقتهم في الجري وراء المتشابهات، لم يجدوا جهداً ولا وقتاً، لتثبيت المحكمات!

٤ - الرغبة في الجدل والمراء والخصومة مع الآخرين، وهو ما يوغر الصدور، ويأكل الأوقات، ويضيع الجهود، ويمزق الصفوف، وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»^(١).
«إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢).

ومن لطائف الأدب النبوي: الترغيب في ترك المراء، وإن كان الإنسان على حق؛ لما وراء المراء من إثارة الأنفس وزرع الضغائن، فقال: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محققاً»^(٣).

٥ - الإعجاب بالنفس، وهو أحد المهلكات، التي تضخم للمرء مزايا نفسه، وتعميه عن عيوبه، على حين تجسم له مساوئ غيره، فهو يرى القذى في عين أخيه، ولا يرى الخشبة في عينه، يقول الحديث الشريف: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه»^(٤).

٦ - سوء الظن بالآخرين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وإن من أعظم خصال الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بالناس. ومن أعظم خصال الشر: سوء الظن بالله، وسوء الظن بالناس.

(١) سبق تخريجه ص ٧٥.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٥.

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٠٠)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٦٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٤). عن أبي أمامة. ومعنى زعيم، أي: كفيل، والربض: الأسفل. والمراد بالبيت: القصر.

(٤) سبق تخريجه ص ٤٠.



المولعون بالبحث عن نقاط التمايز:

هناك أناس مولعون بالبحث عن مواضع التمايز أو التباين، بينهم وبين غيرهم، ويركزون كل التركيز على هذه المواضع. ولا يبحثون عن مواضع الالتقاء بينهم وبين الآخرين، فالأولى دائماً عندهم، في مكان الحضور، وبؤرة الشعور، تعيها القلوب، وتتحدث عنها الألسن، وتملاً بذكرها المجالس والحلقات، أما الأخرى: فهي منسية، أو غائبة، أو مكبوتة.

وربما كان دافعهم أو عذرهم أنهم يريدون أن «يتميزوا» عن غيرهم، ولا يذوبوا في الآخرين ممّن يخالفونهم في اتجاههم ومنهجهم.

ولا ريب أنّ «التميُّز» مطلوب لكل صاحب فكرة، من فرد أو جماعة، ولا يطلب من صاحب الفكرة، أن يتنازل عن فكرته وينمّاع في غيره، والتمييز هنا ثمرة الإيمان بسمو الفكرة وكمالها.

أمران مهمان هنا:

ولكن هنا أمران مهمان، يجب أن يذكرنا ويبرزنا:

الأول: أنّ التمييز إنّما يطلب ويلزم ويتأكد حين تكون هناك اختلافات جذرية في الأهداف، أو في المناهج، كالاختلاف في العقائد والأصول، ونحوها.

وهذا ما جعل النبي ﷺ يغضب على عمر، حين رآه يقرأ صحائف من التوراة، التي حكم القرآن بتحريفها، ويقول له كلمته الشهيرة:

«أمتهوكون فيها - أي: متحiron أو مترددون - يا ابن الخطاب؟! والله! لو كان موسى حيًا ما حلّ له إلّا أن يتبعني»^(١).

الثاني: أنّه مع التميز الواجب، عند الاختلاف في الأصول والمبادئ، يجب ألا ننسى نقاط الاتفاق، ومواضع الالتقاء، التي يمكن الابتداء منها بإقامة جسور للتعارف، أو الحوار، أو التعايش.

ويحضرني في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فرغم تميز المسلمين عن أهل الكتاب، يذكر هنا ما يجمعهم بالمسلمين من الإيمان بالألوهية عند الفريقين، وإيمان المسلمين بما أنزل الله على أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، بل إن تعبير «أهل الكتاب» نفسه يدلُّ على القاسم المشترك بينهم وبين المسلمين من العنوان ذاته، وهو أنّهم كالمسلمين أهل كتاب سماوي، وإن حرّفوا فيه وبدّلوا؛ ولهذا يناديهم بهذا العنوان، الذي يؤنسهم ويُقرّبهم من المسلمين، وهو: «يا أهل الكتاب».

(١) رواه أحمد (١٥١٥٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والدارمي في المقدمة (٤٤٩)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣٤/١٣): رجاله موثقون إلّا أن في مجالده ضعفًا. عن جابر بن عبد الله.

من التفسير والتنفيذ إلى التيسير والتبشير

أوجز ما توصف به رسالة الإسلام: أنها رحمة الله إلى خلقه.

هذا ما وصفها به القرآن الكريم، حيث خاطب الله رسوله فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وهذا ما وصف به الرسول نفسه حين قال: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١).

وهذه الرحمة تتجلى في أحكام شريعته كلها، فهي - كما قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ - رحمة كلها، وحكمة كلها، وأي حكم تراه فيها خرج من الرحمة إلى القسوة، أو من الحكمة إلى العبث، فليس من الشريعة في شيء، وإن أدخله من أدخله فيها بسوء التأويل^(٢).

وأجلى ما تتمثل فيه هذه الرحمة هو «التيسير» الذي بنيت عليه الشريعة وأحكامها، وهو أمر جلي لكل من قرأ القرآن والسنة، فإن الله تعالى لم يكلف عباده شططاً، ولا أرهقهم من أمرهم عُسرًا.

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١١/٣)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

يقول القرآن في ختام آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وفي آية صيام رمضان يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي ختام الحديث عن المحرمات في الزواج، يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وفي خواتيم سورة الحج - بعد أن أمر الله المؤمنين بالعبادة وفعل الخير - يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ورغم وضوح هذا الجانب في شريعة الإسلام نجد بعض المتدينين يركبون متن التشديد والتعسير، سواء في فهمهم للإسلام، أو في عملهم به، أو في دعوتهم إليه، ناسين أو متناسين جانب اليسر والسماحة فيه.

الرسول يأمر بالتيسير لا التعسير:

وقد بعث النبي ﷺ صاحبيه: معاذ بن جبل الأنصاري، وأبا موسى الأشعري، إلى اليمن أميرين ومعلمين وداعيين، وأوصاهما بوصية جامعة نافعة، تعتبر من جوامع الكلم النبوي، الذي يجمع المعاني الجمّة في ألفاظ قليلة، وذلك في قوله لهما: «يَسِّرَا وَلَا تَعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تَنْفَرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري.

وأوصى الأمة كلها بمثل هذه الوصية فيما رواه عنه صاحبه وخادمه أنس، وذلك في قوله ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلَا تَنْفُرُوا»^(١).

معنى التيسير المأمور به:

والتيسير: مأخوذ من «يسر الأمر»، إذا سهل واتسع.

فمعنى «التيسير»: اتباع نهج التسهيل والتوسعة والسماحة، والتخفيف، والبعد عن التصعيب والتضييق والإحراج والإعنات. الذي هو مضمون كلمة «التعسير».

و«التعسير»: مأخوذ من عُسِر الأمر، إذا صعب وضاق وشتق وخرج. ومعنى التعسير: اتباع نهج التصعيب والتضييق والإعنات والمشقة على عباد الله.

ولقد فطر الله الإنسان على حب اليسر والسعة، وكراهية العسر والحرج.

ومن رحمة الله تعالى بعباده، أنه جعل اليسر محيطًا بهم قدرًا وشرعًا. فقد جعل الله تعالى مع كل عسر يسرًا، كما جعل بعد العسر يسرًا، وهذا من فضل الله تعالى ولطفه بخلقه.

فقد قال تعالى في سورة الشرح: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فأكد هذا المعنى وكرّره، ليؤذن بأن اليسر سيغلب العسر.

(١) سبق تخريجه ص ٥٨.

كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقد جعل الله تعالى اليسر في الأمور من ثمرات التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ولهذا دعا كلیم الله موسى ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿ [طه: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا الإطار، وصف القرآن يوم القيامة بأنه يوم «عسير»، على أهل الكفر والضلال والفساد، كما في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿ [المدثر: ٨ - ١٠].

ولهذا، يحب الإنسان بفطرته اليسر والسهولة في الدنيا والآخرة. وفي الشرع نجد أحكام الشريعة، قد أسست على اليسر لا على العسر، كما قال تعالى في آية الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد يعبر القرآن عن هذا المعنى بنفي الحرج، كما في قوله تعالى في ختام آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد يعبر عن هذا المضمون بالتخفيف، كما في قوله تعالى عقب أحكام المحرمات في النكاح: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وفي سياق آخر قال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].

وقد يعبر عن المعنى نفسه بـ «العفو»، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].
وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمَ»^(١).

وقد يعبر عن هذا المعنى، بوضع الإضر والغلل، كما في وصف الرسول الكريم في التوراة والإنجيل بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وجاء في «الصحيح» أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ^(٢).

وفي هذا السياق جاء الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٣)، وقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، عن ابن عباس.

(٣) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني في الأوسط (٢١٣٧)، والحاكم في الطلاق (١٩٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤)، عن ابن عباس.

وقد يعبر عن هذا المعنى بـ «السماحة»، كما في الحديث النبوي: «بُعِثْتُ بِحَنِيفَةٍ سَمْحَةٍ»^(١). وسئل النبي ﷺ: أَيُّ الأديان أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(٢).

كما يعبر عنه بـ «الرخصة»، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ أَنْ تَوْتَى رُخْصَهُ، كَمَا يَحِبُّ أَنْ تَوْتَى عَزَائِمُهُ»^(٣).

«إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ تَوْتَى رُخْصَهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تَوْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(٤).

وبهذا يتبين أن معنى التيسير مطلوب في الدين، مرغّب فيه، بكل ما يعبر عنه من ألفاظ وعبارات، كلها تدلُّ على التسهيل، ورفع الحرج والعنت عن الأمة، بل هو مأمور به أمرًا مباشرًا من رسول الله ﷺ.

التعسير المضاد للتيسير:

وإذا كان التيسير مطلوبًا ومحمودًا ومرغّبًا فيه، فعكسه - وهو «التعسير» - غير مطلوب ولا محمود، ولا مرغّب فيه، بل هو منهي عنه من رسول الله ﷺ.

والتعسير - كما ذكرنا - مأخوذ من العسر، أي من مادة: «عَسِرَ» بمعنى: صَعِبَ، وضاق، وشقَّ، وخرَجَ.

(١) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال مخرجه: حديث قوي. وحسن إسناده الحافظ في التعليل (٤٣/٢)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢١٠٧)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧). عن ابن عباس.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٩.



ومعنى التعسير: اتباع نهج التصعيب والتضييق والتشديد والإحراج لعباد الله، وكل هذه المعاني منفية في القرآن والسُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وكلمة ﴿حَرَجٍ﴾ هنا: نكرة في سياق النفي، تفيد العموم، فتنفي كل حرج في الدين، فأى مسألة وجدت فيها حرجاً وعتناً وضيقاً، فهي ليست من الدين في شيء، وإن أدخلها من أدخلها بفهمه وتأويله الخاص، وإن كان هو مغفوراً له ما أخطأ فيه، بل مأجوراً باجتهاده، إن كان من أهل الاجتهاد.

رأى رسول الله ﷺ في أحد أسفاره رجلاً تبدو عليه المشقة والتعب والمعاناة، فسأل عنه، فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البرّ الصيام في السفر»^(١)؛ أي في هذا النوع من السفر الذي يشق على صاحبه إلى هذا الحد.

ورأى آخر في حالة من الجهد والمعاناة والإعياء، فسأل عنه، فقالوا: إنه نذر أن يذهب إلى الحج ماشياً، فقال: «إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ»^(٢).

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية والنبوية، نجدتها تعبر عن التعسير المذموم بعبارات شتى:

قد تعبر عنه بـ «الحرج»، كما رأينا في أكثر من آية.

وقد تعبر عنه بالإعنات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، و﴿وَلَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع.

(١) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في جزاء الصيد (١٨٦٥)، ومسلم في النذر (١٦٤٢)، عن أنس.

وقد يعبر عنه بـ «التنطع»، كما جاء في حديث ابن مسعود: «هلك المُتَنَطِّعون، هلك المُتَنَطِّعون...» قالها ثلاثاً^(١).

قال الإمام النووي: المتنطعون هم المتعمقون المبالغون في أقوالهم وأفعالهم.

كما يعبر عنه بـ «الغلو في الدين»، كما جاء في حديث ابن عباس: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(٢).

وربما عبّر عنه بـ «التشديد»، كما في حديث: «لا تشددوا فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا فشدد الله عليهم»^(٣).

وقد يعبر عنه بـ «الرغبة في السنة المحمدية»، أي عن المنهج النبوي القائم على الوسطية والتوازن والتيسير والتوسعة، كما في حديث أنس: عن الثلاثة الذين أعلن أحدهم: أنه سيصوم الدهر فلا يفطر أبداً، والثاني: أنه سيقوم الليل فلا ينام، والثالث: أنه سيعتزل النساء فلا يتزوج، فقال النبي ﷺ: «إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٤).

(١) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥).

(٢) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، ثلاثتهم في الحج، والحاكم في الصوم (٤٦٦/١)، وصححه على شرطهما، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٥٥).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٤)، وأبو يعلى (٣٦٩٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥٤٦): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء، وهو ثقة. وقال الألباني في الضعيفة (٣٤٦٨): إسناده يحتمل التحسين. عن أنس.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) كلاهما في النكاح، عن أنس.



مظاهر التيسير:

وللتيسير المطلوب مظاهر شتى في حياة الفرد والجماعة.

من ذلك التيسير في التعامل بين الناس، كما حكى القرآن عن موسى عليه السلام، أنه قال لصاحبه الذي اتبعه على أن يعلمه ممّا علّم رشداً، واشترط عليه صاحبه ألا يسأله عن شيء حتّى يحدث له منه ذكراً، ونسي موسى فسأله عن خرق السفينة، فقال له صاحبه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿[الكهف: ٧٢، ٧٣].

فالأصحاب والرفقاء يجب أن يتياسروا ولا يتعاسروا، حتّى إن أخل أحدهم بالشرط مرة، فينبغي أن يسامح، فإن لكلّ جوادٍ كبوة، ولكلّ إنسانٍ هفوة.

وكذلك، إذا تباع الناس وتداينوا، ينبغي أن يتياسروا ولا يتعاسروا، وأن يتسامحوا ولا يضيق بعضهم على بعض. وفي الحديث الصحيح: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»^(١).

وقال تعالى في الديون: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

التيسير في أمر الدين:

ولكن أعظم التيسير وأهمه، هو: التيسير في أمر الدين، ونفي الحرج والعنت عنه، حتّى لا يصبح آصاراً وأغلاً على الناس، وقد بعث الله

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، عن جابر بن عبد الله. بلفظ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

رسوله محمداً ليضعها عن البشر، وتكون بعثته رحمة مهداة من الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وهذه هي مهمة العلماء والدعاة، وهي التي نركز عليها هنا، والتيسير المنشود في الدين يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: تيسير الفهم للدين وأحكامه.

وثانيهما: تيسير العمل بالدين وشرائعه.

وقد تحدثنا عن هذين الأمرين، في الجزء الأول من كتابنا: «تيسير الفقه للمسلم المعاصر»، ولا بأس أن نقطف قليلاً ممّا كتبناه هناك، مضيفين إليه بعض الفوائد هنا إن شاء الله.

تيسير الدين للفهم:

فأما تيسير الدين للفهم، فقد لاحظنا أنّ مصادر الدين - من القرآن والسنة - مصادر ميسرة للفهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ووصف القرآن بأنه: ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وكذلك كان بيان رسول الله ﷺ للقرآن بياناً سلساً سهلاً ليس فيه إغاز ولا تعقيد، كما يشهد بذلك كل من قرأ حديثه عليه السلام.

وقد كان الرجل الأمي يأتي من البادية، فيقيم يومين أو ثلاثة في المدينة، مع النبي ﷺ، فيتوضأ كما يراه يتوضأ، ويصلي كما يراه يصلي، ويسأله بعض الأسئلة في الدين بلا تكلف، فيجيبه في سر، ثم يعود إلى قومه معلماً لهم ما تعلم، دون تعمق ولا تعقيد.

ولكن المسلمين في العصور المتأخرة خاصّة، عقّدوا المصدرين الميسرين بشروحهم وإضافاتهم، حتّى كانت بعض هذه الشروح حُجُبًا عن فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله.

والأولى بنا أن نرجع إلى السهولة الأولى، ونعيد الدين إلى فطريته وبيانه الذي يخاطب العقل والقلب معًا، ويفهمه الخاص والعام جميعًا، ومن ذلك:

توخي السهولة والتوسط:

ومن دلائل توخي السهولة واليسر:

١ - أن يكتب بلغة مبسطة، وأسلوب سهل، بعيد عن الإغراب في الألفاظ، والتكلف في العبارات.

٢ - تجنب وعورة المصطلحات التي فيها كثير من الغموض لدى القارئ غير المتخصص، و«ترجمتها» إلى عبارات سلسلة مفهومة للشخص العادي.

٣ - التوسط بين الإيجاز المُلغِز (الذي عرفت به «المتون» في المذاهب المتبوعة، والتي كان المقصود منها تسهيل الحفظ، ثمّ احتاجت المتون إلى شروح، والشروح إلى حواشٍ، والحواشي - أحيانًا - إلى تقارير) وبين الإطناب الممل الذي يتوسع في الشرح والتفصيل في غير حاجة إلى ذلك.

٤ - مخاطبة العقل المعاصر باللسان الذي يبين له. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. واللسان في هذه الآية - في فهمي - أعمق وأوسع من مجرد مخاطبة العرب

بالعربيّة، والإنجليز بالإنجليزية، بل يشمل ذلك مخاطبة العوام بلسان العوام، والخواص بلسان الخواص، وكذلك مخاطبة الإنسان في الشرق بلسان أهل الشرق، والإنسان في الغرب بلسان أهل الغرب، فلكل لغته وعقليته.

وكذلك الإنسان في القرن الخامس عشر الهجري، غير الإنسان منذ قرنين، أو ثلاثة من الزمان.

فما كتب في العصور السابقة، لا ينبغي أن يؤخذ بحذايره كما هو، ويخاطب به أهل عصرنا، وقد تغيرت المعلومات، وتغيرت بالتالي الأفكار، وتغيرت المشكلات، وتغير أسلوب الخطاب، والمطلوب: أن نراعي ذلك كله، إذا أردنا أن يفهمنا الناس، ويعقلوا خطابنا لهم.

ومن المطلوب هنا: التخفف من كثرة الزوائد والتشعيبات والتعقيدات التي أضافتها العصور المختلفة، وخصوصاً في مجال العبادات حتّى غدت كمّاً هائلاً من الجزئيات التفصيليّة، التي أثقلت العلم الديني بتفريعات لم يعرفها الصحابة ولا سلف الأمة.

ثانياً: تيسير الفقه للعمل والتطبيق:

ذلك هو التيسير في تقديم الفقه، وتقريبه إلى عقل المسلم المعاصر غير المتخصص، أي إلى جمهور المسلمين، وهذا هو الشق الأول من التيسير.

أما الشق الثاني من التيسير: فيتعلق بالتيسير في أحكام الفقه ذاتها، بحيث يسهل على المسلم المعاصر تنفيذها والالتزام بها في العبادات والمعاملات، وسائر شؤون الحياة فردية واجتماعية.



وليس معنى التيسير الإتيان بشرع جديد من عند أنفسنا، نسقط به عن الناس ما فرضه الله عليهم، أو نحل لهم ما حرم الله عليهم، أو نبتدع لهم في الدين ما لم يأذن به الله تعالى.

فهذا ليس من التيسير الذي نريده في شيء، بل هو تزيف وتحريف، لا يقبله عالم مسلم يحترم دينه، ويحترم عقله.

المقصود بالتيسير هنا:

إنما نريد بالتيسير هنا، جملة أمور:

١ - مراعاة جانب الرُّخص:

مراعاة جانب اليُسْر والرخص في الشريعة إلى جوار العزائم، فلكل أهله، ولا ينبغي أن نعامل الناس كلهم بمستوى واحد، ولا يطالب الضعفاء بما يطالب به الأقوياء، ولا حديث العهد بالإسلام أو بالتوبة، مثل العريق في الإسلام والالتزام به، فقد قبل الرسول ﷺ من بعض الأعراب الاكتفاء بالفرائض الأساسية وحدها، مع حلفه أنه لا يزيد عليها ولا ينقص، ومع هذا قال: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدق»^(١)، وقال في بعض الأحوال: «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فليُنظر إلى هذا»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رَخْصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(٣). وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رَخْصُهُ، كَمَا يَحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ١٦٨.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٩.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٩.

وينبغي التذكير هنا بكلمة نقلها الإمام النووي في مقدمات «المجموع» عن الإمام الكبير سفيان بن سعيد الثوري، الذي انعقدت له الإمامة في الفقه، وفي الحديث، وفي الورع، فقد قال رضي الله عنه - وما أروع ما قال -:

إنما الفقه: الرخصة من الثقة، أما التشديد فيه: فيحسنه كل أحد^(١)! ولا بد أن نلاحظ قوله: الرخصة من ثقة. وهو من يوثق بفقهه ودينه معاً، أما من فقد الأمرين أو أحدهما فهو يترخص فيما لا يجوز الترخص فيه، فيصادم القواطع والمحكمات من نصوص الشرع وقواعده، وهو ما لا يقبله مسلم حريص على دينه.

٢ - تقديم الأيسر على الأحوط في زماننا:

وإذا كان التيسير مطلوباً دائماً، كما أمرنا رسول الله ﷺ، فهو ألزم ما يطلب في عصرنا هذا؛ نظراً لركة الدين في أنفس الكثيرين، وغلبة النزعات الماديّة، وتأثر المسلمين بغيرهم من الأمم، نتيجة لشدة الاتصال بين العالم بعضه وبعض، ولم يعد في استطاعة أحد أن يعيش في عزلة عن غيره، وأجهزة الإعلام تقتحم عليه داره، وترى ما يجري في أقصى أطراف العالم، وخصوصاً اليوم بعد ما عرف باسم: «البث المباشر».

وهذا ما عبر عنه علماؤنا في العصور المتأخرة بـ «تغير الزمان» أو «فساد الزمان»، وجعلوه سبباً من أسباب تغير الفتوى، كما ذكر العلامة ابن عابدين وغيره.

(١) انظر: المجموع للنووي (٤٦/١)، نشر دار الفكر.



فقد قال ابن عابدين في رسالته: «نشر العرف فيما بني من الأحكام على العرف»: «إن كثيرًا من الأحكام تختلف باختلاف الزمان، لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولاً، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد»^(١). والمنهج الذي أراه - وهو منهجي الذي وفّقني الله للالتزام به من قديم، في الفتوى والتأليف والتدريس - هو التيسير في الفروع، والتشديد في الأصول.

فإذا كانت هناك وجهتا نظر، أو قولان متكافئان أو متقاربان في قضية، أحدهما أحوط، والآخر أيسر، فينبغي أن نختار للفتوى لجماهير الناس، الأيسر لا الأحوط.

والحجة في هذا ما قالته عائشة رضي الله عنها: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً»^(٢).

وقوله ﷺ - فيمن أطل بالناس الصلاة - : «أيها الناس، إن منكم منفرين، فأنيكم ما صلى بالناس، فليؤجز، فإنّ فيهم الكبير والضعيف وذو الحاجة»^(٣). فأشار إلى ضرورة رعاية ظروف الناس، والتخفيف عنهم، وخصوصاً الضعفاء منهم؛ ولهذا قيل في السفر: سيروا بسير أضعفكم؛ إذ لا يجوز أن يسرع الأقوياء، ويدعوا الضعفاء منقطعين عن الركب، ولا راعي لهم.

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين (١٢٥/٢)، نشر عالم الكتب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥٩)، ومسلم في الصلاة (٤٦٦)، عن أبي مسعود الأنصاري.

والدارس المتعمق، يلاحظ أن فقه الصحابة والسلف كان يتجه غالباً إلى الأيسر؛ وفقه من بعدهم كان يتجه غالباً إلى الأحوط.

وللبخاري عن جابر: أنه صلى في إزار وثيابه عنده، فقال له قائل: تصلي في إزار واحد؟ فقال: إنما صنعت ذلك ليراني أحقق مثلك! وأينا كان له ثوبان على عهد رسول الله ﷺ^(١)؟ يعني: أنه أراد أن يُعلمه الرخصة في الصلاة في هذه الصورة التي يرفضها المُشدّدون.

ولمسلم: أن أبا هريرة قيل له: ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فَرَّوْخُ، أنتم هاهنا؟ ولو علمت أنكم هاهنا ما توضّأت هذا الوضوء، سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(٢). أراد أبو هريرة المَوالي، وكان خطابه لأبي حازم.

فالصحاباء - فيما أثر عنهم من فقه - نجدهم أكثر الناس تيسيراً على الخلق، والتابعون على نهجهم وإن لم يبلغوا درجتهم، والأتباع على نهج التابعين، وإن لم يكونوا مثلهم؛ لأنهم بدؤوا يتجهون إلى التحوط، وكل جيل أخذ يضيف بعض «الأحوطيات» إلى ما قبله.

وإذا كثرت «الأحوطيات» في الفقه المتصل بحياة الناس، فإن «مجموعها التراكمي»، سينتهي إلى شيء من الآصار والأغلال التي جاء النبي ﷺ بوضعها عن الأمة، فقد جاء في وصفه في كتب أهل الكتاب: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ومن

(١) رواه البخاري في الصلاة (٣٥٢).

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٥٠). وفَرَّوْخُ: بفتح الفاء وتشديد الراء بخاء معجمة لا ينصرف. قال صاحب العين (مادة: ف. ر. خ): بلغنا أنه كان من ولد إبراهيم ﷺ، من ولد كان بعد إسماعيل وإسحاق، كثر نسله، ونما عدده، فولد العجم.



الأدعية التي علمها الله المسلمين وختمت بها سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣ - التضييق في الإيجاب والتحريم:

ومن التيسير المطلوب: التضييق والتحري البالغ في تكليف الناس بالأحكام وخصوصاً في مجال الفرض والتحريم، فلا يجوز التوسع في ذلك بأدنى دليل، بل لا بدّ من نص صحيح الثبوت، صريح الدلالة على فرضية الفرض، وحرمة الحرام، أو قياس واضح العلة على نص، فإننا نقطع أنّ الشريعة العادلة لا تفرق بين متماثلين، كما لا تسوي بين مختلفين.

وقد كان السلف يتخرجون من التحريم - ومثله الفرضية - إلا أن يكون معهم دليل لا شبهة فيه، وإلا نزلوا من الفرض إلى الواجب، ومن الحرام إلى المكروه، وهذا هو مذهب الحنفية الصريح، وهو المفهوم من عبارات الأئمة بصفة عامّة.

ولهذا كثر في كلامهم مثل قول: يعجبني كذا وكذا، أو أستحب كذا وكذا، ولا يصرح بالوجوب إلا ما علم جزمًا بوجوبه.

وقولهم في جانب المنهيات: أكره كذا، ولا أحب كذا، ولا يعجبني كذا، ولا يصرحون بالتحريم، إلا ما علم جزمًا بتحريمه.

ويدل لهذا الاتجاه موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - من شرب الخمر، فقد ظل بعضهم يشربها ويقول: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا^(١)، برغم نزول آية: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]،

(١) سبق تخريجه ص ٦٣.

وآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]،
 حَتَّىٰ نَزَلَتِ الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ وَفِيهَا الْبَيَانُ الشَّافِي الَّذِي ارْتَقَبُوهُ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
 وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ويبدو للمتأمل في القرآن والسُّنَّة، أَنَّ الإسلام كان حريصًا على تقليل
 التكاليف، وتوسيع «منطقة العفو»، رحمةً بالمكلفين غير نسيان.

ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا
 عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ
 عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقد توسع في شرحها والتعليق عليها العلامة رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ،
 وجعلها أساس كتابه: «يسر الإسلام».

٤ - التيسير فيما تعم به البلوى:

ومن أهم ما ينبغي التيسير فيه: ما تعم به البلوى من أمور العبادات
 والمعاملات.

أ - فإذا كان هناك بعض المذاهب، شدد في شؤون الطهارة مثلاً،
 كمذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فليس هناك موجب لإلزام الناس به،
 لما قد يترتب عليه من الحرج عند جماهير المسلمين وخصوصاً في
 الريف والقرى.

فلا غرو أَنْ يَتَّجِهَ الْفَقِيه إِلَى مَذْهَب مَالِكٍ وَمَنْ وَافَقَهُ فِي الْقَوْلِ
 بِأَنْ كُلَّ مَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ فَبُولُهُ وَرَوْثُهُ طَاهِرٌ، وَأَنَّ الْمَاءَ لَا يَنْجَسُ إِلَّا
 بِالتَّغْيِيرِ، وَهَذَا مَا رَجَحَهُ وَأَفْتَى بِهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، وَعُضِدَهُ
 بِالْأَدَلَّةِ.

وقد قال الإمام الغزالي في كتاب: «الطهارة» من «الإحياء» - عن الشافعي - : كنت أود أن يكون مذهبه في المياه كمذهب مالك. وساق سبعة أوجه لتأييد مالك، وهو شافعي المذهب، رضي الله عن الجميع^(١). ومثل ذلك ما قاله الغزالي عن البيع بالمعاطاة، بغير لفظ الإيجاب والقبول^(٢)، وهو ما يجري عليه عمل المسلمين في كل مكان، وفي سائر العصور، وقول الشافعي فيه شديد، والبلوى به عامّة.

فعلى الفقيه أن يعمل على تصحيح معاملات المسلمين من داخل الفقه ومصادر الشريعة وقواعدها ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وهذا ما يلّمسه الدارس لدى كثير من علماء الفقه في المذاهب المختلفة، ولا سيّما في الأعصر الأخيرة، فهم يحاولون أن يلتمسوا مخرجاً لتصحيح التعامل، إما بتكييفه تكييفاً يجعل له مستنداً من الشرع، أو بحيلة فقهية، أو باللجوء إلى قول مهجور أو ضعيف في المذهب، أو بإجازة تقليد مذهب آخر.

وكثيراً ما يكون الضيق والخرج ناشئاً من التقيد بمذهب معين، ولو تحرروا منه إلى باحة المذاهب الأخرى المتبوعة وغير المتبوعة، وأقوال الصحابة والسلف، وإلى النصوص والقواعد العامّة، لوجدوا في باحتها الفسيحة ما يخرجهم من الضيق إلى السعة، ومن العسر إلى اليسر.

ومن الكلمات التي لها دلالتها، ما أثر عن السابقين - في ترجيح العمل ببعض الأقوال - قولهم: هذا أرفق بالناس.

(١) إحياء علوم الدين (١/١٢٩).

(٢) المصدر السابق (٢/١٢٦).

ب - ومن جوانب التيسير - فيما تعم به البلوى - الإشارة إلى الرأي المخالف الذي لم يأخذ به الكاتب أو الكتاب، ولو في الحاشية، وإن كان في نظره ضعيفاً، فقد يكون قوياً في نظرة غيره، ويتعين هذا إذا اختار هو القول الأحوط، أو الأشد، فيلزم الإشارة إلى الرأي الأيسر.

ومن فوائد هذا: التعريف بأن المسألة فيها أكثر من رأي أو وجهة نظر، فالمختلف فيه غير المجمع عليه، وذكر هذا في هذا المقام خاصة من الأمانة العلمية.

ومن ناحية ثانية، فالأمور الاجتهادية القابلة لتعدد الأنظار، واختلاف الاجتهادات، لا يجوز أن يعتبر من أخذ بوجهة منها مرتكباً لإثم ينكر على صاحبه، ولهذا قالوا: لا إنكار في المسائل الاجتهادية.

وأمر ثالث: وهو الإبقاء على الضمير الديني، عند من يعملون على خلاف الرأي الأحوط أو الأشد أو المشهور، وهو ما لاحظته الأستاذ الأكبر، شيخ الأزهر الأسبق، الشيخ محمد مصطفى المراغي رَحِمَهُ اللهُ، حين تبنى أقوال الإمام ابن تيمية وبعض السلف في قضايا الطلاق وغيرها من الأحوال الشخصية، فإنَّ النَّاسَ يحلفون بالطلاق كل يوم، وخصوصاً الباعة والعامة، ثمَّ يحنثون، ويظنون أن طلاقهم واقع، وأنَّهم يعيشون مع نسائهم في حرام، وأن ذريتهم منهم أولاد حرام، ومثل هذا الاعتقاد يفسد ضمائرهم، ويجرئهم على الحرام الصرف المقطوع به. فلماذا لا نفتيهم بالمذهب الميسر عليهم، وبذلك نبقي عليهم ضمائرهم واعتقادهم أنَّهم لم يخرجوا عن دائرة الإسلام؟

ومثل ما يقال فيمن يفتي بتحريم حلق اللحية، تحريماً قاطعاً، بل يحرم أخذ أي شيء منها، وجماهير المسلمين تفعل ذلك.

وكذلك من يفتي بتحريم إطالة الثوب إلى أسفل من الكعبين، واعتبار فاعله في النار، وجماهير الأمة الإسلامية واقعة في ذلك، كما هو مشاهد.

فإذا افترضنا أن الفقيه اختار الرأي الأثقل، فالواجب في رأي أن يشير إلى الرأي الآخر. ولا يحمل الناس على رأي واحد؛ فتكون فتنة، كما قال الإمام مالك رحمته الله معللاً رفضه، حمل الناس على «الموطأ»^(١).

ولا يعني التيسير فيما تعم به البلوى، أن نُحل المحرمات المقطوع بها، مثل: الربا، أو الخمر، أو المخدرات، ونحوها، ممّا جاءت به نصوص محكمات، لا يجوز إهمالها أو التلاعب بها، اتباعاً لأهواء الناس. فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البجائية: ١٨، ١٩].

مراعاة قواعد الشرع الميسرة:

ومما يدخل في معنى التيسير: الرجوع إلى القواعد الشرعية، التي أصلها الفقهاء من جميع المذاهب، وكلها تعين على قبول التيسير، والاستغناء عن الإعانات والتعسير.

من هذه القواعد:

١ - الضرورات تبيح المحظورات، ويُتمّمها: ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

(١) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٧٢/٢ - ٧٣)، نشر مطبعة فضالة

المحمدية، المغرب، ط ١.

- ٢ - الحاجة قد تُنزل منزلة الضرورة، خاصة كانت أو عامة.
 - ٣ - ما حُرِّم لذاته لا يباح إلا للضرورة، وما حُرِّم لسدِّ الذريعة، يُباح للحاجة.
 - ٤ - المشقة تجلب التيسير.
 - ٥ - إذا ضاق الأمر اتسع.
 - ٦ - يرتكب أخفُّ الضررين وأهون الشرَّين.
 - ٧ - يُترك أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما.
 - ٨ - لا ضرر ولا ضرار.
 - ٩ - حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة.
 - ١٠ - الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والعُرف والحال.
 - ١١ - التكليف بحسب الوُسْع.
 - ١٢ - الحرج مرفوع.
- وكلُّ قاعدة من هذه القواعد، تتفرَّع عنها فروع وأحكام، وكلُّ هذه القواعد مدلَّل عليها من الكتاب والسنة وهدي الصحابة رضي الله عنهم.

تيسير التعليم والدعوة:

وإذا كان التيسير مطلوباً في فقه الأحكام، فهو مطلوب كذلك في الدعوة والتعليم، فإنَّ رسولنا ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مِيسِّرًا»^(١).

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، عن جابر.



وروى ابن عباس عنه قوله ﷺ: «عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(١).

قال المُنَاوِي: أي علموا النَّاسَ ما يلزمهم من أمر دينهم، وحالتكم في التعليم: اليُسْر لا العسر، بأن تسلكوا بهم سبيل الرفق في التعليم، ولا تُشَدِّدُوا عليهم، لئلا ينفروا من قبول الدين واتباع الهدى^(٢).

وهذا هو نهج الرَّبَّانِيِّين من العلماء، في تعليمهم لمُريدِيهم وتلاميذهم.

ويقال: الرَّبَّانِي: الذي يربِّي النَّاسَ بصغار العلم قبل كباره.

قالوا: والمراد بصغار العلم: ما وُضِّحَ من مسأله، وبكباره: ما دقَّ منها.

وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كليّاته، أو فروعها قبل أصولها، أو مقدّماته قبل نتائجها^(٣).

والمقصود هو: التدرُّج في التعليم، ومراعاة ظروف المتعلِّمين، وقدراتهم، والترقي بهم من درجة إلى أخرى.

قال الحافظ - في شرح حديث: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٤) -: المراد تأليف من قُرْب إسلامه، وترك التشديد عليه في الابتداء. وكذلك الزجر عن المعاصي، ينبغي أن يكون بالتدرُّج؛ لأنَّ الشيء إذا كان في ابتدائه

(١) رواه أحمد (٢١٣٦)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٥)، والطبراني (٣٣/١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٤٨): فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٧٥)، عن ابن عباس.

(٢) فيض القدير للمناوي (٣٢٨/٤) حديث رقم (٥٤٨٠)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ.

(٣) فتح الباري (١/١٦٢)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٨.

سهلاً؛ حَبَّ إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانسباط، وكانت عاقبته - غالباً -
الازدياد، بخلاف ضده^(١).

وليس التيسير مقصوداً على قريب العهد بالإسلام، كما قد يفهم من
كلام الحافظ، بل هو أمر عام ودائم، ولكنّه ألزم ما يكون لحديث العهد
بالإسلام، أو بالتوبة، أو بكل من يحتاج إلى التخفيف من مريض، أو
كبير سن، أو ذي حاجة.

ومن مقتضيات تيسير العلم: أن يجرعوا من المعارف الدينية
ما يطيقونه، وتسيغه معدتهم العقلية، ولا يُحَدِّثُوا بما تنكره عقولهم،
فيكون فتنة عليهم أو على بعضهم.

وفي هذا يقول عليّ رضي الله عنه: حَدِّثُوا النَّاسَ بما يعرفون، ودعوا
ما ينكرون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله^(٢)؟!

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه
عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنة^(٣).

وقوله ﷺ: «يَسِّرُوا» أمر، والأمر لا يقتضي ضرورة التكرار، فمن يسّر
مرّة أو مرّتين يقال: إنّه يسر وامتثل الأمر، وإن عسر بعد ذلك في جميع
الحالات؛ لهذا أردف الأمر بالتيسير بالنهي عن التعسير، فقال:
«وَلَا تُعَسِّرُوا» لنفي العسر في جميع الأحوال ومن جميع الوجوه، وكذلك
قوله: «وَلَا تُنْفِرُوا» بعد قوله: «بَشِّرُوا».

(١) فتح الباري (١/١٦٣).

(٢) رواه البخاري في العلم (١٢٧)، عن عليّ بن أبي طالب موقوفاً.

(٣) رواه مسلم في المقدمة (١/١١)، عن ابن مسعود موقوفاً.



قال العلامة «العيني» في «شرح البخاري»: لا يقال: كان ينبغي أن يقتصر قوله: «ولا تُعَسِّرُوا ولا تُنْفَرُوا» أي دون قوله: «يَسِّرُوا وبَشِّرُوا»؛ لأنَّه لا يلزم من عدم التعسير ثبوت التيسير، ولا من عدم التنفير ثبوت التبشير، فجمع بين هذه الألفاظ لثبوت هذه المعاني، أي بوضوح وتفصيل؛ لأنَّ المقام يقتضي ذلك^(١).

من مظاهر التعسير والتشديد:

وإذا كان التيسير مطلوباً في كل شؤون الحياة، وفي الدين خاصّة، لا سيّما في فقه أحكام الشريعة، وفي تعليم الدين والدعوة إليه، فإنَّ التعسير المضاد للتيسير مرفوض قطعاً في دين الله؛ لأنَّه داخل في العسر والحرّج والعنت والآصار والأغلال، التي نفاها الله عن هذا الدين.

وإذا كنا عرفنا بعض مظاهر التيسير، الذي يحبُّه الله ورسوله، فكلُّ ما يناقضها، فهو من التعسير الذي يبغضه الله ورسوله.

ونذكر لذلك بعض الأمثلة؛ فبالمثل يتّضح المقال.

١ - إغفال الرخص مع ميسر الحاجة إليها:

ونعني بالرخص: ما أشرنا إليه من التخفيفات، التي شرعها الله في الفرائض وغيرها لأسبابٍ معينة على المكلفين، كالقصر والجمع في الصلاة للمسافر، بل قد صح عن رسول الله ﷺ الجمع بين الصلاتين (الظهر والعصر، والمغرب والعشاء) في غير سفر؛ رفعاً للحرّج عن الأمّة، وذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس في «الصحيح»^(٢).

(١) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني (٤٧/٢)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٠٥).

ومثل ذلك الرخصة لمن كان مريضًا أو على سفر أن يفطر في رمضان، ويقضي عدّة من أيّام آخر. وهو ما نصّ عليه القرآن وصحّت به الأحاديث. وقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال الضربات المائة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث، كما قال تعالى: ﴿وَحُذِّ بِيدِكَ ضِغْثًا فَأَضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤].

ألا ترى أن السُّنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أنه يجزئه الثلث، فأقام الثلث في النذر مقام الجميع رحمةً بالناذر وتخفيفاً عنه، كما أقيم مقامه في الوصية رحمةً بالوارث ونظرًا له، وجاءت السُّنة فيمن نذرت الحجّ ماشية أن تركب وتهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه كطواف الوداع عن الحائض.

وأفتى ابن عبّاس وغيره من نذر ذبح ابنه بشاة، إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل.

وأفتى أيضًا من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين (أي طوافين كل منهما سبع مرّات) إقامة لأحد الأسبوعين مقام طواف اليمين.

وأفتى أيضًا - هو وغيره من الصحابة رضي الله عنهم - المريض الميئوس منه، والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما عن كلّ يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفتى أيضًا - هو وغيره من الصحابة - الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام

الصيام. وهذا كثير جدًا، وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله تعالى الشيء منها عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب قصة لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأنَّ الرجل لو حلف ليضربنَّ أمته أو امرأته مائة ضربة، أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلى حيلة تخفيف الضرب بجمعه، ولو نذر ذلك، فهو نذر معصية، فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين.

٢ - التوسُّع في مفهوم البدعة:

ومن مظاهر التعسير والتشديد التي يجب أن تقاومها الصحة الإسلامية: توسُّع قومٍ في مفهوم «البدعة» توسُّعًا منكراً، حتَّى كادوا يجعلون كلَّ جديدٍ بدعة.

وذهب بعضهم إلى باكستان، فوجد المسلمين هناك يخطبون الجمعة بالعربيَّة، وهي خطبة قصيرة في العادة، ولكنَّهم يعقدون قبلها درسًا باللغة المحليَّة، يقومون فيه بشرح ما لا بدَّ منه من أحكام الدين وتوجيهاته، وهنا انبرى هذا «الداعية» ليقول: إن هذا الدرس بدعة؛ لأنَّه مُحدَث لم يفعله النبي ﷺ ولا أصحابه، وكلُّ مُحدَثٍ بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة!

وغفل هذا المدَّعي عن أمرٍ مهمٍّ، وهو أنَّ النبي ﷺ لم يفعل ذلك لأصحابه؛ لأنَّه لم تكن بهم حاجة إليه، فقد كانوا عربًا يخطبون عربًا يتكلَّمون بلسانهم، ويعقلونه عنهم.

وأما إذا كان المخاطب أعجميًّا، فإمَّا أن تُعجم الخطبة حتَّى تُفهم، وهو ما رآه بعض الفقهاء، وكون الخطبة بالعجميَّة أمرٌ لم يفعله النبي ﷺ

ولا أصحابه. وإمّا أن تبقى الخطبة عربيّة محافظةً على الشكل، على أن يستعاض عن المضمون بدرس قبل الصلاة، أو بعدها، يعنى بتعليم النَّاس شيئاً عن دينهم. وهذا ما رأيت إخواننا العلماء في الهند وباكستان وتركيا وغيرها يفعلونه.

ومن غرائب ما سمعته من بعض الشباب المتدينين: أنّهم خرجوا في رحلة مدرسيّة أو جامعيّة مع بعض أساتذتهم، فلما ركبوا الحافلة وبعد أن دعوا بأدعية السفر المأثورة، قاموا بإنشاد بعض الأناشيد الإسلاميّة التي تُحفز الهمم وتُثير الحماس، وتبرز معاني إسلاميّة أصيلة، فقام بعض هؤلاء الأساتذة وأنكر عليهم زاعماً أن هذا الإنشاد بدعة!

ولما ذكر لي ذلك قلت للشباب: إنّ الصحابة كانوا ينشدون الرجز والشعر في الغزوات وغيرها، كما صنعوا عند بناء المسجد النبوي، وعند حفر الخندق، وعند ملاقات الأعداء.

وممّا أثر عنهم أنّهم كانوا ينشدونه:

اللهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إنّ الذين قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا^(١)

ومنذ بدء النهضة الإسلاميّة الحديثة، وهناك أناشيد قوية، ينشدها الشباب المسلم، ولم ينكرها عليهم أحد من العلماء.
وكان منها نشيد الرافعي الشهير^(٢):

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣)، كلاهما في الجهاد والسير، عن البراء.

(٢) انظر النشيد كاملاً في أغاريد الرافعي ص ٧٢، دراسة وتدوين مصطفى نعمان البدري، وزارة دار الرشيد للنشر، العراق.

رَبَّنَا إِيَّاكَ نَدْعُو رَبَّنَا آتِنَا النَّصْرَ الَّذِي وَعَدْتَنَا
إِنَّا نَبْغِي رِضَاكَ، إِنَّا مَا ارْتَضَيْنَا غَيْرَ مَا تَرْضَى لَنَا
ومنها نشيدي المعروف: «مسلمون» ومطلعه^(١):

مُسْلِمُونَ... مُسْلِمُونَ... مسلمون حَيْثُ كَانَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ نَكُونُ
نَرْضَى الْمَوْتَ وَنَأْبَى أَنْ نَهُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا أَحْلَى الْمُنُونُ!

٣ - التوسع في التحريم والإيجاب:

ومن الظواهر الخطيرة، التي يجب على الصحوة الإسلامية أن تقاومها: الجُرأة على الفتوى، لمن ليس لها أهلاً.

وأهل الفتوى هم المجتهدون الذين حصّلوا من مؤهلات العلم، وشروط المعرفة بالدين، واللغة، والفقه والأصول، والحياة والناس، ما يؤهلهم للحكم بأن هذا حلال وهذا حرام، وهذا فرض وهذا مستحب. وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يتهيئون الفتوى، ويفرون منها، ويحيل بعضهم على بعض، حتّى لا يحمل تبعاتها، ولكن كثيراً من الشباب - الذين نرى أكثرهم دخليلاً على العلم الشرعي - بمجرد أن قرأ عدة كتب، حسب أنّه أصبح «شيخ الإسلام» في زمانه، وغدا يُخطئ كبار العلماء، بل كبار الأئمة، ويقول عن أبي حنيفة ومالك، بل عن عمر وابن عباس: هم رجال ونحن رجال!

لقد رأينا من علمائنا السابقين، من أنكر على بعض علماء زمانه، وهم قطعاً خير من هؤلاء بمراحل ومراحل، يقول: إن أحدهم ليفتي في المسألة لو عرضت على عمر: لجمع لها أهل بدر!

(١) انظره كاملاً في ديواننا نفحات ولفحات ص ٢٣٨ - ٢٤٤.

ومن جريء ما سمعته من فتاوى هؤلاء المتكلمين في دين الله على غير بصيرة ما ذكر لي بعض الشباب في «تلمسان»، عند حضوري «ملتقى الفكر الإسلامي» السادس عشر في الجزائر: أن أحد هؤلاء أفتى بأن من قال لامرأته: «الله يلعنك» حرمت عليه، ويُفَرَّق بينه وبينها! وعجبت لهذا الحكم الغريب الجريء الذي لم يقل به أحد من علماء المسلمين، طَوَّال أربعة عشر قرنًا، وقلت لهم: من أين جاء صاحب هذا القول بقوله؟! قالوا: اجتهاد منه لم يُقَلَّد فيه أحدًا، إنَّما أخذه من حديث الرسول الكريم في المرأة التي لعنت ناقتها، فقال ﷺ: «دعوها فإنها ملعونة!»^(١).

ومعنى ذلك: أن هذا الحكم الجديد خَفِيَ على فقهاء الأمة بكلِّ مذاهبها ومدارسها، طيلة القرون الماضية، ثمَّ جاء هذا المجتهد المطلق المستقل ليكشف من أحكام الشرع ما اجتمعت الأمة كلُّها على الجهل به! والغريب، أن هؤلاء الجرَّاء ينكرون عادة القياس وتعليل الأحكام، ولكن مجتهدهم هنا يقيس في غير موضع القياس، ويجعل المرأة كالناقة، ويستدلُّ بحديث جاء في واقعة حالٍ، أريد به الزجر والتأديب، ولم يأت بلفظٍ عامٍّ، حتَّى يؤخذ منه حكمٌ عامٌّ. ولا غرو أن أحدًا لم يقل بأن من لعن دابَّته أو شيئًا مملوكًا له يحرم عليه الانتفاع به، فالأصل الذي قاس عليه صاحبنا غير ثابت، فهو يبنِّي على غير أساس، ويقىس بغير مقياس.

ومقتضى قياس صاحبنا هذا المفتي العجيب: أن تطلق المرأة منه، ولا تتزوَّج بعده أبدًا؛ لأنَّ الرسول ﷺ منع من ركوب الدابَّة؛ لأنَّها ناقة ملعونة، فهل يلتزم هذا المفتي الجريء بذلك؟

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٥)، وأحمد (١٩٨٧٠)، عن عمران بن حصين.



التشديد في غير محله يضيع مصالح إسلامية كثيرة:

ولقد تبين لي من تجاربي أنّ التشديد في غير محله يجلب على الإسلام مفسدات كبيرة، كما يضيع عليه وعلى أمته مصالح كثيرة. وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

نزلت في أحد الفنادق في إندونيسيا، فوجدت في غرفتي الإنجيل - أو الكتاب المقدس - باللغة الإنجليزية. وسألت الأخ المرافق معي: لماذا لا يوجد في مثل هذه الفنادق ترجمة لمعاني القرآن في بلد مسلم كهذا، بدل هذا الإنجيل، أو معه على أضعف الإيمان؟

وما أشدّ دهشتي حين سمعتُ الجواب، وهو قوله: إنّ العلماء في بلدنا حرّموا ذلك، لما فيه من تمكين الكفار من مسّ المصحف، ولا يمسّه إلّا المطهرون!

وأكد لي ذلك، ما سمعته من وزير الشؤون الدينية في أول زيارة زرتها لإندونيسيا، حين حدّثني أنّ قبيلة من القبائل الوثنية الكبيرة في إحدى جزر إندونيسيا، رغبت في الدخول في الإسلام، فذهب بعض زعمائها إلى أحد كبار الشيوخ من علماء المسلمين، وعرض عليه الأمر، وماذا يطلب منهم ليدخلوا في الإسلام، ويصبحوا من أهله، فما كان من هذا العالم «الكبير» إلّا أن طلب منه طلباً عجيباً، اعتبره وكأنّه شرط للدخول في الإسلام، ألا وهو ختان الذكور!

فما كان من هؤلاء الزعماء، إلّا أن أعرضوا مع قبيلتهم عن الدخول في الإسلام، خوفاً من هذه المذبحة الجماعية!

وبهذا ضيّع بسوء فقهه دخول هذه الجماعة الكبيرة في دين الله، واهتدأها إلى الصراط المستقيم.

ولو كان عنده شيءٌ من الفقه لقال لهم: إِنَّ الإسلام ليس لديه أي مراسم للدخول فيه، ويكفي الإنسان أن يشهد بلسانه وقلبه أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ليصبح مسلماً، وينضم إلى القافلة الإسلامية، ويغدو أخاً للأمة الإسلامية كلها. ولا يُشدد في أمر هو من سنن الفطرة في الإسلام، وليس من الفرائض ولا الأركان، ولا سيّما لمن دخل في الإسلام كبيراً، وما سمعنا أن المسلمين في عصور المد الإسلامي اشترطوا على كل من يدخل في الإسلام أن يختن أولاً.

التشديد على الناس ولو بتغيير أحكام الشرع:

ولو اتّبعتنا أهواء المتشددّين في الدين، لغيرنا أحكام الشرع، لتوافق هواهم في التشدد والتعسير.

سألني أحد المشاهدين في قطر يوماً، عن حكم من أتى امرأته في دبرها. فقلت: إن أتاها من دبرها في قبلها، فلا جناح عليه؛ لأنه لم يتعدّ موضع الحرث، وقد قال تعالى: ﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وإن أتاها من دبرها في دبرها؛ فقد ارتكب حراماً؛ لأنه تعدى موضع الحرث - الذي أشارت إليه الآية الكريمة - إلى موضع الأذى والقذر، الذي يُشبهه عمل قوم لوط، في مجافاته للفطرة، وجوره على حق المرأة في الاستمتاع والإشباع، وفي الحديث: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(١). ولكن المرأة لا تطلق بهذا الأمر، كما هو شائع عند بعض الناس.

(١) رواه أحمد (٩٧٣٣)، وقال مخرجه: حديث حسن. وأبو داود في النكاح (٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٨٩٦٦)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٩)، عن أبي هريرة.

وقد اتّصل بي بعض الناس، وقال: كان الأولى أن تترك الناس على اعتقادهم، بأنّ المرأة تطلق من زوجها إذا ارتكب معها هذا المنكر، حتّى يكون ذلك زاجراً لهم عن اقتراف هذه المعصية.

قلتُ: يا سبحان الله! أتريدني أن أبدل شرع الله لتخويف الناس؟! إنّ الإسلام لا يقبل اتّباع الباطل للوصول إلى الحقّ، وإذا لم ينزجر الناس بأحكام الشرع فلا زجرهم الله. ومثل هذه النزعة هي التي فتحت للحكّام باب التعدي لحدود الله. والجواب الصحيح هنا: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وأنكر عليّ بعض المشايخ الذين عقّبوا على كتابي: «الحلال والحرام في الإسلام» أنّي أشرت إلى رأي الشيعة في «زواج المتعة»، مع أنّي رجّحت تحريمه، ورددتُ على الشيعة. ولكنّه عاب عليّ مجرد الإشارة إلى ذكر الخلاف، واعتباره أمراً متفقاً عليه بين طوائف الأُمّة، وأنّ رأي الشيعة شذوذ لا اعتبار له.

ورأيي أنّ هذا التوجّه في الجملة غير صحيح؛ لأنّ الأحكام يجب أن تبقى على مراتبها، القطعي يجب أن يظلّ قطعياً، والظنّي يجب أن يبقى ظنّياً، والإجماعيّ يجب أن يظلّ إجماعياً، والخلافيّ كذلك، فهذا يترتّب عليه أحكام أخرى من التأثيم، أو التبديع، أو حتّى التكفير.

والخلاف في الموضوع قديم، وقد قالوا: إنّ ابن عبّاس أفتى بجوازه. وإن قال بعضهم: إنّ رجوع عنه. وظلّ بعض أصحابه من بعده يفتون به، مثل: عطاء، وسعيد بن جبّير، وطاوس.

كما أنكر بعضهم: ذكرني لبعض آراء الفقهاء بصيغة التمرّض، مثل: قيل كذا، وزوّي كذا، وإن لم أعتمد هذه الأقوال، أو أرجّحها.

ولكن ذكرى لها يدلُّ على أنَّها ليست مسألة إجماعية، وهذا يدعو إلى التيسير والتخفيف فيها إذا وجد ما يدعو إليه، كما يدعو إلى عدم القسوة على من تورَّط فيها، فهناك من أقوال الأئمة ما يسعُّه ويحتمله، ودينُ الله يسرُّ.

من التنفير إلى التبشير:

ركزنا الحديث في الفقرات السابقة لنقل الصحوة من التعسير إلى التيسير، وبقي الحديث عن الشق الباقي من الحديث، وهو الانتقال من التنفير إلى التبشير، وبذلك نستكمل الهدي النبوي والتوجيه المحمدي: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفِرُوا»^(١).

«التبشير»: مصدر بَشَّرَ يَبَشِّرُ، وأصله: الإخبار بأمر سارٍّ يظهر أثره على بشرة الإنسان، ثمَّ استعمل فيما يقابل الإنذار؛ ولهذا كان رسل الله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يبشرون من آمن بالله وأطاع رسله بالجنة، والحياة الطيبة، وينذرون من كفر بالله وعصى رسله بالنار في الآخرة، والدمار في الدنيا.

والمراد بالتبشير هنا: كل دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم في عبادته وطاعته، وتقودهم بحب ورفق إلى اتباع صراطه المستقيم.

فالتبشير في نظري يتعلَّق بجانب الدعوة، كما أنَّ التبشير يتعلَّق بجانب الفتوى، وإذا وُفِّقَ العالم المسلم إلى اتباع منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة، فقد آوى إلى ركنٍ ركين، وهُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم.

(١) سبق تخريجه ص ٥٨.

ومعنى «لا تُنفروا»: أي لا تتبعوا النهج الذي يُنفّر النَّاس من شرع الله، ومن الالتزام بمنهجه القويم، مثل منهج الترهيب الدائم، والتخويف المستمر من الله تعالى، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله، دون آيات الوعد والنعيم والرحمة منه سبحانه.

قال العلامة العيني في شرح الحديث في «عمدة القاري»: في قوله: «ولا تُنفروا» يعني بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فيُتألف من قرب إسلامه بترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ وتاب من المعاصي، يتلطف بجميعهم بأنواع الطاعة قليلاً قليلاً، كما كانت أمور الإسلام على التدرج، في التكليف شيئاً بعد شيء؛ لأنّه متى يسر على الداخل في الطاعة، أو المريد للدخول فيها، سهلت عليه وتزايد فيها غالباً، وإذا عسر عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم، أو لا يستحملها^(١) اهـ.

وبهذا نرى أنّ التيسير وعدم التعسير، يؤدي إلى التبشير وعدم التنفير، فهما يتداخلان أو يتلازمان.

١ - من مظاهر التبشير: تغليب الأمل والتفاؤل:

وللتبشير مظاهر شتى، ودلائل كثيرة، بعضها يتعلق بأمر الحياة وشؤون الدنيا، مثل: تغليب التفاؤل على التشاؤم، كما كان شأن النبي ﷺ، فقد كان يحب الفأل الحسن، ويكره التشاؤم والتطير، حتّى جعله ضرباً من الشرك، وأوصى من أحسّ بشيء من ذلك أن يقول: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»^(٢).

(١) عمدة القاري للعيني (٤٧/٢).

(٢) رواه أحمد (٧٠٤٥)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. والطبراني (٢٢/١٣)، عن عبد الله بن عمرو.

كما حذر من اليأس والقنوط: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ودعا إلى الأمل دائماً في نصر الله وفي فرجه، وإن طبقت الظلمات على الإنسان؛ فإن الله سيخرج من الظلام فجراً، ومن العسر يسراً، كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَصْبَحَ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْظَرُهُمْ أَنَّ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وهنا مجال الدعوة الإسلامية، والتربية الإسلامية في تكوين الشخصية المسلمة السوية المتزنة الراضية المطمئنة، البعيدة عن القلق والاكتئاب والقنوط، لإيمانها بقضاء الله وقدره، وأن ما أخطأ المرء لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

إن عقيدة التوحيد إذا رسخت في قلب صاحبها، جعلته يحيا في واحة خضراء، من الأمن النفسي، والرضا واليقين والسكينة وغيرها من المعاني الربانية، التي لا يذوق طعمها الماديون الملحدون والمرتابون، ولا يسعد بها إلا المؤمنون الصادقون: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إنها سكينة النفس، وهي ينبوع السعادة الحقة، سعادة الروح التي عبر

عنها بعض الصالحين بقوله: إِنَّا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف^(١)!

ومن حُسن حظ هؤلاء أن الملوك والسلاطين وجابرة الأرض لا يعرفون قيمة هذه السعادة، فلم ينازعوهم فيها، وتركوهم يستمتعون بثمارها وظلالها وحدهم، وهم آمنون.

هذا هو الصراط المستقيم الذي جاء به الإسلام في توجيهه الدعوي والتربوي، ولكن المسلمين قد يتلون ببعض الموجهين الذين يشردون عن سواء الصراط، ويبالغون في جانب الترهيب والتخويف إلى حد ينسي الناس أن الله تعالى أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، فيسرفون ويغالون في التذكير بالموت وعذاب القبر، وأهوال الآخرة، ولا يزالون يكررون هذا على الناس، حتى ينجسوا على الناس حياتهم، وينشئوا حالات من المرض النفسي لدى الكثيرين والكثيرات. والواجب هو التوازن في هذا، على طريقة القرآن في وصف المؤمن الذي: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وعلى ما قاله الصحابة: اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعملْ لآخرتك كأنك تموت غداً^(٢).

٢ - تغليب جانب الرحمة والعفو:

ومن مظاهر التبشير في الدعوة: تغليب جانب الرحمة والمغفرة والعفو الإلهي على جانب البطش والعقوبة والانتقام، وخصوصاً بالنسبة

(١) سبق تخريجه ص ٢٩.

(٢) رواه الحارث في مسنده (١٠٩٣) كما في البغية، عن عبد الله بن عمرو. وقد شاع بين جمهور المسلمين حتى حسبه حديثاً، وذلك لموافقته ضمناً للأصول الإسلامية.

لِلَّذِينَ انْغَمَسُوا فِي الْمَعَاصِي، وَظَنُّوا أَنَّ بَابَ الْعَفْوِ قَدْ أَغْلَقَ دُونَهُمْ، وَأَنَّ مَا اقْتَرَفُوا مِنْ مَآثِمٍ تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدُّخُولِ إِلَى سَاحَةِ اللَّهِ.

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فرغم عصيانهم لله وإسرافهم على أنفسهم لم يحرمهم سبحانه من شرف انتمائهم إليه وعبوديتهم له، فقال: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ﴾، وفي هذا إيناس لهم وتلطف بهم، وتقريب لهم منه، جل شأنه.

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ * [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين، فقد جعلت الآية الأولى المغفرة والرحمة من أسمائه الحسنی، التي يمتدح بها، ويدعى بها: ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، على حين جعلت الآية الثانية العذاب من أفعاله سبحانه، وليس من أسمائه، إذ لم يقل: «وَأَنِّي أَنَا الْمَعَذِّبُ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ»؛ وما أعظم الفرق بين الأسماء والأفعال!

وفي الحديث القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(١).

والذي يتأمل في مُحْكَمَاتِ الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، يجد أن جانب الفضل من الله تعالى يغلب جانب العدل، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فبدأ بالعذاب بمن يشاء، وأطلق الرحمة لتسع كل شيء * بهذا العموم. كما قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فكما أن علمه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، عن أبي هريرة.

تعالى يسع كل شيء فهو بكل شيء عليم، يعلم ما كان وما هو كائن، وما سيكون، فرحمته كذلك تسع كل شيء، أي كل ما يسعه علمه.

وكان من أسمائه الحسنی في القرآن: الرحمن الرحيم، وهما الاسمان اللذان اشتملت عليهما «البسملة» التي افتتحت بها جميع سور القرآن، ما عدا سورة واحدة. كما أن من أسمائه ﴿أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾، وقد جاءت على لسان يعقوب: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وعلى لسان ابنه يوسف: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وعلى لسان موسى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وعلى لسان أيوب: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. ومن أسمائه الحسنی: ﴿خَيْرُ الرَّحِمِينَ﴾، وقد أمر رسوله بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وكان من دلائل التبشير: أن الله تعالى جعل الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو يزيد، والسيئة بواحدة أو يعفو، وجعل لكل مذنّب أنهاراً يغتسل فيها من ذنبه، من الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة للذنوب، ومن الاستغفار والتوبة، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليّ بشبر، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

وفي الحديث القدسي الآخر قال الله تعالى: «يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي! يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبُك عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي! يا ابن آدم، لو أنَّك أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأَتيتكَ بقرابها مغفرةً» رواه الترمذي^(١).

وبهذا نرى أنَّ دلائل التبشير أكثر، والآيات والأحاديث في سعة عفو الله تعالى، وسعة رحمته أغزر وأوفر. وهذا ما جعلنا نُؤثِّر التبشير أبداً على التنفير، ونقود النَّاس إلى الله بالحب أكثر ممَّا نسوقهم إليه بالخوف.

إغفال الخوارج والمعتزلة لجانب الرحمة:

ومما يؤسف له أنَّ جماعتي الخوارج والمعتزلة، ومن سار على دربهم في تراثنا، غفلوا عن هذا الجانب، وهو غلبة الفضل الإلهي على العدل الإلهي، وغلبة صفة الرحمة والمغفرة على فعل العذاب والبطش، فغلبوا «الوعيد» على «الوعد»، و«العدل» على «الفضل» و«الرحمة». وقالوا بتكفير مرتكب الكبيرة، أو بدخوله الأبدى في النار، وبأن الكبيرة الواحدة تحبط جميع الحسنات. وأنكروا الشفاعة في الآخرة للملائكة والأنبياء والصالحين؛ ولهذا سُمِّي هؤلاء: «الوعيديَّة»!

كما آسفٌ كذلك لكثيرٍ من الدعاة في عصرنا الذين يرجِّحون أبداً أسلوب الترهيب على أسلوب الترغيب، والتخويف على الترجية، ويرجِّحون بالمبالغات التي تتحدَّث عن عذاب القبر، وأهوال الآخرة، وعذاب النار، وإن لم يجرى بها القرآن، ولا ثبتت بأحاديث صحاح.

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٠٠/٢): وإسناده لا بأس به. عن أنس. و«قراب الأرض»، أي ما يقارب ملاءها.

ولقد شكّا إليّ بعض الآباء أنّ ابنته أصبحت معتادة أن تصرخ في نومها، وتقوم فزعة في معظم الليالي؛ وذلك بعد أن سمعت شريطاً لأحد الوعاظ يتحدث فيه عن عذاب القبر وما فيه من حيّات كالأفيال، وعقارب كالبغال، ممّا أورث هذه البنية الصغيرة هذا الرعب أو الخوف المرضي، الذي يحتاج إلى علاج.

وأذكر أنّي في دروس رمضان في صلاة التراويح، كان بعض الأخوات يكتبن لي ويُلحِحن عليّ، أن أخصّ درساً أتحدّث فيه بتفصيل عن عذاب القبر.

ولكنّي لم أستجب لهذه الرغبة؛ لأنّي اتّخذتُ لنفسِي فهمًا متوازنًا، يجعلني أهتمُّ بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها، فهو معيارٌ لا يخطئ عندي أبدًا، والله الحمد.

التبشير بمستقبل الإسلام:

ومن مظاهر التبشير: أن نركّز على المبشّرات بانتصار الإسلام، وحُسن مستقبله، ولا نركّز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة، ونحوها، ممّا يتناوله بعض الخطباء والوعاظ. وأنّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، على معنى أنّه سيعود ضعيفًا ويستمر على ضعفه. وأنّه لا يأتي على النّاس زمان إلّا والذي بعده شرٌّ منه، وأنّ الإيمان في إدبار، والكفر في إقبال، إلى آخر هذا النمط الذي يوحى باليأس من كلّ عملٍ لإصلاح ما فسد، وتقويم ما اعوجّ، وتغيير الحال إلى ما هو أحسن وأمثل.

وقد بيّنا فساد هذا الاتّجاه وخطأه، وضرورة التركيز على «المبشّرات» بانتصار هذا الدين، وهي كثيرة، ذكرنا منها خمسة:

١ - المبشرات من نصوص القرآن: مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

٢ - المبشرات من السنة: وهي كثيرة مثل: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ - أي أمر هذا الدين - ما بلغ الليل والنهار، ولا يبقى بيتٌ مَدْرٍ أو وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هذا الدين، بعزٍّ عزيزٍ، أو بذلٍّ ذليلٍ، عزًّا يعزُّ الله به الإسلام، وذُلًّا يُذِلُّ الله به الكفر»^(١).

ومثل حديث: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوَى لِي مِنْهَا»^(٢).

ومثل حديث فتح المدينتين الشهيرتين: قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَرُومِيَّةَ، وقد فتحت الأولى وبقيت الثانية، ومعنى هذا: عودة الإسلام إلى أوربا مرّة أخرى.

ومثل حديث الانتصار على اليهود، حتّى يقول الحجر والشجر: «يا عبدَ الله - أو يا مسلم - هذا يهوديٌّ ورائي، فتعالَ فاقتُلْهُ»^(٣).

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والحاكم في الفتن والملاحم (٤٣٠/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣)، عن تميم الداري. وانظر كتابنا: المبشرات بانتصار الإسلام ص ٢٧ - ٢٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) رواه مسلم في الفتن وأشرط الساعة (٢٨٨٩)، وأحمد (٢٢٣٩٥)، عن ثوبان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢)، عن أبي هريرة.



٣ - المَبَشَّرات من التاريخ: فقد أثبت أن في هذه الأمة قوّة ذاتيّة، تنجلي أوضح ما تكون، حين تحلُّ بها المحن، وتحيط بها الشدائد، فيستخرج مذخور القوّة في نفوسها، ويظهر الدين قوّة محرّكة لها، يجمعها إذا تفرّقت، ويهديها إذا حارت، ويقويها إذا وهنت، وقد وضّح ذلك في حروب الرّدة منذ فجر الإسلام، وفي حروب الصليبيين الذين زحفوا من الغرب، والتتار الذين زحفوا من الشرق، وفي الحرب ضد الاستعمار الحديث.

٤ - المَبَشَّرات من الواقع الماثل: فالإسلام - رغم ضعف أُمّته - ينتشر نوره هنا وهناك، والدعوة الإسلامية يعلو صوتها في كلّ مكان، وحسبنا الصحة الإسلامية المعاصرة، وهي صحة عقول ومشاعر وعزائم، وصحة سلوك ودعوة وجهاد، صحة في العالم الإسلامي، وصحة في خارج العالم الإسلامي، صحة شملت الرجال والنساء، والمثقفين والأميّين، وأثبتت وجودها على الصعيد الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، والسياسي، والجهادي، وما زالت تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها.

٥ - وخامس المَبَشَّرات: من سنن الله التي لا تبدّل، ومنها سنّته في التغيير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وسننه في النصر: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وسنّته تعالى في تداول الأيام بين الناس، فالدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد كانت الدولة لنا عدّة قرون يوم التزمنا بالإسلام منهاجاً لحياتنا، ثمّ أعرضنا عن ديننا، وساء فهمنا له، وعملنا به، وعملنا له، فتخلّفنا

وتقدّم غيرنا، وتعثّرنا ونهض غيرنا، وانتقلت عجلة القيادة إلى الغرب، الذي لم يؤد أمانتها، ولم يقم بحقها، وجار حيث يجب العدل، وعاث في الأرض فسادًا، وأشاع المادّيّة والإباحية، وروج الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فكان لا بدّ أن تسحب منه عجلة القيادة لترثها أمة أخرى، وفق سنن الله: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٣ - الدّين يسع النّاس جميعًا:

ومن التبشير المطلوب: أن تتسع صدورنا لكلّ النّاس، وإن لم يكونوا على المستوى الذي ننشده.

يجب أن نعترف بأن النّاس متفاوتون في طاقاتهم وظروفهم الشخصية والاجتماعيّة من ناحية، وفي مراتبهم ومنازلهم من الدّين من ناحية أخرى.

فقد يُفتّى بعض النّاس بالرخص، ويُفتّى غيرهم بالعزائم.

وقد يُقبل من بعض النّاس القليل من العمل، ولا يقبل من غيرهم إلّا ما يقترب من الكمال.

وقد يتساهل مع بعضهم في التقصير إذا قصّر، وآخر لا ينبغي التساهل معه.

فالصغيرة من الكبير تكبر، والهفوة منه تعظم؛ ولهذا قيل: زلّة العالم يضرب بها الطبل، وزلّة الجاهل يُخفيها الجهل.

ومن الخطأ، التعامل مع النّاس بصورة واحدة جامدة، واعتبارهم جميعًا في درجة واحدة.

ومن هنا رأينا النبي ﷺ يقبل ممن دخل في الإسلام حديثاً: ألا يزيد على الفرائض شيئاً يتطوع به، وقد حلف على ذلك قائلًا - أمام الرسول الكريم -: والله، لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال ﷺ: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدق»^(١).

ومثل هذا لا يقبل من أبي بكر وعمر والسابقين الأولين.

ورأيناه ﷺ يرفق بالأعرابي الذي بال في المسجد، ويأمر الصحابة بأن يراعوا ظروفه، ويقدرُوا موقفه، وأن يعالجوا أثر هذا التصرف البدوي الساذج بصب ذنوب من ماء عليه، قائلًا: «فإنما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا معسرين»^(٢).

وحسبنا أن القرآن جعل «الظالم لنفسه» صنفاً من أصناف أمة القرآن التي اصطفاه الله من عباده، وأورثها كتابه الخالد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

الرفق بالمخطئ والمُذنب من التبشير:

ومن مظاهر التبشير: الرفق بالإنسان إذا وقع منه الخطأ، فمن شأن الإنسان غير المعصوم أن يخطئ وأن ينسى؛ ولهذا علّمنا الله تعالى أن نقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

(١) سبق تخريجه ص ١٦٨.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٩.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسِيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١)، وقد يقع من الإنسان الخطأ في القول، كما يقع منه الخطأ في الفعل.

ومن الواجب علينا أن نَصَحَّحَ للمخطئ خطأه، إذا كان مقطوعاً بخطئه، ولكن هذا التصحيح يجب أن يكون بالرفق لا بالعنف، وباللطف لا بالغلظة، وقد قال تعالى لرسوله بعد ما وقع من أصحابه ما وقع في غزوة أحد: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والرفق بالمخطئ من القيم التي يوصي بها أساتذة التربية المعلمين أن يرفقوا بمتعلميهم إذا أخطؤوا، ولا يقابلوهم بالعنف الذي يحطم شخصيتهم. وهذا ما كان عليه النبي ﷺ، فحين أخطأ بعض الصحابة، فدخل في الصلاة راکعاً من باب المسجد، وظلَّ يمشي راکعاً حتَّى انتهى إلى الصفِّ، وبلغ النبي ذلك، قال له: «زادك الله حرصاً، ولا تعدُّ»^(٢). ومعنى «لا تعدُّ»: أنه أخطأ في تصرفه، ومعنى «زادك الله حرصاً»: تقدير للدافع الذي دفعه إلى هذا العمل، وهو الحرص على ألا تفوته ركعة من الصلاة في الجماعة.

وكما يقع من الإنسان الخطأ يقع منه الخطيئة والمعصية، وفي الحديث: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ١٨٥.

(٢) رواه البخاري في الأذان (٧٨٣)، عن أبي بكرة.

(٣) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١)، عن أنس.

وفي الحديث الآخر: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لو لم تَذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(١).
 ذلك أَنَّ من أسمائه تعالى: الغفار والعفو والتَّوَّاب، فلمن يغفر؟
 وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب؟ إذا لم يكن هناك مذنبون يطلبون التوبة،
 والعفو، والمغفرة؟

وقد ذكر النبي ﷺ لأصحابه قصّة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثمَّ أراد أن يتوب، وقال: دلُّوني على أعبد أهل الأرض، فسأله عن توبته، فسَدَّ في وجهه باب الرحمة، وقال: لا توبة لك. فقال: إذن أكمل بك المائة. ولكنّه لم يئس من التوبة، فدلَّ على رجل أعلم من الأول، وأخبره أَنَّ باب التوبة مفتوح، على أن يرحل من قريته إلى قرية صالحة أخرى، إلى آخر القصة التي رواها البخاري^(٢)، وهي تدلُّ على أن قاتل المائة إذا تاب؛ تاب الله عليه.

٥ - التدرُّج في الدعوة والتعليم:

ومن مظاهر التبشير المطلوبة من الدعاة: التدرُّج بالناس في الدعوة والتعليم، فلا يطلبون من الإنسان الحديث العهد بالإسلام ما يطلبونه من المسلم الذي ولد في الإسلام، ونشأ عليه، وتربَّى في أحضانه، وورث ثقافته، وتقاليده من أسرته ومجتمعه.

ومن ثمَّ يكون من الخطأ أن يطالب هذا بأداء الفرائض والسنن والنوافل، وأنَّ نطالبه باجتناّب المحرّمات والشبهات والمكروهات، وأنَّ

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، عن أبي سعيد الخدري.

نشدد عليه في ذلك، كما نشدد على المسلم الملتزم الذي ارتقى في درجات الخير، وأصبح أسوة للناس.

وقد عبتُ على إخواني في اليابان، أنهم حين يُعلّمون الداخلين في الإسلام يثقلونهم بتفصيلات الأحكام، ويشغلونهم بالواجبات والتطوعات، حتّى قالوا لي: إنّ اليابانيين لا ينتشر الإسلام بينهم؛ لأنّهم يقولون: إنّ دينكم كثير التكاليف.

قلت لهم: أنتم السبب، وطريقتكم في التعليم هي التي تُثقل ولا تُبشّر.

المفروض فيمن يعلم الداخلين الجدد في الإسلام أن يقتصر - في المأمورات - على الفرائض الأساسيّة. ويقتصر - في المنهيات - على المحرمات القطعيّة، لا على الشبهات ولا على المكروهات.

بل أقول: يجب التركيز أولاً على اجتناب الكبائر، فإنّ الصغائر تكفرها الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصيام رمضان وقيامه، كما جاء في الحديث الصحيح: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

وفي «الصحيحين»: «أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات، فهل يبقى على بدنه من درنه شيء؟ فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا»^(٢).

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، عن أبي هريرة.



والمراد بها: صغائر الخطايا؛ فإنَّ الكبائر لا تكفرها إلاَّ التوبة.

يؤكد هذا ما جاء في كتاب الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وفي «الصحيحين»: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً؛ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(١)، و«من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(٢).

وفي «الصحيح» أيضاً: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما»^(٣).

بل قرَّر القرآن الكريم أنَّ مجرَّد اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وهذا إذا اجتنبت الكبيرة تديناً وخشية من الله تعالى، لا عجزاً عنها، وهو حريص عليها راغب فيها. يقول تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ومثل الفرق بالحديث العهد بالإسلام واليسير عليه: التيسير على حديث العهد بالتوبة، فإذا عاش الإنسان عمراً في أحوال المعصية، ثمَّ شرح الله صدره للتوبة، وهداه إلى طريق الاستقامة، فالواجب أن نترفق به، ونعتبر كأنه دخل الإسلام من جديد، ونأخذه بالأخف من الأعمال، والأيسر من الأحكام، حتَّى ترسخ قدمه، وتمتد جذوره في أرض الصلاح والتقوى، ثمَّ بعد ذلك نرقى به شيئاً فشيئاً. بل هو في الواقع هو الذي

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠١) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، كلاهما في الحج عن أبي هريرة.

سيجتهد أن يترقى، فإذا كان في أوّل الأمر يكتفي بالفرائض سيحاول أن يضيف إليها السنن أو بعضها في أوّل الأمر. وكذلك إذا كان يكتفي باجتناّب الكبائر، سيجتهد أن يضم إليها الصغائر، بل يترقى فيها بعد ذلك، حتّى يتقي الشبهات، ومن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه.

وهكذا ندع هذا المسلم يروض نفسه ويجاهدها، ويرقى بها من منزلة إلى منزلة، حتّى يصل إلى درجة المتقين، الذين ورد فيهم الحديث: «لا يبلغ عبدٌ درجة المتقين، حتّى يدع ما لا بأس به حذرًا ممّا به بأس»^(١).

ولقد أسفت غاية الأسف حين وجدت بعض الإخوة الدعاة يذهبون إلى بلاد عاشت في الشيوعية نصف قرن أو أكثر، وولد شبابها وبناتها في هذا الجو الملحد الكافر الفاجر، وقد جهّلوها بالإسلام، وعزلوا عنه تمامًا، ولم يتح لهم أن يتعرفوا عليه قط. كل ما يربطهم بالإسلام هو الشهاداتتان، وعاطفة موروثة نحو هذا الدين. فرأيت هؤلاء الإخوة يبدؤون مع هؤلاء الناس من رجال ونساء، بالأمور المختلف فيها، ويلزمونهم بمذهبهم وطريقهم، ويوجبون على الرجل أن يلتحي، وعلى المرأة أن تلبس النقاب!

من مظاهر التنفير:

وإذا كان الحديث الشريف يأمرنا بالتبشير، فهو ينهانا عن التنفير: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢)، فالواجب علينا أن ننأى بأنفسنا عن كل ما ينفر الناس، هذا واجب المسلمين عامّة، وواجب الدعاة والموجهين خاصّة.

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)،

والحاكم في الرقائق (٣١٩/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقال ابن رجب في فتح الباري (١٦/١):

فيه إسناده بعض المقال. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٨.



الغلظة والفظاظة في التعامل مع الناس:

ومن مظاهر التنفير: الفظاظة والغلظة والخشونة في التعامل مع الناس، فإنَّ حسن الخلق والرفق ولين الجانب وبشاشة الوجه، تحبب صاحب الدعوة إلى الناس، وتقرّبهم منه وتقرّبه منهم، بخلاف الغلظة والعنف والخشونة، فإنَّ النَّاس لا يطيقون من كانت هذه أخلاقه، فهي أخلاق طاردة، وليست جاذبة، كما هو مشاهد ومعلوم.

والقرآن الكريم يقرر ذلك بوضوح، فقد خاطب الرسول ﷺ بقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَوَّكُنْتَ فُظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَا نَفْعُؤُا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، هذا مع أنَّه المرسل إليهم من الله، والمؤيد بوحيه، والمعصوم من ربه. ولكن البشر لا يطيقون - بطبيعتهم - مصاحبة الفظ والغليظ، ولو كان هو الرسول المعصوم، فكفى بهذا عبرة ودرسًا.

ولا غرو أن وجدناه ﷺ أحسن النَّاس خلقًا، وأكثر النَّاس رفقًا وألطف النَّاس عشرة، وأقرب النَّاس إلى العفو عن المسيء، والصفح عمن هفا وزلت قدمه. وقد قال تعالى في وصفه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

سوء المظهر بين الناس:

ومن أسباب التنفير: سوء المظهر، في الصورة واللباس والسمت؛ ممَّا يعطي انطباعًا لدى جمهور النَّاس - وخصوصًا العصريين منهم - بأن هذا الشخص متخلف، أو يعيش خارج دائرة العصر. وربّما اتهم الدين بأنّه سبب ذلك إذا كان هذا الشخص من المتدينين.

ولقد كان الرسول ﷺ حريصًا على أن يرقى بذوق أصحابه في سماتهم ومظهرهم، كما يرقى بهم في مخبرهم.

ولقد قال يومًا لأصحابه: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر»، فقال رجل: يا رسول الله، إنني رجل أولعت بالجمال في كل شيء، حتّى ما أحبُّ أن يفوقني أحد بشراك نعل، فهل هذا من الكبر؟ فقال ﷺ: «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر بطرُ الحقِّ، وغمُطُ الناس»^(١). وما أروعها وأصدقها عبارة: «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال».

تقديم الإسلام في صورة منفرة:

وأهم من ذلك كله: الصورة التي نقدم بها الإسلام للناس، فهناك صورة جاذبة، وصورة طاردة، صورة مبشرة، وصورة منفرة، وإنَّما نكسب من حولنا بالصورة المبشرة.

هناك أناس يقدمون الإسلام في صورة تقشعر من هولها الجلود، وترتعد من قساوتها الفرائص، وتوجل من ذكرها القلوب.

إنَّه الإسلام الذي يدعو إلى «اللفظية» في العقيدة، و«الشكلية» في العبادة، و«السلبية» في السلوك، و«السطحية» في التفكير، و«الحرفية» في التفسير، و«الظاهرية» في الفقه، و«المظهرية» في الحياة.

إنَّه الإسلام المقطب الوجه، العبوس القمطير، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة، والخشونة في المجادلة، والغلظة في التعامل، والفظاظة في الأسلوب.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٦٤٤)، عن ابن مسعود.



إنَّه الإسلام الجامد كالصخر، الَّذي لا يعرف تعدُّد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يقر إلاَّ بالرأي الواحد، والوجه الواحد، ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهة الأخرى، ولا يرى أحدهم أنَّ رأيه صواب يحتمل الخطأ، وأنَّ رأي غيره خطأ يحتمل الصواب، بل رأيه هو الصواب الَّذي لا يحتمل الخطأ، ورأي الآخرين هو الخطأ المحض الَّذي لا يحتمل الصواب بوجه.

إنَّه الإسلام الَّذي ينظر بريبة إلى المرأة، فهو يدعو إلى حبسها في البيت، وحرمانها من العمل، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة.

إنَّه الإسلام الَّذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة، ولا تأكيد قاعدة الشورى في الحكم، ولا إقرار الحرية للشعب، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما سرقوه وما اقترفوه، ولا تحذير النَّاس من الوقوع في برائن التبعية للقوى الأجنبيَّة، أو الاستسلام للقوة الصهيونيَّة التوسعية العدوانية، لكن يشغل النَّاس بالجدال في مباحكات لفظية، وفرعيات فقهية، وجزئيات خلافيَّة، في العبادات أو المعاملات، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف.

إنَّه الإسلام الَّذي يتوسَّع في منطقة التحريم، حتَّى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرمات، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعائه، وأقلام كتابه: كلمة «حرام».

إنَّ الإسلام المنشود، هو الإسلام الأول، إسلام القرآن والسُّنة، سنة النبي ﷺ، وسنة الراشدين المهديين من بعده. إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصُّب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء،

والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسبب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير.

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وأخلاق روحها الخير، وشرعية روحها العدل، ورابطة روحها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل.

هذا الإسلام وحده هو الذي يقربنا من العالم، ويقرب العالم منا، وهو الإسلام الذي تتبناه الصحوة الإسلامية، أو ما يجب أن تتبناه الصحوة بكل فصائلها، فلا يخفى أن من فصائلها ما هو في حاجة أن يتجاوز طور المراهقة إلى الرشد.

إطالة بعض الأئمة في الصلاة:

ومن مظاهر التنفير التي صحت بها الأحاديث، وينبغي الحذر منها: إطالة بعض الأئمة لصلاة الجماعة بحيث ينفر بعض المصلين من الجماعة وتقعهده عنها.

وقد وقع هذا من بعض الأجلاء من أصحاب رسول الله ﷺ من أمثال أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل الأنصاريين، على ما لهما من فضل ومنزلة عند الرسول الكريم.

فعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة. وفي رواية: إنني لأتأخر عن الصلاة، ممّا يطول بنا فلان (يعني: أبي بن كعب)، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشدّ غضباً من يومئذ: فقال: «أيّها الناس، إنكم مُنفَرُونَ»^(١)، وفي رواية:

(١) رواه البخاري في العلم (٩٠).

«إن منكم منفرين، فمن أم بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض، والضعيف وذا الحاجة»^(١).

فدلّ هذا الحديث على أنّ التطويل في العبادة ممّا ينفر النَّاس عنها، وأنّ على الإمام أن يراعي حال مَنْ وراءه مِنَ المصلين، فمنهم المريض، ومنهم كبير السنّ، ومنهم المشغول بحاجةٍ يريد أن يُنجزها.

ولا شكّ أنّ الرسول كان يطيل في بعض صلواته؛ ولكن لأنّه يعرف أن من وراءه يريدون ذلك ويطيعونه، ولهذا رأيناه إذا سمع بكاء طفل خلفه خفّف صلاته؛ لما يعلم من وَجْدِ أمّه من بكائه^(٢).

واختلف الفقهاء في حد التخفيف، قال الحافظ ابن حجر: وأولى ما أخذ حدّ التخفيف من الحديث الذي أخرجه أبو داود، والنسائي، عن عثمان بن أبي العاص: أنّ النبي ﷺ قال له: «أنت إمام قومك، وأقدر القوم بأضعفهم»، إسناده حسن وأصله في مسلم^(٣) اهـ.

ومعنى هذا: أن يكون تطويله بما يُطيعه أضعف القوم، فالضعيف أمير الرفقة كما قيل.

ولقد ورد حديث آخر لمعاذ بن جبل يؤكّد ما حدث مع أبيّ بن كعب، فعن جابر بن عبد الله قال: أقبل رجل بناضحين، وقد جنح الليل، فوافق معاذاً يُصليّ، فترك ناضحه، وأقبل إلى معاذ، فقرأ سورة البقرة، والنساء، وبلغه أن معاذاً نال منه، فأتى النبي ﷺ، فشكا إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ، أفَتَّان أنت؟» أو «أفَاتن» ثلاث مرّات، «فلولا صليت

(١) رواه البخاري في الأذان (٧٠٤).

(٢) رواه البخاري في الأذان (٧٠٧)، عن أبي قتادة.

(٣) فتح الباري (١٩٩/٢).

بسبح اسم ربك، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟ فإنه يُصَلِّي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»^(١).

فانظر إلى هذا الإنكار الشديد لهذه الصيغة «أفتان أنت؟» وتكرارها ثلاث مرّات.

تغليب سوء الظن:

ومن مظاهر هذا التنفير: أن تسيء الظن بالناس، وأن تفترض فيهم الشرّ، والأصل براءة الناس حتّى يثبت عليهم أنّهم أساؤوا، ولا ينبت ذلك بمجرد الاحتمال والشكّ، بل لا بدّ من البيّنة التي تثبت الدعوى، ولو كان هناك أمر فيه وجهان؛ أحدهما: يحتمل إثبات الخير للإنسان، والثاني: يحتمل إثبات الشر عليه، فالواجب أن يحمل على وجه الخير، تحسباً للظن به، وحملاً لحال المسلم على الصلاح لا على الفساد.

وقد أمرنا أن نحكم بالظاهر، ونكل إلى الله السرائر، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، وأن نتهمهم في نيّاتهم، بل نقبل منهم ظواهرهم وحسابهم على الله تعالى.

وسوء الظنّ بالناس قد يدفع إليه الكبر، أو الإعجاب بالنفس، أو اتباع الهوى، وكلّها من المهلكات، وهي على كل حال من المنفرات التي تباعد بين المرء والناس، وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال ﷺ: «إياكم والظن؛ فإنّ الظن أكذب الحديث»^(٢).

(١) رواه البخاري في الأذان (٧٠٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.



ومن روائع ما ثبت في ذلك: قصّة الرجل الذي كثيرًا ما جيء به إلى الرسول الكريم سكران، فقال أحد الصحابة: لعنه الله! ما أكثر ما يؤتى به! فقال له ﷺ: «لا تكن عونًا للشيطان على أخيك»^(١)، وفي رواية: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ: إنّه يحبُّ الله ورسوله»^(٢)، فنظر الرسول إلى ما في أعماقه من الإيمان، ولم يحكم عليه بظاهره.

* * *



(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، عن أبي هريرة. بلفظ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك».

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب.



من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد

كانت الحياة الإسلامية إبان ازدهار حضارتنا السماء، حياة زاخرة بالحيوية والتجدد في جميع جوانبها: في الدين، في العلم، في الأدب، في العمران، في الصناعات والحرف المختلفة، في كل مجالات الحضارة والمدنية.

كانت حضارتنا الإسلامية هي السائدة، وكانت أمتنا هي الرائدة والقائدة، كانت معلمة الأمم، وكانت الأمة الأولى - أو العالم الأول -: ما يقرب من عشرة قرون، في حين كان العالم الغربي يعيش عصوره الوسطى التي سمّاها: «عصور الظلام». وهي عندنا، عصور النور والتألق والعطاء.

كانت جامعاتنا موئل الطلاب من أنحاء العالم، وكان علماؤنا في كل التخصصات، أشهر العلماء، في دنيا العلم، وكانت كتبهم، هي المراجع العالمية المعترف بها، والمعترف منها، وكانت لغتنا العربية هي لغة العلم المتفوقة على كل اللغات.

ثم بدأ التراجع شيئاً فشيئاً، حتى انتهى إلى التخلف والانحطاط، وأخذت شمسنا في الأفول، ونجمنا في الهبوط، وسيرنا في التباطؤ حتى



توقفنا. في الوقت الذي كان غيرنا، قد طفق ينهض من عثرته، ويصحو من سكرته، ويستيقظ من سباته، ذلك هو الغرب المسيحي، الذي مسّته نفحة من الشرق المسلم، عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وغيرها، فتعلم من جهل، وقوي من ضعف، واستنار بعد ظلمة، وشرع يستثمر المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي الذي اقتبسه من حضارتنا، وتعلمه على أيدي علمائنا، فإذا هو ينهض ويرقى ويتقدم ويطور حياته يوماً بعد يوم، حتّى وصل إلى ما نراه اليوم.

أما نحن، فإن حياتنا في العصور الأخيرة قد أصيبت بالعفن، وأصبح ماؤها آسناً، وبحيرتها راكدة، لا يجري ماؤها، ولا يتجدد هواؤها، ولا تفتح نوافذها، فتدخل منها أشعة الشمس، وهبات النسيم.

لقد أصيب الفقه بالجمود والتقليد، فغلبت العصبية المذهبية، واشتهر بين طلبة العلم أن باب الاجتهاد قد سدّ منذ زمن بعيد، ولم يعد في الناس من يقدر على الاجتهاد المطلق، بل ولا الاجتهاد الجزئي، والواجب على الجميع تقليد أحد المذاهب المعروفة، كما قال الناظم عن أئمة المذاهب:

فواجبٌ تقليدُ حَبْرٍ مِنْهُمْ ^(١) كما حكى القومُ بلفظٍ يُفْهَمُ!

وأصبح المقلّدون ودعاة التقليد، هم المهيمنين على جُلِّ مؤسسات التعليم الديني في البلاد الإسلامية، وغدا دعاة الاجتهاد والتجديد الحقيقيون ينظر إليهم بعين الريبة والتشكيك.

(١) انظر: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني وبهامشه التحرير الحميد ص ٣٩٩ - ٤٠٣، نشر مكتبة الإرشاد، إستانبول، ط ١، ٢٠٠٧م.

الحجر على أهل العلم أن يجتهدوا:

ومن عيوب دعاة التقليد، الذي يوجبونه على كل الناس: أنهم يحجرون على العقول أن تفكر، وعلى المواهب أن تبدع، ويفرضون على العلماء - وإن بلغوا من النبوغ ما بلغوا - أن يفكروا برؤوس غيرهم، وبعبارة أخرى: برؤوس الموتى من اثني عشر قرناً أو تزيد.

وهم بهذا، يحجرون ما وسع الله، ويتألون على الله ما ليس لهم، ويدعون أن فضل الله قد ضاق، أو توقف، قبل منتصف القرن الثالث الهجري، فلم يمنح أحداً من عباده القدرة على الاجتهاد، وسيظل هذا الحجر مستمراً في المستقبل، فلن يمن الله بهذا الفضل على أحد من خلقه. وهذا ضرب من اقتحام الغيب والجسارة على أمور لا يجرؤ مسلم أن يدخلها إثباتاً أو نفياً، فالغيب لا يعلمه إلا الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

دعوى العجز عن فهم النصوص، بدون الأئمة:

ومن شبهات أنصار التقليد المتعصب، قولهم: إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحدنا بدون واسطة من الأئمة السابقين؛ ولهذا نعتمد على من هو أقدر على هذه المهمة منا، أما نحن فعاجزون عنها.

ونقول لهؤلاء: من أين جاءكم العجز، عن فهم النصوص الشرعية وصعوبة الاستنباط منها؟

أهذا راجع إلى النصوص نفسها؟

أم هو راجع إلى عقولكم أنتم؟

أما النصوص، فلا يقول عاقل: إنها ألغاز عسيرة على الفهم، بعيدة عن إدراك العقول، كيف وقد سمي الله قرآنه: ﴿الْكِتَابُ الْمُبِينُ﴾ في أكثر من موضع، وأكثر من سورة. وسماه: ﴿نُورًا﴾ [النساء: ١٧٤]، و﴿الْفُرْقَانُ﴾ [آل عمران: ٤]، و﴿بُرْهَانٌ﴾ [النساء: ١٧٤]؛ لوضوحه وبيانه، وتمييزه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، كما أعلن أنه «ميسر» للذكر والفهم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

ومثل ذلك: السُّنَّة، فهي البيان والتفصيل للقرآن: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

أما عقولكم - وعقول أهل العصر عامة - فلا يقول عاقل، مسلم أو كافر: إن الله سلبها القدرة على الفهم والإدراك والاستنباط. كيف وهذه العقول نفسها، هي التي استطاع الإنسان بها أن يغزو الفضاء، ويحطم الذرة، ويصنع «الكمبيوتر»، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، فهل يستطيع العقل الإنساني المعاصر أن يصنع هذه الأشياء التي تشبه المعجزات، ولا يستطيع فهم نص من «كتاب مبین»؟

أم يقول هؤلاء: تلك عقول الغربيين «الكفار»، أما عقولنا نحن المسلمين: فليس لها مثل ذلك النجاح في علوم الكون، والرياضيات؟

وكأن الإسلام هو الذي يجمّد العقول أن تتحرّك وتتجدّد، ويحجر عليها أن تبدع وتبتكر. ولا أحسب مسلماً عاقلاً، يقول ذلك.

إن الله خلق العقول - كل العقول - قادرة على أن تفكر، وتبحث، وتستنتج، وتصل إلى الحقائق، والمشركون هم الذين زعموا أنهم محجوبون عن فهم كلام الله، لما في آذانهم من وقر، وما في قلوبهم من

أَكْنَّة، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْنَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وكذلك اليهود، زعموا - مكابرة - أنَّ قلوبهم خلقت غلفاً مقفلة، لا تقبل شيئاً من العلم والهدى، وردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

لا شكَّ أنَّ ممَّا يرد على هؤلاء دعواهم: عجز عقولهم عن الفهم والاستنباط، كما استنبط الفقهاء الأولون أنَّ هذه العقول نفسها، هي التي أبدعت وابتكرت في علوم الطبيعة والرياضيات.

أترى هذه العقول قادرة في علوم الدنيا، عاجزة في علوم الدين؟

دعوى انقطاع الاجتهاد بعد الأئمة:

ومن أسباب إشاعة التقليد، وترويج بضاعته في سوق الثقافة الدينيَّة: دعوى أنَّ الاجتهاد المطلق، قد انقطع بعد الأئمة الأربعة، وأن كل من جاء بعدهم، لم يبلغ درجة الاجتهاد، وإنَّما مشى في دربهم، وأمسى تابعاً لهم.

وإذا كان الاجتهاد قد انقطع منذ منتصف القرن الثالث الهجري، (أي بوفاة الإمام الرابع من الأئمة الأربعة، وهو ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ)، فكيف نطمع أن يظهر اليوم مجتهد جديد، يمكنه أن يأخذ الأحكام من نصوص الكتاب والسُّنة، وأن يتحرر من أسر المذاهب المتبوعة، أو يخالفها في بعض ما ذهب إليه، واجتمعت عليه؟

ويؤكدون هذا الكلام بما رواه بعض الكبار من علماء الفقه والأصول، مثل: القفال، والغزالي، والرازي، وقبلهم إمام الحرمين

وغيره، من انقطاع الاجتهاد، وإغلاقه، وأنه لا مجتهد اليوم، وأن الاجتهاد قد توقف منذ زمن^(١).

وحيثما ادعى الإمام، الحافظ، العلامة في الفقه والحديث والتفسير واللغة وعلومها: جلال الدين السيوطي في مصر (ت: ٩١١هـ) أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق؛ قامت القيامة في وجهه، وصوبت إليه السهام من كل جانب، واستكثر الناس عليه ذلك، وتحدّوه بأسئلة جزئية أن يجيب عنها، إلى آخر ما وقع، حتّى اضطر أن يرد عليهم بكتابه القيم الذي سمّاه: «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».

كلمة قويّة للشوكانى:

وللإمام الشوكانى هنا كلمة قوية في كتابه «إرشاد الفحول»، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «وما قاله الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، من أنه قد خلا العصر عن المجتهد. قد سبقه إلى القول به القفال، ولكنه ناقض ذلك، فقال: إنه ليس بمقلد للشافعي، وإنما وافق رأيه رأيه، كما نقل ذلك عنه الزركشي.

وقال: قول هؤلاء القائلين بخلو العصر عن المجتهد: ممّا يقضي منه العجب، فإنّهم إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم؛ فقد عاصر القفال، والغزالي، والرازي، والرافعي - من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد، على الوفاء والكمال - جماعة منهم.

ومن كان له إمام بعلم التاريخ، والاطلاع على أحوال علماء الإسلام في كل عصر، لا يخفى عليه مثل هذا، بل قد جاء بعدهم من أهل العلم، من جمع الله له من العلوم، فوق ما اعتبره أهل العلم في الاجتهاد.

(١) انظر كتابنا: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٠٥ - ١٢٠، فصل: الاجتهاد بين الاستمرار والانقطاع، نشر دار القلم، الكويت، ط ٣، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

وإن قالوا ذلك لا بهذا الاعتبار، بل باعتبار أن الله وَجَّلَ رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأمة، من كمال الفهم، وقوة الإدراك والاستعداد للمعارف، فهذه دعوى من أبطل الباطلات، بل هي جهالة من الجهالات.

وإن كان ذلك باعتبار تيسر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين، وصعوبته عليهم، وعلى أهل عصورهم، فهذه أيضاً دعوى باطلة. فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيراً، لم يكن للسابقين؛ لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت في الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، والسنة المطهرة قد دونت، وتكلم الأئمة على التعديل والتجريح والتصحيح والترجيح، بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد.

وقد كان السلف الصالح - من قبل هؤلاء المنكرين - يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين، أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح وعقل سليم. وإذا أنعمت النظر وجدت هؤلاء المنكرين إنما أتوا من قبل أنفسهم، فإنهم لما عكفوا على التقليد، واشتغلوا بغير الكتاب والسنة، حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه، واستصعبوا ما سهله الله على من رزقه الله العلم والفهم، وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة.

ولما كان هؤلاء الذين صرّحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية، فها نحن نوضح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم، ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد، فمنهم: ابن عبد السلام، وتلميذه ابن دقيق العيد، ثم تلميذه ابن سيد الناس، ثم تلميذه زين الدين العراقي، ثم تلميذه ابن حجر العسقلاني، ثم تلميذه السيوطي.



فهؤلاء ستة أعلام، كل واحد منهم تلميذ من قبله، قد بلغوا من المعارف العلميّة ما يعرفه من يعرف مصنّفاتهم حقّ معرفتها، وكل واحد منهم إمام كبير في الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة متضاعفة، عالم بعلوم خارجة عنها. ثمّ في المعاصرين لهؤلاء كثير من المماثلين لهم، وجاء بعدهم من لا يقصر عن بلوغ مراتبهم. والتعداد لبعضهم فضلاً عن كلهم يحتاج إلى بسط طويل.

وقد قال الزركشي في «البحر»: ولم يختلف اثنان في أن ابن عبد السلام بلغ رتبة الاجتهاد، وكذلك ابن دقيق العيد^(١) انتهى.

ثم قال الشوكاني: «وبالجملة، فتطويل البحث في مثل هذا، لا يأتي بكثير فائدة، فإن أمره أوضح من كل واضح، وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد، بل لازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف، ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال».

ثم قال: «ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره؛ فقد تجرأ على الله وعجل! ثمّ على الشريعة الموضوعية لكل عباده! ثمّ على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة! ثمّ قال: فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب والسنة، وأنّه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة، كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء، فإن كان التعبد بالكتاب والسنة مختصاً بمن كانوا في العصور السابقة، ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم، ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله من كتاب الله وسنة رسوله، فما الدليل

(١) البحر المحيط للزركشي (٢٤١/٨ - ٢٤٢)، نشر دار الكتبي، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

على هذه التفرقة الباطلة الزائفة؟ وهل النسخ إلا هذا؟ ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]»^(١) انتهى من كلام الشوكاني.

ابن القيم يرد بقوة:

وقال الإمام ابن القيم - وهو يرد على جماعة المتعصّبين للتقليد، في كتابه: «إعلام الموقعين»، في الوجه الحادي والثمانين من وجوه الردّ على المقلّدين التي بلغت تسعة وتسعين وجهًا -: إنّ المقلّدين حكموا على الله قدرًا وشرعًا، بالحكم الباطل جهارًا، ومخالفًا لما أخبر به رسول الله ﷺ، فأخلوا الأرض من القائمين لله بحجته، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة. فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة، وأبي يوسف، وزفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن، وابن زياد اللؤلؤي. وهذا قول كثير من الحنفيّة. وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة. وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، والثوري، ووكيع بن الجراح، وابن المبارك. وقال طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي. واختلف المقلدون من أتباعه، فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه، ويكون له وجه يفتي ويحكم به ممّن ليس كذلك. وجعلوهم ثلاث مرّات: طائفة أصحاب وجوه كابن سريج، والقفال، وأبي حامد (أي: الإسفراييني). وطائفة أصحاب احتمالات، كأبي المعالي. وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات، كأبي حامد (أي: الغزالي)، وغيره.

(١) إرشاد الفحول للشوكاني (٢/ ٢١٣ - ٢١٥)، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق، نشر دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

واختلفوا: متى انسدّ باب الاجتهاد؟ على أقوال كثيرة، ما أنزل الله بها من سلطان، وعند هؤلاء: أنّ الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبقَ فيها من يتكلّم بالعلم، ولا يحلُّ لأحدٍ بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله، لأخذ الأحكام منهما، ولا يقضي ويفتي بما فيهما، حتّى يعرضه على قول مُقلّده ومتبوعه، فإن وافقه، حكم به، وإلاّ رده ولم يقبله. وهذه أقوال كما ترى قد بلغت - من الفساد والبطلان والتناقض، والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وتلقي الأحكام منهما - مبلغها! ويأبى الله، إلاّ أن يتمّ نوره، ويصدق قول رسوله: «إنّه لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة»^(١).

ولن تزال طائفة من أمته على محض الحق الذي بعثه به، وأنّه لا يزال يبعث على رأس كلّ مائة سنة لهذه الأمة، من يُجدّد لها أمر دينها^(٢).

ويكفي - في فساد هذه الأقوال - أن يقال لأربابها: فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم؟! وكيف حرمت على الرجل أن يختار ما يؤديه إليه اجتهاده، من القول الموافق لكتاب الله وسنة نبيه، وأباحتكم اختيار قول من قلدتموه، وأوجبتم على الأمة تقليده، وحرمت تقليد من سواه؟! فما

(١) وهم ابن القيم رحمه الله هنا، في جعله حديثاً مرفوعاً، فإنه من قول عليّ بن أبي طالب لكميل بن زياد، رواه أبو نعيم في الحلية (٧٩/١)، وقال الخطيب: «هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً». الفقيه والمتفقه (١٨٢/١)، تحقيق عادل بن يوسف الغرازي، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ٢، ١٤٢١هـ. وربما يقال: هو موقوف لفظاً، مرفوع حكماً؛ لأن مثله لا يقال بالرأي.

(٢) سبق تخريجه ص ٨.

الَّذِي سَوَّغَ لَكُمْ هَذَا الْاِخْتِيَارَ، الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا إِجْمَاعٍ، وَلَا قِيَاسٍ، وَلَا قَوْلِ صَحَابِيٍّ؟

ويقال لهم: فإذا كان لا يسوغ الاختيار بعد المائتين عندك، ولا عند غيرك، فمن أين ساغ لك - وأنت لم تولد إلا بعد المائتين، بنحو ستين سنة - أن تختار قول مالك، دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده؟ وموجب هذا القول: أن أشهب، وابن الماجشون، ومطرفاً، وأصبع، وسحنوناً، وابن المعدل، وطبقته، لما انسلخ آخر يوم من ذي الحجة سنة (٢٠٠هـ) واستهل محرم (٢٠١هـ) حرم عليهم ما كان مطلقاً لهم من الاختيار^(١)!

التقليد والتمذهب عند ابن القيم:

وعرض الإمام ابن القيم لقضية «التمذهب» في «الإعلام» فطرح هذا السؤال:

هل يلزم العامي: أن يتمذهب ببعض المذاهب المعروفة أم لا؟

قال ابن القيم: «فيه مذهبان:

أحدهما: لا يلزمه، وهو الصواب المقطوع به؛ إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة، فيقلد دينه دون غيره، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة، مبرأ أهلها من هذه النسبة، بل لا يصح للعامي مذهب، ولو تمذهب به؛ فالعامي لا مذهب له؛ لأن المذهب إنما يكون

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٩٦ - ١٩٧).



لمن له نوع نظر واستدلال، ويكون بصيرًا بالمذاهب على حسبه، أو لمن يقرأ كتابًا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى إمامه وأقواله. وأما من لم يتأهل لذلك البتّة، بل قال: أنا شافعي، أو حنبلي، أو غير ذلك؛ لم يصّر كذلك بمجرد القول، كما لو قال: أنا فقيه، أو نحوي، أو كاتب، لم يصّر كذلك بمجرد قوله.

يوضحه أنّ القائل: إنّه شافعي، أو مالكي، أو حنفي، يزعم أنّه متبع لذلك الإمام، سالك طريقه، وهذا إنّما يصح له، إذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال، فأما مع جهله، وبعده جدًّا عن سيرة الإمام وعلمه وطريقه، فكيف يصح له الانتساب إليه، إلّا بالدعوى المجردة، والقول الفارغ من كل معنى؟ والعامي لا يتصور أن يصح له مذهب، ولو تصور ذلك؛ لم يلزمه ولا لغيره. ولا يلزم أحدًا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة، بحيث يأخذ أقواله كلها، ويدع أقوال غيره.

وهذه بدعة قبيحة، حدثت في الأمة، لم يقل بها أحد من أئمة الإسلام. وهم أعلى رتبة، وأجل قدرًا، وأعلم بالله ورسوله، من أن يلزموا الناس بذلك، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء. وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة.

فيا لله العجب! ماتت مذاهب أصحاب رسول الله ﷺ، ومذاهب التابعين وتابعيهم، وسائر أئمة الإسلام، وبطلت جملة، إلّا مذاهب أربعة أنفس فقط، من بين سائر الأئمة والفقهاء! وهل قال ذلك أحد من الأئمة، أو دعا إليه، أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه؟

والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة، والتابعين، وتابعيهم: هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة، لا يختلف الواجب

ولا يتبدل، وإن اختلفت كیفیته أو قدره باختلاف القدرة والعجز، والزمان والمكان والحال، فذلك أيضًا تابع لما أوجبه الله ورسوله.

ومن صحَّح للعامة مذهبًا، قال: هو قد اعتقد أن هذا المذهب الذي انتسب إليه هو الحق، فعليه الوفاء بموجب اعتقاده. وهذا الذي قاله هؤلاء، لو صح؛ للزم منه تحريم استفتاء أهل غير المذهب الذي انتسب إليه، وتحريم تمذهبه بمذهب نظير إمامه أو أرجح منه، أو غير ذلك من اللوازم، التي يدل فسادها على فساد ملزوماتها. بل يلزم منه أنه إذا رأى نص رسول الله ﷺ، أو قول خلفائه الأربعة، مع غير إمامه، أن يترك النص، وأقوال الصحابة، ويقدم عليها قول من انتسب إليه!

وعلى هذا؛ فله أن يستفتي من شاء، من أتباع الأئمة الأربعة، بإجماع الأمة، كما لا يجب على العالم أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد، بل إذا صح الحديث؛ وجب عليه العمل به، حجازيًا كان، أو عراقياً، أو شامياً، أو مصرياً، أو يمنياً^(١) اهـ.

التمذهب والتقليد عند الشوكاني:

وقال الشوكاني في «السييل الجرار»: «اعلم أنه قد ذهب الجمهور إلى أنه غير جائز. قال القرافي: مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد^(٢). وادعى ابن حزم: الإجماع على النهي عن التقليد، ورواه عن مالك وأبي حنيفة والشافعي. وروى المروزي عن الشافعي - في أول مختصره - : أنه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره».

(١) إعلام الموقعين (٢٠١/٤ - ٢٠٣).

(٢) انظر: الذخيرة للقرافي (١٤٠/١)، تحقيق محمد حجي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت،

ط ١، ١٩٩٤م.



قال الشوكاني:

«وقد ذكرتُ نصوص الأئمة الأربعة، المصرّحة بالنهي عن التقليد لهم، في الرسالة التي سميتها: «القول المفيد في حكم التقليد».

والحاصل: أنّ المنع من التقليد - إن لم يكن إجماعاً - فهو مذهب الجمهور، ومن اقتصر في حكاية المنع من التقليد على المعتزلة، فهو لم يبحث عن أقوال أهل العلم في هذه المسألة، كما ينبغي.

وقد حكي عن بعض الحشويّة: أنّهم يوجبون التقليد مطلقاً، ويحرمون النظر. وهؤلاء لم يقنعوا بما هم فيه من الجهل، حتّى أوجبوه على غيرهم؛ فإنّ التقليد جهل وليس بعلم.

وذهب جماعة إلى التفصيل، فقالوا: يجب على العامي، ويحرم على المجتهد، وبهذا قال كثير من أتباع الأربعة؛ ولكن هؤلاء الذين قالوا بهذا القول من أتباع الأئمة، يقرون على أنفسهم بأنهم مقلّدون، والمعتبر في الخلاف، إنّما هو قول المجتهدين، لا قول المقلّدين.

والعجب من بعض المصنفين في الأصول، فإنّه نسب هذا القول المشتغل على التفصيل إلى الأكثر، وجعل الحجة لهم، الإجماع على عدم الإنكار على المقلّدين.

فإنّ أراد إجماع الصحابة، فهم لم يسمعوا بالتقليد، فضلاً عن أن يقولوا بجوازه، وكذلك التابعون، لم يسمعوا بالتقليد ولا ظهر فيهم، بل كان المقصّر في زمان الصحابة والتابعين، يسأل العالم منهم عن المسألة التي تعرض له، فيروي له النص فيها من الكتاب أو السُنّة؛ وهذا ليس من التقليد في شيء، بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة،

والسؤال عن الحجة الشرعية. وقد عرفت ممّا قدمنا أنّ المقلد، إنّما يعمل بالرأي لا بالرواية، من غير مطالبة بحجة.

وإن أراد إجماع الأئمة الأربعة، فقد عرفت أنّهم مصرحون بالمنع من التقليد لهم ولغيرهم، ولم يزل من كان في عصرهم منكراً لذلك أشد الإنكار.

وإن أراد إجماع المقلدين للأئمة الأربعة، فقد عرفت أنّه لا يعتبر خلاف المقلد، فكيف ينعقد بقولهم الإجماع؟

وإن أراد غيرهم؛ فمن هم؟ فإنّه لم يزل أهل العلم في كل عصر منكرين للتقليد، وهذا معلوم لكل من يعرف أقوال أهل العلم.

والحاصل: أنّه لم يأت من جوّز التقليد - فضلاً عن أوجبه - بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط. وقد أوضحنا هذا في رسالتنا المسماة ب: «القول المفيد، في حكم التقليد»، وفي كتابنا الموسوم ب: «أدب الطلب ونهاية الأرب».

وأما ما ذكره من استبعاد أن يفهم المقصرون نصوص الشرع، وجعلوا ذلك مسوغاً للتقليد، فليس الأمر كما ظنوه؛ فهأنا واسطة بين الاجتهاد والتقليد، وهو سؤال الجاهل للعالم عن الشرع فيما يعرض له، لا عن رأيه البحت واجتهاده المحض؛ وعلى هذا كان عمل المقصرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ومن لم يسعه ما وسع هؤلاء الذين هم أهل القرون الثلاثة الفاضلة على ما بعدها، فلا وسّع الله عليه»^(١) انتهى.

(١) انظر: السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار للشوكاني ص ١٣ - ١٤، نشر دار ابن حزم، ط ١.



كلمة شارح «مسلم الثبوت»:

وحمل صاحب: «فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت» في علم الأصول بشدة، على من قال بخلو العصر من مجتهد، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

«ثم إنه قد استدل بما صرح به حُجَّةُ الإسلام «الغزالي» قُدَّسَ سِرُّهُ والرافعي والقفال، بأنَّه وقع في زماننا هذا الخلو، وفيه ما فيه! لأن وقوع الخلو ممنوع، وما ذكره مُجَرَّدُ دعوى. والإمام حُجَّةُ الإسلام - وإن كان من جملة الأولياء - لا يصلح حجة في الاجتهاديات. ثم إن من الناس من حكم بوجوب الخلو من بعد العلامة النسفي، اختتم الاجتهاد به، وعَنَوْا: الاجتهاد في المذهب. وأما الاجتهاد المطلق، فقالوا: اختتم بالأئمة الأربعة، حتَّى أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء الأربعة. قال: وهذا كله من هوساتهم! لم يأتوا بدليل، ولا يعبأ بكلامهم، وإنَّما هم من الذين حكم الحديث أنَّهم: «أفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا!»، ولم يفهموا أن هذا إخبار بالغيب في خمس لا يعلمهن إلا الله»^(١) اهـ.

هل يُعدُّ من ترك مذهبه في بعض المسائل مذبذباً؟

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: عن رجل ترك مذهبه في بعض المسائل - كرفع الحنفي يديه عند الركوع والقيام منه - فأنكر عليه أصحابه، ووصفوه بأنَّه مذبذب لا يستقر على مذهب! فأجاب إجابة مفصلة جاء فيها: «إذا كان الرجل متبعاً لأبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو أحمد، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه، كان قد أحسن

(١) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت للعلامة محب الله بن عبد الشكور، وهو مطبوع في حاشية المستصفي (٣٩٩/٢، ٤٠٠)، نشر دار صادر، بيروت.

في ذلك، ولم يقدح في دينه، ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق، وأحب إلى رسول الله ﷺ، ممّن يتعصب لواحد معين، غير النبي ﷺ، كمن يتعصب لمالك، أو الشافعي، أو أحمد، أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه، دون قول الإمام الذي خالفه.

فمن فعل هذا؛ كان جاهلاً ضالاً، بل قد يكون كافراً، فإنّه متى اعتقد أنّه يجب على الناس، اتّباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة، دون الإمام الآخر، فإنّه يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. بل غاية ما يقال: إنّهُ يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحداً لا بعينه، من غير تعيين زيد ولا عمرو.

وأما أن يقول قائل: إنّهُ يجب على العامة (يعني: الناس كافة) تقليد فلان أو فلان؛ فهذا لا يقوله مسلم.

ومن كان موالياً للأئمة محبّاً لهم، يقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنّه موافق للسنة، فهو محسن في ذلك، بل هذا أحسن حالاً من غيره، ولا يقال لمثل هذا: مذبذب، على وجه الدم، وإنّما المذبذب المذموم: الذي لا يكون مع المؤمنين، ولا مع الكفار، بل يأتي المؤمنين بوجه، ويأتي الكافرين بوجه، كما قال تعالى في حق المنافقين: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال النبي ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هؤلاء مرة، وإلى هؤلاء مرة»^(١).

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤)، وأحمد (٥٠٧٩)، عن ابن عمر.



فهؤلاء المنافقون المذبذبون، هم الذين ذمهم الله ورسوله.

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فأئمة الدين هم على منهاج الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين، وإن تنازعوا في بعض فروع الشريعة في: الطهارة، أو الصلاة، أو الحج، أو الطلاق، أو الفرائض، أو غير ذلك؛ فإجماعهم حجة قاطعة.

ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقيين؛ فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقيين، كالرافضي الذي يتعصب لعلي، دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة. وكالخارجي: الذي يقدح في عثمان وعلي رضي الله عنهما. فهذه طرق أهل البدع والأهواء، الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون، خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسول الله ﷺ. فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه، ففيه شبه من هؤلاء، سواء تعصب لمالك، أو الشافعي، أو أبي حنيفة، أو أحمد، أو غيرهم.

ثم غاية المتعصب لواحد منهم، أن يكون جاهلاً بقدره في العلم والدين، وبقدر الآخرين، فيكون جاهلاً ظالمًا، والله يأمر بالعلم والعدل، وينهى عن الجهل والظلم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴿[الأحزاب: ٧٢، ٧٣] إلى آخر السورة.

وهذا أبو يوسف ومحمد، أتبع الناس لأبي حنيفة، وأعلمهم بقوله، وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى؛ لما تبين لهما من السنة والحجة، ما وجب عليهما اتباعه، وهما مع ذلك معظمان لإمامهما.

لا يقال فيهما: مذبذبان. بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول، ثم تبين له الحجة في خلافه، فيقول بها، ولا يقال: مذبذب! فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان، فإذا تبين له من العلم، ما كان خافياً عليه، اتبعه، وليس هذا مذبذباً، بل هذا مهتدٍ زاده الله هدى، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

فالواجب على كل مؤمن: موالاته المؤمنين، وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجدته، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب؛ فله أجران. ومن اجتهد فأخطأ؛ فله أجر لا يجتهده، وخطؤه مغفور له، وعلى المؤمنين: أن يتبعوا إمامهم إذا فعل ما يسوغ، فإن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به»^(١)، سواء رفع يديه أو لم يرفع يديه، لا يقدر ذلك في صلاتهم ولا يبطلها، لا عند أبي حنيفة، ولا الشافعي، ولا مالك، ولا أحمد. ولو رفع الإمام دون المأموم، أو المأموم دون الإمام؛ لم يقدر ذلك في صلاة واحد منهما. ولو رفع الرجل في بعض الأوقات، دون بعض؛ لم يقدر ذلك في صلاته. وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعاراً يوجب اتباعه، وينهى عن غيره ممّا جاءت به السنة، بل كل ما جاءت به السنة فهو واسع، مثل: الأذان والإقامة، فقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: أنه أمر بلالاً أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة^(٢)، وثبت عنه في «الصحيحين»: أنه علم أبا محذورة الإقامة شفعا كالأذان^(٣). فمن شفع الإقامة فقد أحسن، ومن أفردا فقد أحسن، ومن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٨٩)، ومسلم في الصلاة (٤١١)، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٠٣)، ومسلم في الصلاة (٣٧٨)، عن أنس.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٣٧٩)، دون ذكر الإقامة. وأحمد (١٥٣٨١)، وقال مخرجه: صحيح بطريقه. وأبو داود (٥٠٢)، والترمذي (١٩٢)، وقال: حسن صحيح. كلاهما في الصلاة، والنسائي (٦٣٠)، وابن ماجه (٧٠٩)، كلاهما في الأذان.



أوجب هذا دون هذه، فهو مخطئ ضال، ومن والى من يفعل هذا دون هذا بمجرد ذلك؛ فهو مخطئ ضال.

وبلاد الشرق؛ من أسباب تسليط الله التَّتر عليها: كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، حتَّى تجد المنتسب إلى الشافعي يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة، حتَّى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره، حتَّى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا. وفي المغرب: تجد المنتسب إلى مالك، يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا من التفرق والاختلاف، الَّذي نهى الله ورسوله عنه.

وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل، المتبعين الظن، وما تهوى الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع، لا تحتمل هذه الفتيا لسطه، فإنَّ الاعتصام بالجماعة والائتلاف؛ من أصول الدين، والفرع المتنازع فيه؛ من الفروع الخفية، فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع»^(١) اهـ.

كل التقليد مذموم:

وإذا كنا ننكر تقليد أسلافنا من فقهاء الأُمَّة الكبار، وأئمتها العظام؛ لأنَّهم فكروا واجتهدوا وأبدعوا لزمانهم لا لزماننا، وليئآتهم لا لبيئتنا؛ فنحن - ولا شك - أشدَّ إنكارًا لتقليد آخر يشيع اليوم، ويراد له أن يهيمن على عقولنا، ويوجه حياتنا، وأن نخضع له أفكارنا وسلوكنا، ذلكم هو تقليد الغرب، صاحب الحضارة المسيطرة على العالم بما فيها من نزعة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٤٨/٢٢ - ٢٥٤)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

مادّيّة ظاهرة، ونزعة إباحية سافرة، ونزعة نفعية غالبة، وما تتضمنه في غالب مدارسها الفلسفية، وتطبيقاتها العمليّة، من احتقار للغيبات، وإهمال للقيم الرُّوحِيّة والأخلاقية، واعتبار الغرب هو سيد العالم، وأن حضارتهم أم الحضارات.

أقول: إن هذا التقليد الذي يراد فرضه علينا اليوم، لتحنّي رؤوسنا لفكر الغرب وثقافته، وفلسفته وحضارته، والتخلي عن جذورنا الإيمانيّة والثقافيّة وهويتنا الحضارية، وخصائصنا الدينيّة والفكرية، لنتمي في أحضانه، ونذوب في حضارته، ونفنى فيها - كما عبّر بعضهم من قديم - هذا التقليد مرفوض عندنا بلا نزاع؛ لأنّه يمثل بالنسبة لنا اليوم: اغترابًا، كما يمثل تقليد الأسلاف اغترابًا.

تقليد الأسلاف يعتبر اغترابًا في الزمان، وتقليد الغرب يعتبر اغترابًا في المكان.

والواجب أن نعيش في زماننا ومكاننا، لا نغترب عن العصر، ولا نغترب عن الدار.

نريد أن نفكر لأنفسنا بعقولنا، لا بعقول غيرنا، لا نريد من أحد أن يفكر لنا، سواء كان من الأموات، الذين بيننا وبينهم قرون وقرون، أم من الأحياء الذين بيننا وبينهم بحار ووهاد.

على أن أسلافنا - وإن اغتربوا عنا زمانًا - هم أقرب إلينا فكرًا وشعورًا، فمنطلقاتهم منطلقاتنا، وغاياتهم غاياتنا، ومناهجهم مناهجنا، ولكنهم لم يحيوا حياتنا، ولم يعيشوا مشاكلنا، ولم يواجهوا تحدياتنا، ولم يعرفوا ما عرفنا في عصرنا.



أما الغربيون، فهم أكثر بعداً منا؛ لأنّ منطلقاتهم ليست منطلقاتنا، وغاياتهم غير غاياتنا، ومناهجهم ليست مناهجنا؛ فتقليدنا لهم أشد نكراً.

شروع الجمود في فصول الصحة الإسلامية:

حين نتحدث عن الجمود والتقليد ينصرف الذهن غالباً إلى الجمود والتقليد الفقهي، وهو لا شك داخل في المفهوم الذي نقصده، ولكنّه ليس كل المقصود.

إننا نريد من فصول الصحة الإسلامية: أن تتحرر من الجمود على موروثاتها التقليدية، ولا تنظر إلى هذه الموارث، كما ينظر مقلدو المذاهب إلى مذاهبهم، فيضفوا عليها هالة من التقديس، بحيث لا يجوز نقدها ولا تطويرها ولا المساس بها.

وقد أصبح الزعماء والمؤسسون لكل فصيل من فصول الصحة، أو لكل جماعة من جماعاتها «أئمة» يقلّدون، لا يجوز أن توضع مقولاتهم التي وضعوها للإصلاح والتجديد موضع البحث والمناقشة؛ لأنّها فوق المناقشة، وفوق المساءلة، وكأنّما هؤلاء المؤسسون معصومون!

إنّها «مذهبيّة» جديدة، وتقليد جديد، لم يقصد إليه القادة الذين أسسوا هذه الجماعات فيما أظن، فقد كانوا علماء صالحين يرجون خير هذه الأمة، ولا يدعون أنّهم معصومون من الخطأ.

وكل هذه الجماعات متساوية في التعصّب لرؤسائها ومؤسسيها وموروثاتها الفكرية، وإن تفاوتت النسبة بينهم تفاوتاً غير قليل.

حزب التحرير:

حزب التحرير متعصب لكل ما قاله مؤسسه الفاضل الشيخ تقي الدين النبهاني رَحِمَهُ اللهُ، ويكاد كل أعضاء الحزب يحفظون كلماته عن ظهر قلب، ويرددونها، كأنها «كليشيات» مطبوعة، أو نصوص معصومة.

المصطلحات التي ذكرها الشيخ يؤمنون بها، ويريدون أن يفرضوها على الناس، مع أن علماءنا قرروا من قديم أن لا مشاحة في الاصطلاح. فإذا قلت: من مبادئ الإسلام: العدل، والإخاء، والمساواة. قالوا: هذه ليست مبادئ، لا يوجد في الدنيا كلها إلا ثلاثة مبادئ: الإسلام، والشيوعية، والرأسمالية.

وإذا قلت: يقوم النظام الاجتماعي في الإسلام على تكافل المجتمع، والتقريب بين أغنيائه وفقرائه. قالوا لك: النظام الاجتماعي: ما يتعلق بالأسرة فقط. هكذا قال الشيخ.

وهم يتقبلون ما قال الشيخ في النظام السياسي، أو النظام الاقتصادي، على أنه «دين الله»، لا على أنه اجتهاد بشر يصيب ويخطئ. ويقدمون ذلك دستوراً يجعل «الخلافة»، أو رئيس الدولة، أكبر دكتاتور في العالم! وهم يعتبرون مشكلة المشكلات، وآفة الآفات، وكبيرة الكبائر: غياب الخلافة عن الحياة الإسلامية.

وأن حلّ كل المشكلات، وسدّ كل الثغرات، وعلاج كل الأدواء؛ إنما يتحقق إذا اخترنا شخصاً وسمّيناه: «الخلافة».

وكأنما تلخص الإسلام كله في: الخلافة أو الخلافة.

لم يعد مهمّاً تحرير العقيدة من الشرك والخرافة، ولا تحرير العبادة من الابتداع والشكليّة، ولا تحرير الأخلاق من الوهن والسلبية،



ولا تحرير الأفكار من الغزو والتبعية، ولا تحرير الأسيرة من التفكك، ولا تحرير المجتمعات من العصبية الجاهلية، ولا تحرير الأمة كلها من لوثات الحضارة المادية، ورواسب عصور التخلف الرجعية.

ليس هذا كله مهمًا، إنما المهم أن تعلن قيام الخليفة، فيصلح في اليوم التالي كل فاسد، ويعود كل شارد، ويهتدي كل ضال، ويتوب كل عاص، وتنحل كل المشاكل!

وهم لا يحتجون عليك بالقرآن، فليس معهم في هذه القضية قرآن يتلى، ولا يحتجون عليه بعمل الرسول، فهو لم يبدأ بالخلافة، ولا يستدلون عليك بـ «صحيح البخاري»، فليس معهم حديث في البخاري، لكن كل ما يستندون إليه ويعولون عليه: حديث واحد في «صحيح مسلم»: «من لقي الله، وليس في عنقه بيعة لإمام؛ مات ميتة جاهلية»^(١).

ونحن نؤمن معهم بهذا الحديث، ونؤمن بضرورة الخلافة بوصفها: مجسدة للوحدة السياسية الإسلامية. ونرى المسلمين مقصرين وآثمين، ما لم يعملوا لإقامة الخلافة، الموحدة سياسيًا لأمتهم.

ولكننا نخالفهم في «نقطة البداية»، فإقامة الخلافة لا يصلح أن تكون نقطة البداية في الإصلاح، بل هي نقطة النهاية، حين تصلح الأحوال في عدد من الأقطار الإسلامية، وينتصر دعاة الإسلام فيها على العلمانيين والماركسيين وغيرهم، ويحتكم الناس إلى الشريعة الإسلامية، تسعى هذه الأقطار فيما بينها لإقامة اتحاد إسلامي فيما بينها، في صورة من الصور الواقعية، ويختارون لهذه المجموعة المتحدة قائدًا، هو «الإمام»

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٥١)، وأبوداود الطيالسي (٢٠٢٥)، عن ابن عمر.

أو الخليفة، حتّى ولو لم يسم بهذا الاسم، فالعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين.

أنا لا أريد أن أناقش حزب التحرير في أفكاره، فهو حرّ فيما يراه ويؤمن به ويدعو إليه، ولكنّي أريد منه: أن يمتحن هذه الأفكار، وأن يراجعها ما بين الحين والحين، وأن يضعها على مشرحة النقد والتحليل، وأن يخلع هالة القدسية والعصمة عن «أفكار الحزب»، فهي ليست أكثر من «أفكار»، وليست وحيًا يوحى. وكل ما هو فكر، فإنّما هو من جهد البشر، فهو قابل للصواب والخطأ، وقابل للمناقشة والنقد.

جماعة الدعوة والتبليغ:

جماعة الدعوة والتبليغ التي نشأت في الهند، وأسّسها عالم رباني مخلص هو الشيخ محمّد إلياس، عُيّنت بالدعوة إلى الله، وسوق الناس بسيّاط الخوف من عذاب الله، وزمام الرجاء في رحمة الله، إلى المسجد وطاعة الله وإقام الصلاة، والتوبة من المعاصي.

وكم لها من جهود طيبة في «تتويب العصاة»، ورد الشاردين إلى ساحة الله، وإعادة تاركي الصلاة إلى المساجد، وتوبة الزناة والسكيرين من كبائر الآثام: التي غرقوا فيها فترات طويلة من حياتهم، وكل هذا في ميزانهم.

ولكنّهم يؤخذ عليهم: أنّهم لا يهتمون بالفكر، ولا بالرد على ملوثي فكر الأمة، وغزاة العقول بالكتب والصحافة وأجهزة الإعلام المختلفة، بل ربّما عادوا من اهتم بهذا الجانب الحيوي، الذي أضاع «النخب المثقفة» التي تقود الأمة في السياسة، والاقتصاد، والتعليم، والإعلام، والثقافة.

ولهذا؛ لا يوجد عندهم كتب تقرأ، إلا كتاباً واحداً، كما علمت: «رياض الصالحين»، وقد يضاف إليه: «حياة الصحابة».

ولقد سمعت بعضهم يقول: إن وسائلنا هي وسائل الأنبياء، وهي الكلمة الشفهية المباشرة. ونسي هؤلاء أن الأنبياء كانت معهم «كتب»، تخاطب الناس بالكلمة المكتوبة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى - في بيان مهمة رسوله محمد -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ومما يؤخذ عليهم: أنهم عزلوا جماعتهم عن قضايا الأمة المصيرية والساخنة، بحجة أنهم لا يدخلون في السياسة. وأين «وحدة الأمة»، كما قررها القرآن: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]؟ وأين قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]؟ وأين قوله ﷺ: «المسلمون يسعى بدمتهم أديانهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، وتصويره العلاقة بين المسلم وأخيه «كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٢)، أو «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، اشتكى كله»^(٣)؟

(١) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال: صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

وأذكر أننا التقينا مع الشيخ محمد يوسف، خليفة مؤسس الجماعة، في موسم الحج، وكان معنا الأخ السيد عبد الله المطوع «أبو بدر»، رئيس جمعية الإصلاح في الكويت، وقد ناقش الشيخ طويلاً، ليزحزحه عن موقفه من قضايا الأمة التي يسميها: التدخل في السياسة، فلم يتزحزح الشيخ - فيما أذكر - قيد شعرة.

ومما يؤخذ على الجماعة: اعتبارهم الخروج للدعوة، وكأنما هو فريضة مؤكدة، وكثيراً ما يخرج الرجل ويدع تجارته لمن ينهبها، ف«المال السائب يعلم السرقة». وكثيراً ما يخرج ويدع زوجته الشابة، وأطفاله الصغار، مع حاجتهم إلى رعايته ورقابته. وهذا يحتاج إلى إعادة نظر، وترك التشديد فيه، كما هو واقع الآن.

وكثيراً ما يربون أتباعهم على الاهتمام بشكليات السُّنَّة، أكثر من اهتمامهم بروحها وجوهرها.

أذكر أنني كنت مسافراً مرة، من نيودلهي إلى لاهور، وقد سافر معي شاب يماني قدم من أمريكا، ليشارك في مؤتمر جماعة الدعوة في لاهور، وقد سألتني: هل أنت قادم إلى لاهور، من أجل المؤتمر؟ قلت: لا، ولكن لأمر دعوي آخر. ثم سألته عن دراسته في أمريكا، فعلمت منه: أنه يدرس الميكانيكا. وكان الشاب يحمل عصاً في يمينه، فقلت له: هل تشكو من شيء؟ قال: لا، صحتي جيدة، والحمد لله.

قلت له: فلماذا تحمل العصا؟ قال: إنها سنة! وأنا أستغرب، أن مثلك لا يحملها.

قلت له: أنا لا أتوكأ عليها، ولا أحش بها على غنمي، وليست لي فيها مآرب أخرى! فلماذا أحمل شيئاً لا حاجة لي فيه؟



ثم قلت له: هل تحمل هذه العصا في أمريكا؟ قال: بصراحة، لا.
قلت: لأنك في أمريكا على فطرتك، فلم تجد نفسك في حاجة إلى عصا
فتمسك بها. أما أنت هنا، فتتكلف لترضي جماعتك، وقد نُهينا عن التكلف.
يا بني، إن رسول الله ﷺ، كانت له مآرب في العصا فحملها، وكان
يخطب وهي في يده، فمن كانت له مآرب في حمل العصا، فإن حملها
يكون سنة له. ومن لا أرب له فيها؛ فليس من السنة حملها.

جماعة الجهاد:

ومن فصائل الصحة المعروفة: «جماعة الجهاد»، وهي جماعة قامت
تدعو الشباب إلى الجهاد بمعناه العسكري الشائع، أي حمل السلاح في
مقاومة الكفر والكفرة، وفي مقدمة هؤلاء الكفرة: الحكام الذين لم
يحكموا بما أنزل الله، والذين رفضوا أحكام الشريعة، واستبدلوا بها
مختارين القوانين، والأنظمة الوضعية، المستوردة من الغرب أو الشرق.
ولقد ظهرت هذه الجماعة - أول ما ظهرت - في مصر، مصطدمة
بجماعة الإخوان المسلمين، كبرى الجماعات الإسلامية المعاصرة
وأسبقها، ومتهمة إياهم بأنهم تخلّوا عن الجهاد، وخانوا مبدأهم الذي
جعلوه شعاراً لهم في أول أمرهم حين قالوا: الجهاد سبيلنا، والموت في
سبيل الله أسمى أمانينا. وكم ثارت في صعيد مصر معارك بالأيدي
والعصي والجنازير أحياناً، بين شباب الجهاد وشباب الإخوان.

ولقد أشعلت هذه الجماعة جمره الحماس في صدور الشباب، الذي
يئس من سوء الأوضاع، واكتوى ضميره بنار الحزن والأسى، على مصاير
المسلمين ومستقبل الإسلام، بين جهل أبناؤه، وعجز علمائه، وكيد

أعدائه، وفساد أمرائه، وشح أغنيائه. وانتقل فكر الجماعة الجهادية من مصر إلى غيرها من البلاد، وخصوصًا الجزائر، الذين كان لهم ما كان - بعد إلغاء الانتخابات التشريعية الحرة النزيهة في الجزائر، واستيلاء الجيش على السلطة في البلاد - كما استفادوا من التدريب العسكري في حرب أفغانستان ضد السوفيت، التي باركتها كل الدول والحكومات العربية والإسلامية، ومنها الحكومة المصرية والجزائرية. ثم انضم بعض أعضائها وقادتها إلى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، الذي ساقته معاداة الدولة المختلفة - لمن سمّوهم: «الأفغان العرب»، واعتبارهم مجرمين بعد أن وضعت الحرب مع الروس أوزارها - إلى اتخاذ العنف سبيلًا، بعد أن سدّت في وجوههم كل الأبواب.

وكانت قضية فلسطين - أرض الإسراء والمعراج والقبلة الأولى - وهي القضية القديمة الجديدة، وانتصار اليهودية الصهيونية فيها على أمة الإسلام الكبرى، وتخاذل الحكام في نصرتها، ممّا زاد الشعلة توقدًا، وجعل الشرارة نارًا محرقة.

كما كانت قضية أفغانستان، وفتح باب الجهاد فيها لمن شاء من أبناء الأمة فرصة لدى الكثير من هؤلاء الشباب، ليمارس الجهاد عملاً وكفاحًا، بعد أن نادى به فكرة وشعارًا.

كل هذه العوامل ساعدت الجماعة على الانتشار، والتف حولها الشباب المتحمس المؤمن باستخدام القوة في حماية الحق، والعنف في مقاومة الطغيان المتجبر، واختلطت بعض أفكار «الجهاد» ببعض أفكار «التكفير»، وإن كان بينهما عموم وخصوص من وجه، كما يقول علماء المنطق، يلتقيان في بعض الصور، وينفرد كل منهما بمواقف خاصة به.

لهذا؛ كان من الخطوات المهمة: تمييز تيار الجهاد عن تيار التكفير.

كما لا بدّ من تمييز الحاكم الكافر كفراً بواحاً، عندنا فيه من الله برهان، والحاكم العاصي - أي الفاسق أو الظالم - الذي لم يرفض شرع الله، ولكنّه ضعف عن تحمل تبعته، وآثر الدُّنيا على الآخرة.

كما لا بدّ من ضبط مسألة تغيير المنكر بالقوّة، وهو الذي جاء فيه الحديث الذي رواه مسلم: «من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١). وتحديد شروط التغيير بالقوّة الماديّة، حتّى لا يتورط الشباب في محاولات إزالة منكر بالوقوع فيما هو أكبر منه.

وسنعرض في أحد محاورنا هنا لموضوع العنف بتفصيل، تحت عنوان: «من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة».

ومن المهم - في استخدام القوّة - ألا نأخذ البريء بالمسيء، ولا نبیح القتل العشوائي للمدنيين العزل، الذين لا ناقة لهم في السياسة ولا جمل، ولا عنزة ولا حمل.

وأيضاً لا بدّ من التركيز على التثقيف والتوعية للشباب، ليعلموا أنّ الجهاد ليس كله بالسيف، بل هو - كما قال ابن القيم - ثلاث عشرة مرتبة^(٢)، وأنّ الجهاد منه ما هو بالحجة والبيان، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ * ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]. والضمير في قوله: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ يعود للقرآن.

(١) سبق تخريجه ص ٩٢.

(٢) انظر: زاد المعاد (٩/٣) وما بعدها، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

ولا بد في هذا التثقيف أن يتعلم الشباب فن الحوار، فهو مطلوب لكل عامل في سبيل الله، وكلّ داعٍ إلى الله.

ولا بد من تكامل التربية للشباب، لتكوين الشخصية المتوازنة المتكاملة: روحياً بالعبادة، وعقلياً بالثقافة، وبدنيّاً بالرياضة، وخلقياً بالفضيلة، وعسكريّاً بالخشونة، وسياسيّاً بالوعي، واجتماعيّاً بالمشاركة في خدمة المجتمع.

وأعتقد أنّ كثيراً من قادة الجماعة في مصر، قد أدركوا أنّ استخدام القوة وحدها غير كاف في تغيير المجتمع، وإصلاحه. وقد أيّدوا بعض المبادرات في نبذ العنف، وفي محاوراة الحكومة، والوصول إلى تفاهم مشترك، يقرب المسافة بين الطرفين.

وفي هذا تطوّر كبير في فكر الجماعة، وانتقاله من مرحلة الخيال إلى الواقع، ومن التشنّج إلى قبول الحوار والتفاهم. وإن كان من المؤسف حقاً أنّنا لا نصل إلى هذه النتيجة، إلّا بعد خوض معارك دامية، وتقديم تضحيات جسيمة، ولا نستفيد من تجارب غيرنا، إلّا بعد أن تبدأ كل جماعة من الصفر وتجرب بنفسها! وكأن التاريخ لا قيمة له، ولا عبرة به!

جماعة السلفيين:

ومن فصائل الصحوة: جماعة السلفيين، أو إن شئت قلت: جماعات السلفيين، فلم يعد السلفيون جماعة واحدة.

ولكن من هم السلفيون؟

فالواقع أنّه لا توجد جمعية منظمة، ينضم إليها السلفيون، فهم تيار عام لا يتمثل في جمعيات، إلّا في بعض البلدان، وبعض الأحيان، كما



في جماعة أنصار السُّنة المحمديّة، في مصر والسودان، وكما في جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت.

وتعبير «السلفيين»: تعبير حديث، لا أدري متى شاع استعماله بالضبط، وقد كان من قبل يطلق على «أهل الحديث»، أو «أهل الأثر»، أو على «الحنابلة» الذين تبنا اتجاه أهل الحديث، في مقابلة أهل الكلام في العقائد، وأهل الرأي في الفقه، وكم جرت بين الحنابلة وغيرهم - من الأشعرية والماتريدية - من خلافاتٍ ومعاركٍ نظريّة، وعملية أحياناً، على مرّ التاريخ.

وكان جوهر الخلاف بينهم وبين خصومهم يتركز حول التأويل وعدمه، في آيات الصفات وأحاديث الصفات، المتعلقة بالله تعالى، ممّا يوهم التشبيه بالمخلوقات، مثل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. أو نزوله تعالى في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا، كما صح في الحديث^(١)، وكما في إثبات: اليد، والوجه، والجنب، والقَدَم، والعين، والأعين، لله تعالى. هل ثبتت هذه الأشياء، أو تفوّض، أو تُؤوّل.

أهل الأثر، أو دعاة السلف، يثبتون هذه الأشياء لله تعالى، كما أثبتها لنفسه، بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تأويل ولا تعطيل.

وبعض السلف يقولون: نفوض معناها، ونكل تفسيرها إلى الله تعالى، ولا نخوض في معناها ولا تأويلها.

ومن السلفيين من ينكر نسبة التفويض إلى السلف، مع ورود ذلك عن عدد غير قليل منهم.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، عن أبي هريرة.

وأبرز من دعا إلى السلفية ودافع عنها، وجلّى أفكارها، وشرح توجهاتها العقدية والفقهية والسلوكية: شيخ الإسلام أبو العباس «ابن تيمية» ومدرسته، وأبرز تلاميذها الإمام أبو عبد الله بن القيم. وقد خلف الشيخان تراثاً هائلاً في خدمة التيار السلفي، الذي اتسم في عهدهما بالطابع التجديدي والإصلاحي.

وفي العصر الحديث، ظهرت السلفية من جديد، على يد مجدد السلفية في الجزيرة العربية: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي اتسمت حركته بمحاربة الشريكيات والقبوريات، والدعوة إلى التوحيد الخالص، وحماية حمى التوحيد من كل ما يشوبه عند الناس، بعدما ساروا وراء ابتداع الخلف، لا أتباع السلف. وتبركوا بالأشجار والأحجار، واستعانوا بغير الله، ونذروا لغير الله، وذبحوا لغير الله، وطافوا بأضرحة الأولياء، وطلبوا منهم أن يدفعوا الضرر عنهم، ويقضوا الحاجات لهم، ممّا لا يجوز أن يطلب من غير الله، والذي يتنافى مع قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

كما تبنى الشيخ ابن عبد الوهاب محاربة التأويل لآيات الصفات وأحاديث الصفات، فهذا أصل أصيل في الاتجاه السلفي.

وإذا كان الشيخ ابن عبد الوهاب قد وقف ضد الشريكيات والمبتدعات في مجال العقيدة والعبادة، فإنّه لم يظهر له جانب تجديدي في مجال الفقه وشؤون الحياة؛ ولعل ذلك لأنّه ظهر في بيئة بدوية، لم تدخل عليها الحضارة بتياراتها ومشكلاتها بعد، فلم يكن في حاجة ظاهرة أو ماسة إلى إعمال العقل للاجتهاد والتجديد، وغلب على جماعته اتباع النصوص والوقوف عندها.

بل ربّما أورثت هذه النشأة الحديثة للسلفية الجديدة نزعتها للحَرْفِيَّة في فهم النصوص الشرعيَّة، وإهمال النظر إلى المقاصد والمعاني والعلل، التي تبنى عليها الأحكام، على خلاف ما كان عليه إماما المدرسة من قبل: ابن تيمية، وابن القيم.

ومن أئمة السلفيَّة المعاصرة: العلامة المجدد السيد محمّد رشيد رضا، منشئ «مجلة المنار»، وصاحب «تفسير المنار»، وغيره من الكتب الإصلاحية، وقد تأثر كثيرا بأستاذه الإمام محمّد عبده؛ ولذلك لم يلتفت إليه السلفيون المعاصرون كثيرا، ولم يستفيدوا من مدرسته التجديدية كما ينبغي، مع أنّه بحق زعيم السلفيَّة المستنيرة.

على أنّ السلفيين المعاصرين لم يعودوا جماعة واحدة، بل أمسوا أكثر من جماعة.

فهناك: جماعة السلفيين «السياسيين»، الذين يهتمون بالسياسة اهتمامهم بالعقيدة، بناءً على شمول الرسالة الإسلامية، وهم الجماعة المتأثرون بفكر الإخوان المسلمين^(١). هذه الجماعة التي عارضت الوجود الأمريكي، والتدخل العسكري الأمريكي في حرب الخليج الثانية، وعارضوا سياسة الدولة السعودية، التي تقوم على موازنات شتى. ودخلوا السجون من أجل ذلك، وضيق عليهم وعلى أتباعهم وواجهاتهم في المملكة، مثل سلمان العودة، وسفر الحوالي، وعايض القرني وغيرهم. ثمّ أفرجت الدولة عنهم بعد ذلك، وعادوا إلى أعمالهم الرسمية. ويبدو أنّه حدث بينهم وبين المسؤولين تفاهم أو مصالحة. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

(١) وهم الذين يسمّونهم: السلفيين «السروريين» نسبة إلى الداعية السوري محمد سرور زين العابدين، الذي كان من الإخوان، وانشق عنهم.



وهناك: السلفيون «الألبانيون»، الذين يتبنون نهج الشيخ المحدث «ناصر الدين الألباني»، ويحاربون المذهبية، والمذاهب الفقهية والتقليد لها، والانتماء إليها ولو من العوام، ومع هذا قلدوه في كل ما ذهب إليه، وأصبح بالنسبة إليهم مذهباً خامساً!

وهناك: السلفيون «الجامييون»، وعلى رأسهم الشيخ ربيع المدخلي، وهؤلاء لا همّ لهم إلا تجريح الآخرين والطعن فيهم، والحملة على كل العلماء والدعاة الذين يخالفونهم، ولم يسلم من طعنات رماحهم أحد في القديم والحديث، حتى الإمام النووي، والحافظ ابن حجر؛ لأنهما أشعريّان. وأمّا المعاصرون فحدث ولا حرج: حسن البنا، وسيّد قطب، والغزالي، والقرضاوي، ومحمد عمارة، وفهمي هويدي، وعليّ الطنطاوي، وغيرهم، وغيرهم. كلّهم مجروحون، وقد ألفت الكتب في الطعن فيهم، والتشهير بهم، وإلصاق التّهم بفكرهم وسلوكهم.

وهناك أتباع الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت، وأتباع علامة الجزيرة الشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، وإن لم يكونوا جماعات منظمة بالمعنى الاصطلاحي.

والمطلوب من الجماعات السلفية على اختلافها: أن تتحرر من الجمود على موروثاتها، والنظر إلى تفاصيلها نظرة ناقدة ومتطورة.

وذلك بأن تتحرر من الانشغال بالفروع والجزئيات، على حساب الأصول والكليات، ومن النظر إلى الشكل والصورة، على حساب الجوهر والروح.

ومن العناية بالمختلف فيه، على حساب المتفق عليه.



ومن النظر إلى رأيها، على أنه الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وإلى رأي الآخرين على أنه الخطأ الذي لا يحتمل الصواب.

ومن التمسك بحرفية النص وظاهريته، إلى النظر إلى مقاصد النصوص وسعة آفاقها.

ومن تأثيم المخالفين وتبديعهم وتكفيرهم، وهم لا يزالون ينطقون بالشهادتين.

ومن النظر إلى حصر السلفية في محاربة التأويل، إلى ما هو أوسع من ذلك في حسن فقه السلف، وعمق إيمانهم، وقوة أخلاقهم، وسعة صدورهم، وسماحة نظرهم إلى مخالفهم، فالسلف يمثلون خير قرون هذه الأمة: من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأتباعهم، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدّلوا تبديلاً.

إننا ندعو السلفيين - بكل فئاتهم - أن ينظروا إلى سائر المسلمين أنهم إخوة لهم في الدين، وأنهم جميعاً يصلون إلى قبلة واحدة، وإن اختلفوا معهم في فروع العقيدة، أو في فروع الفقه، وأنهم جميعاً هدف لأعداء الإسلام، لا يبالون بالخلافات القائمة بينهم، بل ينظرون إليهم باعتبارهم أمة واحدة، تؤمن برب واحد، ورسول واحد.

وعلى الإخوة السلفيين أن تخلو نظرهم عن نظرة الاستعلاء، فليس من شأن المسلم أن يستعلي على أخيه المسلم. فالمسلم أخو المسلم، والمؤمنون إخوة. و«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٦٦.

ومما ابتلي به عصرنا: أن كثيرًا من الشباب الذين قرؤوا بعض الكتب، وخصوصًا في علم الحديث، حسبوا أنفسهم رؤوسًا في العلم، وهم لم يزالوا في بداياته، وادعوا لأنفسهم الاجتهاد في الدين، وهم لم يتقنوا علوم العربية وفنونها، ونحوها وصرفها، ولعلك لو سألتهم عن إعراب جملة لم يحسنوها! ولم يدرسوا «أصول الفقه» ويسبروا أغواره، ويتعرفوا على مشكلاته. ولم يتمرسوا بعلم الفقه ويغوصوا في بحاره، حتّى تتكوّن لهم ملكة الفقيه الممارس المتهيئ للفهم وحسن الإدراك.

إنّهم - كما قال الذهبي -: يريدون أن يطيروا ولم يريّشوا.

نعم، ويريدون أن يكونوا زبيًّا، ولم يزالوا حصرمًا.

وأن يناطحوا الوعول، ولم تنبت لهم قرون!

إنّهم يقولون عن الأئمة الكبار - بل عن علماء الصحابة -: هم رجال ونحن رجال! وهم في الواقع لم يفتتوا في سنن الحضانة، فإن تجاوزوه فهم في سنن المراهقة، فما لهم يناوشون الكبار، وعظامهم لم تزل طرية؟
يَا نَاطِحَ الْجَبَلِ الْعَالِي لِيُوهِنَهُ أَشْفِقْ عَلَى الرَّأْسِ لَا تُشْفِقْ عَلَى الْجَبَلِ^(١)

وكثيرًا ما شكّا شيخنا الشيخ محمّد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في كتبه الأخيرة من تطاول هؤلاء الأقزام، على عمالقة الرجال. وقديمًا قالوا في الأمثال: إذا أردت أن تغلب رجلًا، فسلط عليه صبيًّا!

الإخوان المسلمون:

الإخوان المسلمون: كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، وأمّ الجماعات الإسلامية العاملة لنصرة الإسلام في المنطقة العربية، وقد

(١) من شعر: الحسين بن حُميد. انظر: جامع بيان العلم (١١٣/٢).



أصبح لها وجود وامتداد في أكثر من سبعين قُطرًا في العالم. وهي أولى هذه الجماعات وجودًا، وأسبقها زمنًا، وأطولها عمرًا، فقد أسَّسها الإمام الشهيد حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ منذ سنة (١٩٢٩م)، أي منذ أكثر من تسعين عامًا، وهي أعرضها جمهورًا وقواعد شعبية، وتاريخها في الدعوة والتربية والجهاد تاريخ حافل. وهذا كله جلب عليها خصومات وعداوات شتَّى في الداخل والخارج، حتَّى من بين الإسلاميين أنفسهم.

وكلُّ من يتحدَّث عن الصحة الإسلامية، وفصائلها، وأجنحتها، ومدارسها المختلفة، لا يسعه أن يتجاهل «الإخوان المسلمين» ودورهم في انطلاق الصحة، وفي تغذيتها وإمدادها، وفي انتشارها واستمرارها.

ولا بدَّ لكلِّ مَنْ يسعى إلى حُسن توجيه الصحة، وترشيد مسيرتها، وتسديد خطاها على الطريق الصحيح أن يوجه خطابه أو جزءًا منه، إلى الإخوان؛ لقوة تأثيرهم في الصحة وفي الجمهور الأكبر من أبنائها.

ويعرف قرائي المتابعون لكتبي أنّي وجهت نقدي من قديم، إلى «الحركة الإسلامية»، وأول من يتوجه إليه النقد من عناصر الحركة الإسلامية: هم الإخوان؛ وذلك لسببين:

١ - السبب الأول: أنّهم يمثلون كبرى الحركات الإسلامية وأولاهها، فهم إذا صلحوا - غالبًا - صلحت الحركات الإسلامية كلها.

٢ - والسبب الثاني: أنّهم الحركة التي أعرفها أكثر من غيرها، لأنني نشأت فيها، وعرفت مزاياها وعيوبها، فهي أولى بنقدي ونصحي من غيرها.

وقد بدأت هذا النقد أولاً في كتابي: «الحل الإسلامي، فريضة وضرورة» متحدثًا عن معوقات الحركة الإسلامية من داخلها، ومنها: الجمود.

كما تحدثت في هذا الكتاب عن: «الحركة الإسلامية غداً» أي في المستقبل، وماذا ننشده لها.

ثم تحدثت عن جوانب الخلل في الحركة الإسلامية في مقالاتي التي نشرتها مجلة «الأمة» القطرية، تحت عنوان: «أين الخلل؟»، ونشرت في رسالة مستقلة.

ثم تحدثت عن ذلك في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية، في المرحلة القادمة».

وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، يسير في هذا الاتجاه، اتجاه الترشيد والتسديد للحركة الإسلامية، وللصحوة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية.

وعلى كل فصائل الصحوة أن تقف وقفة محاسبة ومراجعة ونقد للذات، لتعرف صوابها من خطئها، وتكتشف مواضع قوتها لتستزيد منها، ونقاط ضعفها لتتفادها، وتحاول علاجها.

وإنما يتم ذلك إذا عرفت هذه الفصائل كلها أنها ليست إلا جهداً بشرياً - غير معصوم - يعمل لخدمة الإسلام ونصرته، بقدر الطاقة البشرية، وفي حدود الإمكانيات المتاحة.

وكل جهد بشري قابل للنقد، وقابل للتحسين، وقابل للتطوير، وخصوصاً أن الوسائل تتطور، والعالم يتغير، وثوراته في العلم والتكنولوجيا والاتصالات والمعلومات تتواصل، ولا يمكن أن يظل كل قديم على قدمه، وأن نبقي ندور حول أنفسنا، والأرض تدور بنا، والفلك يسير من فوقنا.

وأنا أعلم من سيرة الإمام الشهيد حسن البنا ومسيرته، أنه لم يكن رجلاً جامداً، بل كان رجلاً متجدداً متطوراً، وكان يستفيد من كل



ما يستجد من حوله، ويطور نفسه، ويطور دعوته. وما يدرينا - لو امتد به الأجل - ماذا كان يصنع؟

ولهذا؛ لا يجوز من إخوانه وأتباعه، الجمود على كل وسائله ومناهجه وجميع جزئيات أفكاره، ولا سيّما أن فقهاء الأمة مختلفون في جواز تقليد مذاهب الأموات من الأئمة، وأكثرهم لا يجيز تقليد الميت، إذ ما يدريك أنه لو كان حيًا لربما غيّر اجتهاده، كما غير الأئمة كثيرًا من اجتهاداتهم، وكما غيّر أصحابهم من بعدهم كثيرًا من أقوالهم.

وكثير من الإخوان يعزّ عليهم أن يخالفوا شيخهم وإمامهم، ولو في جزئية من الجزئيات، وكأنّما يصفون على أفكاره شيئًا من القداسة والعصمة، مع أنّهم يحفظون من أصوله العشرين التي تركها لهم: «وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك، إلّا المعصوم ﷺ». ولكن ما يحفظ شيء، وما يطبق ويمارس شيء آخر.

كما أغفل الإخوان شيئًا آخر مهمًا، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبيًا من عمره، في الثانية والأربعين، وقد شعر في أواخر حياته أن إخوانه تنقصهم «الثقافة المعمقة»، فأنشأ مجلة: «الشهاب» لتسد هذه الثغرة، ولم يصدر منها إلّا خمسة أعداد، ثمّ جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام.

ضرورة تجديد الوسائل:

وقد ذكرت في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية»:

أنّ الحركة - وإن كانت إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادئ - تتخذ من المناهج والوسائل والأنظمة الاجتهادية ما تراه

أصلح لخدمة دينها، والتمكين له في الأرض، حسبما يقتضيه الزمان والمكان والحال.

فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدة خلود الإسلام نفسه، وليس لها ثبات المبادئ والأصول الإسلامية، بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده، في الأنفس والحياة.

والإمام حسن البنّا الذي وضع القواعد الأولى للعمل الحركي الجماعي المنظم، لتجديد الإسلام، لم يدع العصمة لنفسه، ولا لوسائله التي ألهمه الله الاهتداء إليها، وهي وسائل بالغة الروعة والقوة، وحق للشهيد «سيد قطب» أن يسميها: «عبقريّة البناء»، وحق للمرشد الموفق الأستاذ عمر التلمساني أن يسميه: «القائد الملهم الموهوب»، وحق لشيخنا الغزالي أن يصفه بأنه: «مجدد القرن الرابع عشر الهجري». ومع هذا يجب أن تخضع هذه الوسائل والأنظمة للتقويم، ما بين الحين والحين، كما يفعل رجال التربية في مناهجهم التي يقرّرونها، ويؤلّفون الكتب في ضوءها، ثم لا تمر سنوات حتّى يعيدوا النظر فيها، بالإضافة أو الحذف أو بالتحوير والتعديل. وهذا أمر لازم لكل عمل بشري، مهما بلغ من الدقة والإتقان.

حسن البنّا لم يكن جامدًا:

وحسن البنّا نفسه - كما أشرت من قبل - لم يكن جامدًا، بل كان دائم التجديد والتطوير للوسائل والأساليب في أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها. ولن يضيق الشهيد «حسن البنّا» في قبره، إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه في قضية من القضايا التي كان له فيها رأي من قبل، مثل: قضية عدم جواز ترجمة القرآن، أو قضية تعدد الأحزاب داخل الدولة الإسلامية، وهو ما ذهبت إليه في دراسة لي.



وكذلك إذا أضاف إلى أصوله ما يرى أنه مكمل لها. كما فعل الشيخ الغزالي في شرحه للأصول العشرين، في كتابه الذي سمّاه: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين».

ولا يوجد مانع شرعي ولا عرفي ولا عقلي من إعادة البحث في الوسائل والأنظمة التربوية داخل الجماعة، مثل نظام الأسرة والكتيبة، وما يمكن أن يطعم به.

وكذلك البحث في الوسائل السياسية، في ضوء المستجدات والمتغيرات المحليّة والإقليمية والعالمية، وما تقضي به من دخول في جبهات أو محالفات، أو مهادنات أو مشاركات، حسبما توحيه المصلحة العليا للإسلام، وللأمة، وللحركة، وفي ظل الظروف الآنية والموضعية الحاكمة، فلكل قطر ظروفه، ولكل مرحلة حكمها، ولكل مجموعة قدراتها وضرورتها وملابساتها، التي هي أدري بها من غيرها.

والحركة هنا - مثلها كمثّل الفقه وغيره، من علوم الشريعة - لا تحيا وتنمو وتزدهر إلاّ بفكر المجددين المجتهدين، ولا تذوي وتنكمش وتعقم، إلاّ بفكر المقلّدين الجامدين، إن صح أن ما عندهم يسمى: «فكرًا».

الجمود آفة خطيرة:

إنّ الجمود آفة من آفات الفكر الحركي «المؤطر»، وهو عائق من العوائق الداخليّة في الحركة الإسلامية، كما بينت ذلك في كتابي: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة»^(١).

(١) انظر كتابنا: الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢١٨ - ٢٢٠، وأولويات الحركة الإسلامية

الجمود على شكل معين في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى صور معينة في الدعوة، وعلى مراحل معينة في الوصول إلى الهدف، وعلى أفكار معينة في السياسة. ومن حاول أن يغير من هذا الشكل أو تلك الوسيلة، أو هذه الصورة أو تلك المراحل، أو تلك الأفكار، أو يعدل فيها بالزيادة والنقص، قوبل بالرفض الشديد، أو الاتّهام والتنديد.

وما زلت أؤكد أنّ التجديد الذي نريده، لا يعني إلغاء القديم، بل تطويره وتحسينه وتحديثه والإضافة إليه، وبخاصّة ما يتعلق بالوسائل والأدوات والكيفيات. فهي أمور مرنة قابلة للتطوير والتحول، والاستفادة من إمكانيات العصر، ومما عند الآخرين، والحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

ما أخشاه على الحركة:

إنّ أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية: أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها، وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد، وتقف عند لون واحد من التفكير، لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحمل رأياً مخالفاً في ترتيب الأهداف، أو في تجديد الوسائل، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف، أو في تقدير الرجال، أو في غير ذلك، ممّا يدخل في دائرة الاجتهاد البشري، الذي من شأنه أن يتطور ويتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، والأحوال والعوائد.

وعندئذ تتسرّب الكفايات العقلية، القادرة على التجديد والابتكار من بين صفوف الحركة، كما يتسرّب الماء من بين الأصابع، ولا يبقى في النهاية إلّا المحافظون المقلدون، الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قدمه، وأن ما نعرفه خير ممّا لا نعرفه، وما تجربته أفضل ممّا لم تجربته.

ونتيجة هذا: أن تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها، وأن تصاب في النهاية بالجمود، أو العقم الذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأن يتوقع هؤلاء على ذواتهم يأسًا من أي عمل مثمر للإسلام، أو يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولون مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى، لا تُدرى عواقبها.

إن من أهم ما أضر بالعقل المسلم قديمًا، وأضر به حديثًا: شيوع تلك المقولة التي تقول: ما ترك الأول للآخر شيئًا! وليس في الإمكان أبدع مما كان!

ولا ينفع العقل المسلم شيء مثل شيوع الفكرة المضادة، التي تقول أبدًا: كم ترك الأول للآخر! وكم في الإمكان أبدع مما كان! ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

تطور محمود لدى الإخوان:

على أن الإخوان في السنوات الأخيرة قد تطوروا ووجدوا في مواقفهم تجديدًا يحكى في أكثر من قضية، وإن لم تكن كلها على وفق ما قرره الأستاذ البنا رَحِمَهُ اللهُ.

من ذلك: موقفهم من المرأة وقضاياها، ومشروعيتها اشتراكها في التصويت والترشيح للمجالس النيابية.

ومن ذلك: موقفهم من التعددية الحزبية والسياسية، وإقرارهم بمشروعيتها.

ومن ذلك: تعاونهم مع التيار القومي المعتدل في القضايا المشتركة، وقد اشتركوا بعدد من أفرادهم في المؤتمر القومي الإسلامي.

وكذلك موقفهم من «العنف» ونبذهم له، كما تبين لهم من خلال تجاربهم وتجارب غيرهم، أنه لا يؤدي إلى نتيجة، فضلاً عما يشوبه من تجاوزات شرعية قلما ينفك عنها.

ومن هنا: اتخذوا «النهج السلمي» في التغيير والإصلاح، مستفيدين مما تتيحه «الديمقراطية» من فرص للعمل والتعبير، والدخول في المجالس النيابية والشورية، محاولة للإصلاح من طريقها، في ظل الظروف القائمة، مطالبين بإبعاد الغش والزيغ والتزوير، و«البلطجة» عن الانتخابات التشريعية، حتى تكون معبرة بحق عن إرادة الأمة.

كما دخلوا في النقابات المهنية مثل: نقابات المهندسين، والأطباء، والصيادلة، والمحامين، والصحفيين، وغيرها، وفي أندية أساتذة الجامعات.

ومع هذا التطور المحمود تظل حركة الإخوان مطالبة بالتجدد والنماء أبداً، ومن مظاهر ذلك:

- ١ - أن يُقَدِّموا الولاء للإسلام على الولاء للجماعة.
- ٢ - أن يُقَدِّموا العمل للدعوة على العمل للتنظيم.
- ٣ - الترحيب بالأفكار الجديدة، وإن لم يكن للجماعة سابق عهد بها.
- ٤ - زيادة التفاهم مع التيارات الأخرى وإن كانت مخالفة.
- ٥ - أن يُفَكِّروا بجِدَّةٍ في تجديد الوسائل بحسب ظروف المرحلة.
- ٦ - ألا يتفوقوا على أنفسهم، وتستغرقهم الأفكار المَحَلِّيَّة، وقد أصبحوا حركة عالمية.



٧ - ألا يستهلكهم العمل السياسي، ففي مجالات العمل الاجتماعي والثقافي والتربوي والاقتصادي وغيرها، متسع للجهود والطاقات الموجودة، والتي لا تكاد توظف فيما ينفعها وينفع أمتها.

٨ - أن يضعوا من المناهج ما يعمق ثقافة أفراد الجماعة الشرعية والعامة، وقيمها على أصول راسخة، ويغرس فيهم حبّ التجديد، وروح المحاسبة والنقد للذات، والحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالفين. وأعتقد أنّ الإخوان لديهم الاستعداد لتقبل هذا كله، ولو بالتدريج، بدليل أنّهم جميعًا يقرؤون كتبتي، ويرحبون بها، بل يوصون بقراءتها، على ما تحويه من نقد.

على أنّ الذي نأسى له ونأسف: أنّ الحكومات المصرية، لا تقدر توجه الإخوان إلى التغيير السلمي، وتقاومهم مقاومة شرسة، تتمثل في: الحصار، والتضييق، والتنكيل، والاعتقالات، والمحاكمات العسكرية المتعسفة، ممّا لا أجد له في الحقيقة مبررًا، إلّا التحبيز لإنشاء جماعات العنف، التي تختفي حينًا، لتظهر في شكل جديد، وباسم جديد.

* * *



من التعصّب والانغلاق إلى التسامح والانطلاق

ما معنى التعصّب؟

التعصّب: مصدر تعصّب، فهو متعصّب.

وأصل المادة: يدور حول «الشّد» و«الشدة». يقال: عصب رأسه بالعمامة، أي شدّها، وفي القرآن: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]؛ أي يوم شديد. والعصابة أو العصبة: جماعة يشد بعضهم بعضاً، ومنه «عصبة الرجل»: قرابته من أبيه.

ويقال: عَصَبَتِ السنون: أي أكلت ماله، أو عصبه الجوع: أي اشتد عليه.

ويقال: تعصب فلان: أي شدّ العصابة، أو كان ذا عصبية. وتعصّب القوم عليهم: أي تجمعوا. وتعصّب له أو منه: نصره وشدّ أزره.

ومن هذا: يتبين لنا أن استعمال كلمة «تعصب»، في مقابل كلمة «تسامح»: لم يكن شائعاً في الاستعمال العربي.

ولكن أخذ هذا المعنى من «تعصّب فلان»: إذا كان «ذا عصبية»، فالعصبية مذمومة شرعاً، ممقوتة في الإسلام، وفي الحديث:

«ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية»^(١).

وفي «صحيح مسلم»، و«مسند أحمد»، عن أبي هريرة: «من قُتل تحت راية عَمِيَّة، ينصر عصبية، أو يغضب لعصبية؛ فقتلته جاهلية»^(٢).

قال ابن الأثير: العصبية: الذي يغضب لعصبته، ويحامي عليهم. والتعصب: المدافعة والمحاماة^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤): بين بهذا الحديث: أن تعصب الرجل لطائفة مطلقاً، فعل أهل الجاهلية، محذور ومذموم، بخلاف منع الظالم وإعانة المظلوم، من غير عدوان، فإنه حسن، بل واجب، فلا منافاة بين هذا وبين خبر: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ذكره المناوي في «فيض القدير»^(٥).

والعرب في الجاهلية، قد عُرِفوا بتعصب الرجل لقبيلته في الحق والباطل، والعدل والظلم. وقد قيل عن أحد زعمائهم: إنه إذا غضب، غضب له عشرة آلاف سيف، لا يسألونه: فيم غضب؟

وكان شعارهم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، على ما يفهم من ظاهرها، قبل أن يعطي الرسول ﷺ مفهوماً جديداً لنصرة الأخ ظالماً،

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٣٥)، عن جبير بن مطعم. ولكن يشهد له حديث مسلم الآتي.

(٢) رواه مسلم في الإمامة (١٨٤٨) (٥٣)، وأحمد (٨٠٦١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٤٥/٣)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٤١/١)، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، نشر دار عالم الكتب، بيروت، ط ٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٥) فيض القدير للمناوي (٣٨٦/٥).

وهو أن تأخذ على يديه تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره، أي نصرته على هواه، وعلى شيطانه، وعلى دوافع الشر بين جنبيه.

ومن هنا يكون معنى التعصّب المذموم: أن تكون ذا عصبية عمياء، لعقيدتك أو لمذهبك، أو لفكرتك ورأيك، أو لقومك وطائفتك، بحيث لا تقبل أي حوار مع من يخالفك، في الأصول أو في الفروع، أو تغلق الأبواب والنوافذ في وجه كل من يقترب منك، إلا أن تحاورهم بالسيف.

ليس من التعصّب:

إن تحديد المفهوم بجلاء هنا أمر جد مهم، فإن من الناس من يعتبر كل من يتمسك بدينه متعصبًا، وخصوصًا إذا كان يتمسك بالآداب التي يتركها الكثير من الناس، مثل: إطلاق اللحية للرجال، والخمار أو النقاب للنساء.

ورأيي: أن هذا ليس من التعصّب في شيء، إذا كان قد اقتنع من أعماق قلبه بالحكم الشرعي، الذي انتهى إليه في هذا الموضوع، ولا يجوز لنا أن نلزم إنسانًا - اقتنع بوجوب إعفاء اللحية، أو حتّى مجرد سُنيّتها واستحبابها - بتركها لمجاعة الناس، أو لكيلا يعتبره الناس متعصبًا.

ومثل ذلك المسلمة التي اقتنعت عن طريق القراءة، أو السماع من بعض العلماء أن لبس النقاب واجب شرعًا، وأن تركه إثم، فلا يسوغ لنا أن نلزمها بتحمل الإثم، وترك الواجب عليها.

إنما نلومها ونصّفها بالتعصّب إذا أرادت أن تفرض رأيها على كل من يخالفها، وتتهمه بارتكاب المعصية، وبضعف الدين؛ لأنّ الأخرى أو



الأخريات من أخواتها المسلمات اقتنعن بالرأي الآخر، الذي يرى أن الفرض هو لبس الخمار، الذي قال الله تعالى في شأنه: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. وأنَّ النقاب قد يكون مستحبًا، ولكنه ليس واجبًا، وعلى ذلك أدلة كثيرة.

فالتعصُّب: هو أن يغلق الإنسان عقله على فكرة معيَّنة، ولا يسمح لنفسه بفتح أي نافذة للحوار مع مخالفه في العقيدة، أو في الفكر، أو في الرأي الفقهي، أو السياسي، ولا يسمح بنقد نفسه أو مراجعتها مرّة واحدة، بل رأيه دائمًا هو الصواب، الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي غيره هو الخطأ، الذي لا يحتمل الصواب.

ليس من التعصُّب إذن أن يثبت المرء على دينه، وأن يعتصم بحبله المتين، وإلا لكان كل متدين متعصبًا، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وقال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ * وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

من دلائل التعصُّب المقيت:

المتعصب إنسان لا يرى إلا ذاته، ولا يسمع إلا قول نفسه، ولا يؤمن بأحد غيره، أو غير فرقته وجماعته التي ينتمي إليها، فمنها يبدأ، وإليها ينتهي، فهو مغلق الذهن والنفس عن «الغير»، وكل الناس «غير» ما عدا إيَّاه وفرقته التي منحها عقله وشعوره وولاءه، فهي التي تفكر له، وتحدد له من يحب ومن يكره، وعمن يرضى وعمن يسخط، دون أن يعطي نفسه حق التأمل في هذه المقولات أو الامتحان لها، أو

مناقشتها، فهذا كفر، أو سبيل إلى الكفر المؤدي إلى البوار، جهنم يصلها وبئس القرار.

وقد رأينا هذا التعصّب عند كثير من النّاس في شتّى الأعصار والأقطار.

حكى القرآن لنا عن تعصب المشركين من قريش وغيرهم، في وجه دعوة محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وبلغ من تعصبهم ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا االلَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكان مقتضى العقل أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إليه، ووفقنا لاتباعه!

وأحياناً، لا يعترضون على الدعوة ومضمونها، ولكن على الداعي أنّه ليس من ذوي الشراء والجاه، الذين يعتبرونهم عظماء عندهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوْكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَمْ يَكُنْ لِّلَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُوْلًا ؕ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

إنّهُ التقليد الأعمى الذي أصم أسماعهم وأعمى أبصارهم، وأغلق عقولهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّٰهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا ءَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ؕ أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؕ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ١٧٠، ١٧١].

وحدثنا القرآن كذلك عن اليهود وموقفهم من الدعوة الإسلامية، وكيف كانوا يتوقعون مبعث الرسول ويرتقبونه، وكانوا يحسبونه من بني إسرائيل، فلما ظهر أنه من بني إسماعيل؛ كفروا به وحاربوه، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿يُسْكَمَ أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوَمَّنْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩ - ٩١].

وقال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وتحدث عن اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢]، فطالبهم بإثبات دعاواهم بالبرهان، فكل دعوى لا يقوم البرهان على صحتها؛ فهي مرفوضة.

وقد علّمنا القرآن أن نصف أهل الكتاب، فلا نعمم الحكم؛ إذا كان فيهم الصالحون والخيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال بعد ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وفي مقام آخر قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِن تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنٌ إِن تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِنَ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

فانظر، كيف ميّز بين الفريقين بوضوح، الذين يؤدون الأمانات وإن كبرت، والذين يأكلون الحقوق ولا يباليون، مستحلين أموال «الأغيار»، كما هي تعاليم التلمود، التي تستبيح الآخرين، وتجعلهم وأموالهم وذرائعهم ونساءهم، غنيمة حلالاً لليهود.

وهذه النظرات المتعصبة، هي ينبوع الشر والفساد والحروب في العالم: رفض الآخر، وإلغاؤه، واستباحته، وخصوصاً إذا كان مخالفاً في الدين والعقيدة.

من دلائل التسامح، والتحرر من التعصب:

وإذا كان ما ذكرنا، يشير إلى التعصب الأعمى، والانغلاق على الذات، ورفض الآخرين بالكُلِّيَّة، فإننا في حاجة إلى عكس هذا الموقف المتشجج الرافض للآخر، والمعادي له من أوّل الأمر.

أجل، إننا في حاجة إلى موقف التسامح، الذي يفتح النوافذ على الآخر، ولا يقف موقف المعاداة من كل المخالفين. إنّه التسامح الديني، والتسامح الفكري، والتسامح السياسي، الذي يسع الناس، وإن اختلفوا بعضهم مع بعض.



التسامح الديني:

ونصوص ديننا العظيم تشترع هذا التسامح، ولا سيَّما التسامح الديني، بل تحت عليه وترغب فيه. وتاريخ المسلمين حافل بوقائع هذا التسامح، وقد كان شيخنا محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ يَقُول: إِنَّ التسامح في الدين اختراع إسلامي، أي لم يعرفه النَّاس بهذه الصراحة، وهذه القوَّة عند غير المسلمين. وقد اعترف مؤرِّخو الغرب أنفسهم بتسامح المسلمين، الَّذِي لم يكن له نظير، كما وجدنا ذلك عند «توماس أرنولد» في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام»، و«غوستاف لوبون» في كتابه: «حضارة العرب»، و«آدم متز» في كتابه: «الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري» وغيرهم.

الحوار الإسلامي المسيحي:

ومن مجالات هذا التسامح الديني: قبول دعوة الحوار الإسلامي المسيحي، إذا اتضحت أهدافها، وتحدد مفهومها، وكان المحاورون المسلمون فيها من الراسخة أقدامهم في الدين والعلم.

فلا بد أولاً: من الاتفاق على هدف هذا النوع من الحوار، وقد سئلتُ عن ذلك، في المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، عن التقريب بين الأديان ومشروعيته، فكان جوابي: أَنَّ التقريب، منه ما هو مرفوض وما هو مقبول. فأما المرفوض: فهو الَّذِي يراد منه: التذويب للفوارق الجوهرية بين الأديان، مثل: التوحيد في الإسلام والتثليث في النصرانية، والتنزيه في الإسلام والتشبيه في اليهودية، فإنَّ أيَّ مؤمن بدين، لا يمكنه أن يتنازل عن الأساسيات في دينه، إِلَّا من باب النفاق والتزييف، وهو ما لا يجوز في حوار جاد بين الممثلين للأديان الكتابية الكبرى.

فسيظل الإسلام إسلامًا، والمسيحية مسيحية، ولكل منهما مقوماته وخصائصه، وأركانه، وأساسه.

ولكن الحوار مسموح به، بل مطلوب في الدين عندنا نحن المسلمين. فنحن مأمورون بالحوار، وهو جزء من منهج الدعوة عندنا، إذ يقول القرآن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهذا الجدل بالتي هي أحسن، هو الحوار المنشود.

وكثير من المسلمين يخافون من الحوار مع المخالفين، وكأنهم يخشون أن يتنازل الجانب المسلم عن عقيدته أو شريعته أو قيمه. وهو ما لا يتصور من مسلم صحيح الإسلام، راسخ الإيمان، رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولًا.

ويحسن بي أن أنقل هنا بعض الفقرات، التي ذكرتها في خطابي في «المؤتمر الإسلامي المسيحي»، الذي عقد في روما، واعتبر بمثابة قمة إسلامية مسيحية، ومما قلت فيه:

علاقة المسلم بغير المسلم:

إنَّ الإسلام يعتبر البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما أعلنه رسول الإسلام، أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»^(١).

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

ثم إنَّ الإسلام قد حدّد العلاقة مع غير المسلمين، في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [الممتحنة: ٨، ٩].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين الوثنيين، ولكن الإسلام أفرد «أهل الكتاب» بمعاملة خاصّة، حتّى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم. ومعنى هذا أنه أجاز للمسلم أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده كتابية «مسيحية أو يهودية»؛ ومقتضى هذا أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق أولي الأرحام وذوي القربى.

كما أنَّ الإسلام اعتبر النصراني أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِيْنَ وَرَهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ * [المائدة: ٨٢]. كما قال نبي الإسلام أيضًا: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»^(١).

نؤمن بالحوار:

إننا - نحن المسلمين - نؤمن بالحوار؛ لأننا مأمورون به شرعًا، وقرآننا مليء بالحوارات بين رسل الله وأقوامهم، بل بين الله تعالى وبعض عباده، حتّى إنّه سبحانه حاور شر خلقه إبليس.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، عن أبي هريرة.

ولهذا؛ نحن نرحب بثقافة «الحوار» بدل ثقافة «الصراع»، سواء بين الحضارات أم بين الديانات.

ولا نوافق على منطق بعض المثقفين الغربيين عامّة، والأمريكيين خاصّة الذين يؤمنون بحتمية الصدام بين الحضارات، وخصوصًا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربيّة.

ولماذا لا تتفاعل الحضارتان وتتكاملان، ويقتبس كل منهما من الآخر ما تفوق فيه؟

ماذا نريد من الغرب؟

إننا نريد من الغرب أن يتحرر من عقدة الخوف من الإسلام، واعتباره الخطر القادم، «الخطر الأخضر» كما سمّاه بعضهم، وترشيحه ليكون العدو البديل بعد سقوط «الخطر الأحمر» الاتحاد السوفيتي الذي سمّاه ريجان: «دولة الشر». وبعد التقارب مع الخطر الأصفر «الخطر الصيني».

كما نريد من الغرب أن يتحرر من عقدة الحقد القديمة الموروثة من الحروب التي سمّاهها الغرب: «صليبيّة»، وسمّاهها مؤرخونا: «حروب الفرنجة». فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس، ولسنا الذين بدأنا هذه الحروب، بل نحن الذين شنت عليهم.

ونريد منه كذلك أن يتحرر من نظرة الاستعلاء، التي ينظر بها إلى العالم نظرة السيد إلى عبده، فهذه النظرة من شأنها أن تثير الآخرين وتستفزهم.

مجالات مشتركة للتعاون الإسلامي المسيحي:

ونحن لدينا مجالات مشتركة يمكننا أن نلتقي عليها، ونتفاهم حولها، ونتعاون على توسيعها وتعميقها.



التركيز على القواسم المشتركة:

١ - التركيز على القواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ففي مجال التقريب والحوار بالتي هي أحسن، ينبغي ذكر نقاط الاتفاق، لا نقاط التمايز والاختلاف.

وهناك من المسلمين المتشددین مَنْ يزعم أنه لا توجد بيننا وبين اليهود والنصارى أية جوامع مشتركة، ما دمنا نحكم عليهم بالكفر، وأنهم حرّفوا وبدّلوا كلام الله.

وهذا فهم خاطئ للموقف الإسلامي من القوم. فلماذا أباح الله تعالى مؤاكلتهم ومصاهرتهم؟

ولماذا حزن المسلمون حين انتصر الفرس - وهم مجوس يعبدون النار - على الروم، وهم نصارى أهل الكتاب؟ حتّى أنزل الله قرآنا يبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون في المستقبل القريب: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٢ - ٥]، كما جاء في أول سورة الروم.

وهذا يدل على أن أهل الكتاب - وإن كفروا برسالة محمد ﷺ - أقرب إلى المسلمين من غيرهم من الجاحدين أو الوثنيين.

التعاون لمواجهة الإلحاد والإباحية:

٢ - الوقوف معًا، لمواجهة أعداء الإيمان الديني، ودعاة الإلحاد في العقيدة والإباحية في السلوك، من أنصار المادّية، ودعاة العري، والتحلل الجنسي، والإجهاض، والشذوذ الجنسي، وزواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء.

فينبغي أن يقف أهل الكتاب في جبهة واحدة، ضد هؤلاء الذين يريدون دمار البشرية بدعاواهم المضلّة، وسلوكياتهم الغاوية، وأن يهبطوا بها من أفق الإنسانيّة، إلى درك الحيوانية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقد رأينا الأزهر في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والفاثيكان في روما يقفون في «مؤتمر السكان» في القاهرة سنة (١٩٩٤م)، وفي مؤتمر المرأة في «بكين» (١٩٩٥م) في صف واحد، لمواجهة دعاة الإباحية.

مناصرة قضايا العدل والشعوب المستضعفة:

٣ - الوقوف معًا لنصرة قضايا العدل، وتأييد المستضعفين والمظلومين في العالم، مثل: قضيتي فلسطين، والبوسنة والهرسك، وكوسوفا، وكشمير، واضطهاد السود والملونين في أمريكا وغيرها، ومساندة الشعوب المقهورة ضد الظالمين والمستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين يريدون أن يتخذوا عباد الله عبادًا لهم.

فالإسلام يقاوم الظلم، ويناصر المظلومين، من أي شعب، ومن أي جنس، ومن أي دين، بل يحث على القتال من أجل استنقاذ هؤلاء

المستضعفين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

والرسول ﷺ ذكر حلف الفضول، الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية، وكان حلفاً لنصرة المظلومين، والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشرف القوم وسراتهم. وقال ﷺ: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام أجبت»^(١).

إشاعة روح التسامح لا التعصب:

٤ - ومما ينبغي أن تتضمنه هذه الدعوة: إشاعة روح السماحة والرحمة والرفق في التعامل بين أهل الأديان، لا روح التعصب والقسوة والعنف.

فقد خاطب الله تعالى رسوله محمداً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٢).

وذم بني إسرائيل بقوله - في مخاطبتهم -: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال لزوجته عائشة: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٣).

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة، كما في سيرة ابن هشام (١/١٣٤)، والبيهقي في الفتي والغني (٦/٣٦٧)، وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٥/٩): هذا مرسل، وقد وصله الواقدي من وجه آخر فقال: عن طلحة، عن عبد الرحمن بن أزهر، عن جبير بن مطعم. ووصله الزبير بن بكار من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه ص ١٨١.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، عن عائشة.

الأساس العقائدي لتسامح المسلم مع مخالفيه:

وأحبُّ أنْ أعرض هنا لقضيَّة حساسة لدى كلِّ ذي دين، فهو يعتقد أنَّه على حقٍّ، وأنَّ غيره على باطل، وأنَّه هو الَّذي يملك الهدى، ولا يملكه غيره، وهذا الاعتقاد قد يؤدي إلى التعصُّب. ولكن هناك عناصر أخرى مهمة، تخفف من هذا الأمر في فكر المسلم وضميره:

١ - أنَّه يعتقد أنَّ اختلاف البشر في أديانهم واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، أي خلقهم ليختلفوا ما دام قد منح كلاً منهم العقل والحرية والإرادة. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

٢ - أنَّ الحساب على ضلال الضالين وكفر الكافرين ليس في هذه الدنيا، ولكن في الآخرة، وليس موكولاً إلينا، ولكن إلى الله الحكم العدل، واللطف الخبير. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ ۖ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

٣ - اعتقاد المسلم بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وفي هذا روى البخاري عن سهل بن حنيف، وقيس بن سعد: أنَّ النبي ﷺ مروا عليه بجنازة، فقام لها واقفاً، فقالوا:

يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفساً؟»^(١) بلى، فما أعظم الموقف، وما أروع التعليل!

٤ - إيمان المسلم بأن عدل الله لجميع عباد الله مسلمين وغير مسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]؛ وبهذا لا يتحيز المسلم الحق لمن يحب، ولا يحيف على من يكره، بل يؤدي الحق لأهله، مسلماً أو غير مسلم، صديقاً أم عدواً.

التسامح مع المواطنين غير المسلمين:

وأهم من التسامح مع أهل الكتاب من الغربيين، وغيرهم من المخالفين في الدين: التسامح مع المخالفين من غير المسلمين الذين يسكنوننا الوطن، ويشاركوننا سراءه وضراءه، ممن يسميهم الفقهاء: «أهل الذمة» تمييزاً لهم عن «أهل الملة». ومعنى «الذمة»: العهد والضمان، على معنى أنهم في ضمان الله ورسوله، وجماعة المسلمين.

وقد نصّ الفقهاء على أن أهل الذمة من «أهل دار الإسلام»، وتعبير: «أهل الدار» يعني: ما نعبر عنه بلغتنا المعاصرة أنهم مواطنون؛ فلهم حق المواطنة بكل لوازمه كالمسلمين، وقد فصلنا هذا بأدلته وأمثله في كتابنا: «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

ولقد ذكرت في بعض ما كتبت من قبل: أن تعبير «أهل الذمة» إذا كان لا يعجب إخواننا المسيحيين داخل الوطن الإسلامي، أو يتأذون

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز.

منه، فلا حرج علينا أن نحذفه، فقد حذف سيدنا عمر ما هو أهم منه، لاعتبارات مصلحة شرعية رآها، حين عرض عليه عرب بني تغلب وكانوا نصارى أن يحذف كلمة «الجزية» من تعاملهم، ويسمي ما يأخذه منهم صدقة أو زكاة، ولو كان أكثر ممّا يأخذ من المسلمين، وقالوا: إنّنا عرب نأنف من كلمة «جزية»! وقبل منهم ذلك، وقال: هؤلاء قوم حمقى، رضوا بالمعنى وأبوا الاسم^(١)!

والنصارى العرب - في أوطاننا العربيّة - لهم وضع خاص؛ لأنّهم يشاركونا الثقافة العربيّة التي اندمجت في الإسلام، وامتزجت به امتزاج الجسم بالروح. فهم مسلمون بالثقافة والحضارة، وإن لم يكونوا مسلمين بالديانة والعقيدة.

وقد أنكر عليّ بعض المتشددّين أو المتعصبين من المسلمين أنّي أقول أحياناً: إخواننا الأقباط في مصر. وقالوا: إنّما الأخوة هي الأخوة الدينيّة وحدها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقلت لهم: الأخوة الدينيّة لها مكانتها ورتبتها العليا، ولكن هذا لا ينفي وجود أخوات أخرى، منها: الأخوة الوطنية، والأخوة القومية. وهذا ما نص عليه القرآن حين قال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦]؛ فأثبتت الآية أخوتهم لنوح، برغم تكذيبهم له وكفرهم به، لأنّه واحد منهم، ولهذا كان يقول لهم: «يا قوم». وكذلك ذكر القرآن عن هود وقومه عاد، وصالح وقومه ثمود، ولوط

(١) الحاوي الكبير للماوردي (٣٤٦/١٤)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود،

نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

وقومه، إلخ. ولكن في هذه السورة قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُكُمْ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، فلم يقل: «قال لهم أخوهم شعيب»؛ لأنه لم يكن منهم، إنما كان من مدين؛ ولذا قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]، فدلّ هذا على أن للأخوة القومية اعتبارها.

التسامح الفكري:

وكما أنّ التسامح الديني مطلوبٌ لترطيب الأجواء بين أبناء البشر، الذين خلقهم الله من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وللتقريب بين أبناء الوطن الواحد، وإن اختلفت ديانتهم.

فإن من المطالب المهمة: إشاعة «التسامح الفكري» بين أصحاب الاتجاهات الفكرية المختلفة، ولا سيما بين أهل الاعتدال منهم، بحيث يحاور بعضهم بعضًا، ويسع بعضهم بعضًا، ويبحثوا عن الجوامع المشتركة، ليلتقوا عندها، وعن العدو المشترك ليواجهوه معًا في جبهة واحدة، وصف متراص كالبنيان المرصوص.

وهذه السماحة الفكرية التي تنبئ عن أفق رحب، تلزمها وتتممها سماحة نفسية وخلقية، فأرباب الأنفس الضيقة، والصدور الضيقة، لا يمكنهم تقبل الآخرين ممن يخالفهم، ولا يحبون إلا أن يبقوا على الساحة وحدهم.

وأود أن أؤكد هنا ما دعوت إليه، وأصررت عليه، في عدد من كتبي^(١)، وهو ضرورة الحوار مع الفئات المختلفة في الخارج والداخل.

لقد دعوت إلى الحوار مع الغرب على المستوى الديني، مع الكرادلة والأساقفة ورجال الدين.

(١) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية ص ١٤٧ - ١٦٥.

وعلى المستوى الفكري، مع المستشرقين والكُتّاب والمفكرين المعنيين بالشرق الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والأمة الإسلامية، والصحة الإسلامية.

وعلى المستوى السياسي، مع صناع القرار، ممّن يستطيع الوصول إليهم والتحدث معهم، وتغيير مفاهيمهم المغلوطة عن ديننا، وأمتنا، وتطلعاتنا.

كما دعوت إلى الحوار مع العقلاء من الحكام؛ لتضييق الفجوة بينهم وبين الإسلاميين، أو سدّها نهائياً لو أمكن.

وكذلك، الحوار مع المعتدلين من القوميين؛ بغية الوصول إلى قاسم مشترك، وهدف مشترك، ولا سيّما في قضية العرب والمسلمين الأولى، وهي قضية فلسطين، قضية القدس، قضية الأقصى، ومقاومة تيار التطبيع المشبوه.

والحمد لله أن انتهى هذا الحوار إلى قيام «المؤتمر القومي الإسلامي» الذي أثبت وجوده على الساحة الثقافية والسياسية، وعقد عدة دورات، وكنت من أعضاء اللجنة التحضيرية التي شاركت في إعداد الورقة الأساسية من جانب الإسلاميين^(١).

ومن دلائل التسامح والانطلاق والتحرر من التعصّب والانغلاق، ما يأتي:

النظر إلى القول، لا إلى قائله:

من دلائل التحرر من التعصّب: النظر إلى القول لا إلى قائله.

(١) شارك في إعدادها: الإخوة: محمد عمارة، ومحمد سليم العوا، وفهمي هويدي، وأحمد صدقي الدجاني.



فمن النَّاس من يعرض عليه القول أو الرأي فيرده، وينأى بجانبه عنه، فإذا قيل له: إِنَّ هذا قول الإمام الذي يقلده، أو المذهب الذي يتبعه، أو الفرقة التي ينتسب إليها؛ فسرعان ما يغير موقفه، وينقلب من رفض إلى قبول، ومن قدح إلى مدح، معتذراً بأساليب شتى عما صدر عنه من قبل!

وهذا ما شكّا منه الإمام الغزالي وغيره من الأئمة النقاد. وهو ثمرة للتقليد أو للتعصب الذي ينظر إلى الأشخاص والطوائف، دون أن يركز على الرأي نفسه، وماذا فيه من صواب وخطأ، بغض النظر عن قوله. يقول الإمام ابن الجوزي في كتابه القيم: «تلبس إبليس»:

«اعلم أَنَّ المقلّد على غير ثقةٍ فيما قلّد، وفي التقليد إبطالٌ منفعة العقل؛ لأنّه خلق للتأمّل والتدبّر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يُطفئها ويمشي في الظلمة. واعلم أَنَّ عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم التفحّص عن أدلّة إمامهم، فيتبعون قوله، وينبغي النظر إلى القول لا إلى القائل. كما قال عليّ عليه السلام للحارث بن عبد الله الأعور ابن الحوطي، وقد قال له: أَتَظُنُّ أَنَّ طلحة والزبير كانا على الباطل؟ فقال له: يا حارث! إنّه ملبوسٌ عليك، إنَّ الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله»^(١).

وهنا يمكن أن نأخذ من كل فقيه، أو متكلم، أو صوفي، أو أثري، أصوب ما قاله، بصرف النظر عن انتمائه. وكذلك نأخذ من المذاهب والطوائف أفضل ما عندها ممّا نراه أدنى إلى الحق، وأبعد عن الباطل.

(١) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٧٤، نشر دار الفكر، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

قال المحقق ابن القيم رحمه الله في كتابه: «طريق الهجرتين»: «إن عادتنا في مسائل الدين كلها، دقّها وجلّها، أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه، ونلقى الله به، ولا قوّة إلّا بالله»^(١).

الاعتراف بالخطأ:

ومن دلائل التحرر من التعصّب: الاعتراف بالخطأ، والرجوع عنه جهره بشجاعة وصراحة، وقد قال أمير المؤمنين عمر في رسالة لأبي موسى الأشعري في القضاء: «ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم، فراجعت فيه رأيك، فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق؛ فإنّ الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التماسي في الباطل»^(٢).

إنّ الإنسان المؤمن لا يتعصب لرأي غيره، ولا لرأي نفسه، وهو أسرع الناس فيئاً إلى الصواب متى تبين له، فليس في الحق كبير، والحق أحق أن يتبع.

وكم رأينا من علماء كبار رجعوا عن آرائهم حين ظهر لهم خطؤها، أو ضعفها.

ناقش عبد الرحمن بن مهدي - الإمام المحدث المعروف - الفقيه القاضي عبيد الله بن الحسن العنبري، في مسألة، فبيّن له أنّه أخطأ فيها،

(١) طريق الهجرتين ص ٣٩٣، نشر دار السلفية، القاهرة، ط ١، ١٣٩٤هـ.

(٢) رواه الدارقطني في الأقضية (٤٤٧)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٩/١٠). وانظر: إعلام

الموقعين عن رب العالمين (٦٨/١).



فقال الفقيه الشجاع المنصف: إذن أرجع وأنا صاغر؛ ولأن أكون ذنباً في الحق، خير من أن أكون رأساً في الباطل^(١)!

وقد رجع الإمام أبو يوسف - أكبر أصحاب الإمام أبي حنيفة، وقاضي الرشيد - عن بعض الآراء التي كان يقول بها من قبل، ويقول بها شيخه أبو حنيفة، حين أطلعه الإمام مالك على دلائل واعتبارات، وجد فيها ما أقنعه بضعف رأيه الأول، فأعلن رجوعه بصراحة، قائلاً: لو رأى صاحبي ما رأيت لقال بمثل ما قلت^(٢)!

وكذلك صاحبه: الإمام محمد بن الحسن الشيباني.

ومثل ذلك رأيناه عند الإمام محمد بن إدريس الشافعي، الذي عدل عن كثير من آرائه القديمة - قبل قدومه إلى مصر - إلى آراء أخرى، بعد أن رأى في مصر ما لم يكن قد رأى، وسمع من الآثار ما لم يكن قد سمع، وظهر له من الاعتبارات ما لم يتضح له من قبل. وبهذا غدا له مذهبان: قديم وجديد، وعرف في مذهبه: قال الشافعي في القديم، وقال في الجديد!

الترحيب بنقد الآخرين:

ومما يتبع ذلك التحرر ألا يضيق صدره بالنقد يوجه إليه من الآخرين، بل يرحب به، ويفتح له سمعه وقلبه، وإن كان الآخرون قد لا يريدون بالنقد وجه الله، بل يريدون التشويش عليه، والتشهير به، فهو يستفيد منهم مراجعة نفسه، وتقويم فكره وعيوبه وأخطائه.

(١) انظر: تاريخ بغداد (٩/١٢)، تحقيق د. بشار عواد، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠٦/٢٠، ٣٠٧).

يقول الشاعر^(١):

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلَا بَاعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا!
فَهُمْ بَحَثُوا عَن زِلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَارْتَكَبْتُ الْمَعَالِيَا!

وإذا كان المسلم - من الإخلاص والشجاعة - بحيث يعترف بالخطأ إذا تبين له، ويعلن رجوعه عنه على الملأ، ويسجله على نفسه، كما فعل الأئمة، وأصحابهم وكبار العلماء والمجتهدون، فمثله لا يضيق ذرعاً بنقد الناقلين، ونصح الناصحين.

كل ما هو مطلوب: أن يكون النقد موضوعياً، وأن يبنى على معايير صحيحة، وأن يكون هدفه البناء لا الهدم، والنصيحة لا التشهير، وغايته نشدان الصواب والكمال والأكمل أبداً، وذلك بالدلالة على الصواب في مقابل الخطأ، والراجح في مقابل المرجوح، والأحسن في مقابل الحسن، فقد وصف الله عباده المهديين بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وقد قال أحد الرعية لعمر: اتق الله يا ابن الخطاب! فأغضب هذا بعض من حوله، وحاول أن ينتهر هذا القائل، ولكن عمر قال: دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها^(٢)!

وقد ينتفع الإنسان الكبير بالنصيحة يقدمها إليه من هو أصغر سناً أو قدراً، وقديماً تعلم ابن آدم الأول من الغراب، وعرف منه: كيف يوارى سوء أخيه.

(١) هو أبو حيان الأندلسي، كما في الوافي بالوفيات للصفدي (١٨٠/٥)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٧٧٣/٢)، تحقيق فهمي محمد شلتوت، ١٣٩٩هـ.

وقد قال الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]؛ وبهذا يحتج التلاميذ الصغار على شيوخهم الكبار إذا ضاقوا بنقدهم، فليس الشيوخ أفضل من سليمان، وليس التلاميذ أقل من الهدهد.

بل تعلم أبو هريرة من إبليس: فضل آية الكرسي وأثرها في حفظ الله للإنسان، وذكر ذلك للرسول، فقال له: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب!» والحديث في «صحيح البخاري»^(١).

وقد رأينا الصحابة رضي الله عنهم يعترفون بخطئهم إذا تبين لهم، دون أن يروا في ذلك أي حرج.

ردت امرأة على أمير المؤمنين عمر - وهو على المنبر - فرجع عن قوله قائلاً: أصابت المرأة وأخطأ عمر^(٢).

ورد رجل على أمير المؤمنين علي، فقال له: أصبت وأخطأت، وفوق كل ذي علم عليم^(٣).

وما لهم لا يفعلون ذلك، وقد رأوا رسول الله ﷺ ينزل عن رأيه إلى رأي أصحابه، إذا لاح له أنه أصوب، وخصوصاً في أمور المعيشة، وشؤون السياسة والتعليم.

في قضية تأبير النخل قال لهم: «إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(٤).

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم (٥٠١٠)، ووصله النسائي في الكبرى (١٠٧٢٩)، وابن خزيمة في الزكاة (٢٤٢٤).

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٦٥).

(٤) سبق تخريجه ص ١٥٤.

وحين أرسل أبا هريرة يعلن في الناس: أن من قال: «لا إله إلا الله» دخل الجنة. ورأى عمر في ذلك مدعاة أن يتكلم الناس، ويدعوا العمل، فقال: يا رسول الله، خلّهم يعملون. قال: «خلّهم يعملون»، وهذا ثابت في «الصحيح»^(١).

النقد الذاتي:

ومن دلائل التحرّر من التعصّب: النقد الذاتي، وهو أمر أوسع من مجرد الاعتراف بالخطأ.

إنّه مراجعة واعية قاصدة للذات، مراجعة دقيقة مع النفس على وعي وبصيرة، وكشف مجهري لأخطائها وعيوبها، ما كان منها عن غفلة، وما كان منها عن قصد وعمد؛ وذلك ليتجنب الخطأ فيما بعد، ويعالج آثاره إن كان له آثار، ويتوب إلى الله من العمد، عسى أن يبدل سيئاته حسنات.

يقول عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم^(٢).

ويقول التابعي الجليل ميمون بن مهران: المؤمن أشدّ حساباً لنفسه من سلطانٍ غاشمٍ، ومن شريكٍ شحيح^(٣).

وهذا ينطبق على الأفراد، كما ينطبق على الجماعات والحركات.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٠٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩)، تحقيق المستعصم بالله أبي هريرة، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



فليست هناك جماعة معصومة من كل خطأ، مبرأة من كل عيب، وإن كانت إسلامية الأهداف والوسائل.

فالجماعة: مجموعة من الأمة تجتهد لخدمة الإسلام، بالوسائل التي تراها أقدر على تحقيق الأهداف التي تصبو إليها، وليست هي كل الأمة. فإذا كانت الأمة معصومة بمجموعها؛ لأنها لا تجتمع على ضلالة، كما جاء في الحديث النبوي، فإن العصمة لم تضمن لأي جماعة معينة محدودة منها.

فأي طائفة من الطوائف التي تعمل على الساحة لنصرة الإسلام، وتجديده والتمكين له في الأرض، إنما هي جماعة من المسلمين، وليست هي جماعة المسلمين.

قد تكون بعض الجماعات والفئات أقرب إلى الصواب في فهم الإسلام وتطبيقه والدعوة إليه من بعض، ولكن المؤكد الذي لا ريب فيه أن لا عصمة لأي منها.

وهذا ما يجعل المجال متاحاً للمراجعة والتقويم ما بين حين وآخر، لأي جماعة تريد أن يكون يومها خيراً من أمسها، وأن يكون غدها خيراً من يومها.

وهذا ما حاولته في بعض ما كتبت عن الحركة الإسلامية، وخصوصاً في كتابي: «أين الخلل؟»، الذي نشر قبل ذلك في صورة مقالات في مجلة: «الأمة»، وقبل ذلك في كتابي: «الحل الإسلامي لفريضة وضرورة»، وبعد ذلك في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية»، وغيرها من الكتب.

وقد فوجئ بعض الإسلاميين بهذا التوجه، ولا مني بعضهم برفق وأدب، ولكن لا يصح في النهاية إلا الصحيح.

طلب النصح والتقويم من الآخرين:

وأمر آخر في التحرر من التعصّب يكمل النقد الذاتي، وهو طلب النصح والتقويم من الآخرين، والترحيب به.

وهذا ما قاله الخليفة الأوّل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أوّل خطبة له بعد توليه الخلافة: **إِنِّي وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى حَقٍّ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى بَاطِلٍ فَسَدِّدُونِي**^(١).

وما قاله الخليفة الثاني بعده حيث كان يعلن على المنبر: **رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوب نفسي! مرحبًا بالناصح أبد الدهر. مرحبًا بالناصح غدوًا وعشيًا**^(٢).

ومن مآثره التي دوّنها له التاريخ، قولته المشهورة: **أيها الناس! من رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومني، فقال له بعض من سمعه من الرعية: والله، لو رأينا فيك اعوجاجًا يا ابن الخطاب، لقومناه بحدّ سيوفنا!**

ولم يعتبر عمر هذا الرد استفزازًا أو تحديًا، بل رآه دلالة على قوّة الأمة، وشجاعة الرعية، فقال مزهوًّا مسرورًا: **الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم اعوجاج عمر بحدّ سيفه**^(٣)!

إنّ الولايات المتحدة طلبت من اليابانيين: أن ينتقدوا نظامها التعليمي، وأن يقدّموا لها تقريرًا عما يرونه من ثغرات في هذا

(١) رواه الطبري في تاريخه (٢١٠/٣) وصحّحه إسناده ابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٨/٥)، نشر دار الفكر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢٢٥/٤).

(٣) ذكره علي بن خلف في كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد (١٩١/١)، تحقيق محمد محمد تامر، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ورواه ابن أبي شيبه في الزهد (٣٥٦٢٩) بنحوه بدون ذكر السيف.

النظام، فإنَّ الذي يسكن في داخل الغابة لا يراها جيداً، إنَّما يراها من كان خارجها.

التنازل عن بعض الآراء الجزئية لجمع الكلمة:

ومما يتمم ما ذكرناه من دلائل التحرر من التعصُّب: أن يكون لدى صاحب الرأي استعداد للتنازل عن رأيه ليوافق آراء الآخرين، فتجتمع الكلمة، ويلتئم الشمل ويتوحد الصف، وإن كان يعتقد أنَّ رأيه أصوب وأرجح في الميزان، وهذا ضروري لمن يعمل في جماعة.

وهذا يصدق في المسائل السياسية العملية، وفي المسائل العلمية الفقهية.

فقد ترى بعض الجماعات الإسلامية خوض معركة الانتخابات في بلدٍ ما، لإبلاغ الصوت الإسلامي إلى السلطة التشريعية، ولإسكات الأصوات المعارضة لتحكيم الشريعة الإسلامية، وللدفاع عن حقوق القاعدة الشعبية العريضة في الحرية، والعدالة، والكرامة الإنسانية.

وترى أخرى أن لا فائدة من ذلك، وأنَّ خوض هذه المعارك مضیعة للجهد وللوقت وللمال، وأن ما تريده السلطات الحاكمة سينفذ في النهاية.

فإذا رأت هذه الأخيرة أنَّ الجماعات الأخرى قد دخلت المعركة بالفعل، فالأولى بها أن تتنازل عن رأيها، وتؤيد الآخرين فيما أقدموا عليه، ولا تدعهم يواجهون التيارات اللاإسلامية واللا دينية وحدهم، دون أن تقدم لهم عوناً، على حين يتعاون الآخرون - من غير الإسلاميين - ويتكاتفون برغم اختلاف طرائقهم. وإن كنا نرى بعض الإسلاميين

- للأسف الشديد - يقفون ضد الإسلاميين الذين يخالفونهم في الرأي، بل رأينا بعضهم يؤيد العلمانيين أو الماركسيين ضد إخوانه الإسلاميين! وكذلك إذا رأت تلك الفصائل المشاركة في الحكم، بناءً على ما تبين لها بعد الموازنة بين المصالح المتوقعة، والمضار المحتملة، وترجيحاً لتحقيق المنافع على احتمال المضار، وأنَّ النفع فيها أكبر من الضرر، فينبغي للأخرى التسليم لها بما تراه، احتراماً لاجتهادها، وإحساناً للظن بها، وتعاوناً معها على البر والتقوى.

وفي المسائل الفقهية يسع المسلم أن يدع رأيه الذي يقتنع برجحانه، ليعمل بالرأي الآخر؛ تأليفاً للقلوب، وسعيًا إلى توحيد كلمة الجميع.

وهذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي: «فتاواه»، حيث قال:

«مراعاة الائتلاف هي الحق، فيجهر بالبسملة أحياناً لمصلحة راجحة، ويسوغ ترك الأفضل لتأليف القلوب، كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم خشية تنفير قريش. نصَّ الأئمة كأحمد على ذلك في البسملة، ووصل الوتر وغيره، ممَّا فيه العدول من الأفضل إلى الجائز، مراعاة للائتلاف أو لتعريف السُّنَّة، أو أمثال ذلك، والله أعلم»^(١).

الاستفادة ممَّا عند الآخرين:

ومن دلائل التحرُّر من التعصُّب: الاستفادة ممَّا لدى الآخرين من علم نافع، أو عمل صالح، أو تجربة مفيدة، وفي الحديث الذي رواه

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٢، تحقيق عبد المجيد سليم ومحمد حامد الفقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

الترمذي وابن ماجه: «الكلمة الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، أَنَّى وَجَدَهَا؛ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»^(١).

نعم، إِنَّ الحديثَ ضعيف الإسناد، ولكنَّ معناه صحيح، وقد قال الرسول ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ: كَلِمَةٌ لِبَيْدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(٢).

وهي مطلع قصيدة للبيد بن ربيعة قالها وهو في جاهليته.

بل نرى القرآن يحكي لنا بعض الأقوال الصحيحة في نفسها لأناس لم يكونوا مؤمنين، مثل قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. وقد لخصت بهذه العبارة الوجيزة ما يفعله الاستعمار في البلاد المفتوحة، من إفساد البلاد، وإذلال العباد.

ومثل ذلك ما قالته امرأة العزيز: ﴿وَمَا أَبرِيءُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

ولهذا اشتهر بين المسلمين قولهم: خذ الحكمة من أي وعاء خرجت. ولا غرو أن وجدنا كتب المسلمين - في الأدب والتصوف والمواعظ والرقاق - تنقل عن الهنود والفرس واليونان وغيرهم ما رأوا فيه فائدة وحكمة. بل نقلوا عن اليهود والنصارى إلى حد الإسراف أحياناً فيما عرف باسم: الإسرائيليات.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد (٤٦٩)، عن أبي هريرة، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦). ولكن معناه صحيح بالإجماع.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، عن أبي هريرة. وانظر: ديوان لبيد ص ١٣٢، نشر دار صادر، بيروت.

ووجدنا الأئمة وكبار العلماء يحفظون الشعر الجاهلي يروونه ويستشهدون به، كما رأينا ذلك عند ابن عباس، وعائشة، وغيرهما.

ورأينا الراسخين من العلماء - من أهل السنة - يأخذون من كتب المعتزلة وغيرهم، وإن أنكروا فيها مواضع معينة وجهوها لتأييد مذهبهم.

ومن هنا، وجدنا جميع المفسرين بعد الزمخشري يستفيدون من كتابه: «الكشاف» وينقلون عنه، كما يبدو ذلك جلياً في تفاسير: الرازي، والنيسابوري، والقرطبي، والبيضاوي، وأبي السعود، والآلوسي، وغيرهم.

ولهذا خرّج الحافظ ابن حجر أحاديثه في كتاب سمّاه: «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف».

ولا يمنع ذلك أن يتعقبه رجل مثل ابن المنير بكتابه: «الانتصاف من الكشاف» الذي تتبع فيه «اعتزاليات» الزمخشري في «تفسيره»، وردّ عليها من وجهة نظره.

الثناء على المخالف فيما أحسن فيه:

ومن دلائل التحرر من التعصّب: الثناء على المخالف فيما أحسن فيه، فإنّ التعصّب كثيراً ما يعمي العين عن رؤية محاسن المخالفين، كما قال القائل^(١):

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تُبدي المساويا!
وحتى إن رأيت العين المحاسن نرى التعصّب يعقد اللسان أن يقول
كلمة ثناء عليها، فالمتعصبون لا يثنون إلا على أصحابهم ومن وافق

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٢٧.



مشربهم، وحطب في حبلهم. أما الراسخون في العلم والإيمان فيعرفون لكل ذي قدر قدره، ويتسامحون ولا يتعصبون.

ومن المؤرخين الذين عرفوا بالاعتدال والإنصاف - حتى مع من خالفهم - الإمام الذهبي رحمته الله، كما يتجلى ذلك في موسوعته التاريخية المتميزة: «سير أعلام النبلاء»، والتي زخرت بتعليقاته المتوازنة والمنصفة لكثير ممن يخالفهم الرأي، من المعتزلة أو الخوارج، أو غيرهم من الطوائف. وأمثلة ذلك لا تحصر في الكتاب.

قال حكيم مصره، بل عصره، الشيخ محمد عبده مفتي مصر، في كتاب: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» في مبحث: «سماحة الإسلام» ما لفظه: «أخذ بيد القارئ الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية، والأئمة من بني العباس، ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون، وسائر أهل النظر من كل قبيل، مُطيفون بهم، وكلّ مقبل على عمله، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه، ووضع يده في يده، يصافح الفقيه المتكلم، والمحدث الطبيب، والمجتهد الرياضي، والحكيم، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به، وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم، فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت، يتحادثون ويتباحثون. والإمام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي، يأخذ عنه الحديث، وعمر بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه، فقال للسائل: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربّته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن

أمر بشيء؛ كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء؛ كان أترك الناس له. ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطناً أشبه بظاهر منه»^(١).

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم وإن اختلفوا - بل وإن اقتتلوا - يثني بعضهم على بعض، ويعرف كل منهم لصاحب الفضل فضله.

وقد كان بين أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شيء من أيام معركة الجمل، وقبلها منذ حديث الإفك، ولكنها حين سئلت: أي الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: فاطمة، فقيل: فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمت صوّماً قوّاماً^(٢)!

وكذلك قال عليّ - كرم الله وجهه - عن ابن عمته صفية: الزبير بن العوام، وقد قاتله في معركة الجمل مع طلحة وعائشة رضي الله عنهم جميعاً، فقد استأذن قاتل الزبير عليّ، فقال: والله، ليدخلن قاتل ابن صفية النار. إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل نبي حوارياً - أي نصيراً - وحواريي الزبير»^(٣).

وكذلك أثنى عليّ طلحة رضي الله عنه، وقال لابنه - وقد دخل عليه، فرحب به، وأدناه -: «إنني لأرجو أن يجعلني الله وأباك ممّن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].»

(١) انظر: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لجمال الدين القاسمي ص ٣٨٨، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٧٤)، وقال: حسن غريب.

(٣) رواه أحمد (٨١٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في المناقب (٣٧٤٤) مختصراً وقال: حسن صحيح.

ولما استنكر ذلك اثنان من جلسائه، قال لهما: قوما أبعد أرضٍ وأسحقها، فمن هو إذا لم يكن أنا وطلحة^(١)؟!

ومن المعروف دائماً أنَّ الأئمة تتسع صدورهم للنقد والتصحيح، ما لا تتسع له صدور الأتباع المقلدين الذين لا يقبلون ذلك ولا يسيغونه بحال، ويرون في ذلك نيلاً من قدر أئمتهم، وهذا أمر عُرف عند الأقدمين، ولا يزال يُرى عند المعاصرين.

كتب الداعية الجليل والمربي الكبير: أبو الحسن الندوي، كتاباً ينتقد فيه بعض ما كتبه العلامة أبو الأعلى المودودي، وخصوصاً في كتابه: «المصطلحات الأربعة في القرآن»، وكذلك بعض ما كتبه الداعية والأديب الكبير الشهيد سيّد قطب، فرحّب الإمام المودودي بالنقد، وشكر للأستاذ أبي الحسن، ودعاه أن ينظر في سائر كتبه، ويكتب له برأيه، وهذا هو شأن الأئمة حقاً.

ولكنّ إخوان العلامة المودودي وأتباعه ضاقوا كلّ الضيق بما كتبه العلامة الندوي، واعتبروه هجوماً على فكر الجماعة نفسها.

وأنا لا أريد أن أحكم بين الرّجلين، ولا أدخل طرفاً مع واحد منهما الآن، ولكن الذي يُهمُّني هو ضيق الصدر من الأتباع بأيّ نقد، واعتبار كلّ ناقدٍ عدواً!

وفي حركة الإخوان المسلمين أناسٌ لهم وزنهم وقدرهم، لا يقبلون من أحد مخالفة الإمام حسن البنا في أيّ جزئية من الجزئيات، ومن فعل ذلك نُظر إليه بعين غير عين الرضا، وإن كان من أخلص أبناء الحركة وأقدرهم على فهم رُوح البنا.

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٧٦)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي.

وفي أحد الدروس يوماً مع بعض الإخوة، وضّحتُ لهم رأيي في جواز تعدّد الأحزاب في الدولة الإسلامية، وذكرتُ لهم أدلتي على هذا الرأي من أصول الإسلام، ومن التراث، ومن الواقع^(١).

ولكن بعضهم لم يعجبه ذلك؛ لأنّه مخالف لرأي الإمام الشهيد الذي أعلن فيه أن لا حزبية في الإسلام.

وقلت لهؤلاء الإخوة ما قاله أبو يوسف حينما خالف شيخه أبا حنيفة: لو رأى صاحبي ما رأيت، لقال بمثل ما قلت!

فالبنا لم يكن جامداً ولا متعصباً، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ مجدداً متجدداً ينقد نفسه، ويطور فكره، ويغير وسائله، فقد آمن بالعمل العسكري وأنشأ له النظام الخاص، ثم رأى خطره بعد ذلك - حتّى على الجماعة ذاتها - فضاق به وأنكر بعض ما صدر منه.

ومن المعلوم أنّ حسن البنا رحمه الله عليه لقي ربّه وهو ابن اثنين وأربعين عاماً، فما يُدريك لو مدّ الله في عمره، ماذا كان سيُغيّر في اجتهاده، كما فعل الشافعي وغيره من الأئمة الربّانيّين.

وفي معارك الفتن التي وقعت في عهد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ نجد حادثة لها دلالتها، في تأكيد هذه الفكرة، وهي: أنّ الأتباع يكونون أشدّ تعصباً من القادة والزعماء.

ففي معركة الجمل التي قادها عائشة وطلحة والزبير، ضد عليّ - رضي الله عنهم جميعاً - كان في الجيش المناوئ لعليّ: محمّد بن

(١) انظر كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام ص ١٤٧ - ١٦٠، فصل: تعدد الأحزاب في ظل الدولة الإسلامية.

طلحة، وكان رجلاً صالحاً عابداً، يعرف باسم: «السجاد»؛ لكثرة صلاته وسجوده وقيامه لله، وكان يلبس في هذه المعركة عمامة سوداء، فقال أمير المؤمنين عليّ - كرم الله وجهه - لأصحابه: لا تقتلوا صاحب العمامة السوداء، فإنما أخرجه برّه بأبيه!

ومع هذا لقيه أحد أصحاب عليّ، قيل: إنه شريح بن أبي أوفى العبسي، وقيل: الأشتر النخعي - وقيل غير ذلك - فأهوى له بالرمح فطعنه^(١)، ويبدو أن ابن طلحة حاول أن يثنيه عن قتله بقراءة شيء من القرآن، فتلا عليه من إحدى سور «حم»، وربّما كان قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

ولكن هذا الرجل من أصحاب عليّ رضي الله عنه لم يبال بما تلا صاحبه من قرآن، وما ذكره به من روابط الإيمان، فما زال به حتّى قتله، وأنشد القاتل في ذلك:

وَأَشَعْتَ قَوَامٍ بِآيَاتِ رَبِّهِ	قَلِيلِ الْأَذَى فِيمَا يَرَى النَّاسُ مُسْلِمٍ!
هَتَكْتُ لَهُ بِالرُّمَحِ جَنْبَ قَمِيصِهِ	فَخَرَّ صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ!
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ، غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تَابِعًا	عَلِيًّا، وَمَنْ لَا يَتَّبِعِ الْحَقَّ يَنْدَمُ!
يُذَكِّرُنِي «حَا مِيمَ» وَالرَّمْحُ شَاجِرٌ	فَهَلَّا تَلَا حَا مِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ ^(٢) ؟

(١) عزاها ابن حجر في فتح الباري (٥٥٤/٨)، لعمر بن شبة في كتاب الجمل.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣٧٥/٣)، وسكت عنه هو والذهبي.

وقد قال أبو عبيد البكري: وقد اختلف في قائله (أي قائل الشُّعْر) وقاتله (أي قاتل السجاد)، فقيل: هو عصام بن المُقَشَّعِر. وقيل: بل هو شريح بن أوفى العبسي. وقيل: هو الأشتر النخعي. انظر: شرح كتاب الأمثال ص ٣١٣، تحقيق إحسان عباس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧١م.

وإنَّ المرءَ ليقراً هذا الشعر، ويعجب غاية العجب: كيف هان على
هذا المسلم أن يقتل أخاه المسلم، وهو يذكره بآيات ربه، ويقراً عليه
القرآن، وهو - للأسف الشديد - مُصمِّمٌ أذنيه، مغلق قلبه، ولا حول ولا قوَّة
إلَّا بالله العلي العظيم.

* * *





من الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال

الإسلام منهج وسط للأمة الوسط، وهو يمثل «الصراط المستقيم»، في كل مجال من المجالات، ويجسد التوازن والاعتدال في كل شيء: في العقيدة، وفي العبادة، وفي الأخلاق، وفي المعاملات والتشريعات كلها، بعيداً عن الغلو والتفريط.

وقد تحدثنا عن هذه «الوسطية» بشيء من التفصيل في كتابنا: «الخصائص العامة للإسلام» باعتبارها خصيصة من خصائصه الأساسية.

كما سلطنا الضوء على ظاهرة الغلو في الدين في أكثر من كتاب لنا، وبيّنا ما فيه من خطر على الفرد وعلى المجتمع، وعلى الدين نفسه، كما في كتابنا: «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، ورسالتنا: «ظاهرة الغلو في التكفير».

وتحدثنا عن «الفكر الوسطي» أو «التيار الوسطي» ومعالمه وملامحه، في عدة كتب منها: «أولويات الحركة الإسلامية»، و«في فقه الأولويات»، و«الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي»، و«مستقبل الأصولية الإسلامية»، وغيرها.

حتى لاحظ بعض الدارسين أن عددًا من عناوين كتبي يتضمن كلمة: «بَيْن» التي كثيرًا ما تدل على وسط بين طرفين، مثل: «الفقه الإسلامي: بين الأصالة والتجديد»، «الفتوى: بين الانضباط والتسيب»، «الاجتهاد: بين الانضباط والانفراط»، «الثقافة الإسلامية: بين الأصالة والمعاصرة»، «ثقافتنا: بين الانغلاق والانفتاح» إلخ. وأنا الآن أسعى إلى تكوين جمعية ثقافية، أسميتها: «جمعية الأمة الوسط في الفكر والثقافة» مهمتها: أن تورث «الفكر الوسطي» للأجيال الصاعدة عن طريق الدعوة والتثقيف والتعليم والتربية، بطريقة مؤسسية عصرية. وأدعو الله أن يرى هذا المشروع النور قريبًا.

وإنما عنيت بهذا الأمر كل هذه العناية؛ لأنني أرى هذا الفكر أو هذا الاتجاه هو طوق النجاة للدعوة الإسلامية، بل للأمة الإسلامية كلها. وهو الجدير أن يمضي بها في الطريق الصحيح، الذي يوصل إلى الغاية المنشودة، وهي الرقي بالأمة ماديًا وروحيًا، والعودة بها إلى دفة القيادة للبشرية، بما لديها من رسالة ربّانية إنسانية أخلاقية عالمية، متكاملة متوازنة.

كما أنني أرى الإعراض عن هذه الوسطية هو الهلاك بعينه، والضياع في الدين والدنيا معًا. سواء كان هذا الإعراض جنوحًا إلى جانب التسيب والانفلات، وهو جانب التفريط والتقصير، بإضاعة الصلوات، واتباع الشهوات، والسير في ركاب شياطين الإنس والجن، وباعة الفجور، ومروجي الإلحاد والانحلال، ودعاة المادية المجحفة، والإباحية المسرفة. فهلاك هؤلاء محتم وفق سنن الله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثْرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ

كَمَا أَسْتَمَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ [التوبة: ٦٩].

أم كان الإعراض عن الوسطية جنوحاً إلى جانب الغلو والتنطع والتشدد، وهو جانب الإفراط أو التطرف، كما يسمونه اليوم. وهو الشائع - للأسف - بين عدد من الفصائل المنسوبة إلى الصحوة الإسلامية. وقد صرح الحديث النبوي بأنه سبب الهلاك للأمة، كما قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»^(١)، وقال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثاً^(٢). وهو لا يكرر الكلمة إلا لعظم خطر مضمونها. والمتنطعون: هم المتشددون المتعمقون المبالغون في التزامهم بالدين بما يخرجهم عن الحد الوسط.

والخير كلُّ الخير في التوسط والتوازن بين الغلو والتقصير، أو بين الإفراط والتفريط، أو بين «الطغيان والإخسار» على حد تعبير القرآن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

والطغيان: تجاوز حد الوسط، إلى جانب الغلو والإفراط، والإخسار: هو تجاوزه إلى جانب التقصير والتفريط.

والمنهج المطلوب هو «الهدى القاصد» كما عبّر عنه في حديث شريف.

(١) سبق تخريجه ص ١٨٨.

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٨.

عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: خرجت ذات يوم لحاجة، وإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم، يمشي بين يديّ، فأخذ بيدي، فانطلقنا نمشي جميعًا، فإذا نحن بين أيدينا رجل يصلي، يكثّر الركوع والسجود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أترأه يرأني؟» فقلت: الله ورسوله أعلم! فترك يده من يدي، ثمّ جمع يديه، فجعل يصوبهما يرفعهما، ويقول: «عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا! فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه»^(١).

ولا تنتقل الصحوّة الإسلاميّة المعاصرة من المراهقة إلى الرشد، إلّا بتبني هذا الهدي القاصد أو هذا النهج الوسطي، الذي لا طغيان فيه ولا إفسار.

وتتجلى هذه الوسطيّة في مواقف شتى، أساسها: رفض الغلو والتفريط، وهو ما وقع فيه كثير من الناس.

انحسار الوسطيّة في بعض الفترات:

إن بعض الإسلاميين قد انحسرت عنده الألوان الكثيرة في لونين اثنين لا ثالث لهما، هما الأبيض والأسود، وليس بينهما ألوان أخرى، ممّا يعرفه الناس من الألوان الأصليّة والفرعيّة، التي لكل منها درجات لا تكاد تحصر.

وبعض هؤلاء يكاد يحصر الألوان كلها في واحد، ويجعل الأصل في الألوان كلها وفي الحياة كلها هو: «السواد» تبعًا للمنظار الذي يرى فيه الناس والأشياء.

(١) رواه أحمد (١٩٧٨٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وابن أبي عاصم في السنة (٩٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٨): رواه أحمد ورجاله موثقون. عن أبي برزة الأسلمي.



وبهذه النظرة السوداء المتشائمة، حدد أجوبة جاهزة لكل شيء،
يطلقها كالقنبلة، ولا يبالي ما أصابت من الحياة والأحياء.

فالمجتمع جاهلي كله.

والحياة إثمٌ كلها.

والناس كلُّهم كفّار، أو منافقون.

والعالم كله وحوش.

وكلُّ ما يمارسه النَّاس في حياتهم المعاصرة من لهو وفنون: حرام
في حرام.

هذا مع أن سلف الأمة كانوا يتحرّجون أشدَّ الحرج، من إطلاق كلمة:
«الحرام»، إلّا على ما علّم تحريمه جزماً؛ ولهذا نزل في ذمّ الخمر آيتان:
إحداهما في سورة البقرة: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، والثانية في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].
ومع هذا ظل بعض الصحابة يشربها، وظل بعضهم يقول: اللهم بين لنا
في الخمر بياناً شافياً^(١)، حتّى نزلت آية المائدة الحاسمة: ﴿فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

يجب أن نعرف أنّ الفترة الماضية - وخصوصاً في الخمسينيات
والستينيات - كانت مجالاً خصباً لانتشار نوع من الأفكار السوداء في
الساحة الإسلامية.

(١) سبق تخريجه ص ٦٣.

فقد غلب الفكر الذي ينزع إلى الرفض والتشاؤم والالتهام، وسوء الظن بالآخرين، على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم، حتّى المسلمين منهم.

أجل، راجت فكرة التفسيق والتبديع^(١)، بل التكفير. وساعد على ذلك الجوّ الخانق الذي كانت تعيشه الحركة الإسلامية ورجالها ودعاتها، الذين نصبت لهم المشانق جهرة، أو قتلوا بأدوات التعذيب خفية، أو صبت عليهم ألوان التنكيل والتشريد من كل جهة، في حين فتحت الأبواب أمام الشيوعيين والعلمانيين وكل خصوم الإسلام.

في هذه المرحلة، ظهرت كتب الشهيد سيّد قطب، التي تمثّل المرحلة الأخيرة من تفكيره، والتي تنضح بتكفير المجتمع واتّهامه بالجاهليّة، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامي، والسخرية بفكرة تجديد الفقه وتطويره، وإحياء الاجتهاد، وتدعو إلى العزلة الشعوريّة عن المجتمع، وقطع العلاقة بالآخرين، وإعلان الجهاد الهجومي على الناس كافّة، والاستخفاف بدعاة التسامح والمرونة، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسيّة أمام الحضارة الغربيّة.

يتجلّى ذلك أوضح ما يكون في تفسير الشهيد: «في ظلال القرآن» في طبعته الثانية، وفي: «معالم في الطريق»، ومعظمه مقتبس من «الظلال»، وفي: «الإسلام ومشكلات الحضارة» وغيرها. وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابي الكبير، كما كان لها تأثيرها السلبي.

كما ظهرت كتب المدعو له بالرحمة والمغفرة: الشيخ سعيد حوى، وهي تتبنّى الفكرة نفسها، وتسير في هذا الخط ذاته.

(١) يراد بالتفسيق والتبديع: وصف الآخرين بالفسق والبدعة.

وفي الوقت نفسه: راج فقه من سميتهم: «الظاهرية الجدد»، الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى: «السلفية»، أو بعبارة أخرى: مدرسة ابن تيمية وتلامذته، وهم كانوا أبعد الناس عن «الحرفية» والجمود على «الصورية والشكلية»، التي يستقتل هؤلاء في التمسك بها. حتى كاد الإسلام يحصر في لحية طويلة، وثوب قصير، بالنسبة للرجل، ونقاب على وجه المرأة.

ونرى هؤلاء الإخوة الأفاضل يشعلون معركة في أواخر كل رمضان، ضد الذين يخرجون صدقة الفطر نقدًا ويصرون على إخراجها من الحبوب والأطعمة. وإن لم ينتفع بها الفقير؛ لأنه لم يعد يطحن أو يعجن أو يخبز. وقد أجاز إخراج القيمة: عدد من سلف الأمة. ولهم فتاوى ومواقف كثيرة من هذا النوع.

وبهذا غلب على الفكر الإسلامي: الإعنات والتصلب، وتقهقرت رُوح الوسطية السَّمُحة الميسرة إلى حين. وأعتقد أن الحركة لا بد لها من التغلب على فكر المحنة، أو فكر الأزمة، لتنتقل إلى فكر العافية، ومن فكر «مدرسة الظواهر» إلى فكر «مدرسة المقاصد»، ومن فكر الجنوح إلى الغلو أو إلى التسبب، إلى الفكر الوسطي المعتدل، المعبر عن وسطية الأمة المسلمة، ووسطية المنهج الإسلامي، الذي أراد الله به اليسر، ولم يرد به العسر^(١).

اهتمامي بمقاومة الغلو:

لقد شغلتنى قضية «الغلو الديني» - أو التطرف الديني، كما أطلق عليها في بعض الفترات - باعتبارها جزءاً من «ترشيد الصحوة» وتسديد مسيرتها، حتى لا تتآكل من الداخل، أو تضرب من الخارج.

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٨ - ١٠٠.

وقد ألفتُ كتابًا خاصًا، في دراسة ظاهرة الغلو والتطرّف الديني، نشرته مجلّة: «الأمة» ضمن كتبها الدورية، وهو الكتاب الثاني في سلسلتها، وأعني به كتاب: «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرّف»، وفيه حددت مفهوم التطرّف وعلاماته المميّزة، كما ألقيت الضوء على أسباب التطرّف الفكريّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة.

ثم عرضنا لسبل العلاج كما نراها، وختمنا بوصايا ونصائح أبوية للشباب الذين يتهمهم من يتهمهم بالتطرّف.

ويهمني في هذا الكتاب أن أنقل فقط ملاحظتين مهمتين حول مفهوم التطرّف أو الغلو، الذي يفسره كل اتجاه بما يحلو له، وما يخدم فكرته، حتّى إن بعض البلاد تعتبر من يحرص على الصلاة في المسجد: متطرّفًا، ومن ترتدي الحجاب - أي تغطي رأسها بالخمار - متطرّفة.

الملاحظة الأولى:

أن مقدار تدين المرء، وتدين المحيط الذي يعيش فيه، من حيث القوّة والضعف، له أثره في الحكم على الآخرين: بالتطرّف، أو التوسط، أو التسيب.

فمن المشاهد أن من كانت جرعته من التدين قوية، وكان الوسط الذي نشأ فيه شديد الالتزام بالدين، يكون مرهف الحس لأي مخالفة أو تقصير يراه، حتّى إنّه ليعجب أن يوجد مسلم لا حظ له من قيام الليل، أو صيام النهار. وفي هذا ورد القول المأثور: «حسنات الأبرار، سيئات المقرّبين»^(١).

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣٧/٥)، من كلام أبي سعيد الخزاز.

ويحضرني هنا ما قاله أنس بن مالك لمعاصريه من التابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(١)!

وكانت عائشة رضي الله عنها تنشد بيت لبيد بن ربيعة:

ذهب الذين يُعاش في أَكْنافهم وبقيت في خَلْفِ كجلدِ الأجرِب!

وتقول: رحم الله لبيداً، كيف لو عاش إلى زماننا هذا^(٢)؟ وقد عاشت إلى عهد بني أمية، وماتت في زمن معاوية. وكان ابن أختها عروة بن الزبير، وقد عاش بعدها زمناً ينشد البيت، ويقول: رحم الله لبيداً، ورحم الله عائشة، كيف لو عاشت إلى زماننا هذا^(٣)؟

وفي مقابل هذا، نجد الشخص الذي قل زاده من التدين علماً وعملاً، أو عاش في محيط تجراً على محارم الله وتنكر لشرائعه، يعتبر التمسك بالحد الأدنى من الدين ضرباً من التعصّب أو التشدّد.

وكلما زادت مسافة البعد بينه وبين الدين، زاد استغرابه بل إنكاره، بل اتّهامه لكلّ من يستمسك بعروة الدين، ويلجم نفسه بلجام التقوى، ويسأل في كلّ شيء يعرض له أو يعرض عليه، حلال هو أم حرام؟

وكثير من أولئك الذين يعيشون في أوطاننا بأسماء إسلامية، وعقول غربية، يعتبرون مجرد الالتزام بأوامر الله ونواهيه تطرفاً دينياً!

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢)، عن أنس.

(٢) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٤٤٨).

(٣) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٩٢٤)، تحقيق عادل بن يوسف العزاوي، نشر دار الوطن،

الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

وكثير ممّن غزته الأفكار والتقاليد الأجنبية، يعتبر الذين يتمسكون بآداب الإسلام - في: المأكّل، والمشرب، والملبس، والزينة، ونحوها - غاية في التطرّف والتعصّب!

لقد رأينا من يعتبر الدعوة إلى تحكيم شريعة الله، وإقامة دولة الإسلام في أرض الإسلام، تطرفاً في الدين!

ورأينا من يرى الغيرة على الدين وحرماته، والأمر بالمعروف إذا ضيّع، والنهي عن المنكر إذا وقع، تطرفاً في الدين، وتدخلًا في الحرية الشخصية للآخرين!

ورأينا من يرى أن اعتبار الآخرين من غير المؤمنين بدينه كفّارًا؛ تعصّب وتطرّف، مع أنّ أساس الإيمان الديني أن يعتقد المؤمن أنّه على حقّ، وأن مخالفه على باطلٍ، ولا مجاملة في هذه الحقيقة.

بل رأينا من يعتبر الحرص على الصلاة في المسجد؛ تطرفًا وغلًا في الدين! ومن يرى لبس المسلمة الخمار على رأسها؛ غاية في التطرّف، بل جريمة تعاقب عليها بالحرمان من دخول المدرسة والجامعة والتوظيف في مؤسسات الدولة، ودخول مستشفيات الحكومة، ولو للولادة!

والملاحظة الثانية:

أنّه ليس من الإنصاف أن نتهّم إنسانًا بالتطرّف في دينه لمجرد أنّه اختار رأيًا من الآراء الفقهية المتشدّدة، ما دام يعتقد أنّه الأصوب والأرجح، ويرى أنّه ملزم به شرعًا؛ لأنّه ليس مسؤولًا إلا عما يراه ويعتقده هو، وإن شدد بذلك على نفسه، بل حسبه أن يرى أن ذلك هو الأفضل والأورع، وإن لم يكن فرضًا ولا واجبًا، إذا كانت همّته لا تقف عند حدّ الفرائض، وإنما يتقرّب إلى الله تعالى بالنوافل حتّى يُحبّه.

ومن حقائق الحياة أنَّ النَّاسَ يتفاوتون في هذه القضية، فمنهم المتساهل الميسر، ومنهم المتشدد المعسر، وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس، والمتشدد كابن عمر رضي الله عنهما.

ويكفي المسلم في هذا المقام أن يستند رأيه الذي تبناه إلى مذهب من المذاهب المعتبرة عند المسلمين، أو يعتمد على اجتهاد صحيح قائم على استدلال شرعي سليم؛ فإذا كان هناك من أئمة المذاهب المتبوعة من يقول: بوجوب إعفاء اللحية وتركها وحرمة حلقها، فهل يوصف بالتطرف من اقتنع بهذا المذهب وأخذ به، وطبقه على نفسه؛ لأنَّه خالف رأيي ورأيك ورأي زيد وعمرو من العلماء، ولا سيَّما المعاصرين؟ وهل من حقنا أن نصادر حق امرئ في ترجيح رأي على آخر، وبخاصة أنَّه يتصل بحياته وسلوكه هو، لا بحياة غيره؟!!

إنَّ جَمًّا غفيرًا من علماء السلف والخلف، رأوا أن على المرأة المسلمة أن تستر جميع بدنِها ما عدا وجهها وكفيها، فقد اعتبروهما ممَّا استثني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]. وأكَّدوا ذلك بأحاديث ووقائع وآثار، ورجح ذلك كثيرون من علماء عصرنا، وأنا منهم^(١).

ولكنَّ عددًا آخر من العلماء المرموقين، ذهبوا إلى أنَّ الوجه والكفين عورة يجب سترها، واستدلُّوا على ذلك بنصوص من القرآن والحديث والآثار، وأخذ بقولهم كثيرون من علماء هذا العصر، وخصوصًا في باكستان، والهند، والسعودية، وأقطار الخليج، وأرسلوا نداءاتهم إلى كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر: أن تلبس النقاب، ليستر وجهها، والقفاز ليستر يديها.

(١) راجع رسالتنا: النقاب بين القول ببدعيته والقول بوجوبه، من رسائل ترشيد الصحة.

فهل تدمغ بالتطُّرف فتاة أو سيدة آمنت بهذا المذهب، واعتبرته جزءاً من دينها؟ أو يدمغ به رجل دعا إلى ذلك ابنته أو زوجته فاستجابت؟ وهل يحق لنا أن نجبر هذا أو ذاك أو تلك على التنازل عما يعتقدده شرع الله، ونلزمه أن يبيع الجنة ويشتري النار، إرضاءً لخاطرننا، وفراراً من تهمة التطُّرف؟

ومثل ذلك يقال فيمن يتبنَّى الآراء المتشدّدة في الغناء، أو الموسيقى، أو الرسم، والتصوير وغيرها، ممّا يخالف اجتهادي شخصياً في هذه الأمور، واجتهاد عددٍ من علماء العصر البارزين، ولكنه يتفق مع آخرين من علماء المسلمين: متقدِّمين، ومتأخّرين، ومعاصرين.

والواقع أنّ كثيراً ممّا ينكر على من نُسمِّيهم: «المتطرفين»، ممّا قد يعتبر من التشدّد والتنطّع، له أصلٌ شرعيّ في فقها وتراثنا، تبنّاه بعض العلماء المعاصرين، ودافعوا عنه ودعوا إليه، فاستجاب لهم من الشباب المخلص من استجاب، رجاء رحمة الله تعالى وخوفاً من عذابه، وذلك كلبس الثوب «الجلباب» بدل القميص والبنطلون، وتقصيره إلى ما فوق الكعبين، والامتناع عن مصافحة النساء، وغيرها.

ومن هنا، لا نستطيع أن ننكر على مسلم، أو نتهمه بالتطُّرف، لمجرد أنّه شدّد على نفسه، وأخذ من الآراء الفقهيّة بما يراه أرضى لربه، وأسلم لدينه، وأحوط لآخرته.

وليس من حقنا أن نجبره على التنازل عن رأيه، ونطالبه بسلوك يخالف ما يعتقدده ويدين الله به، كل ما نملكه أن ندعوه بالحكمة، ونحاوِّره بالحسنى، ونقنعه بالدليل، عسى أن يدخل فيما نراه أهدي سبيلاً، وأقوم قيلاً^(١).

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٣٠ - ٣٥، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠١٢م.



مظاهر الغلو ودلائله:

فما التطرّف أو الغلوّ إذن؟ وما دلائله ومظاهره؟
أستطيع أن أذكر هنا عدّة دلائل ومظاهر أساسيّة تنبئ عن الغلوّ أو
التطرّف:

١ - عدم الاعتراف بالرأي الآخر:

إنّ أولى دلائل الغلوّ والتطرّف: هي التعصّب للرأي تعصّباً لا يعترف
معه للآخرين بوجود، وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له
برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع، ولا ظروف العصر،
ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ
بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً، وأرجح ميزاناً.

ونحن هنا: ننكر على صاحب هذا الاتجاه ما أنكرناه على خصومه
ومتّهميه، وهو محاولة الحَجْر على آراء المخالفين وإلغائها.

أجل، إنّنا ننكر عليه حقّاً، إذا أنكر الآراء المخالفة ووجهات النظر
الأخرى، وزعم أنّه وحده على الحق، ومن عداه على الضلال. واتهم من
خالفه في الرأي: بالجهل واتباع الهوى، ومن خالفه في السلوك: بالفسوق
والعصيان، كأنه جعل من نفسه نبياً معصوماً، ومن قوله وحياً يوحى!

٢ - إلزام جمهور النَّاس بالعزائم والتشديد:

ومن دلائل الغلوّ: الغفلة عن تفاوت الناس، وأنّ فيهم الضعيف
والقويّ، وأخذهم جميعاً بالعزائم والشدائد، مع عدم رعاية ظروفهم في
هذا العصر، الذي لا يعين أهله على حسن الالتزام.

وقد قبل الرسول من بعض الناس الالتزام بالفرائض وحدها، لا يزيد عنها ولا ينقص، وقال: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدق»^(١). بل جعل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر^(٢).

بل القرآن يدلُّ على أنَّ مجرد اجتناب الكبائر يُكفِّر الصغائر: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ولهذا قلت: إن بحسبنا في هذا الزمن من المسلم أن يؤدي الفرائض، ويتعد عن الكبائر، لنعتبره في صف الإسلام وأنصاره.

٣ - التشديد في غير محلّه:

ومن مظاهر الغلو: اصطحاب التشديد في غير مكانه وزمانه، كأن يكون في غير دار الإسلام، وبلاده الأصليّة، أو مع قوم حديثي عهد بالإسلام، أو حديثي عهد بتوبة.

فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعيّة، والأمور الخلافيّة، والتركيز معهم على الأصول قبل الفروع، والكليات قبل الجزئيات، وأخذهم بالتدرج الحكيم، كما تدرج الإسلام مع أهل الجاهليّة في فرض الفرائض، وفي تحريم المحرمات.

ولقد رأيت الإخوة الذين ذهبوا إلى البوسنة والهرسك، وغيرها من البلاد التي رزحت تحت الحكم الشيوعي طويلاً، يطالبونهم أوّل ما يطالبونهم: أن يلتحي الرجال، وينتقب النساء!

(١) سبق تخريجه ص ١٦٨.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢٨.

ورأيت آخرين: يقيمون معارك في أمريكا وأوروبا، من أجل قضايا خلافيّة، لا تستحق مثل هذه الضجة، لو كانوا يعلمون.

٤ - الغلظة والخشونة:

ومن دلائل الغلو: الخشونة في الدعوة، والغلظة في الأسلوب، والفظاظة في التعامل، على خلاف ما دعا إليه القرآن والسنة، من انتهاز الرفق واللين والرحمة في دعوة الناس ومعاملتهم، وقد خاطب الله تعالى رسوله فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ ذلك لأنّ الناس لا يطيقون الفظ والغليظ، ولو كان هو رسول الله المؤيد بالوحي، فكيف بغيره من الناس؟

إنّ آفة كثير من أبناء الصحوة: أنّهم يتعاملون مع أقاربهم وجيرانهم، بل مع آبائهم وأمهاتهم بخشونة وعنف، وأنّهم يجادلون مخالفهم بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أحسن، كما أمر الله، ولذلك ينفرون ولا يبشرون.

٥ - سوء الظنّ بالناس:

ومن دلائل الغلو كذلك: سوء الظنّ بالناس، وقد حذّر الله ورسوله منه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وفي «الصحيح»: «إياكم والظن؛ فإنّ الظنّ أكذب الحديث» متفق عليه، عن أبي هريرة^(١).

وأصل هذا كله: هو الغرور والإعجاب بالذات، والازدراء للغير، وهذه أوّل معصية ظهرت في الأرض، وهي معصية إبليس، حين تمرد على السجود لآدم، ورفض أمر ربه، وقال: أنا خير منه.

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٦.

وفي الحديث: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

وفيه: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم»^(٢).

روي بفتح الكاف على أنه فعل ماضٍ، أي هو أهلكهم، أي تسبب في هلاكهم بعجبه بنفسه، وسوء ظنه بهم، وتيئيسهم من روح الله تعالى. كما روي بضم الكاف، أي فهو أشدهم هلاكًا بغروره بنفسه، وسوء ظنه بالناس، واتهامه لهم واستعلائه عليهم.

٦ - السقوط في هاوية التكفير:

ويبلغ هذا الغلو غايته، حين يسقط في هاوية «التكفير»، ويرى نفسه ومن على شاكلته: هو المسلم، وسائر المسلمين من حوله: كفارًا، إما لأنهم مرقوا من الإسلام وارتدوا عنه بسوء أعمالهم ومعاصيهم، التي تخرجهم من الملة في رأيه، وإما لأنهم لم يدخلوا في الإسلام أصلاً، كما يقول بعضهم؛ لأنهم لم يفهموا مدلول «لا إله إلا الله».

وهذا ما سقط فيه الخوارج قديمًا، وما وقعت فيه جماعات التكفير حديثًا، فهم يكفرون الحكام، ويكفرون العلماء؛ لأنهم موظفون في دولة الحكام، ويكفرون الجماهير؛ لأنهم سكتوا على كفر الحكام، فالتكفير عندهم بالجملة. وهو أمر خطير؛ لأنه يترتب عليه استحلال الدماء والأموال^(٣)، وهو ما سنعالجه في محور مستقل: من العنف والنقمة، إلى الرفق والرحمة، في هذا الكتاب.

(١) سبق تخريجه ص ٦٦.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٠.

(٣) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٣٥ وما بعدها.

وقد أصدرت من قديم رسالتي: «ظاهرة الغلو في التكفير» لمقاومة هذه الموجة الطاغية المدمرة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

مقاومة التفريط والتسيّب أيضًا:

وكما يجب علينا مقاومة تيار الغلو والتطرّف، والتحذير منه، فإن علينا أن نقاوم تيار التفريط والتقصير والتسيّب، والتحذير منه أيضًا. وكما قال السلف: يضيع هذا الدين بين الغالي فيه والجافي عنه.

ولهذا ألفت كتابي: «الفتوى بين الانضباط والتسيّب» محذّرًا من الذين يُفتنون بغير علم، ويقولون على الله ما لا يعلمون، أو الذين يصدرون فتواهم، اتباعًا لهوى النفس، أو أهواء الغير، سواء كان هؤلاء الغير حكامًا وأمراء يُرجّون ويُخشّون، أم كانوا من الجماهير، الذين يلتمس كثير من الناس رضاهم وكسب ثنائهم. وفي رأيي: أنّ السعي لإرضاء الجمهور أشد خطرًا من العمل لإرضاء الحكام.

كما أصدرت كتابي: «الاجتهاد بين الانضباط والانفراط» محذّرًا من الاجتهاد غير المنضبط بضوابط الشرع، وهو الذي لا يصدر من أهله في محله، وأهله هم الذين استكملوا شروط الاجتهاد وأدواته، التي أصلها وفصلها الأصوليون في كتبهم، وبَيَّنَّتها في كتابنا: «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»، وهي: المعرفة الناضجة بالقرآن وعلومه، والسُنَّة وعلومها، والرسوخ في اللغة العربيّة، وتذوقها ومعرفة دالاتها الإفرادية والتركيبية، ومعرفة المُجمّع عليه والمُختلَف فيه، ومعرفة أصول الفقه، ولا سيّما القياس وعلته وشروطه، وممارسة الفقه والغوص فيه حتّى تكون له ملكة الفقيه، ومعرفة الناس والحياة والعصر، والإلمام بثقافته، حتّى يتمكن من معرفة الواقع، ويمكنه أن يحكم له أو عليه.

وقد حذّرت من مزالِق الاجتهاد، وضربت له أمثلة شتّى، كما وضعت المعالم اللازمة لاجتهاد معاصرٍ قويم.

إنّنا نُحذّر هنا من تيارات الانفراط والتسبّب، الّتي تريد أن تُذيب الأمّة المسلمة في غيرها، وأن تتخلّى عن هويتها ومقوماتها وخصائصها، وتسير وراء الأمم القويّة في الأرض، وتتبنّى حضارتها بخيرها وشرّها، وحلوها ومُرّها، كما قيل، وأن تتبّع سننها شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراع.

ونحن نريد أن نبقي على الأمّة ذاتيتها وتميزها، مقتبسين من غيرنا أفضل ما عنده من الآليات والتقنيات ونحوها من المباحات، ممّا لا يؤثر على عقائدنا ولا على قيمنا، ولا على محكمات شرائعنا، وأساسيات سلوكنا.

وإن كنا لا نركز هنا كثيرًا على قضيّة التفريط أو التسبب؛ لأنّها ليست من أمراض الصحوة، لكن من أمراضها وآفاتهما: ركوب متن الغلو والتطرّف، الّذي افترس بعض فصائلها الّتي ركبت الشطط، وارتكبت الغلط، والخير كل الخير في الوسط.

معالم تيار الوسطيّة:

ولقد سألني عدد من الإخوة عن «المعالم المميّزة» لتيار الوسطيّة، الّذي عُرِفَ به، ودعوت إليه، وما زلت أدعو إليه، وأؤمن بأنّه المخلص والملاذ للأمة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد ذكرت هذه المعالم مجمّلة مركّزة في بعض الأحيان، ومبينة مفصّلة في أحيان أخرى، ولا بأس أن أجمع بين النهجين هنا، فأوجز هذه المعالم، ثمّ أبينها بما يتسع له المقام.



معالم الفكر الوسطي بإيجاز:

تتميّز وسطية هذا الفكر في موقفه المعتدل من قضايا كبيرة مهمّة: فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المنفرطة. وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف، وإن التزم واتبع.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

وسط بين المحكّمين للعقل، وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل، ولو في فهم النص.

وسط بين المقدّسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والملغين للتراث، وإن تجلت فيه روائع الهداية.

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسة كلية بدعوى التربية.

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها حتّى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه.

وسط بين المقدّسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد، والمتحللين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط.

وسط بين الغلاة في طاعة الفرد، للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرّفين في تحرره كأنه ليس عضواً في جماعة.

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحليّة، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالميّة. وسط بين المسرفين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلّا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجراً. وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدين شيء حرام. وسط بين الذين ينكرون الإلهام مطلقاً، فلا يعترفون بوجوده ولا بأثره، والذين يبالغون في الاعتداد به، حتّى جعلوه مصدراً للأحكام الشرعيّة.

وسط بين دعاة التشدد ولو في الفروع والجزئيات، ودعاة التساهل ولو في الأصول والكلّيات.

وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع، وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا.

وسط بين دعاة الفلسفة «الليبرالية» التي تعطي الفرد وتضخمه على حساب المجتمع، ودعاة الفلسفة الجماعيّة «الماركسية» التي تعطي المجتمع وتضخمه على حساب الفرد.

وسط بين دعاة الثبات ولو في الوسائل والآلات، ودعاة التطور ولو في المبادئ والغايات.

وسط بين دعاة التجديد والاجتهاد وإن كان في أصول الدين وقطعيّاته، ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد، وإن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين.

وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة، والذين يغفلون المقاصد الكلّية باسم مراعاة النصوص.

وسط بين دعاة الغلو في التكفير حتّى كفّروا كل المسلمين المتدينين، والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين.

هذه هي الوسطيّة التي تبنّاها هذا الفكر، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم السقوط بين طرفي الإفراط والتفريط، إلّا من رحم ربك، وقليل ما هم.

المعالم الأساسية لتيار الوسطيّة:

لتيار الوسطيّة معالم أساسيّة يحسن بنا أن نذكرها هنا، حتّى يستبين هذا التيار لأصحابه أولاً، ولمن يريد أن يعرفه ثانياً، ليميز من تيار الغلو، وتيار التسيب.

وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

فإذا كانت استبانة سبيل المجرمين مطلوبة، فكذلك استبانة سبيل أهل الحق، حتّى يتبين الرشد من الغي.

وسبيل أهل الحق يتمثل فيما سمّاه القرآن: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال علي بن أبي طالب: عليكم بالنمط الأوسط، الذي يلحق به التالي، ويرد إليه الغالي^(١).

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٣٩).



وأهم هذه المعالم هي:

١ - تبني التيسير والتبشير:

من معالم «الفكر الوسطي» البارزة أنه يتبنى التيسير والتبشير، التيسير في الفقه والفتوى، والتبشير في الدعوة والتوجيه، كما شرحناه من قبل في محاور سابق.

في حين يتبنى تيار الغلو: التعسير والتنفير أبداً، منهجه التشديد والتعسير في الفتوى والأحكام، في العبادات أو في المعاملات، للأفراد أو للجماعات، وكذلك التخويف والترهيب في الدعوة، فهو يسوق الناس إلى الله، بسياط الخوف والرغبة، أكثر ممّا يقودهم إليه بزمام الرحمة والمحبة.

والتيسير الذي نركز عليه هنا هو: التيسير في الفروع، على حين يتشدد تيار الوسطية في الأصول (أي الثوابت)، ولا يتهاون فيها. وبهذا نرى أنّ الوسطية أبداً ملازمة للتيسير والتبشير، وكل من يتبنى المنهج الوسط تبني معه - لا محالة - منهج التيسير والتبشير.

وهو ما وفقني الله تعالى إلى اتباعه، عملاً بالمنهج النبوي، الذي دعا إليه الرسول الكريم قولاً، وطبقه عملاً، فكان أكثر الناس تيسيراً في فتاويه، وأعظم الناس تبشيراً في دعوته.

وينكر النبي ﷺ على من أفتى بعض أصحابه بوجوب الاغتسال من الجنابة وبه جراحة، فتفاقم عليه الجرح حتى مات، فقال ﷺ: «قتلوه قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي: السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٦١.

وكان من أوصافه عليه السلام: أنه ما خيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً^(١).

والناس في عصرنا أشد حاجة إلى التيسير من أي عصر مضى، لغربة الدين، وقلة اليقين، وكثرة المغريات بالشر، والعوائق عن الخير. فيلزم الفقيه والداعية أن يقود الناس إلى طاعة الله، وأداء فرائضه بالتيسير عليهم.

وليس معنى التيسير أن نقسر النصوص قسراً على التيسير، فهذا ما لا نقصده قطعاً، ولكن المقصود: أن نتبنى من الآراء والأقوال ما هو أرفق بالناس، وما يخفف عنهم. فلو كان هناك قولان متكافئان أو أحدهما أحوط والآخر أيسر، أفطينا عموم الناس بالأيسر.

وأما التبشير، فإنني أرى كثيراً من الدعاة في عصرنا يغلبون جانب التهيب على الترغيب، والتخويف على الترجية، ويسوقون الناس إلى الله بعصا الخوف، بدل أن يحركوهم بزمام الرجاء.

وقد شكّا إليّ بعض الآباء المثقفين أن ابنته أمست - منذ مدة - تقوم من النوم فزعة، من رؤى مخيفة تراها في نومها. وذلك بعد أن سمعت شريطاً عن «عذاب القبر» لبعض الوعاظ، يشتمل على كثير من «التخويفات» التي نراها في الغالب تعتمد على أحاديث ضعيفة، وربما كانت شديدة الضعف أو موضوعة.

ومن يقرأ القرآن الكريم لا يجد فيه هذه المبالغات، بل يجده يمزج الخوف بالرجاء، والرهب بالرغب، والوعيد بالوعد، والبطش بالرحمة، مزجاً رائعاً متوازناً.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

اقرأ قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[المائدة: ٩٨].

﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الرعد: ٦].

﴿غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِ﴾ [غافر: ٣].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾

[البروج: ١٢ - ١٤].

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

[الحجر: ٤٩، ٥٠].

وفي هذه الآية نجد أنه تعالى جعل المغفرة والرحمة من أسمائه، والعذاب من أفعاله لا من أسمائه.

ولهذا، كانت بدايات الفاتحة، وسور القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لإشاعة جو الرحمة لا جو البطش والقهر^(١).

٢ - الجمع بين السلفية والتجديد:

وثاني خصائص تيار الوسطية: أنه يجمع بين السلفية والتجديد، أو بين الأصالة والمعاصرة كما يقال اليوم.

(١) تناولت هذا المبحث بالتفصيل في محور «من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير» في هذا

فالسلفية تعني: العودة إلى الأصول، إلى الجذور، إلى المنابع. وهي تتمثل في العودة إلى القرآن والسنة.

والتجديد يعني: المعاشة للعصر، والمواكبة للتطور، والتحرُّر من إसार الجمود والتقليد.

ولا بدَّ من إلقاء شيءٍ من الضوء على هذين المفهومين: السلفية والتجديد.

فكثيراً ما تفهم السلفية خطأً، حيث يحسب أنّها العودة إلى الماضي بإطلاق، ولو كان ماضي عصور التخلف والانحراف والجمود.

ولكنَّ المصطلح الإسلامي لا يجعل «السلف» مطلق الماضي، بل السلف هم أهل القرون الأولى، خير قرون هذه الأمة، وأقربها إلى تمثيل الإسلام: فهمًا وإيمانًا وسلوكًا والتزامًا. ومن عدا هؤلاء يُسمّون: «الخلف».

وليس معنى العودة إلى ما كان عليه السلف: أن نكون نسخًا «كربونية» لهم، بل المهم أن نتمثّل منهمجهم وروحهم في فهمهم وسلوكهم، وتعاملهم مع الدين والحياة.

ومن الخطأ الذي يجب تصحيحه هنا: اعتبار الرسول المؤيد بوحى الله من جملة «السلف»، واعتبار القرآن والسنة: من جملة «التراث»، واعتبار الإسلام كله من جملة: «الماضي»!

فهذا خلط شائن بين المفاهيم، أو تحريف للكلم عن مواضعه عمدًا. إنّ الإسلام ليس ماضيًا انقضى وانتهى زمنه، نحاول أن نستعيده. إنّ الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل، والقرآن هو كلمات الله الهادية الباقية على طول الزمان وامتداد المكان.

وربّما يستبعد كثير من النَّاس أن يرحب الدين بالتجديد، فالدين عندهم يُمثّل القديم الذي لا يتجدد ولا يتطور.

وأؤكد هنا بكل صراحة أن نبي الإسلام نفسه هو الذي علّمنا أن الدين يتجدد، وأنّ الله يهيئ له مجددين بين حين وآخر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، وغيرهما، أنّه ﷺ قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(١).

وإذا صرّح الرسول الكريم بتجديد الدين، فلا يحقّ لزيد أو عمرو من النَّاس اليوم أن يقول: إنّ الدين لا يقبل التجديد، فليس هو أعرف بالدين ممّن بعثه الله به. لكن المهم هو تحديد مفهوم التجديد ومجاله وحدوده. وقد يحسب بعض النَّاس أنّ هناك تعارضاً حتمياً بين السلفيّة والتجديد. فالسلفيّة الرجوع إلى الماضي، والتجديد انطلاق إلى المستقبل. ورأيي عكس ذلك تماماً، أي أن هناك تلازماً بين السلفيّة الحقيقيّة والتجديد الحقيقي. فروح السلفيّة هو التجديد. وكلما رجعنا إلى العهود الأولى: عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم، وجدنا المرونة واليسر والتسامح، وسعة الأفق في فهم نصوص الدين ومصالح الدنيا، وفي التوفيق بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلّيّة.

وكلما تدرّجنا - تنازلياً - من عصر إلى عصر، بعدنا عن المرونة واليسر والتجديد، ودخلنا في دائرة «الأحوط» بدل دائرة «الأيسر»،

(١) سبق تخريجه ص ٨. وانظر كتابنا: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا ص ١١ وما بعدها، مبحث: تجديد الدين في ضوء السُّنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢،

وجنحنا إلى الظواهر أكثر من ميلنا إلى المقاصد، حتى إذا انتهينا إلى العصور المتأخرة، وجدنا الجمود والتقليد، والوقوف عند أقوال المتقدمين، الذين نهوا عن تقليدهم، واتخاذ أقوالهم واجتهاداتهم شرعاً يتبع، ودينًا يطاع.

بل أكثر من ذلك أنهم اتبعوا أقوال المتأخرين، الذين يمثلون عصور التخلف والتراجع الحضاري عند المسلمين، فأصبحت كتبهم هي المراجع المعتمدة، وآراؤهم هي التي تحسم الخلاف.

مفهوم التجديد:

أما التجديد: فهو لا ينافي السلفية، والتجديد الحقيقي لأمر ما لا يعني إلغائه، واستحداث شيء جديد مكانه، بل يعني العودة به إلى ما كان عليه يوم إنشائه وظهوره لأول مرة. كما نعمل في تجديد أي مبنى أثري عريق.

وكذلك «تجديد الدين»: أن نحافظ على جوهره ومعالمه، وخصائصه، ومقوماته، ونعود به إلى ما كان عليه يوم ظهوره، وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين.

التجديد الحق يعني العودة إلى «الإسلام الأول»، قبل أن تشوبه بدع المبتدعين، وتضييقات المتشددين، وتحريفات الغالين، وانتحالات المبطلين، وتأويلات الجاهلين، وعدوى التشويه التي أصابت الملل والنحل من قبل.

و«الإسلام الأول»: هو إسلام النقاء والسهولة في العقيدة، وإسلام الإخلاص واليسر في العبادة، وإسلام الطهارة والاستقامة في الأخلاق،

وإسلام الوضوح والتجديد في الفكر، وإسلام الاجتهاد والمرونة في التشريع، وإسلام العمل والإنتاج للحياة، وإسلام التوازن بين الدُّنيا والآخرة، وإسلام الاعتدال بين العقل والقلب، وإسلام الوسطية بين الفرد والمجتمع. المهم هنا: ألا نجمد ونغلق، فتجمد الحياة معنا، ونظلم ديننا وأنفسنا، وألا نفرط ونتسبب، فنضيع هويتنا وخصائصنا، ونذوب في غيرنا، فالاجتهاد اليوم فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتملها الواقع.

على أن من اللازم أن يكون الاجتهاد من أهله في محله، لا أن يفتح بابه لكل دعيٍّ يقول على الله ما لا يعلم، ولا أن يدعي الاجتهاد في «المنطقة المنغلقة» منطقة «الثوابت» التي لا تقبل الاجتهاد، والتي تحفظ الأمة من التفكك والذوبان.

الخلاصة: أنَّ التجديد الحق لا يكون إلا سلفيًّا، والسلفية الحققة لا تكون إلا مجددة.

نحو فقه جديد:

ومن أهم عناصر التجديد لديننا وأمتنا، هو: ما دعوت إليه في كتيبي^(١) ومحاضراتي في شتَّى المحافل، فقد دعوت وألححت في الدعوة إلى «فقه جديد» يتبناه الدعاة الصادقون، والعلماء المصلحون، وتتبناه الحركة الإسلامية العالمية، المعبرة عن آمال الأمة الإسلامية.

ولم أقصد بكلمة «الفقه» المعنى الاصطلاحي المعروف عند المسلمين، والذي ألفت فيه الكتب، وتأسست عليه المذاهب، وأنشئت

(١) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية ص ٢١ - ٢٤.



له كليات، وأقيمت له مجامع، وهو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فهذا الفقه موجود، وإن كان يحتاج إلى تجديد وإحياء وتطوير، حتى يكون «فقهًا ميسرًا معاصرًا» يفي بحاجات الأمة، ومطالب حياتها المتجددة.

ولكن الفقه الذي عنيته يشمل تجديد هذا الفقه، كما يشمل الفقه بالمفهوم القرآني، الذي نفاه القرآن عن المشركين وعن المنافقين، فوصفهم بأنهم قوم «لا يفقهون». وجاء ذلك في القرآن المكي قبل أن تشرع الأحكام العملية، التي هي موضوع الفقه الاصطلاحي.

ويشمل هذا الفقه فيما يشمل: فقه السنن، أعني قوانين الله في الكون والمجتمع، وهي قوانين ثابتة، لا تتجامل أحدًا، ولا تلين لأحد، فلن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وكذلك «فقه الموازنات» بين المصالح بعضها وبعض، وبين المضار والمفاسد بعضها وبعض، وبين المصالح والمفاسد إذا تعارضتا، وما هي الموازين التي يجب الرجوع إليها في التقدير والترجيح؟

وكذلك «فقه الأولويات»، وأعني به: وضع كل عمل في مرتبته، فلا نصغر الكبير، ولا نكبر الصغير، ولا نقدم ما حقه التأخير، ولا نؤخر ما حقه التقديم. وقد وقع المسلمون في خلل خطير إزاء هذا الفقه، ترتب عليه مفاسد كثيرة، وضاعت من أجل ذلك مصالح كبيرة، وقد نشرت في هذا كتابًا بهذا العنوان: «في فقه الأولويات».

ومثل ذلك: «فقه المقاصد»، فلا ينبغي أن نتمسك بالظواهر، ونغفل المقاصد والأسرار التي يقصد إليها الشرع من وراء هذه النصوص

والأحكام، وهذا هو ما جاء فيه الحديث الصحيح: «من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين»^(١).

وليس معنى ذلك إهمال النصوص الجزئية، كما يزعم بعض دعاة التجديد، بل المقصود الموازنة بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، بحيث تفهم النصوص في ضوء المقاصد، والجزئيات في ضوء الكليات. ومن ذلك: «فقه المآلات» أي الآثار والنتائج التي تترتب على الأفعال، فلا ينبغي للمكلف أن يعمل العمل، ولا يبالي بآثاره على نفسه وعلى من حوله. وإنما الواجب أن ينظر في نتائجه ومآلاته المرتقبة، يقيناً أو ظناً، فقد يؤديه هذا النظر إلى ترك ما يفكر في فعله، أو فعل ما يفكر في تركه، وقد طلب من النبي ﷺ أن يقتل المنافقين المعروفين، مثل: عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله، فقال: «أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٢).

ومن ذلك: «فقه الاختلاف»، فقد خلق الله الناس مختلفين، حين منحهم العقل والإرادة، وابتلاهم بالتكليف: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال المفسرون: أي وللاختلاف خلقهم، فلا بد أن نتعلم كيف تختلف آراؤنا، ولا تختلف قلوبنا. وقد تحدثت عن هذا الموضوع في كتابي: «الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم»، وفي كتابي: «كيف نتعامل مع التراث والتمذهب».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٤)، عن جابر بن عبد الله.

وقبل ذلك كله: لا بدّ من «فقه الواقع» الذي نعيشه، ونعاني مشكلاته، ونحاول أن نعالجها من صيدلية الإسلام لا من خارجه.

٣ - المصالحة بين السلفية والصُوفيّة:

من معالم الوسطيّة التي ندعو إليها: أن نعقد صلحاً بين السلفية والصُوفيّة، فنأخذ من كلّ من المدرستين خير ما عندها، ونخرج من بينهما مزيجاً نافعاً، كما تفعل النحلة، حين تأكل من كل الثمرات، سالكة سبل ربها ذللاً؛ ليخرج من هذا وذاك شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

وهذا ما نعبر عنه أحياناً بالعمل على «تصويف» السلفية، و«تسليف» الصُوفيّة، فنحن في حاجة إلى سلفية متصوّفة، أو صوفيّة متسلّفة.

فإنّ بعض السلفيين الأقحاح، تنقصهم دفقة روحانيّة، وشحنة ربّانيّة، ترطب قلوبهم من الجفاف، وترقق مشاعرهم وعواطفهم، وتحيي وجدانات الإيمان في أنفسهم، من الرجاء، والخوف، والحياء، والحب، والشوق، والأنس، والرضا، وهو ما يسميه الصُوفيّة: «الأحوال»، أو «المنازل»، أو «المقامات». وكتب فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رسالته: «التحفة العراقية في الأعمال القلبية»، وكتب فيه ابن القيم وأطال النفس في عدد من كتبه.

والصُوفيّة هم فرسان الميدان في الجانب، فليؤخذ عنهم، عن طريق كتب المعتدلين منهم، والمصاحبة للصادقين من رجالهم، فإنّ التربية بالأسوة والحال، أبلغ من التربية بالخطبة والمقال.

كما أن بعض الصوفيين تنقصهم دقة الانضباط، بما كان عليه سلف الأمة، من تحرّر للوقوف عند نصوص الشرع وحدوده، في العبادات

والمعاملات والأدب، فلا غرو أن يتسرب إليهم بعض الشريكيات في العقيدة، والمبتدعات في العبادة، والتجاوزات في الأفكار، والسلبيات في التربية والأخلاق.

والعلماء السلفيون هم الأسوة في ذلك؛ لحرصهم على الالتزام الصارم بالكتاب والسنة، والحذر من كل بدعة.

واعتقد أن الإمامين ابن تيمية وابن القيم كانا يمثلان الوسطية المعتدلة في هذه القضية إلى حد بعيد.

فابن تيمية ينوّه بقيمة التصوّف السليم، وبأقطابه البعيدين عن البدع الفكرية والعملية. ويشرح بعض كلمات المربي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه: «فتوح الغيب» ويشيد بكلمته: «الرجل من ينازع القدر بالقدر»^(١) وينكر على من قدح في جميع الصّوفية، وقال: إنهم كغيرهم من الطوائف، مثل المتكلمين والفقهاء، فيهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله.

ومن قرأ الجزأين الخاصين بالتصوّف والسلوك في «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، استبان له ذلك بجلاء.

ومن قرأ سيرة الرجل، وتابع مسيرة حياته؛ تبين له أنه من الرجال الربّانيين، الذين عاشوا لله لا لأنفسهم، وعُنوا بالباطن قبل الظاهر، وبالحقائق قبل الصور، وبالقلوب قبل الأجساد.

ويتضح ذلك أكثر في مؤلفات تلميذه الإمام ابن القيم، فقد أُلّف في موضوعات التصوّف جملة من الكتب القيمة، منها:

(١) العبودية لابن تيمية ص ٥٥، تحقيق محمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت،

ط ٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.



- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي».

- «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين».

- «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

- «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

وأعظم كتبه هنا، هو بلا شك كتابه الشهير: «مدارج السالكين»، الذي شرح فيه رسالة شيخ الإسلام إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي: «منازل السائرين إلى مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»، وهو كتاب جليل حافل، تجلت فيه شخصيّة ابن القيم السلفي، الصوفي، الفقيه، الأصولي، المفسر، المحدث، النظار، اللغوي، الأديب، الداعية، المربي، الجامع لفنون المعرفة الإسلامية في عصره، شأنه شأن شيخه رحمهما الله تعالى.

وعلى فصائل الصحوة الإسلامية أن تقتبس من منهج الإمامين: ابن تيمية وابن القيم، ما يزيل الجفوة بين السلفية والصوفية، وما يعقد صلحاً بينهما، من أجل خير الصحوة ومستقبلها، بل من أجل مستقبل الأمة كلها.

٤ - الاعتدال بين الظاهرية والمؤولة:

ومن معالم الوسطية: الاعتدال والتوازن بين الجمود على ظاهر النص من ناحية، والتوسع في التأويل من ناحية أخرى، بلا مسوغ، ولا ضابط.

ومقتضى هذا، فقدان الثقة بدلالات الألفاظ، ووظيفة اللغة.

وقد تحدثنا عن «سوء التأويل» باعتباره أحد المزالق الخطيرة في تفسير القرآن في كتابنا: «كيف نتعامل مع القرآن؟» ونحن نريد الموقف الوسط.

فنحن نجد من يرفض أي فهم جديد لآية من كتاب الله تعالى، أو لحديث من أحاديث رسول الله ﷺ، ولو كان هذا الفهم ممّا تؤيده اللغة، ويقتضيه السياق، ويتفق مع روح الإسلام، ولا يخالف نصّاً ثابتاً، ولا قاعدة شرعية.

كل عيبه أنّه جديد، لم ينص عليه واحد من المفسرين للقرآن أو الشراح للحديث، أو المستنبطين للنصوص من علماء الفقه.

ونجد في مقابل هؤلاء من يفتح الباب لتأويلات بعيدة، وتفسيرات معتسفة، أشبه بتأويلات «الباطنية» الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه، وبدّلوا كلام الله، وأخرجوه عما أريد به إلى معان وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان.

فنجد من يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، النفس الواحدة: هي الإلكترون، وزوجها: هو البروتون، ومنهما كانت الذرة التي هي أساس الكون. ولو قرأ تكملة الآية لوجدها ترد عليه اعتسافه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. أو يقول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، إن هذه الدابة: هي الصواريخ التي تحمل الأقمار الصناعية، وسفن الفضاء إلى الكواكب!

وآخر يقول في آيات الحدود؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، إنَّ الأمر بالقطع هنا للإباحة لا للوجوب، هذا مع أنَّ الأصل في الأمر القرآني أنَّه للوجوب، إلَّا إذا صرفته عن ذلك قرينة مانعة. وهنا كل القرائن تدل على الوجوب المؤكد، ويكفي في ذلك تمام الآية نفسها ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يؤيد ذلك ما صح واستفاض من الأحاديث النبوية المؤكدة لهذا المعنى مثل قوله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف؛ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف؛ أقاموا عليه الحد. وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

ولقد بلغت التأويلات بل التحريفات الباطنية مداها في كتاب المهندس السوري محمد شحرور، الذي ادعى على القرآن - من المعاني - ما لا يوافقه نقل ولا عقل، وما يناقض ما أجمعت عليه الأمة طوال عصورها، فهو يأتي بدين جديد غير دين الأمة المسلمة، التي عرفته بطريق التواتر اليقيني جيلاً بعد جيل. كأن الرسول لم يبين للناس ما نزل إليهم، وكأن الصحابة الذين شاهدوا تنزيل القرآن، لم يفهموه ولم يطبقوه في حياتهم، وكأن القرون الأولى - وهي خير قرون الأمة - لم يقولوا شيئاً في القرآن، حتَّى يأتي رجل غير متخصص يلغي تراث الأمة كله، ويبدأ من الصفر، ليقرأ القرآن من جديد قراءة معاصرة، تبعاً لهواه. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

وفي أحاديث المسيح الأعور الدجال، ونزول المسيح عيسى ابن مريم آخر الزمان، نجد من يركب متن التكلف ويؤول الدجال: بأنه كناية عن سيادة «الحضارة الماديّة» التي لا تنظر إلى الحياة إلا بعين واحدة، هي العين الماديّة، مغفلة العين الأخرى، المتعلقة بالجانب الروحي والإيماني من الحياة.

وآخر يقول: المسيح الدجال: كل من يمسح جمال الحق ويشوّهه، فمسيح بمعنى: «ماسخ» لا بمعنى: ممسوخ. فليس هو شخصاً معيناً، وإنّما هو مخلوق أو صفة توجد في أناس كثيرين.

وكل هذا تعسف وبعد عما صحت به الأحاديث التي بلغت حد التواتر، كما بين ذلك المختصون من علماء الأمة.

٥ - الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:

ومن خصائص تيار الوسطيّة الإسلاميّة: الموازنة العادلة بين الثوابت والمتغيرات في الإسلام، وتحديد ذلك بوضوح؛ حتّى لا تختلط الأمور، وتذوب الحواجز، وحتّى لا نجور على أحد الطرفين لحساب الآخر. وحتّى لا نجمد ما من شأنه الحركة والمرونة، ولا نغير ما من شأنه الثبات والدوام.

ومن ثمّ كان لزاماً علينا أن نحدد «ما الثوابت، وما المتغيرات في رسالة الإسلام»؟

الثوابت والمتغيرات:

أما الثوابت فتتمثل أولاً في: «العقائد» التي تمثل نظرة الإسلام الكلّيّة، عن الألوهية والعبوديّة، وبعبارة أخرى عن الله والإنسان وعن

الكون بشقيه، المنظور وغير المنظور. وموقف الإسلام هنا: موقف الواصف المخبر عن حقيقة هذه الأشياء، الموجب للإيمان بها كما هي، بلا تهوين ولا تهويل.

وتتمثل الثوابت كذلك في: «العبادات» التي فرضها الله على عباده، قيامًا بواجب شكره، وحق ربوبيته لهم، مثل الشعائر الركنية الأربع، التي تمثل أركان الإسلام العملية ومبانيه العظام: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه، وتزيد من رصيده عنده، وما يلحق بها من عبادات أخرى مثل: الذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن.

ومن الثوابت كذلك: «القيم الأخلاقية العليا»، وأمهاات الأخلاق العملية التي تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له، والرجاء في رحمته، والخشية من عقابه. وتحدد علاقته بنفسه مثل: النظافة، والعفة، والحياء، والصبر، والشجاعة، والعزة، ومحاسبة النفس. وتحدد علاقته بأسرته مثل: الرعاية لحقوق الزوجة، وحقوق البنوة، وبر الوالدين، وصلة الرحم. وتحدد علاقته بالمجتمع مثل: قول الصدق، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، ورعاية الأمانة، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والعدل مع الصديق والعدو، والبر بالناس، وفعل الخير للجميع وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتممها.

وفي الجانب السلبي: أمهاات الرذائل التي حذر الإسلام منها أشد التحذير، مثل: القتل، والسرقه، والزنى، والشذوذ الجنسي، وشرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وشهادة الزور، والكذب، والغيبة، والنميمة، والخيانة، وسوء الظن، والغدر، والشح، والظلم، فكل هذه حرام، بل من أكبر المحرمات عند الله.

ومن الثوابت أيضاً: «الأحكام القطعية» في شؤون الفرد والأسرة والمجتمع، والحكم والعلاقات الدولية، التي ثبتت بالنصوص المحكمة القطعية في ثوابتها ودلالاتها، وأجمعت عليها الأمة، واستقر عليها الفقه والعمل.

فهذا النوع من الأحكام هو الذي يمثل «الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية» للأمة، ويجسد «ثوابتها» على اختلاف البيئات والأقطار، وتغير الأعراف والأعصار.

وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام.

وهناك بعد ذلك شؤون الحياة المتغيرة، من: زراعة، وصناعة، وطب، وهندسة، وما إلى ذلك مما يتعلق بالعلوم التجريبية وتطبيقاتها في الحياة اليومية، فهذه ونحوها متروكة لعقول البشر وتجاربهم وممارساتهم - ليس عليهم إلا أن يحكموا فيها منطق العقل والعلم والتجربة، وهي التي ورد في مثلها الحديث الصحيح: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١).

والإسلام بهذا التوازن، يجمع بين الثبات والتطور، أو الثبات والمرونة في تناسق بديع.

إنَّه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات. الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية.

(١) سبق تخريجه ص ١٥٤.

والإسلام بهذا يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصّة، ومع طبيعة الكون الكبير عامّة، فقد جاء هذا الدين مسانداً لفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور، وكذلك طبيعة الكون من حولنا.

والخطر كل الخطر على الحياة الإسلامية، أن نثبت ما من شأنه المرونة والتطور، أو نطور ما من شأنه الثبات والخلود، فتضطرب الحياة، وتختل الموازين^(١).

٦ - مراعاة الواقع:

ومن معالم هذا التيار: أنه يراعي الواقع المعيش ولا يغفل عنه، سواء في عرض الدعوة الإسلامية والخطاب الديني للمسلمين وغير المسلمين، بحيث يهتم بما يقنع عقولهم، وينير قلوبهم، ويحل مشاكلهم، ولا يسبح بهم في الماضي بعيداً عن الحاضر، ولا في المثاليات الحالمة بعيداً عن الواقع.

وكذلك في تقديم الشريعة الإسلامية، بدلاً من الأنظمة والقوانين الوضعية، أو في تقديم الحل الإسلامي بديلاً عن الحلول المستوردة من اليمين أو اليسار، فالفقيه الحق - كما قال الإمام ابن القيم - هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فيما يجب أن يكون، مغفلاً ما هو كائن.

(١) انظر كتابنا: الصحة الإسلامية وهموم الوطن العربي ص ٢٥ - ٥٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة،

ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وقد نبهت هنا على بعض أشياء، قد تغيب عن بعض الناس، إذا أردنا أن نطبق أحكام الشريعة في واقعنا المعاصر:

أولها: أن كثيراً من المشكلات التي نعانيها اليوم، ونشكو منها، ونختلف في وصف علاج إسلامي لها، قد لا تبرز أصلاً في ظل المجتمع الإسلامي الصحيح؛ لأن بروزها الآن ثمرة لأوضاع غير إسلامية، ونتيجة لمجتمع غير ملتزم بمنهج الإسلام كله، ونظام الإسلام كله. فإذا تغيرت صفة المجتمع، وتغيرت أوضاعه بظهور المجتمع المسلم المتوازن المتكامل - بمقوماته وخصائصه وأوضاعه - تلاشت تلك المشكلات أو انكمشت، ولم تعد تكون مشكلة حقيقية.

ثانيها: أن من الناس من يتصور أن كل ما في مجتمعنا الحالي مخالف للإسلام، وأن كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستهدم وتبنى من جديد. وهذا ليس بتصور سليم، فأكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى، ولكن بعد أن تنقى من العناصر الغريبة المنافية للإسلام، وتطعم بالعناصر الإسلامية الخالصة؛ وبهذا تكتسب الشرعية، وتستحق البقاء باسم الإسلام.

ثالثها: أن قيام نظام إسلامي في مجتمع، لا يعني تغيير كل ما يراد تغييره فيه ما بين عشية وضحاها، فمن الناس من يتصور في المجال الاقتصادي مثلاً: أنه - بمجرد انتصار الاتجاه الإسلامي، والعودة إلى تطبيق شريعة الله - لا يطلع صباح اليوم التالي، إلا وقد صدرت الأوامر بإغلاق المصارف «البنوك» الربوية السائدة وشركات التأمين وتسريح موظفيها، وفرض الحراسة على ممتلكاتها، إلخ، وتبعاً لهذا التصور

يتوقعون زلزلة الاقتصاد، وتعطيل المصالح، واختفاء رؤوس الأموال، وغير ذلك من النتائج والآثار.

وهذا التصور إنما جاء نتيجة القصور في فهم المنهج الإسلامي في علاج الواقع الفاسد، وتغيير المنكر القائم، وبناء المجتمع الصالح.

مبادئ ثلاثة تراعى في تغيير الواقع:

فهناك مبادئ ثلاثة، لا بدّ أن توضع في الاعتبار عند الاتجاه إلى تطبيق النظام الإسلامي، وإقامة المجتمع المسلم المتكامل المنشود:

أ - رعاية الضرورات:

هناك مبدأ «الضرورات» التي اعترف بها الشرع، وجعل لها أحكامها، وتقرر ذلك في قواعد فقهية عامة، أصلها علماؤنا في كتب «القواعد الفقهية»، وفي كتب «الأشباه والنظائر»، هي: «الضرورات تبيح المحظورات». الضرورة تقدر بقدرها. الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة».

ولهذا المبدأ أدلته الكثيرة من الشرع في باب الأطعمة وغيره، وهو مبدأ مسلم به مُجمع عليه. والضرورات الشرعية ليست كلّها فردية، كما قد يُتَوَهَّم؛ فللمجتمع ضروراته، كما للفرد ضروراته، فهناك ضرورات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، واجتماعية، لها أحكامها الاستثنائية، التي توجبها الشريعة، مراعاة لمصالح البشر، التي هي أساس التشريع الإسلامي كله.

ب - ارتكاب أخفّ الضررين:

مبدأ السكوت على المنكر؛ إذا ترتب على تغييره منكر أكبر منه؛ دفعا لأعظم المفسدتين، وارتكابا لأخفّ الضررين. وبناء على هذا المبدأ

يقرر الفقهاء طاعة الإمام الفاسق إذا لم يمكن خلعه إلا بفتنة وفساد أكبر من فسقه. ومما يستدلُّ به لهذا المبدأ: حديث النبي ﷺ لعائشة: «لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهليَّة، لهدمت الكعبة، وبنيتها على قواعد إبراهيم»^(١). ومن ذلك إبقاؤه ﷺ على المنافقين، وترك التعرض لهم، مع علمه بنفاق بعضهم على التعيين، وتعليله ذلك بقوله: «معاذ الله، أن يتحدث النَّاسُ أنَّي أقتل أصحابي»^(٢).

ج - مراعاة سنة التدرُّج:

المبدأ الثالث: هو مبدأ «التدرج» الحكيم، الَّذي نهجه الإسلام عند إنشاء مجتمعه الأول، فقد تدرج بهم في فرض الفرائض: كالصلاة، والصيام، والجهاد، كما تدرج بهم في تحريم المحرمات: كالخمر، ونحوها.

وعند تجدد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأوَّل أو قريبة منها، تستطيع الأخذ بهذه السُّنَّة الإلهيَّة، سنة «التدرج» إلى أن يأتي الأوان المناسب للحسم والقطع. وهو تدرج في «التنفيذ»، وليس تدرجاً في «التشريع»، فإنَّ التشريع قد تمَّ واكتمل باكتمال الدين، وإتمام النعمة، وانقطاع الوحي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن الشواهد التي تذكر هنا: ما رواه المؤرخون عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، الَّذي عدَّه كثير من أئمَّة الإسلام خامس الراشدين، أن ابنه عبد الملك قال له يوماً: يا أبت، ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله! ما أبالي لو أنَّ القدور غلت بي وبك في الحق!

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣)، كلاهما في الحج، عن عائشة.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥٠.

یرید الشاب التقي المتحمّس من أبیه - وقد ولّاه الله إمارة المؤمنین - أن یقضي على المظالم وآثار الفساد دفعة واحدة، دون تریث ولا أناة، ولیکن بعد ذلك ما یكون. فماذا كان جواب الأب الصالح، والخليفة الراشد، والفقيه المجتهد؟

قال عمر: «لا تعجل یا بني! فإنّ الله ذم الخمر فی القرآن مرتین، وحزّمها فی الثالثة، وإنّی أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فیدفعوه جملة، ویكون من ذا فتنة»^(١).

وهذا هو الیسر، وتلك هي الواقعیة فی منهج الإسلام العظیم^(٢).

٧ - الدعوة إلى التسامح والتعايش مع الآخرين:

ومن معالم هذ التيار: أنّه یرفض العنف، ویدعو إلى التعايش، والتسامح مع الآخرين، ممّن یخالفونه فی العقيدة أو فی المنهج، كما وضحت ذلك فی کتابي: «غیر المسلمین فی المجتمع الإسلامی».

كما یدعو إلى إقامة جسور للحوار معهم، على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم. وقد شارکت فی بعض هذا الحوار فی العام الماضي (٢٠٠١م)، فی روما فی القمة الإسلامیة المسیحیة التي دعت إليها جمعیة «سانت جديو» فی أكتوبر (٢٠٠١م)، وفي مؤتمر القاهرة، الذي دعا إليه منتدى الحوار الإسلامی، المنبثق عن المجلس الأعلى للدعوة والإغاثة.

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٩٣/٢ - ٩٤).

(٢) انظر کتابنا: بینات الحل الإسلامی ص ٢٠٨ - ٢١٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ -

فهو يدعو للحوار مع الإسلاميين، بعضهم مع بعض، ويميز بين الاختلاف المشروع، والتفرق الممنوع، ويرى أنَّ الاختلاف في مسائل الفروع ضرورة، ورحمة وسعة، ضرورة اقتضتها طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة. وقد بينت ذلك في كتابي: «الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

كما دعوت في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية» إلى الحوار مع غير الإسلاميين، مع المنصفين من القوميين والعلمانيين. وقد شاركت في المؤتمر القومي الإسلامي، وكنت عضواً في اللجنة التحضيرية التي أعدت الورقة التي قدمها الجانب الإسلامي، وحضرت أكثر من دورة من دورات هذا المؤتمر الذي جمع المعتدلين من الإسلاميين ومن القوميين، على قضايا أساسية تهم الفريقين، ولا سيما قضية فلسطين. وأحسب أنه كانت له ثمار طيبة. كما حضرت مؤتمراً في بيروت تحت عنوان: «مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس»، التقى فيه مشايخ الإسلام مع آباء المسيحية في العرب، جنباً إلى جنب، من أجل القضية المقدسة: قضية القدس.

كما ناديت بالحوار مع العقلاء من الحكام؛ لإزالة الفجوة أو الجفوة التي بين العلماء والدعاة العاملين للإسلام، والحكام الذين يخافون من التيار الإسلامي، ويتوجسون شراً من الدعاة إليه. وأعتقد أنَّ الحوار البناء هنا، يوضح كثيراً من المواقف، ويقرب كثيراً من المسافات، ويعالج كثيراً من المخاوف والهواجس.

كما ناديت بالحوار مع الغربيين أنفسهم، على المستوى الديني: «مع رجال الدين الكبار»، وعلى المستوى الفكري: «مع المستشرقين وكبار

الكتاب»، وعلى المستوى السياسي: «مع الذين يصنعون القرار أو يؤثرون في صنعه من السياسيين».

٨ - تبني الشورى والحرية للشعوب:

ومن معالم هذا التيار: أنه يدعو إلى التعددية السياسية، ويرى تعدد الأحزاب السياسية أشبه بتعدد المذاهب في الفقه. وقد قلت: إن الأحزاب مذهب في السياسة، كما أن المذاهب إنما هي أحزاب في الفقه! ويقاوم الاستبداد السياسي أيًا كان نوعه. ولا سيما ما قام باسم الدين، ويرفض اتباع كل جبار عنيد، يستخف قومه فيطيعونه، فإن الإسلام ينكر من أم قوماً في الصلاة، وهم له كارهون، فإذا كان هذا في الإمامة الصغرى، فكيف بالإمامة الكبرى؟

كما يحارب كل نمرود أو فرعون، يدعي الألوهية - قولاً أو فعلاً - ويدعو الناس جميعاً إلى كلمة سواء: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويرى أن الشورى واجبة، وأن رأي الأكثرية ملزم للأقلية، وأن من الواجب اتخاذ ضمانات الديمقراطية وأساليبها لتقليم أظفار الطغاة والمتسلطين.

وهذا ما وضحته في أكثر من فتوى لي في الجزء الثاني من كتابي: «فتاوى معاصرة»، وخصوصاً فتوى: «الإسلام والديمقراطية»، وفتوى: «تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية»، وفي كتبي الأخرى، ولا سيما كتاب: «من فقه الدولة في الإسلام»، وكتاب: «السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها».

٩ - إنصاف المرأة باعتبارها شقيقة الرجل:

ويتجلى ذلك في: وقوفه بجانب المرأة، ضدّ تيارين مرفوضين: التيار المتشدد، الذي ينظر برؤية إلى المرأة، ويجسد تعنت الرجال، وظلمهم لها، وجورهم على حقوقها المشروعة: في التجميل، وفي التعليم، وفي العمل، وفي التصويت، وفي الترشيح للمجالس النيابية، وفي ممارسة الأنشطة المختلفة في المجالات الثقافية، والمجالات الاجتماعية، والمجالات السياسية.

والتيار الآخر: تيار التبعية للحضارة الغربية المعاصرة، التي تنظر إلى المرأة وكأنّها مجرد جسد، وتعاملها كأنها رجل، ناسية أنّها إنسان له روح وجسد، وأنّها ليست رجلاً، وإنّما هي شقيقة الرجل. ولهذا ظهر عند الغربيين ما سمي: «الجنس الثالث» الذي لم يعد امرأة، ولم يصبح رجلاً. وجنت الإباحية على الأسرة، وعلى الأخلاق.

والواجب على المجتمع المسلم حماية المرأة من تقاليد الشرق الموروثة من عهود التراجع الإسلامي، ومن تقاليد الغرب الوافدة، التي تريد أن تسليخ المرأة من ذاتيتها.

ويتخذ تيار الوسطية موقفه انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وقد ألفت ضوءاً على هذه القضايا وأمثالها، في أكثر من كتاب لي، وخصوصاً الجزء الثاني من كتابي: «فتاوى معاصرة»، وفي كتابي: «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده». وفي رسالة: «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» من رسائل ترشيد الصحوة.



١٠ - إحياء الاجتهاد:

تيار الوسطية يرى أنَّ الاجتهاد فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الشرع، وضرورة يحتملها الواقع، ويحترم نتائج الاجتهاد، وإن خالفت رأيه، ما دام صادرًا من أهله في محله. ويتبنى ما قاله أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الفقه والورع: سفيان بن سعيد الثوري رحمته الله: «إنما الفقه: الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد»^(١). يتبنى قاعدة المنار الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»^(٢).

وإنني لموقن يقينًا لا ريب فيه، أنَّ الفقه الإسلامي المعبر عن شريعة الإسلام - بمصادره الغنية، وأصوله المحكمة، وقواعده الضابطة، ومدارسه الاجتهادية، وثروته الفكرية - لجدير أن يمد الأمة بكل ما تحتاج إليه، من فتاوى، وأقضية، وتشريعات؛ تحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة، وتلائم الفطرة، وتقيم الموازين القسط بين الناس.

* * *



(١) سبق تخريجه ص ٦١.

(٢) راجع تدليلنا على صحة هذه القاعدة في كتابنا: فتاوى معاصرة (١٤١/٢ - ١٥١)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة

منهج الدعوة يقوم على الرفق:

إن منهج الدعوة الإسلامية يقوم على الرفق واللين، والركة والرحمة، ولا يقوم على العنف والشدة، والغلظة والنقمة.

ولقد رسم القرآن منهج الدعوة، بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والدعوة بالحكمة تعني: الخطاب الذي يقنع العقول بالحجة والبرهان. والموعظة الحسنة تعني: الخطاب الذي يستميل العواطف، ويؤثر في القلوب رغبا ورهبا.

والجدال بالتي هي أحسن، يعني: الحوار مع المخالفين بأحسن الطرق، وأرق الأساليب، التي تقربهم ولا تبعدهم.

وقد رأينا القرآن الكريم، وهو يعرض لنا قصص الرسل ﷺ، وكيف خاطبوا أقوامهم بالحسنى، كما في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوهَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٩].

وفي سورة نوح، يقول لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢-٤].

فانظر؛ كيف بدأ خطابهم بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ يذكرهم أنه واحد منهم، وليس غريباً عنهم.

وانظر خطاب إبراهيم لقومه، وكيف تدرج معهم، حين رأى في الليل كوكباً، قال: هذا ربي. فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم القمر، ثم الشمس، حتى قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بِرِئْسٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

وانظر خطابه لأبيه وترفقه به: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥]. إلى أن ردَّ أبوه بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ إِلَهِتِي يَتَابَرَهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧].

وانظر إلى موسى وأخيه هارون، حين بعثهما الله إلى فرعون، وأوصاهما بتليين القول له: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

ولذا وجدنا موسى عليه السلام، حين ذهب إلى فرعون، قال له: ﴿هَلْ لَّكَ إِلَيَّ أَنْ تَزَكِّيَ﴾ ﴿وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، بهذه الصيغة المأنوسة الرقيقة.

ودخل رجل على المأمون يعظه، فقال له: اتق الله أيها الظالم الفاجر. فقال له المأمون - وكان على علم وفقه -: يا هذا! إن الله بعث من هو خير منك، إلى من هو شرُّ مني، وأمره بالرفق. بعث موسى وهارون وهما خير منك، إلى فرعون وهو شر مني، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]^(١).

الرسول يدعو إلى الرفق وينكر العنف:

ومن قرأ سنة الرسول الكريم القولية، ممثلة في أحاديثه عليه السلام، أو قرأ سنته العملية، ممثلة في سيرته صلى الله عليه وسلم؛ يجد أسلوب الرفق واللين واللفظ في الدعوة والمعاملة شديد الوضوح والعمق، في أخلاقه عليه السلام.

وحسبنا أن ننقل من كتاب مثل: «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري فيما أورده من أحاديث صحاح وحسان، في الترغيب في الرفق والحلم.

وأولها: حديث عائشة: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ، يَحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣٣٤/٢).

وينبغي لنا أن نذكر هنا سبب ورود هذا الحديث، كما رآته وروته أم المؤمنين عائشة، فهي شاهد عيان، وكما رواه البخاري في «صحيحه»: قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا (أي للنبي): السام عليك. فقلت: بل عليكم السام واللعنة. فقال: «يا عائشة، إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله»، قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «قلت: وعليكم»^(١).

فهؤلاء اليهود من سوء أدبهم وسوء طويتهم، لووا ألسنتهم، وحرّفوا الكلم، فبدل أن يقولوا: السلام عليك. قالوا: السام، أي الموت والهلاك. ولكن الرسول الكريم من حسن أدبه، وعظمة خلقه، لم يرد أن يجعل من ذلك معركة، بل ردّ بهذه الكلمة النبيلة قائلاً: «وعليكم». أي أن الموت مكتوب على كل البشر، علينا وعليكم. ثم علّم عائشة هذا الأدب الرفيع، أدب الرفق في التعامل، حين قال لها: «يا عائش! إنَّ الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله».

ونسوق بقية الأحاديث - التي انتقيناها هنا - في كتابنا: «المنتقى من الترغيب والترهيب»:

منها: ما رواه مسلم عن عائشة: «إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(٢).

وعنها أيضاً، عن النبي ﷺ: «إنَّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلاَّ زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلاَّ شانه»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٧.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤)، وأحمد (٢٥٣٨٦).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ ، لِيُعْطِيَ عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْخُرْقِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ، مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا حُرِّمُوا الْخَيْرَ»^(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : «مَنْ أَعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ؛ فَقَدْ أَعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حَرَّمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ؛ فَقَدْ حَرَّمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ أَعْرَابِي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقْعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «دَعُوهُ، وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسَّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها ، قَالَتْ : «مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ، فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حَرَمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا»^(٥).

(١) رواه الطبراني (٣٠٦/٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٥٠): رواه ثقات. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦٤٣)، ورواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٩٢)، مختصرًا بلفظ: «من يحرم الرفق، يحرم الخير».

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٥٣)، وقال مخرجه: بعضه صحيح، وبعضه صحيح لغيره. والترمذي في البر والصلة (٢٠١٣)، وقال: حسن صحيح.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٩. والسجل: بفتح السين المهملة، وسكون الجيم، هو الدلو الممتلئة ماء. والذنوب: بفتح الذال المعجمة، مثل السجل. وقيل: هي الدلو مطلقًا سواء كان فيها ماء أم لم يكن، وقيل: دون الملاء.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٨.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج: «إنَّ فيكَ لخصلتين يحبُّهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: كنتُ أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثمَّ قال: يا محمَّد، مُر لي من مال الله الَّذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثمَّ أمر له بعطاء^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كأنِّي أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهمَّ، اغفر لقومي، فإنَّهم لا يعلمون»^(٤).

الإسلام دين الرحمة:

وكما دعا الإسلام إلى الرفق، وحذر من العنف، في الدعوة والتعامل؛ نجده كذلك دعا إلى الرحمة، واعتبرها جوهر أخلاقه، ونهى عن القسوة وذمَّها، وذمَّ من اتَّصف بها أشدَّ الذمِّ.

(١) رواه أبو يعلى (٤٢٥٦)، البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦٥٢): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠١١)، عن ابن عباس.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٧).

(٤) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢).

فقد قصّ القرآن علينا قصّة البقرة، التي حدثت في بني إسرائيل، ثمّ عقب عليها بتوجيه الخطاب لهم بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

بل ذكر القرآن أنّ قسوة القلوب عند بني إسرائيل، كانت عقوبة إلهية لهم على عصيانهم، ونقضهم مواعيثهم وعهودهم مع الله تعالى، كما قال سبحانه - بعد أن ذكر ما أخذ عليهم من ميثاق -: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]. والتوراة نفسها: تصفهم بأنهم الشعب الغليظ الرقبة.

أما أمة الإسلام، فإنّها مأمورة بالرحمة، موصوفة بها، بل إن رسالتها نفسها قائمة على الرحمة، بل هي الرحمة ذاتها، كما جاء في القرآن الكريم، فقد خاطب الله رسوله بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهو عليه السلام ليس رحمة لجنس العرب أو الشرقيين، أو حتّى المسلمين وحدهم، بل هو رحمة للعالمين؛ لأن رسالته رسالة عالميّة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وما دامت دعوته ورسالته للناس جميعًا؛ فإنّ الرحمة المقترنة بها للناس جميعًا، وإنّ كان أكثر الناس انتفاعًا بهذه الرحمة، هم الذين آمنوا به واتبعوه واهتدوا بهديه، فهم يعيشون في جو هذه الرحمة: إيمانًا، وتعبّدًا، وفكرًا، وخلقًا، وسلوكًا، وتعاملًا.

ذلك أن أكثر الناس استفادة من علم الطبيب النطاسي وتجربته: هو من يؤمن بطبّه، ويلجأ إليه، ويأخذ منه، ويعالج على يديه. وهذا هو سرُّ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ولقد عبّر محمد ﷺ عن نفسه ودعوته، بعبارة موجزة، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١).

فهو رحمة مهداة من الله، للعالمين عامّة، وللمؤمنين خاصّة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يَوْمُنِ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].

ولا أجد في تعاليم نبي من الأنبياء - من الدعوة إلى الرحمة، والحث عليها، والترغيب في التخلق بها، ومعاملة الناس جميعاً، بل الحيوانات على أساسها - ما أجد في تعاليم محمد ﷺ.

وأكتفي بأن أنقل جملة أحاديث، من بعض ما انتقيته من كتاب الإمام المنذري في «الترغيب والترهيب»، في فصل «الترغيب في الشفقة على خلق الله تعالى، من الرعية والأولاد، والعبيد، وغيرهم،

(١) سبق تخريجه ص ١٨١.

ورحمتهم، والرفق بهم، والترهيب من ضد ذلك، ومن تعذيب العبد، والدابة، وغيرهما بغير سبب شرعي، وما جاء في النهي عن وسم الدواب في وجوهها»، وقد سرد هنا: جملة وافرة من الأحاديث، ننتقي منها ما يلي:

عن جرير بن عبد الله رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمَهُ اللَّهُ»^(١).

وفي رواية لأحمد: «ومن لا يغفر، لا يُغفر له»^(٢).

وعن أبي موسى رضي عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ تَوْفَّقُوا حَتَّى تَرْحَمُوا»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا رَحِيمٌ! قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدُكُمْ صَاحِبُهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضيما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٩).

(٢) رواه أحمد (١٩٢٤٤)، وقال مخرجه: حسن لغيره. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٧٨): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٠٩) للطبراني، وقال: رواه رواة الصحيح. وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٧١). ورواه النسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٨)، والحاكم في البر والصلة (١٦٧/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا...».

(٤) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في البر والصلة (١٥٩/٤)، وقال بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة. ووافقه الذهبي.

وعنه رضي عنه : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون »^(١).

وعن أبي هريرة رضي عنه ، قال: سمعت الصادق المصدوق، صاحب هذه الحجرة، أبا القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يقول: « لا تُنزع الرحمة، إلّا من شقي »^(٢).

وعنه رضي عنه ؛ قال: قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحسن أو الحسين بن عليّ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا قَطُّ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: « مَنْ لَا يَرْحَمُ؛ لَا يُرْحَم »^(٣).

وعن عائشة رضي عنها ، قالت: جاء أعرابي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: إِنَّكُمْ تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ وَمَا نَقْبَلُهُمْ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَوْأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ »^(٤).

وعن معاوية بن قرّة، عن أبيه رضي عنه : أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأَرْحَمَ الشَّاةِ أَنْ أَذْبَحَهَا، فقال: « إِنْ رَحِمْتَهَا؛ رَحِمَكَ اللَّهُ »^(٥).

(١) رواه أحمد (٦٥٤١)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٦٩): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعي، ووثقه ابن حبان. والأقماص: جمع قمع - بكسر القاف وفتح الميم - وهو: الإناء الذي يوضع في رؤوس الظروف لتملاً بالمائعات. شبه الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماص التي لا تمسك شيئاً مما يفرغ فيها.

(٢) رواه أحمد (٨٠٠١)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٤٩٤٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٣)، وقال: حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٧).

(٥) رواه أحمد (١٥٥٩٢)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣١٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رجلاً أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «أتريد أن تميتها موتين؟ هلا أحدثت شفرتك، قبل أن تضجعها!»^(١).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، إلّا يسأله الله عنها يوم القيامة»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي به»^(٢).

وعن ابن سيرين، أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «ويلك، قُدها إلى الموت قوداً جميلاً»^(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّهُ مرَّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً - أو دجاجة - يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الرُّوح غرضاً^(٤).

وعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فَرْخَان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرة

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣٣٢/١١)، والأوسط (٣٥٩٠)، والحاكم في الأضاحي (٢٣١/٤)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٠٣٣): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٩)، والحاكم في الذبائح (٢٣٣/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٠٩٢): حسن لغيره. عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه عبد الرزاق في المناسك (٨٦٠٥)، موقوفاً، وهو منقطع. ابن سيرين لم يدرك عمر.

(٤) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (١٩٥٨)، كلاهما في الصيد والذبائح. و«الغرض» بفتح العين المعجمة والراء: هو ما ينصبه الرماة، يقصدون إصابته، من قرطاس وغيره.

فجعلت تعرّش، فجاء النبي ﷺ، فقال: «من فجع هذه بولديها؟ ردّوا ولديها إليها». ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «من حرق هذه؟». قلنا: نحن. قال: «إنّه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلّا رب النار»^(١).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرّ إليّ حديثاً، لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحبّ ما استتر به النبي ﷺ، لحاجته: هدفاً، أو حائش نخل^(٢)، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنّ، وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ، فمسح ذفره^(٣)، فسكت، فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟»، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله. فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة، التي ملكك الله إياها؛ فإنّه شكا إليّ أنّك تجيعه، وتذّبه»^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»^(٥).

وفي رواية: «عُذِّبَت امرأة في هرة سجنها^(٦) حتّى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٧).

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٧٥)، وصححه إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦١٠)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٨٧).

(٢) الهدف: ما انتصب وارتفع من بناء وغيره. والحائش: النخل الملتف المجتمع.

(٣) ذفره: مؤخرة رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه.

(٤) تذّبه: تكده وتتعبه بالعمل المتواصل دون إعطائه حقه من الراحة. والحديث رواه أحمد (١٧٥٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٢٥٤٩)، والحاكم (٩٩/٢)، كلاهما في الجهاد، وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨).

(٦) فكيف بمن يسجن ألوف المؤمنين بغير جرم جنوه؟!

(٧) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢).

ورواه أحمد، من حديث جابر، فزاد في آخره: «فوجبت لها النار بذلك»^(١).

وعن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه، قال: مرّ الرسول صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المَعْجَمَة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة». رواه أبو داود، وابن خزيمة في «صحيحه»، إلا أنه قال: «قد لحق ظهره»^(٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى صلاة الكسوف، فقال: «دنت مني النار حتّى قلت: أي رب! وأنا معهم، فإذا امرأة» حسبت أنه قال: «تخدشها هرة». قال: «ما شأن هذه؟». قالوا: حبستها حتّى ماتت جوعاً^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثمّ خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من شدة العطش، قال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ مني، فملاً خفه، ثمّ أمسكه بفيه، ثمّ رقي، فسقى الكلب! فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»^(٤).

وعن أبي مسعود البدر رضي الله عنه، قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي: «اعلم أبا مسعود». فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني، إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يقول: «اعلم

(١) رواه أحمد (١٤٦٠٢)، وقال مخرجه: حديث صحيح.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٨)، وابن خزيمة في المناسك (٢٥٤٥)، وصحح إسناده أبو داود النووي في رياض الصالحين (٩٦٦)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٧٣).

(٣) رواه البخاري في الأذان (٧٤٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤).

أبا مسعود أَنَّ اللَّهَ وَجَّكَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ». فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

وفي رواية: فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله تعالى، فقال: «أما لو لم تفعل، للفحتك النار»، أو «لمستك النار»^(١).

وعن زاذان - وهو الكندي مولا هم، الكوفي - قال: أتيت ابن عمر، وقد أعتق مملوكًا له، فأخذ من الأرض عودًا أو شيئًا، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يساوي هذا. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لطم مملوكًا له أو ضربه، فكفارته أن يُعتقه»، رواه أبو داود واللفظ له. ورواه مسلم؛ ولفظه قال: «من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأت به أو لطمه، فإنَّ كفارته أن يُعتقه»^(٢).

وعن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «من ضرب مملوكه ظلمًا؛ أُقيد - أي: اقتص - منه يوم القيامة»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال أبو القاسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نبيُّ التوبة: «من قذف مملوكه بريئًا ممَّا قال؛ أقيم عليه الحد يوم القيامة، إلَّا أن يكون كما قال»^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلف إلَّا ما يطيق، فإن كلفتموهم فأعينوهم، ولا تعذبوا عباد الله خلقًا أمثالكم»^(٥).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٦٥٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٦٥٧)، وأبو داود في الأدب (٥١٦٨).

(٣) رواه من طريق الطبراني أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٨/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢٣٢): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٨٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٦٦٠).

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٦٦٢) مختصرًا، وابن حبان في العتق (٤٣١٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. ولكن دون ذكر كلمة «شرابه».

وعن عمرو بن حريث رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا خَفَّفْتَ عَلَى خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ؛ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ»^(١).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ضَرَبَ سَوْطًا ظَلَمًا؛ اقْتَصَصَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي بَيْتِي، وَكَانَ بِيَدِهِ سِوَاكٌ، فَدَعَا وَصِيفَةً لَهُ - أَوْ لَهَا - حَتَّى اسْتَبَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، وَخَرَجَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى الْحَجَرَاتِ، فَوَجَدَتِ الْوَصِيفَةَ وَهِيَ تَلْعَبُ بِبَهْمَةٍ، فَقَالَتْ: أَلَا أَرَاكَ تَلْعَبِينَ بِهَذِهِ الْبَهْمَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوكَ؟ فَقَالَتْ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا سَمِعْتُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا خَشْيَةُ الْقَوَدِ لَأَوْجَعْتُكَ بِهَذَا السِّوَاكِ»^(٣).

وعن جَابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»^(٤).

(١) رواه أبو يعلى (١٤٧٢)، وابن حبان في العتق (٤٣١٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم إلى عمرو بن حريث، وعمرو بن حريث تابعي ثقة ليست له رؤية كما جزم بذلك البخاري ويحيى بن معين وغيرهما، فالحديث مرسل. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢٣٧): رواه أبو يعلى. وعمرو هذا قال ابن معين: لم ير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإن كان كذلك فالحديث مرسل، ورجاله رجال الصحيح إلا عمرو.

(٢) رواه البزار (٩٤٤٦)، والطبراني في الأوسط (١٤٤٥)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤١٣).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٨٤)، وأبو يعلى (٦٩٤٤)، والطبراني (٣٧٦/٢٣)، وجوّد إسناده الهيثمي في المجمع (١٨٤١١)، وضعّفه الألباني في الصحيحة (٤٣٦٣)، عن أم سلمة. ولكن القود يوم القيامة ثابت بأحاديث أخرى صحاح.

(٤) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١١٧)، عن جابر.

وفي رواية له: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه^(١).

ورواه الطبراني بإسناد جيد مختصر، أن رسول الله ﷺ لعن من يسم في الوجه^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: مرّ حمار برسول الله ﷺ قد كوي في وجهه، يفور منخراه من دم، فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله من فعل هذا»، ثم نهى عن الكي في الوجه، والضرب في الوجه^(٣).

والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة.

وهذا الحشد الجَم من الأحاديث النبوية الصحاح، في فضل الرحمة والترغيب فيها، وشمولها للإنسان، ولا سيما الضعفاء من الخلق، وكذلك للحيوانات العجماوات التي تؤكل أو تتركب، والتي لا تؤكل ولا تتركب، مثل: الهر، والكلب. لا أحسب ديناً من الأديان، يشتمل على هذه الوصايا المكررة والمؤكدّة، ترغيباً في الرحمة والشفقة على خلق الله، وترهيباً من الشدة والقسوة على عباد الله.

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١١٦)، وأحمد (١٤٤٢٤)، عن جابر.

(٢) في نسخة: «من يسم الوجه» والوسم: الكي. لقد حرص الإسلام على صيانة وجه الحمار، فكيف بالإنسان؟!

والحديث رواه الطبراني (٣٣٥/١١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٢٤٢): رواه الطبراني، ورجاله ثقات. عن ابن عباس.

(٣) رواه الترمذي في الجهاد (١٧١٠) مختصراً، وقال: حسن صحيح. وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٦٢٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

الرحمة في حالة الحرب:

وأظهر ما تكون الرحمة، التي أمر بها الإسلام: في حالة الحرب، التي كثيراً ما تحكمها عواطف الغضب على العدو، وتبرر عوامل الغلظة عليه، والانتقام منه، فيقتل من لا يستحق القتل، أو يقتل بطريقة لا تليق بالإنسان، فيها تعذيب له، أو تمثيل بجثته، أو إظهار التشفي منه.

ومثل ذلك: قطع الأشجار المثمرة، وهدم المباني والمنشآت المدنية، وتحريق كل ما تناله يد الإنسان، وفقاً للنظريّة التي يعبرون عنها بـ «سياسة الأرض المحروقة».

وهذا ما سار عليه الغرب - للأسف - في عامّة حروبه، ولا سيّما في الحرب العالميّة الثانية، التي قتل فيها عشرات الملايين، حتّى استحلت أمريكا لنفسها ضرب مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين، بالقنابل الذرية، حتّى بعد استسلام اليابان!

والغرب هو الذي اخترع أسلحة الدمار الشامل وامتلكها، ويطالب العالم اليوم بالتخلص منها، ليظل هو وحده الذي يملكها.

وسر ذلك: أنّ الحرب عنده كالسياسة والاقتصاد، منفصلة عن الدين والقيم والأخلاق.

أما الإسلام، فالحرب - كالسياسة والاقتصاد - لا تنفصل عن قيمه الدينيّة والأخلاقية؛ ولهذا تتجلى فيها آثار العدل والرحمة، في جوانب شتى.

من ذلك: أنّه لا يقتل في الحرب إلاّ من يقاتل؛ ولهذا رأى النبي ﷺ امرأة مقتولة في بعض الغزوات، فأنكر قتل النساء والصبيان^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن عمر.

وفي موقف آخر؛ قال عن المرأة المقتولة: «ما كانت هذه لتقاتل!»^(١). وكان من وصايا الرسول لأمرائه، وقادة سراياه: «لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا»^(٢). فهو هنا ينهى عن الغُلُول - وهو الخيانة في الغنيمة - وعن الغدر - وهو نقض العهد - وعن التمثيل - وهو تشويه القتلى بقطع الأنوف أو الأذان، أو بقر البطون - ونحو ذلك.

وبعث النبي ﷺ رجلاً، يدرك خالد بن الوليد في إحدى المعارك، ليبلغه هذا التوجيه النبوي: «قل لخالد: لا تقتلن امرأة، ولا عسيفًا»^(٣). والعسيف: هو الأجير والتابع.

ولا غرو أن قال الرسول الكريم: «أعفّ النَّاسَ قِتْلَةً: أهلُ الإيمان»^(٤). وكذلك كان خلفاؤه الراشدون من بعده، على نهجه في العفة والرحمة. أوصى أبو بكر قائده «يزيد بن أبي سفيان» حين وجهه إلى الشام، فقال: لا تقتل صبيًا، ولا امرأة، ولا هرمًا^(٥).

وعن عمر، أنه أوصى «سلمة بن قيس»، فقال: لا تقتلوا امرأة، ولا صبيًا، ولا شيخًا هرمًا. (الهرم: الكبير الفاني)^(٦).

(١) رواه أحمد (١٥٩٩٢)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٩)، عن رباح بن ربيع.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد (٢٣٠٣٠)، عن بريدة.

(٣) جزء من الحديث قبل السابق.

(٤) رواه أحمد (٣٧٢٨)، وقال مخرّجوه: حسن. وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٢)، عن ابن مسعود.

(٥) رواه مالك في الجهاد (١٦٢٧) تحقيق الأعظمي.

(٦) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٤٧٦). وانظر: المغني (١٧٧/١٣ - ١٧٨)، تحقيق عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، نشر دار عالم الكتب، الرياض، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وروي عن ابن عباس، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا إِنْسَانَ﴾
 اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿[البقرة: ١٩٠]﴾. قال: لا تقتلوا النساء، والصبيان،
 والشيخ الكبير^(١).

ونهى أبو بكر عن قتل الرهبان في صوامعهم؛ لأنهم لا يُقاتلون تدينًا.
 وكذلك جاء عن عمر: اتقوا الله في الفلاحين، الذين لا ينصبون
 لكم الحرب^(٢).

وخلاصة هذا كله: أن الحرب في الإسلام، لا يقصد بالقتل فيها، إلا
 من قاتل المسلمين بالفعل، وحمل السلاح في وجوههم.

وعند قتل من يُقاتل: لا يشوّه ولا يمثل، ولا يحمل رأسه إلى مكان
 آخر، ليراه القائد الأعلى أو الخليفة؛ لأنه نوع من المثلة المنهي عنها.

وقد حُمِلَ إلى أبي بكر رضي الله عنه رأس أحد القواد في صرة، فلما كشف
 عنها رأى الرأس، وعرف أنه لأحد قوادهم، ولما سألهم عن ذلك، قالوا:
 إنهم يفعلون ذلك برؤوس قادتنا! فقال: آستنان (أي اقتداء) بفارس
 والروم؟! والله، لا يُحمل إليَّ رأس بعد اليوم^(٣)!

ومن التوجيهات القرآنية: أنه أمر المسلمين بعد «الإثخان» في
 الأعداء - أي إضعافهم في القتال - أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر،
 ثم خيرهم في الأسرى بين إطلاق سراحهم منّا عليهم بلا مقابل، أو

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥٦٣/٣).

(٢) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٦٢٥)، وابن أبي شيبة في السير (٣٣٧٩٢).

(٣) رواه سعيد بن منصور في الجهاد (٢٦٤٩)، والبيهقي في السير (١٣٢/٩)، وقال ابن الملقن في
 البدر المنير (١٠٧/٩): إسناده صحيح. وقال الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٢٣١/٤٥):

إسناد رجاله ثقات. عن عقبة بن عامر.



فدائهم بمال أو أسرى. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ (أي بالأسر) ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

فهل عرف التاريخ أمة عندها مثل هذه التعاليم، التي تغرس العفة والرحمة حتى في حالات الحروب، التي يتعدى الناس فيها - عادة - الحدود؟

فقه جماعات العنف:

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام في دعوته إلى الرفق واللين، وإلى الرحمة والرأفة، وذمه للعنف والقسوة، فلماذا ظهرت جماعات العنف في بلادنا الإسلامية؟ وما الأساس الشرعي الذي تستند إليه، ولا سيما أنها تنتسب إلى الإسلام؟

ونقول هنا: إنَّ العنف الذي تمارسه بعض الجماعات، التي تنتسب للإسلام، إنما هو إفراز لفلسفة معينة، تتبناها هذه الجماعات، وثمره لفقه خاص له وجهته ومفاهيمه وأدلته، التي تستند إليها هذه الفئة من الناس. ومن نظر إلى جماعات العنف القائمة اليوم في عالمنا العربي مثلاً، وجد لها فلسفتها ووجهة نظرها، وفقهها الذي تدعيه لنفسها، وتسند به بالأدلة من القرآن والسنة، ومن أقوال بعض العلماء.

صحيح أنها تعتمد على المتشابهات وتدع المحكمات، وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بالظواهر وتغفل المقاصد، كما تغفل ما يعارض هذه الظواهر من نصوص وقواعد، وكثيراً ما تضع الأدلة في غير موضعها، وتخرجها عن سياقها وإطارها، ولكن - على أي حال -

لها فقه مزعوم يبرر العنف، ويروج لدى بعض الأغرار من الشباب، والسطحيين من الناس، الذين يقفون عند السطوح، ولا يغوصون في الأعماق، أساسه فقه الخوارج قديمًا، الذين كانوا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، كما صحت بذلك الأحاديث.

العنف الداخلي:

بدأت هذه الجماعات العنف في داخل أوطانها أنفسها، أي العنف ضد الأنظمة الحاكمة.

فعلى أي أساس بررت ذلك وأجازته من الوجهة الشرعية، في نظرها على الأقل؟

مبررات جماعات العنف ومدى اعتبارها:

إنَّ فقه جماعات العنف يقوم على أنَّ الحكومات المعاصرة حكومات كافرة؛ لأنَّها لم تحكم بما أنزل الله، واستبدلت بشريعته المنزلة من الخالق، القوانين التي وضعها المخلوق؛ وبهذا وجب الحكم عليهم بالكفر والردة، والخروج من الملة، ووجب قتالها حتَّى تدع السلطة لغيرها، إذ كفرت كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان.

ويؤكد فقه هذه الجماعات كفر هذه الأنظمة الحاكمة بأمر آخر، وهي أنَّها توالي أعداء الله من الكفار، الذين يكيدون للمسلمين، وتعاوي أولياء الله من دعاة الإسلام، الذين ينادون بتحكيم شرع الله تعالى، وتضطهدهم وتؤذيهم. والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

والحكومات المعاصرة تعارض هذه التهم بدعاوى مختلفة، منها: أنَّها تعلن أنَّ دينها الرسمي هو الإسلام، وأنَّهم ينشئون المساجد لإقامة



الصلاة، ويعينون الأئمة والخطباء والمؤذنين، ويؤسسون المعاهد الدينية، والكليات الشرعية، ويوظفون الوعاظ ومدرسي الدين في المدارس وغيرها، ويحتفلون برمضان وعيدي الفطر والأضحى، ويذيعون تلاوة القرآن في الإذاعات والتلفازات، إلى غير ذلك من المظاهر الدينية، التي تثبت إسلامية الدولة بوجه من الوجوه.

كما أن بعض دساتير هذه البلاد يعلن أن الشريعة مصدر رئيس، أو المصدر الرئيس للتقنين، وبعضها يعتذر بضعفه أمام قوى الضغط الغربي، وبعضها وبعضها.

فتوى ابن تيمية:

كما تعتمد جماعات العنف على فتوى الإمام ابن تيمية - في قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام - كالصلاة أو الزكاة، أو الحكم بما أنزل الله في الدماء والأموال والأعراض، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى آخره. وهو ما اعتمد عليه كتاب: «الفريضة الغائبة» لجماعة الجهاد، وجعل هذه الفتوى الأساس النظري لقيام جماعته، وتسويغ أعمالها كلها.

ويستدلون هنا بقتال أبي بكر ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم لمانعي الزكاة. فكيف بمن يمتنعون عن تطبيق أكثر أحكام الشريعة، برغم مطالبة جماهير الناس بها، وخصوصاً العلماء والدعاة، بل هم أشد الناس خصومة لهؤلاء، وتضييقاً عليهم، ومعاداة لهم؟!!

ونسى هؤلاء أن الذي يقاتل هذه الفئة الممتنعة ولي الأمر، وليس عموم الناس، وإلا أصبح الأمر فوضى!

وتعتمد جماعات العنف أيضًا على أنَّ هذه الأنظمة غير شرعية؛ لأنَّها لم تقم على أساس شرعي من اختيار جماهير الناس لها، أو اختيار أهل الحل والعقد، وبيعة عموم الناس، فهي تفتقد الرضا العام، الَّذي هو أساس الشرعيَّة، وإنَّما قامت على أسنة الرماح بالتغلب والسيف والعنف، وما قام بقوة السيف، يجب أن يقاوم بسيف القوَّة، ولا يمكن أن يقاوم بسيف القلم! ونسي هؤلاء ما قاله فقهاؤنا من قديم: أنَّ التغلب هو إحدى طرائق الوصول إلى السلطة، إذا استقر له الوضع، ودان له الناس.

وهذا ما فعله عبد الملك بن مروان، بعد انتصاره على ابن الزبير رضي الله عنه، وقد أقره الناس، ومنهم بعض الصحابة، مثل: ابن عمر، وأنس، وغيرهما، حقنًا للدماء، ومنعًا للفتنة. وقد قيل: سلطان غشوم، خير من فتنة تدوم.

وهذا من واقعيَّة الفقه الإسلامي، ورعايته لتغير الظروف.

وترى جماعات العنف كذلك أنَّ هذه المنكرات الظاهرة السافرة - الَّتِي تبيحها هذه الحكومات - من: الخمر، والميسر، والزنى، والخلاعة والمجون، والربا، وسائر المحظورات الشرعيَّة؛ يجب أن تغير بالقوَّة لمن يملك القوَّة، وهي ترى أنَّها تملكها، فلا يسقط الوجوب عنها إلى التغير باللسان بدل اليد، كما في الحديث الشهير: «من رأى منكم منكراً؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه». رواه مسلم^(١).

ويغفل هؤلاء الضوابط والشروط اللازمة لتغيير المنكر بالقوَّة، الَّتِي قررها العلماء.

(١) سبق تخريجه ص ٩٢.

وبعض هذه الجماعات تنظر إلى المجتمع كله، أنه يأخذ حكم هذه الأنظمة التي والاها ورضي بها، وسكت عنها، ولم يحكم بكفرها، والقاعدة التي يزعمونها: أن من لم يكفر الكافر؛ فهو كافر!

وبهذا توسعوا وغلوا في «التكفير»، وكفروا الناس بالجملة.

وعلى هذا، لا يبالون من يُقتل من هؤلاء المدنيين، الذين لا ناقة لهم في الحكومة ولا جمل؛ لأنهم كفروا فحلت دماؤهم وأموالهم.

كما يرون بالنظر إلى الأقليات غير المسلمة، أنهم نقضوا العهد، بعدم أدائهم للجزية، وبتأييدهم لأولئك الحكام المرتدين، وأنظمتهم الوضعية، ولرفضهم للشرعية الإسلامية؛ وبهذا لم يعد لهم في أعناق المسلمين عهد ولا ذمة، وحل دمهم ومالهم. وبهذا استحلوا سرقة محلات الذهب من الأقباط في مصر، كما استحلوا سرقة بعض المسلمين أيضًا.

وهم يرون أن السياح وأمثالهم، الذين يدخلون بلاد المسلمين بتأشيرات رسمية، وترخيصات قانونية، والذين يعدّهم الفقهاء «مستأمنين»، ولو كانت دولهم محاربة للمسلمين، يرون هؤلاء مستباحي الدم؛ لأنهم لم يأخذوا الإذن من دولة شرعية، ولأن بلادهم نفسها، محاربة للإسلام، فلا عهد بينهم وبين المسلمين. والواجب أن يقاتل هؤلاء ويقتلوا، فلا عصمة لدمائهم وأموالهم!

وكذلك يقول هؤلاء عن الدول الغربية - التي يقيم بعض هؤلاء فيها - وقد أعطتهم حق الأمان، أو حق اللجوء السياسي لمن طردوا من بلادهم الأصلية، فأوتتهم هذه الدول من تشرد، وأطعمتهم من جوع، وأمنتهم من خوف.

يقول هؤلاء بكل جرأة وتبجح: إنّ هذه الدول كلها كافرة، محاربة للإسلام وأمته، ويجب أن نقاتلهم جميعاً حتّى يُسَلِّمُوا فيَسَلِّمُوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ولما سئل بعضهم عن إقامته في هذه البلاد، قال: إنّها كدورة المياه، نستخدمها للضرورة، برغم نجاستها.

وهؤلاء الكفار، دماءهم حلال، وأموالهم حلال للمسلمين، بنصوص الدين.

ويذكرون هنا آيات وأحاديث، يضعونها في غير موضعها، فإذا واجهتهم بغيرها من الآيات والأحاديث، التي هي أكثر منها وأظهر وأصرح، قالوا لك: هذه نسختها آية السيف!

هذا هو فقه جماعات العنف باختصار، الذي على أساسه ارتكبوا ما ارتكبوا من مجازر تشيب لهولها الولدان، وتقشعر من بشاعتها الأبدان، ضد مواطنيهم من مسلمين وغير مسلمين، وضد السياح وغيرهم من الأجانب المسالمين.

وهو بلا ريب، فقه أعوج، وفهم أعرج، يعتوره الخلل والخلل من كل جانب. ويحتاج من فقهاء الأمة إلى وقفة علميّة متأنية، لمناقشتهم في أفكارهم هذه، والرد عليهم فيما أخطؤوا فيه، في ضوء الأدلة الشرعيّة من القرآن والسنة وإجماع الأمة.

ظاهرة العنف إسلاميّة أم عالميّة؟

وهنا يحق لنا أن نسأل عن العنف: هل هو ظاهرة إسلاميّة؟ أو هو ظاهرة عالميّة؟ فبعض أبواق الإعلام الغربي - ومن يدور في فلكها في ديارنا - تريد أن يبرز الإرهاب، وكأنّه مقصور على المسلمين، أو كأن

جنسيته إسلامية، وخصوصًا بعد أحداث (١١) سبتمبر (٢٠٠١م)، وهذا خطأ فاحش، بل ظلم مبین.

لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى في أنحاء العالم. لقد وجدناه في كل القارات: في أيرلندا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي إسرائيل. فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنَّه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني، الذي يكتُم الحق، ويشيع الباطل، ويقولون على النَّاس الكذب وهم يعلمون.

أسباب العنف في العالم الإسلامي:

صحيح أن هناك عنفًا في العالم الإسلامي، ولكنَّه عنف له أسبابه ودوافعه، فما هي؟

أسبابه:

أما أسباب هذا العنف، فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - المظالم الواقعة على المسلمين من الخارج: فلسطين - البوسنة - كوسوفو - الشيشان - كشمير - السودان.

٢ - طغيان بعض الحكام، واضطهادهم لدعاة الإسلام، ومصادرة حرياتهم، وإغلاق الأبواب كلها دونهم، وعدم تمكينهم من حرية الدعوة مثل غيرهم، واستجابتهم لوساوس القوى المعادية للإسلام من صليبيين وغيرهم.

٣ - التضيق على الفكر الوسطي المعتدل، ممَّا أتاح لفكر العنف أن يعمل في السرايب تحت الأرض، حيث لا يحاكم ولا يناقش. ولو عمل تحت سمع القانون وبصره، لكان أقل وأهدى.

٤ - الخلل الفكري والفقهية، لدى بعض الفصائل الداعية للإسلام، التي وقفت عند بعض الظواهر من النصوص، ولم تغص في مقاصدها، ولم تضم بعضها إلى بعض.

وهذه أهم الأسباب في رأيي. وينبغي أن نلقي الضوء على السبب الأخير لخطورته، وشدة تأثيره.

حقيقة فصائل العنف:

هذه الفصائل الداعية للعنف إما:

١ - عملاء للقوى الصهيونية والصليبية والمادّية، المعادية للإسلام، واخترقوا الجماعات الإسلامية، وحرّكوها من حيث لا تدري.

٢ - أو جهلاء مخلصون، يعملون مجاناً، لحساب هذه القوى المعادية من حيث لا يشعرون، وهذا هو الأغلب. ولو أنّ القوى المعادية استأجرت أناساً ودفعت لهم مئات الملايين، ما خدموها بأفضل ممّا يخدمهم به هؤلاء، في تشويه صورة الإسلام. جهل هؤلاء جهل مركّب «جهل من لا يدري، ولا يدري أنّه لا يدري». كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

آفة هؤلاء في الأغلب، في عقولهم، وليست في ضمائرهم، فأكثرهم مخلصون، ونياتهم صالحة، وهم متعبدون لربهم، شأنهم شأن أسلافهم من الخوارج الذين كفروا عامّة المسلمين، وكفروا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، واستحلوا دمه، ودماء المسلمين معه، وصحت الأحاديث في ذمهم من عشرة أوجه.

قالت الأحاديث في «الصحيحين»: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(١).

فهم: صوام قوام، قُراء عبّاد، ولكن قراءتهم للقرآن لا تتجاوز حناجرهم، أي لم تدخل إلى أعماق قلوبهم وعقولهم، ليفقهوه حق الفقه، ويتعرفوا على أسرارهم ومقاصدهم، دون أن يجعلوا همهم الوقوف عند ألفاظه وظواهره.

وقد أدّى بهم هذا الفقه الأعوج إلى استباحة دماء المسلمين الآخرين وأموالهم، حتّى استباحوا دم فارس الإسلام وابنه البكر، علي بن أبي طالب، وقال شاعرهم يمدح قاتله^(٢):

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

حسن النية لا يبرر الأعمال الطائشة:

ولقد حذّر رسول الإسلام ﷺ من الأعمال الطائشة، والتصرّفات الرعناء، التي قد يقوم بها بعض الناس الطيبين، بنوايا حسنة، وبواعث نبيلة، دون أن ينظروا في مآلاتها، ويفكروا في وخيم عواقبها، وذلك لقصر نظرهم، وضيق أفقهم، فما لم يتنبه المجتمع لهم، ويأخذ على

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) الشاعر عمران بن حطان، يمدح ابن ملجم قاتل الإمام علي رضي الله عنه. كما في الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١١٢٨/٣)، تحقيق علي محمد الجاوي، نشر دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

أيديهم، ويمنعهم من الاستمرار في تفكيرهم الأخرق، فإنَّهم سيودون بالمجتمع كله، وينتهي بهم طيشهم - مع حسن نيَّتهم - إلى هلاكهم وهلاك الجماعة كلها معهم.

ولذا حذر الرسول الكريم الجماعة - ممثلة في أهل البصيرة وأولي العلم والحكمة - أن تتيقظ لهم، وتأخذ على أيديهم، تمنعهم من تنفيذ ما فكروا فيه، وعقدوا عليه العزم، حفظًا لوجود الجماعة كلها، وحرصًا على حياتها وحياتهم معها.

وضرب الرسول ﷺ لذلك مثلًا حيًّا رائعًا ناطقًا، هو مثل ركاب السفينة الواحدة التي تتكون من طابقين أو أكثر، وبعض النَّاس في أعلاها، وبعضهم في أسفلها. فلو أراد ركاب الطابق الأسفل أن يخرقوا في نصيبهم خرقًا، ليستقوا منه الماء مباشرة من النهر أو البحر، بدعوى أنَّهم يخرقون في نصيبهم وهم أحرار فيه، وأنَّهم لا يريدون أن يؤذوا من فوقهم بكثرة المرور عليهم بين حين وآخر.

وليس أفضل من أن نقرأ هذا الحديث النبوي الرائع بصيغته كاملاً، كما جاء في «صحيح البخاري»:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الَّذِينَ في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»^(١).

(١) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣).



إنَّ الحديث يبين لنا المسؤولية التضامنية المشتركة للأمة، وأنَّها لا يجوز لها أن تدع بعض أبنائها يتسببون في غرقها بجهلهم وسوء تصرفهم، وإن كانوا مخلصين، فالإخلاص لا يكفي وحده، ولكن لا بدَّ من تحرِّي الصواب مع الإخلاص.

جوانب الخلل في فقه جماعات العنف:

فقه هؤلاء الخوارج المحدثين، فقه أعرج أعوج، يقوم على ما يلي:

١ - خلل في فقه الجهاد.

٢ - خلل في فقه تغيير المنكر بالقوَّة.

٣ - خلل في فقه الخروج على الحكام.

٤ - خلل في فقه التكفير.

وسنتحدَّث عن كلِّ واحدة من هذه الألوان من الخلل ما يوضحه، ويزيل عنه اللبس والغموض.

١ - الخلل في فقه الجهاد:

يبدأ الخلل في فقه الجهاد عندهم، أنَّهم يرون قتال كل الكفار واجبًا، وإن كانوا مسالمين للمسلمين.

ونريد أن نسألهم هنا سؤالاً صريحاً: لماذا نقاتل الكفار؟ لكفرهم، أو لعدوانهم؟

لو كان القتال لمجرّد الكفر؛ لوجب أن نقتل الشيوخ، والنساء، والرهبان، والحراثين، والتجار، ومن في حكمهم، ممَّن لا يحارب

ولا يقاتل، ولكن هذا محظور؛ ولهذا نهتنا الأحاديث النبوية، والوصايا الراشدية من أبي بكر وعمر، عن قتلهم.

وجاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، قال: الاعتداء: قتل النساء والصبيان^(١).

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية، في رسالة: «قاعدة في قتال الكفار» على من زعم أن آية: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠] منسوخة، بأن الاعتداء هو الظلم، والله لا يبيح الظلم قط^(٢).

وأضيف إلى ذلك أنه معلل بعله لا تقبل النسخ، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ومثل هذا لا ينسخ أبدًا.

من أحكام القتال في القرآن:

وينبغي لمن أراد أن يعرض أحكام القتال، أن يرجع أول ما يرجع إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن، وما يبينه من صحيح السنة. ومن أبرز هذه الأحكام:

١ - القتال لمن يقاتل المسلمين:

ومن قرأ القرآن بتدبر، وضم آياته بعضها إلى بعض، تبين له أنه إنما شرع القتال لمن يقاتل المسلمين، أو يتعدى على حرمتهم، أو على المستضعفين من عباد الله، كما نرى في هذه الآيات:

(١) سبق تخريجه ص ٣٨٦.

(٢) انظر: قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم لابن تيمية ص ٩١ وما بعدها، تحقيق د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴿[البقرة: ١٩٠، ١٩١].

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

﴿فَإِن لَّمْ يَعتَزلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

٢ - ليس القتال لإكراه الناس على الإسلام:

وليس القتال في الإسلام لإكراه الناس على الدخول في الإسلام.
فالإسلام يرفض بصورة قاطعة الإكراه في الدين.

يقول تعالى في القرآن المكي: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ويقول في القرآن المدني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بل هذا الرفض للإكراه مقرر من عهد نوح شيخ المرسلين:
﴿أَنْزَلْنَاهُ مِائِدًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

والقرآن لا يعتبر الإيمان إيمانًا، إلا إذا نشأ عن اختيار حر، وإلا
رفض، مثل إيمان فرعون حينما أدركه الغرق: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فكان الرد الإلهي
عليه: ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وكذلك رفض القرآن إيمان الأمم التي تعلن الإيمان حين ينزل بها
بأس الله وعقوبته: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا
بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ * فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

القتال إذن ليس لكفر الكفار، فالكفر واقع بمشيئة الله تعالى،
المرتبطة بحكمته.

وتعدّد الأديان، أمر مفروغ منه في عقيدة المسلم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾
[يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مَخْلَفِينَ﴾ * إِلَّا
مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. أي خلقهم ليختلفوا، ما دام
قد أعطى كلا منهم العقل والإرادة.

٣ - القتال لمنع الفتنة في الدين:

وشرع الإسلام القتال كذلك لمنع الفتنة في الدين، كما قال
تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾
[الأنفال: ٣٩].

الفتنة: هي مصادرة حرية الناس واضطهادهم، من أجل عقيدتهم، مثل «أصحاب الأخدود» الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات. والقرآن يعتبر هذه الفتنة للناس، أشد من القتل، وأكبر من القتل؛ لأنَّ القتل يتلف الجسم، والفتنة تتلف العقل والإرادة، وهما حقيقة الإنسان. ولذا ردَّ القرآن على المشركين الذين أعظموا القتال في الشهر الحرام، وقد وقع خطأ من بعض المسلمين، وهونوا من صدهم عن سبيل الله، وإخراج الناس من ديارهم وفتنتهم في دينهم، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومعنى هذا: أنَّ الإسلام يشرع القتال، ليهيئ مناخ الحرية للناس، ليؤمن من آمن عن إرادة واختيار حر، ولا يخشى الفتنة في دينه، والاضطهاد من أجل عقيدته.

آية السيف:

وإذا كان الأمر كما وضحته هذه الآيات، في شأن القتال، فما معنى «آية السيف» التي زعم من زعم أنَّها نسخت كذا وكذا آية من القرآن؟ إنَّ القرآن يصدق بعضه بعضاً، ولا يجوز دعوى نسخ آية منه إلاَّ بيقين. ونسأل هؤلاء:

آية السيف التي زعموا أنَّها نسخت مائة وعشرين آية، أين هي؟ قال بعضهم: إنها آية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وهذه ليست إلاَّ المعاملة بالمثل، قاتلوهم كافة كما يقاتلونكم كافة.

وقال آخرون: آية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الآية نزلت في مشركي العرب، الذين نكثوا العهود، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم، وبدؤوا المسلمين بالقتال، كما قال تعالى في نفس السياق: ﴿أَلَا نُقَنِّلُوكَ قَوْمًا نَّكُثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ١٣].

وقد أمهلوا أربعة أشهر يسيحون في الأرض، ثم بعد ذلك عليهم أن يحددوا موقفهم.

قبل هذه الآية، نقرأ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤].

وبعدها نقرأ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَّهُ﴾ [التوبة: ٦].

وعقبها نقرأ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

وقال بعضهم: آية السيف هي قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الآية في قتال انعقدت أسبابه، بوقوف هؤلاء ضد الدعوة، وصدهم الدعوة أو قتلهم، أو تأمرهم على المسلمين، ومعاونتهم

لأعدائهم المحاربين لهم. وقد نزلت بعد غزوة تبوك، التي وقعت مع دولة الروم البيزنطية.

وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ غاية للقتال، أي يقاتلون حتى يخضعوا للدولة المسلمة، ويدفعوا لها ضريبة الحماية لهم في: أنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم.

وليس من الضروري أن تسمى: «جزية»، كما فعل سيدنا عمر مع بني تغلب، فقد رضي منهم أن تسمى: زكاة أو صدقة، فالعبرة عنده بالمسميات والمضامين، لا بالأسماء والعناوين.

واستدل بعضهم بقوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿[الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وهذا في قتال قام بالفعل أو انعقدت أسبابه، فالتحريض من القيادة للجند واجب، حتى يدخلوا المعركة أقوياء متوكلين على الله.

وقبل هذه الآية: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنفال: ٦١، ٦٢].

وقبلها: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ﴿[الأنفال: ٦٠].

فالمطلوب إذن من المسلمين هو:

- ١ - إعداد المستطاع من القوة والمعدات؛ إرهاباً لعدو الله وعدوهم، فهذه الرهبة هي التي تمنع وقوع الحرب.
- ٢ - الجنوح للسلم، إذا جنح العدو لها حقيقة، لا ادعاء.
- ٣ - الوقوف في وجه المخادعين بالسلم، اعتماداً على نصر الله المؤمنين المتآلفين.
- ٤ - تحريض المؤمنين على القتال، فإنَّ الواحد منهم بعشرة في حال القوة، وبأثنين في حال الضعف.

بين الجهاد والقتال:

ومن المهم هنا، أن نميز بين الجهاد والقتال، فقد حدث خلط شديد بينهما، في حين أنَّهما مختلفان لغة وشرعاً، واشتقاق كل منهما يدل على اختلافهما، فالجهاد: مشتق من بذل الجُهد، وهو الوسع، أو تحمل الجُهد، وهو المشقة.

أما القتال: فهو مشتق من القتل.

وفي الشرع: كل مسلم مطالب بالجهاد، كما قال تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهذا يتم بمجاهدة النفس، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة المظالم والمنكرات في المجتمع، ومجاهدة المشركين باللسان، والقلم، وبالمال، وبالسلح، كل في أوانه، وفي موضعه.

ولا غزو أن نجد في القرآن المكي - قبل أن يشرع القتال - الأمر بالجهاد في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وكذلك في أوائل العنكبوت: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

والجهاد هنا: هو جهاد الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله. وفي أواخر السورة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فكل مسلم إذن يجب أن يكون مجاهداً، وليس بالضرورة أن يكون مقاتلاً، إلا عندما توجد أسباب القتال.

حديث «بعثت بالسيف»:

أما حديث: «بعثت بالسيف - بين يدي الساعة - حتى يعبد الله وحده» فقد بحثنا في سنده وامتنه، وبيّنا في بحث ضاف أنه ضعيف عند التحقيق، فليرجع إليه^(١).

أما من ناحية السند: فمداره على عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد اختلف الأئمة في توثيقه، وتجريحه، والمجرحون له أكثر، وهم من أمثال الإمام أحمد الذي قال: أحاديثه مناكير، والإمام يحيى بن معين الذي ضعفه، والإمام النسائي، وغيرهم.

(١) انظر كتابنا: فقه الجهاد (١/٣٣٥ - ٣٤٦)، الفصل الخامس من الباب الثالث، نشر مكتبة وهبة،

القاهرة، ط ٣، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

وحتى الذين وثّقوه، لم يوثقوه بإطلاق، بل منهم من قال: ليس به بأس، ومنهم من رماه بالقدر. على أنّهم قالوا: تغير في آخر حياته. وهذا يكفي في التشكيك فيما يرويه.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه»، جزءاً من هذا الحديث معلقاً، ولكن بصيغة التمريض، بقوله: يذكر عن ابن عمر^(١)، ممّا يدل على ضعفه عنده. وقد ضعفه الشيخ شعيب وإخوانه، في تخريج «المسند»، وفسروا ذلك بما يشفي ويكفي^(٢).

وإذا غرضنا الطرف عن السند، ونظرنا في متن الحديث ومضمونه وجدناه مخالفاً مخالفة صريحة للقرآن، الذي لم يقرر في آية واحدة من آياته بأن الله بعث محمداً بالسيف، بل أرسله بالهدى ودين الحق، وبالبينات والشفاء والرحمة للعالمين وللمؤمنين.

وهذا ثابت بوضوح في القرآن المكي، وفي القرآن المدني، على سواء. يقول تعالى في سورة الأنبياء، وهي مكية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) علقه البخاري في الجهاد والسير قبل الحديث (٢٩١٤)، حيث قال: باب ما قيل في الرماح، ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجعل الذُّلُّ والصغار على من خالف أمرِي».

(٢) رواه أحمد (٥١١٤)، وقال مخرجه: إسناداه ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه. ابن ثوبان - وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان - اختلفت فيه أقوال المجريين والمعدلين، فمنهم من قوى أمره، ومنهم من ضعفه، وقد تغيّر بأخرة، وخلاصة القول فيه أنّه حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر، فقد أشار الإمام أحمد إلى أن له أحاديث منكراً، وهذا منها.



وعبر عن هذا النبي ﷺ، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١).

وقال تعالى في سورة النحل، وهي مكية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى في سورة يونس، وهي مكية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى في سورة التوبة، وهي مدنية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد تكررت بلفظها، في سورة الصف: (٩)، وهي مدنية.

وفي سورة الفتح، وهي مدنية، نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ولقد بيّنت آيات القرآن موقف الرسول الكريم، عند تولي الناس وإعراضهم عنه.

ففي ختام سورة التوبة، يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

(١) سبق تخريجه ص ١٨١.

وفي سورة آل عمران، وهي مدنية: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي سورة النور، وهي مدنية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وهذه الآيات كلها قد اتفقت على أن محمداً ﷺ، إنما بعث بالرحمة والهدى ودين الحق، وتبيان كل شيء، وإقامة الحجة على الناس، ولم يبعث شاهراً سيفه على الناس، حتى في حالة تولي الناس عنه، لم يؤمر بأن يشهر في وجوههم السيف، إنما قيل له: إنما عليك البلاغ، وإنما عليه ما حُمِّلَ، وعليهم ما حُمِّلُوا، وقل: حسبي الله.

والمبشرون والمستشرقون، وغيرهم من خصوم الإسلام يشيرون أن الإسلام إنما انتشر بالسيف، وأن محمداً إنما انتصر بالسيف، ويستند كثيرون منهم إلى هذا الحديث وأمثاله.

والحقيقة أن الإسلام إنما شهر السيف في وجه الذين صدوا عن سبيله، وقاوموه بالقوة، ورفعوا السيف في وجهه، وغزوه في عقر داره في أحد والخندق، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أَنَّهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

[البقرة: ١٩٠ - ١٩٣].



فهذا هو منطق القرآن، بين كل البيان، لا لبس فيه ولا غموض، فإذا عارضه حديث مثل حديث «بعثت بالسيف»، فلا شك أن القرآن هو المقدم، فهو المصدر الأول، والدليل الأول، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو بعث الرسول بالسيف، لظهر ذلك طوال ثلاثة عشر عامًا، قضاها في مكة، وأصحابه يأتون إليه بين مضروب ومشجوج ومعتدى عليه، يستأذنونهم في أن يدافعوا عن أنفسهم بالسلاح، فيقول لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة. حتى هاجروا إلى المدينة، فأذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم وحرمااتهم ودعوتهم. كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَلَئِنْ أُلْهِمُوا عَلَىٰ نَفْسِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ... ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

والخلاصة: أن هذا الحديث «بعثت بالسيف» سواء نظرنا إلى إسناده أم نظرنا إلى متنه، فهو مردود غير مقبول في ضوء موازين العلم وقواعده الضابطة.

العلاقة بغير المسلمين:

منذ أكثر من أربعين سنة ذكرت في كتابي: «الحلال والحرام في الإسلام»^(١):

أن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين، في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

(١) الحلال والحرام في الإسلام ص ٣٧٢ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩١﴾ [المتحنة: ٨، ٩].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين - عباد الأوثان، من قريش وأمثالهم - وقد شرع البر بالمسلمين منهم، والإقسط لهم، فاختر عنوان: «البر» لهم، وهو الذي يستعمله المسلمون في أقدم الحقوق، بعد حق الله تعالى، وهو بر الوالدين.

حث القرآن هنا على برهم والإقسط إليهم، والإقسط - أي العدل - أن يعطوا حقوقهم ولا يبخسوا شيئاً منها، والبر: أن يعطوا فوق حقوقهم. كما أن الإقسط: أن تأخذ منهم الحق الواجب عليهم، ولا تزيد عنه. أما البر: فهو أن تتنازل لهم عن بعض حقك، اختياراً وكرماً.

وهذا في شأن الوثنيين، الذين نزلت بخصوصهم الآيتان الكريمتان.

ولكن الإسلام أفرد «أهل الكتاب» بعنوان خاص، وبمعاملة خاصة، حتى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، ومعنى هذا أنه أجاز للمسلم، أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده: كتابية «مسيحية أو يهودية». ومقتضى هذا أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق «أولي الأرحام، وذوي القربى».

كما أن الإسلام اعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

كما قال نبي الإسلام أيضًا: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة»^(١).

٢ - الخلل في فقه تغيير المنكر بالقوة:

وأما الخلل في فقه «تغيير المنكر بالقوة»، فيتضح بأنهم لا يراعون شروط المنكر الذي أوجب الحديث تغييره، أي المنكر الذي يجب أن يغير باليد، أو باللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

شروط تغيير المنكر باليد (أي بالقوة):

لا بد أن يكون مجتمعا على أنه منكر، إذ لا إنكار في المسائل الاجتهادية الخلافية.

وأن يكون ظاهرا بحيث يراه الناس، دون أن يتجسس على صاحبه، ولهذا قال: «من رأى منكم منكرا»^(٢).

وأن يكون واقعا بالفعل، ساعة الإنكار، ولا يكون قد وقع وفرغ منه، ولا متوقعا حدوثه بعد.

ومراتب تغيير المنكر - كما ذكرها الإمام الغزالي، في «الإحياء» - متفاوتة ومتدرجة.

والتغيير بالقهر والمحاربة، هو أشد مراتب التغيير، فلا يجوز إلا لذي قوة وشوكة، بحيث يكون أقوى ممن ينكر عليه.

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٢.

ولا يجوز تغيير المنكر بوقوع منكر أكبر منه، أو مثله، فالضرر لا يزال: بضرر مثله أو أكبر منه.

ولا بأس بأن نذكر بعض التفصيل في هذه الشروط، لأهميتها:

الشرط الأول: أن يكون محرماً مجمعاً عليه:

أي أن يكون «منكراً» حقاً، ونعني هنا: المنكر الذي يطلب تغييره باليد أولاً، ثم باللسان، ثم بالقلب عند العجز. ولا يطلق «المنكر» إلا على «الحرام»، الذي طلب الشارع تركه طلباً جازماً، بحيث يستحق عقاب الله من ارتكبه، سواء أكان هذا الحرام فعل محظور، أم ترك مأمور. وسواء أكان الحرام من الصغائر أم من الكبائر، وإن كانت الصغائر قد يتساهل فيها، ما لا يتساهل في الكبائر، ولا سيما إذا لم يواظب عليها، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهن، إذا اجْتُنِبَتِ الكبائر»^(١).

فلا يدخل في المنكر إذن: المكروهات، أو ترك السنن والمستحبات، لا بدّ إذن أن يكون المنكر في درجة «الحرام»، وأن يكون منكراً شرعياً حقيقياً، أي ثبت إنكاره بنصوص الشرع المحكمة، أو قواعده القاطعة، التي دلّ عليها استقراء جزئيات الشريعة.

وليس إنكاره بمجرد رأي أو اجتهاد، قد يصيب ويخطئ، وقد يتغير بتغير الزمان والمكان، والعرف والحال.

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٨.



وكذلك يجب أن يكون مجمعا على أنه منكر، فأما ما اختلف فيه العلماء المجتهدون قديما أو حديثا، بين مجيز ومانع، فلا يدخل دائرة «المنكر» الذي يجب تغييره باليد، وخصوصا للأفراد. ولهذا قرر العلماء قاعدة: أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية والخلافية^(١).

فإذا اختلف الفقهاء في حكم التصوير، أو الغناء بآلة، وبغير آلة، أو في كشف وجه المرأة وكفيها، أو في تولي المرأة القضاء ونحوه، أو في إثبات الصيام والفطر برؤية الهلال في قطر آخر، بالعين المجردة، أو بالمرصد، أو بالحساب، أو غير ذلك من القضايا التي طال فيها الخلاف قديما وحديثا، لم يجز لإنسان مسلم، أو لطائفة مسلمة، أن تتبنى رأيا من الرأيين، أو الآراء المختلف فيها، وتحمل الآخرين عليه بالعنف.

حتى رأي الجمهور والأكثرية، لا يسقط رأي الأقل، ولا يلغي اعتباره، حتى لو كان المخالف واحدا، ما دام من أهل الاجتهاد، وكم من رأي مهجور في عصر ما، أصبح مشهورا في عصر آخر.

وكم ضُغِف رأي لفيقه، ثم جاء من صحَّحه ونصره وقواه، فأصبح هو المعتمد والمفتى به.

وهذه آراء شيخ الإسلام ابن تيمية، في الطلاق وأحوال الأسرة، قد لقي من أجلها ما لقي في حياته، وظلت تقاوم قرونا عدة بعد وفاته، ثم هَيَّا الله لها من نشرها وأيدها، حتى غدت عمدة الإفتاء، والقضاء، والتقنين، في كثير من الأقطار الإسلامية.

(١) اقرأ أقوال العلماء في ذلك في كتابنا: كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف

إنَّ المنكر الَّذي يجب تغييره بالقوَّة، لا بدَّ أن يكون منكراً بيّناً ثابتاً، اتفق أئمة المسلمين على أنَّه منكر، وبدون ذلك يفتح باب شر لا آخر له، فكل من يرى رأياً يريد أن يحمل النَّاس عليه بالقوَّة!

الشرط الثاني: ظهور المنكر:

أي أن يكون المنكر ظاهراً مرئياً، فأما ما استخفى به صاحبه عن أعين النَّاس وأغلق عليه بابه؛ فلا يجوز لأحد التجسس عليه، بوضع أجهزة التنصت عليه، أو كاميرات التصوير الخفية، أو اقتحام داره عليه لضبطه متلبساً بالمنكر.

وهذا ما يدل عليه لفظ الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره...»^(١) فقد ناط التغيير برؤية المنكر ومشاهدته، ولم ينطه بالسماع عن المنكر من غيره.

وهذا؛ لأنَّ الإسلام يدع عقوبة من استتر بفعل المنكر ولم يتبجح به، إلى الله تعالى، يحاسبه في الآخرة، ولم يجعل لأحد عليه سبيلاً في الدنيا، حتَّى يبدي صفحته ويكشف ستره.

حتَّى إنَّ العقاب الإلهي ليخفف كثيراً على من استتر بستر الله، ولم يظهر المعصية، كما في الحديث الصحيح: «كل أمتي معافى إلَّا المجاهرين»^(٢).

ومن الوقائع الطريفة، التي لها دلالتها في هذا المقام: ما وقع لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو ما حكاه الغزالي في كتاب: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» من «الإحياء»: أن عمر تسلق دار رجل، فرآه

(١) سبق تخريجه ص ٩٢.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

على حالة مكروهة فأنكر عليه، فقال: يا أمير المؤمنين! إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه، فقال: وما هي؟ قال: قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تجسست. وقال تعالى: ﴿وَأُتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقد تسورت من السطح. وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وما سلمت. فتركه عمر، وشرط عليه التوبة^(١).

والشرط الثالث لتغيير المنكر بالقوة: القدرة الفعلية على التغيير:

أي أن يكون مريد التغيير قادرًا بالفعل - بنفسه، أو بمن معه من أعوان - على التغيير بالقوة؛ بمعنى: أن يكون لديه قوة مادية أو معنوية، تمكنه من إزالة المنكر بسهولة.

وهذا الشرط مأخوذ من حديث أبي سعيد أيضًا؛ لأنه قال: «فمن لم يستطع، فبلسانه»^(٢) أي: فمن لم يستطع التغيير باليد، فليدع ذلك لأهل القدرة، وليكتف هو بالتغيير باللسان والبيان، إن كان في استطاعته.

وهذا في الغالب إنما يكون لكل ذي سلطان في دائرة سلطانه، كالزوج مع زوجته، والأب مع أبنائه وبناته، الذين يعولهم ويولي عليهم، وصاحب المؤسسة في داخل مؤسسته، والأمير المطاع في حدود إمارته وسلطته، وحدود استطاعته^(٣). وهكذا.

(١) رواه الحاكم في الحدود (٣٧٧/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وعبد الرزاق في اللقطة (١٨٩٤٣). وانظر: إحياء علوم الدين (٣٢٥/٢).

(٢) سبق تخريجه ص ٩٢.

(٣) أعني أن من الأمراء من يعجز عن بعض الأشياء في إمارته نفسها، وقد رأينا عمر بن عبد العزيز يعجز عن رد الأمر شورى بين المسلمين، بعيدًا عن نظام الوراثة.

وإنما قلنا: القوّة المادّيّة أو المعنويّة؛ لأن سلطة الزوج على زوجته، أو الأب على أولاده، ليست بما يملك من قوّة مادّيّة، بل بما له من احترام وهيبة، تجعل كلمته نافذة، وأمره مطاعاً. ومن النّاس من يكون له مقام وجيه في جماعته، تجعل أمره نافذاً، وإن لم يكن معه قوّة مادّيّة.

إذا كان المنكر من جانب الحكومة:

هنا تظهر مشكلة ما إذا كان المنكر من جانب الحكومة أو الدولة، التي تملك مقاليد القوّة المادّيّة والعسكريّة، ماذا للأفراد والفئات، أو عليهم أن يعملوا لتغيير المنكر الذي ترتكبه السلطة أو تحميه؟

والجواب: أن عليهم أن يملكوا القوّة التي تستطيع التغيير، وهي في عصرنا إحدى ثلاث:

الأولى: القوات المسلحة، التي تستند إليها كثير من الدول في عصرنا - ولا سيّما في العالم الثالث - في إقامة حكمها، وتنفيذ سياستها، وإسكات خصومها بالحديد والنار؛ فالعمدة لدى هذه الحكومات: ليس قوّة المنطق، بل منطق القوّة، فمن كان معه هذه القوات، استطاع أن يضرب بها كل تحرك شعبي يريد التغيير، كما رأينا ذلك في بلاد شتى آخرها في الجزائر، وقبلها في الصين، وإخماد ثورة الطلبة المطالبين بالحرية.

الثانية: المجلس النيابي، الذي يملك السلطة التشريعيّة، وإصدار القوانين وتغييرها، وفقاً لقرار الأغلبية، المعمول به في النظام الديمقراطي، فمن ملك هذه الأغلبية في ظل نظام ديمقراطي حقيقي غير مزيف، أمكنه تغيير كل ما يرى من منكرات، بوساطة التشريع الملزم، الذي لا يستطيع وزير، ولا رئيس حكومة، ولا رئيس دولة أن يقول أمامه: لا.

الثالثة: قوّة الجماهير الشعبيّة العارمة، الّتي تشبه الإجماع، والّتي إذا تحركت لا يستطيع أحد أن يواجهها، أو يصد مسيرتها؛ لأنّها كموج البحر الهادر أو السيل العرم، لا يقف أمامه شيء، حتّى القوات المسلحة نفسها؛ لأنّها في النهاية جزء منها، وهذه الجماهير ليسوا إلّا أهليهم وآباءهم وأبناءهم وإخوانهم.

فمن لم يملك إحدى هذه القوى الثلاث، فما عليه إلّا أن يصبر، ويصابر ويرابط، حتّى يملكها. وعليه أن يغير باللسان، والقلم، والدعوة والتوعية والتوجيه، حتّى يوجد رأيًا عامًّا قويًّا يطالب بتغيير المنكر، وأن يعمل على تربية جيل طليعي مؤمن يتحمّل تبعه التغيير. وهذا ما يشير إليه حديث أبي ثعلبة الخشني، حين سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال له النبي ﷺ: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتّى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون كعملكم»^(١)، وفي بعض الروايات: «ورأيت أمرًا لا يدان - أي لا طاقة - لك به»^(٢).

الشرط الرابع: عدم خشية منكر أكبر:

أي ألا يخشى من أن يترتب على إزالة المنكر بالقوّة منكر أكبر منه، كأن يكون سببًا لفتنة تسفك فيها دماء الأبرياء، وتنتهك الحرمات،

(١) سبق تخريجه ص ٨٤، وفيه: «إن من ورائكم أيام الصبر».

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٤).

وتنتهب الأموال، وتكون العاقبة أن يزداد المنكر تمكناً، ويزداد المتجبرون تجبراً وفساداً في الأرض.

ولهذا قرّر العلماء مشروعية السكوت على المنكر، مخافة ما هو أنكر منه وأعظم، ارتكاباً لأخف الضررين، واحتمالاً لأهون الشرين.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم»^(١). أي لنقضها وأعاد بناءها من جديد حتى يدخل فيها ما ترك منها، حين بنتها قريش، فقصرت بها النفقة.

وفي القرآن الكريم ما يؤيد ذلك، في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، حين ذهب إلى مواعده مع ربه، الذي بلغ أربعين ليلة، وفي هذه الغيبة فتنهم السامري بعجله الذهبي، حتى عبده القوم، ونصحهم أخوه هارون، فلم ينتصخوا، وقالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١].

وبعد رجوع موسى ورؤيته لهذا المنكر البشع - عبادة العجل - اشتد على أخيه في الإنكار، وأخذ بلحيته يجره إليه من شدة الغضب: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي * إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

ومعنى هذا: أن هارون قدّم الحفاظ على وحدة الجماعة، في غيبة أخيه الأكبر، حتى يحضر، ويتفاهما معاً، كيف يواجهان الموقف الخطير بما يتطلبه من حزم وحكمة؟

(١) سبق تخريجه ص ٣٦٢.

هذه هي الشروط الأربعة التي يجب أن تتوافر لمن يريد تغيير المنكر بيده، وبتعبير آخر: بالقوة المادية المرغمة.

تغيير المنكرات الجزئية، ليس علاجاً:

وأود أن أنبه هنا على قضية في غاية الأهمية، لمن يشتغلون بإصلاح حال المسلمين، وهي أن التخريب الذي أصاب مجتمعاتنا، خلال عصور التخلف، وخلال عهود الاستعمار الغربي، وخلال عهود الطغيان والحكم العلماني، تخريب عميق ممتد، لا يكفي لإزالته تغيير منكرات جزئية، كحفلة غناء، أو تبرج امرأة في الطريق، أو بيع أشرطة «كاسيت» أو «فيديو» تتضمن ما لا يليق أو ما لا يجوز.

إنَّ الأمر أكبر من ذلك وأعظم، لا بدَّ من تغيير أشمل وأوسع وأعمق. تغيير يشمل الأفكار والمفاهيم، ويشمل القيم والموازين، ويشمل الأخلاق والأعمال، ويشمل الآداب والتقاليد، ويشمل الأنظمة والتشريعات. وقبل ذلك كله لا بدَّ أن يتغير النَّاس من داخلهم بالتوجيه الدائم، والتربية المستمرة، والأسوة الحسنة، فإذا غير النَّاس ما بأنفسهم، كانوا أهلاً لأن يغير الله ما بهم وفق السُّنة الثابتة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ضرورة الرفق في تغيير المنكر:

وقضية أخرى لا ينبغي أن ننساها هنا، وهي ضرورة الرفق في معالجة المنكر، ودعوة أهله إلى المعروف، فقد أوصانا الرسول ﷺ بالرفق، وبَيَّن لنا أَنَّ الله يحبه في الأمر كله، وَأَنَّهُ ما دخل في شيء إِلَّا زانه، وما نزع من شيء إِلَّا شانه. ومن الكلمات المأثورة: من أمر بمعروف، فليكن أمره بمعروف.

٣ - الخلل في فقه الخروج على الحكام:

وأما الخلل عند جماعات العنف في فقه الخروج على الحكام، فهو يتمثل في أنهم يرون وجوب الخروج على الحكام المعاصرين في البلاد الإسلامية، للأسباب التي بيّناها من قبل، ما داموا لا يحكمون بما أنزل الله، وما داموا يوالون أعداء الله، وما داموا يعادون الدعاة إلى الله، وما داموا قد فرضوا أنفسهم على شعوبهم بغير رضاها واختيارها.

ومن هنا كان واجب النصيحة في الدين، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب مقاومة الظلمة، وتغيير المنكر بالقوة أو باليد، وغير ذلك من عمومات القرآن والسنة، كلها توجب الخروج على هؤلاء الحكام الظلمة - أو الكفرة - وتطهير بلاد المسلمين من شرهم وفسادهم، حتى لا تعم نقيمتهم الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(١).

الأحاديث تأمرنا بالصبر على جور الأئمة:

وأودُّ أن أبدأ حديثي هنا بأني من الذين يطالبون حكام المسلمين أن يطبقوا شرع الله في جميع جوانب الحياة، ولا يعطلوا بعضه ويأخذوا بعضه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. ولا يكونوا

(١) رواه أحمد (١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

كُتِبَ إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ قَرَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولا أرى أن وضع الحكم في معظم الأقطار الإسلامية وضع يرضى عنه الله ورسوله والمؤمنون، بل هناك مخالفات شتى لشرعية الإسلام، في مجالات عدة، لا يجوز السكوت عليها، في: التشريع، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة، وغيرها. وإن كنا نعتز أن هذه المخالفات الشرعية متفاوتة في كمها وكيفها من بلد إلى آخر. وهذا يوجب علينا أن نعمل على إصلاحها - ما استطعنا - بالنصح والدعوة والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالرفق والحكمة، والجدال بالتي هي أحسن، وتقديم البدائل الشرعية الصالحة للتطبيق المعاصر، بدل المحرمات القائمة، وتوعية الشعوب وتربيتها، وتجميعها لتسوق الحكام إلى التغيير السلمي، بدلاً من الفتن والمصادمات المسلحة.

ولكننا نخالف جماعات العنف في حمل السلاح، والخروج على الحكام بالقوة المادية، بدعوى أن هذا واجب ديني، وفريضة شرعية، لما ذكره من أدلة واعتبارات تؤيد وجهة نظرهم.

فقد غفل هؤلاء - من جماعات العنف - عن أمر مهم، وهو أن الذي ذكره هنا من النصوص، يدخل في باب العمومات والمطلقات، التي خصصتها أو قيدتها نصوص أخرى، جاءت تأمر بالصبر على جور الأئمة، ومظالم الأمراء، وإن جاروا على حقوق الأفراد بأخذ المال، وضرب الظهر، ما لم يظهر منهم كفر بواح عندنا فيه من الله برهان. وما ذلك إلا للإبقاء على وحدة الأمة واستقرار الدولة، والحرص على حقن الدماء، والخشية من أن تفتح أبواب فتن لا تسد، وأن تفتق فتوق

يصعب رتقها، وقد شددت الأحاديث في هذا الجانب، حتّى لا يسارع أهل الورع وأهل الحماس، بالخروج على السلطان الشرعي، بكل ما يرونه مخالفاً.

وحسبنا أن نلقي نظرة سريعة على الأحاديث التي ذكرها صاحب: «منتقى الأخبار»، وشرحها الشوكاني في: «نيل الأوطار»، تحت عنوان:

باب الصبر على جور الأئمة، وترك قتالهم، والكف عن إقامة السيف:

١ - عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه، فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهليّة»^(١).

وفي لفظ: «من كره من أميره شيئاً، فليصبر عليه؛ فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه، إلّا مات ميتة جاهليّة»^(٢).

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنّه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فأوبعوا الأوّل فالأوّل، ثمّ أعطوهم حقهم؛ فإنّ الله سائلهم عما استرعاهم»^(٣).

قال الشوكاني:

قوله: «من فارق الجماعة شبراً»: كناية عن معصية السلطان ومحاربته. قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة: المسعى في حلّ عقد البيعة التي

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٩) (٥٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٩) (٥٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٢).

حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء، فكفى عنها بمقدار الشبر؛ لأنَّ الأخذ في ذلك يؤوّل إلى سفك الدماء بغير حق.

قوله: «فميتته جاهليّة»، وفي رواية لمسلم: «فميتته ميتة جاهليّة». وفي أخرى له من حديث ابن عمر: «من خلع يداً من طاعة الله؛ لقي الله ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة الجاهليّة»^(١).

والمراد بالميتة الجاهليّة: أن يكون حاله في الموت، كموت أهل الجاهليّة على ضلال، وليس له إمام مطاع؛ لأنّهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أن يموت كافراً، بل يموت عاصياً. ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره؛ ومعناه: أنّه يموت مثل موت الجاهلي، وإن لم يكن جاهلياً. أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير فظاهره غير مراد. ويؤيد أن المراد بالجاهليّة التشبيه: ما أخرجه الترمذي، وابن خزيمة، وابن حبان وصحّحه، من حديث الحارث بن الحارث الأشعري، من حديث طويل، وفيه: «من فارق الجماعة شبراً؛ فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(٢).

قوله: «فُوا ببيعة الأوّل فالأوّل»: فيه دليل على أنّه يجب على الرعية الوفاء ببيعة الإمام الأوّل ثمّ الأوّل، ولا يجوز لهم المبايعة للإمام الآخر قبل موت الأوّل.

قوله: «ثم أعطوهم حقهم»: أي ادفعوا إلى الأمراء حقّهم، الذي لهم المطالبة به وقبضه، سواء كان يختص بهم أو يعم، وذلك من الحقوق الواجبة في المال: كالزكاة، وفي الأنفس: كالخروج إلى الجهاد.

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥١).

(٢) رواه أحمد (١٧١٧٠)، وقال مخرجه: صحيح. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن خزيمة في الصيام (١٨٩٥)، وابن حبان في التاريخ (٦٢٣٣).

٣ - وعن عوف بن مالك الأشجعي؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة. ألا من وليّ عليه والٍ، فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزع يداً من طاعة»^(١).

٤ - وعن حذيفة بن اليمان: أن رسول الله ﷺ قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله، إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع»^(٢).

٥ - وعن عرفة الأشجعي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع - على رجل واحد - يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه»^(٣).

٦ - وعن عبادة بن الصامت، قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في: منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم فيه من الله برهان^(٤).

قال الشوكاني: وفي الباب أحاديث غير هذه، بعضها تقدّم في باب «براءة رب المال بالدفع إلى السلطان الجائر»، في «كتاب الزكاة».

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، وأحمد (٢٣٩٩٩).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وأحمد (٢٣٤٢٥). وانظر: الحلال والحرام ص ٣٦٩ وما بعدها.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٢)، وأحمد (١٨٢٩٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩).



وبعضها مذكور في غير هذا الكتاب، من ذلك: حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ: «من خرج من الجماعة؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه، ومن مات وليس عليه إمام جماعة؛ فإن موته مorte جاهليّة»^(١). وقد قدمنا نحوه قريبًا، عن الحارث بن الحارث الأشعري، ورواه الحاكم، من حديث معاوية أيضًا، والبزار، من حديث ابن عباس. وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة، بلفظ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ فميتته جاهليّة»^(٢).

وأخرج أيضًا مسلم نحوه، عن ابن عمر وفيه قصة^(٣).

وأخرج الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري، بلفظ: «من حمل علينا السلاح؛ فليس منا»^(٤). وأخرجاه أيضًا من حديث ابن عمر^(٥)، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة^(٦)، وسلمة بن الأكوع^(٧). وأخرج أحمد، وأبو داود، والحاكم، من حديث أبي ذر: «من فارق الجماعة قدر شبر؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(٨).

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٧٧/١)، وصحّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في الإمامة (١٨٤٨) (٥٤)، وأحمد (٧٩٤٤).

(٣) سبق تخريجه ص ٤٢٣.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٧١)، ومسلم في الإيمان (١٠٠).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٧٠)، ومسلم في الإيمان (٩٨).

(٦) رواه مسلم في الإيمان (١٠١)، وأحمد (٨٣٥٩).

(٧) رواه مسلم في الإيمان (٩٩)، وأحمد (١٦٥٠٠).

(٨) رواه أحمد (٢١٥٦٠)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود في السنّة (٤٧٥٨)، والحاكم في العلم (١١٧/١)، وقال: خالد بن وهبان لم يجرح في رواياته وهو تابعي معروف إلا أن الشيخين لم يخرجاه. وقال الذهبي: خالد لم يضعف.

وأخرج البخاري من حديث أنس: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ، رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى»^(١).

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(٢).

وأخرج الشيخان وغيرهما، من حديث ابن عمر: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمرَ بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»^(٣).

وأخرج الترمذي، من حديث عمر بن الخطاب: «ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم. وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»^(٤).

وأخرج الترمذي من حديث أبي بكر: «من أهان سلطان الله في الأرض؛ أهانه الله تعالى»^(٥).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا طرف منها.

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٢)، وليس فيه: «ما أقام فيكم كتاب الله تعالى».

(٢) متفقٌ عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٩٥٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٥).

(٣) متفقٌ عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩).

(٤) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٤)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن

أبي حميد، ومحمد يضعف من قبل حفظه.

(٥) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٢٤)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي

(١٨١٢).



وقال الشوكاني:

وقوله: «خيار أئمتكم...» إلخ: فيه دليل على مشروعية محبة الأئمة، والدعاء لهم، وأن من كان من الأئمة محباً للرعية ومحبباً لديهم، وداعياً لهم ومدعوّاً له منهم، فهو من خيار الأئمة، ومن كان باغضاً لرعيته مبغوضاً عندهم، يسبهم ويسبونه، فهو من شرارهم، وذلك لأنه إذا عدل فيهم وأحسن القول لهم؛ أطاعوه وانقادوا له وأثنوا عليه، فلما كان هو الذي تسبب بالعدل وحسن القول إلى المحبة والطاعة والثناء منهم، كان من خيار الأئمة، ولما كان هو الذي يتسبب أيضاً بالجور والشتم للرعية، إلى معصيتهم له وسوء القالة منهم فيه، كان من شرار الأئمة.

قوله: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة» فيه دليل على أنه لا يجوز منابذة الأئمة بالسيف مهما كانوا مقيمين للصلاة. ويدل ذلك بمفهومه على جواز المنابذة عند تركهم للصلاة. وحديث عبادة بن الصامت المذكور، فيه دليل على أنها لا تجوز المنابذة، إلا عند ظهور الكفر البواح.

قوله: «فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يداً من طاعة»: فيه دليل على أن من كره بقلبه ما يفعله السلطان من المعاصي، كفاه ذلك، ولا يجب عليه زيادة عليه. وفي «الصحيح»: «فمن رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه»^(١). ويمكن حمل حديث الباب، وما ورد في معناه، على عدم القدرة على التغيير باليد واللسان، ويمكن أن يجعل مختصاً بالأمراء إذا فعلوا منكراً، لما في الأحاديث الصحيحة: من تحريم معصيتهم ومنابذتهم، فكفى في الإنكار

(١) سبق تخريجه ص ٩٢.

عليهم مجرّد الكراهة بالقلب؛ لأن في إنكار المنكر عليهم باليد واللسان: تظاهراً بالعصيان، وربّما كان ذلك وسيلة إلى المنابذة بالسيف.

قوله: «في جُثمان إنس»: بضم الجيم وسكون المثلثة: أي لهم قلوب كقلوب الشياطين وأجسام كأجسام الإنس.

قوله: «وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك؛ فاسمع وأطع»: فيه دليل على وجوب طاعة الأمراء، وإن بلغوا في العسف والجور إلى ضرب الرعية وأخذ أموالهم، فيكون هذا مخصصاً لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

قوله: «وأثرة علينا»، والمراد: أن طاعتهم لمن يتولى عليهم، لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعوهم حقهم. قوله: «وَأَلَّا نَنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ» أي الملك والإمارة، زاد أحمد في رواية: «وإن رأيت أن لك في الأمر حقاً»، فلا تعمل بذلك الظن، بل اسمع وأطع، إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة.

قوله: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عندكم فيه من الله برهان» أي: نص آية أو خبر صريح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه: أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل.

قال الإمام النووي: المراد بالكفر هنا: المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك، فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم؛ فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين.



قال النووي:

وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السُّنة أنَّه لا ينزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور - في كتب الفقه - لبعض أصحابنا: أنَّه ينزل، وحكي عن المعتزلة أيضاً: فغلط من قائله، مخالف للإجماع. قال العلماء: وسبب عدم انزاله وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله، أكثر منها في بقاءه.

قال القاضي عياض: أجمع العلماء أنَّ الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنَّه لو طرأ عليه الكفر: انزل. قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها. قال: وكذلك - عند جمهورهم - المبتدع. قال: وقال بعض البصريين: تنعقد له وتستدام له؛ لأنَّه متأول. قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع، أو بدعة، خرج عن حكم الولاية، وسقط طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه، وخلعه ونصب إمام عادل ما أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها، ويفرّ بدينه.

قال: ولا تنعقد لفاسق ابتداء، فلو طرأ على الخليفة فسق، قال بعضهم: يجب خلعه إلا أن تترتب عليه فتنة وحرب.

وقال جماهير أهل السُّنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويله؛ للأحاديث الواردة في ذلك. قال القاضي: وقد ادَّعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع، وقد رد عليه

بعضهم هذا: بقيام الحسين وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية، وبقيام جماعة عظيمة - من التابعين والصدر الأوّل - على الحجاج مع ابن الأشعث، وتأول هذا القائل قوله: «ألا ننازع الأمر أهله» في أئمة العدل. وحجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق، بل لما غير من الشرع، وظاهر من الكفر. قال القاضي: وقيل: إن هذا الخلاف كان أولاً، ثمّ حصل الإجماع على منع الخروج عليهم. والله أعلم^(١).

ونقل الحافظ في «الفتح»: إذا كانت المنازعة في الولاية، فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلّا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية، نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف، ومحل ذلك إذا كان قادراً.

قال الحافظ: ونقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنّه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم: وجب، وإلّا فالواجب: الصبر. وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداءً، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً، فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح: المنع إلّا أن يكفر، فيجب الخروج عليه^(٢).

قال ابن بطلال: إن حديث ابن عبّاس المذكور - في أوّل الباب - حجة في ترك الخروج على السلطان، ولو جار.

قال في «الفتح»: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك

(١) شرح النووي على مسلم (٢٢٩/١٢)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

(٢) فتح الباري (٨/١٣).

من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك؛ بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما في الحديث^(١) انتهى.

قال الشوكاني: وقد استدل القائلون بوجوب الخروج على الظلمة، ومناذتهم بالسيف، ومكافحتهم بالقتال، بعمومات من الكتاب والسنة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا شك ولا ريب أن الأحاديث التي ذكرها المصنف في هذا الباب وذكرناها أخص من تلك العمومات مطلقاً، وهي متواترة المعنى، كما يعرف ذلك من له أنسة بعلم السنة. ولكنه لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من السلف الصالح - من العترة وغيرهم - على أئمة الجور، فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله وأطوع لسنة رسول الله من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم. ولقد أفرط بعض أهل العلم كالكرامية ومن وافقهم في الجمود على أحاديث الباب، حتى حكموا بأن الحسين السبط - رضي الله عنه وأرضاه - باغ على الخميير السكير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية، فيالله العجب من مقالات تقشعر منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلود^(٢) اهـ.

وقفه مع الحكام المعاصرين:

بقي أن يقال هنا: إن جماعات العنف ترى أن الحكام الحاليين قد ارتكبوا «كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان»، حينما عطّلوا بعض أحكام

(١) فتح الباري (٧/١٣).

(٢) نيل الأوطار (٢٠١/٧ - ٢٠٨)، تحقيق عصام الدين الصباطي، نشر دار الحديث، مصر،

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الشرع عمدًا، مثل إقامة الحدود، ومثل تحريم الربا، ومثل إباحة الخمر، ومثل نشر الخلاعة في أجهزة الإعلام المختلفة، بل إن بعضهم ليحارب المرأة المحتشمة، ويعتبر لبسها الخمار جريمة، في حين يطلق العنان للكاسيات العاريات، أو العاريات غير الكاسيات، ومنهم من يعتبر الدعوة إلى تحكيم الشريعة جريمة مخالفة للدستور، إلى غير ذلك مما يعلمه الخاص والعام.

وأحب هنا أن أفرق بين نوعين من الحكام في ديار الإسلام:

١ - النوع الأول: هو الذي يعترف بالإسلام دينًا للدولة، وبالشرعية مصدرًا للقوانين، ولكنه مفطر في تطبيق الشريعة في بعض الجوانب، فهذا أشبه بالمسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويلتزم بأحكام الإسلام عامة، ولكنه يرتكب بعض الكبائر، من فعل محظور، أو ترك مأمور، فالخوارج ومن وافقهم يكفرونه، وأهل السنة وجمهور المسلمين يعتبرونه مسلمًا عاصيًا، غير خارج من الملة، ما لم يستحل ذلك، أو ينكر معلومًا من الدين بالضرورة، وجل الحكام من هذا النوع.

٢ - والنوع الثاني: هو العلماني المتطرف، الذي يجاهر بالعداوة لشرعية الإسلام، ويسخر منها، ويعتبرها مناقضة للحضارة والتقدم، فهو يرفض الشريعة رفضًا، فهو أشبه بإبليس الذي رفض أمر الله بالسجود لأدم، ووصفه القرآن بأنه: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد تحدثنا عن هذا النوع في كتابنا: «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام».

وقليل من الحكام هم الذين يمثلون هذا النوع، الذي يباهي بعداوته لشرعية الله، ويستحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط

ما فرضه الله، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بل يتبع سبيل المجرمين، ويعمل جاهداً في تجفيف ينابيع التدين في نفوس جماهير المسلمين وفي حياتهم.

وهؤلاء هم الذين يجب مقاومتهم والخروج عليهم، ولكن هذا كله مقيد بحدود القدرة والإمكان، ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها. وكثيراً ما يؤدي استعمال القوة في غير موضعها إلى كوارث كبيرة، ربّما عاقت العودة إلى الشريعة، زمناً قد يقصر أو يطول.

والأولى بالمسلمين هنا أن يتفقوا على آليات سلمية للتغيير، ويستفيدوا ممّا وصل إليه العالم عن طريق الوسائل الديمقراطية في التغيير، أو أي طرق أخرى لا تترتب عليها فتنة في الأرض وفساد كبير. والمؤمن يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت. ولا حرج على المسلمين أن يقتبسوا من الوسائل عند غيرهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ما دامت هذه الوسائل غير مخالفة لنصوص الشرع ولا قواعده، بل هي من «المصالح المرسلّة» التي تتحقق بها مقاصد الشريعة ومنافع الناس.

٤ - الخلل في فقه التكفير:

وأما الخلل في «فقه التكفير» فقد عالجناه في رسالتنا: «ظاهرة الغلو في التكفير».

وبعض هذه الجماعات يكفّرون الحكام، وقد بحثنا ذلك في الفقرة الماضية.

وبعضهم يكفرون المجتمع أو الناس بالجملة، فمنهم من يقول: رضوا بكفر الحكام، والرضا بالكفر: كفر.

ومنهم من يقول: لم يكفّروا بالحكام الكافرين، ومن لم يكفر الكافر: فهو كافر.

ومنهم من يقول: تولوا هؤلاء الحكام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ومنهم من يقول: هذه الجماهير لم تدخل الإسلام أصلاً حتى تخرج منه؛ لأنها لم تفهم المدلول الحقيقي لكلمة: «لا إله إلا الله» فهوؤلاء ليسوا مسلمين.

وكل هذه دعاوى لا تقوم على أسس علمية، فالمرء يثبت إسلامه بالشهادتين، ولسنا مطالبين أن نشق عن قلبه، بل نقبل ظاهره وندع ما خفي إلى الله. كما جاء في الحديث المتفق عليه: «فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله»^(١). وقوله ﷺ لأسامة: «هلا شقت عن قلبه»^(٢).

ومن دخل الإسلام بيقين، لا يخرج منه إلاّ بيقين مثله؛ لأنّ اليقين لا يزال بالشك. والأصل هو حسن الظن بالمسلم، وحمل حاله على الصلاح ما أمكن ذلك، ولو وجد في قول أو فعل أو تصرف وجوه تحتمل الكفر، ووجه واحد يحتمل الإسلام، حمل على هذا الوجه؛ إبقاءً على الأصل، وتحسيناً للظن بالمسلم.

وقد بيّنا في رسالتنا المشار إليها، أنّ الغلو في التكفير وتوسيع نطاقه، خطأ ديني، وخطأ علمي، وخطأ سياسي، ولا يجوز للمسلم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (٩٦)، عن أسامة بن زيد.

الحريص على دينه أن يتورط فيه، فلتراجع تلك الرسالة، فهي مركزة وكافية للكثيرين.

بين العنف والإرهاب:

وهنا نقطة ينبغي أن ننبه عليها، وهي العلاقة بين «العنف» والإرهاب، وهي علاقة العموم والخصوص، بمعنى أن الإرهاب أخص من العنف، فكل إرهاب عنف، وليس كل عنف إرهاباً، فيما أراه.

الإرهاب: أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه.

ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة - عادة - قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على حكومة معينة؛ لتحقيق مطالب له، كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة.

كما يدخل في ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط، لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعلت جماعة أبو سيّاف في جنوب الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل الشّياح في مصر، كما حدث في مذبحة الأقصر وغيرها، لضرب الاقتصاد المصري، للضغط على الحكومة المصرية.

ومن ذلك: ما حدث في (١١) سبتمبر (٢٠٠١م)، في نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها، من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها «آلة هجوم» وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البراء: في برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفيهم أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسي، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤخذون به.

وقد أصدرت فتوى - منذ بضعة عشر عامًا - بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين ستة عشر يومًا، كما قتلوا واحدًا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارًا على ما اقترفته جماعة «أبو سياف».

وكذلك أصدرت بيانًا - عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر - دنت فيه هذا العمل ومقترفيه، أيًا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضًا، دنت الإرهاب بوضوح - في خطبي، ومحاضراتي، ومقالاتي، وكتبي - ومن ذلك: ما ذكرته في كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذي عقد في روما في أكتوبر (٢٠٠١م)، وفيها قلت:

نرفض الإرهاب:

«إنني باسمي وباسم كل علماء المسلمين، نرفض الإرهاب، الذي يعني ترويع الأمنين وقتل البراء بغير حق، ولكننا لا نعد أبدًا من الإرهاب، من يدافع عن وطنه وحرماته ومقدساته، فمن الظلم أن يسمى هذا إرهابًا، بل هو دفاع مشروع.



إنَّ الشرائع السماويّة، والقوانين الوضعيّة، والأعراف الدوليّة، والقيم الفطريّة، كلها متفقّة على مشروعيّة المقاومة لكل غاز يحتل الأرض، حتّى يجلو عن الوطن.

كما أنّنا ننكر أن نحارب الإرهاب بإرهاب مثله، يستخدم نفس منطقته، ويأخذ البريء بذنب المسيء، والمظلوم بجريرة الظالم. ولهذا نحذر هنا أن يؤخذ شعب كامل بجريمة أفراد منه، حتّى لو ثبتت الجريمة عليهم، أو يتهم دين تتبعه أمة كبرى بأنّه دين العنف والإرهاب بسبب أفراد منه. وقد سبق لأفراد مسيحيين في أمريكا نفسها اتهموا بجرائم إرهابية، وحوكموا عليها ودينوا فيها، كما في حادث أوكلاهوما سيتي الشهير، الذي قام به مسيحي أمريكي بدوافع خاصّة، فلم تُتهم بسببه أمريكا كلها، ولا العالم المسيحي، ولا الديانة المسيحيّة.

يجب أن نتعامل مع الإرهابيّين على أساس من معرفة دوافعهم، ودراسة نفسيّاتهم، فالإرهابي إنسان مغلق على نفسه، شديد التعصّب لفكرته التي يؤمن بها، ويرى من خلالها العالم والحياة والإنسان، على غير ما يراه الآخرون، ويرى نفسه هو المصيب، وكل الآخرين مخطئين، أو منحرفين. فهو صاحب قضيّة يعمل من أجلها، وليس من أجل مصلحة نفسه، وهو مستعد أن يضحي بنفسه من أجل قضيّته. وآفته ليست في ضميره، بل في رأسه وفكره.

ولهذا يجب أن يقاوم أوّل ما يقاوم بتصحيح فكرته الخاطئة، ومفاهيمه المغلوطة، ولا يقاوم عنفه بعنف مضاد، إلّا بمقدار ما تملّيه الضرورة، فإن هذا العنف لا يزيده إلّا تصلّبًا وإصرارًا على موقفه. وهنا عمل أهل الفكر والدعوة والتربية، والميدان مفتوح أمامهم، لتقويم ما اعوج من فكر، وإصلاح ما فسد من السلوك.

ثمَّ إنّ جرائم الإرهاب - عادة - إنّما هي جرائم أفراد، أو مجموعات صغيرة، ومثلها لا يقاوم بشن حرب كبيرة عليها؛ لأنّها قد تصيب غيرهم ولا تصيبهم، إنّما يقاوم هؤلاء بما يقاوم به كل المجرمين، وهو تقديمهم لمحاكمة عادلة تعاقبهم بما يستحقون وفق الشرائع والقوانين المرضية.

كما أنّ محاربة الإرهاب حقّاً إنّما تتم بمحاربة أسبابه، ومنها: إزالة المظالم، وحل القضايا المعلقة، ومنها: قضية فلسطين التي شرد أهلها وأخرجوا من ديارهم بغير حق.

ومن ذلك أن يترك للمسلمين حريتهم، وحقهم في أن يحكموا أنفسهم وفق عقائدهم التي آمنوا بها، ولا يفرض عليهم نظام لا يرضونه.

هل هذا العنف مفيد؟

بقي سؤال آخر، لا بدّ منه هنا، وهو: إذا لم نتكلم بمنطق الشرع، وتحدثنا بمنطق المصلحة أو الفائدة والثمرة، فهل هذا العنف مفيد؟ هل يحقق مصلحة للدعوة الإسلامية، وللصحة الإسلامية؟

لا فائدة من هذا العنف:

نستطيع أن نوّكد أن هذا العنف لا يغير حكومة ولا يسقط نظاماً، هذا الاغتيال السياسي، أو القتل العشوائي، أو العمل التخريبي، لم نره غير شيئاً في الأنظمة القائمة التي أراد دعاة العنف تغييرها، وقد جرب الاغتيال السياسي، فذهب حاكم وجاء آخر بعده، واستمر الوضع، وربّما كان الجديد أسوأ من القديم، وربّما ازداد الوضع سوءاً.

ثم إن هذا الذي يقوم بالعنف لا يستطيع الاستمرار فيه إلى الأبد، إنه يستمر مدة ثم يئس، ويلقي سلاحه، ولم يجن ثمرة من عمله، إلا ما قتل من أنفس، وما أضاع من جهد وعمر.

فقه التغيير:

على أنه فقه التغيير الحق لا يتم بالعنف، إنه عملية طويلة المدى، عميقة الجذور، يبدأ أول ما يبدأ وفق المنهج القرآني والنبوي بتغيير ما بالأنفس بالتوعية والتربية، والإعداد الطويل النفس. غير ما بنفسك يتغير التاريخ، هذه السُّنة القرآنية الثابتة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا - للأسف - لا يعيه إلا أولو الألباب، ولا يصبر عليه إلا أولو العزم، وقليل ما هم.

العنف الوحيد المشروع:

إن العنف الوحيد المشروع: هو العنف لمقاومة الاحتلال الغاصب، مثل: مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، والصربي في البوسنة والهرسك، وفي كوسوفا، والهندوسي في كشمير، ونحو ذلك.

وهو ما يجب أن يقرره أهل الحل والعقد، ولا يترك الأمر فوضى لكل من يقدر على حمل السلاح.

وهذا في حدود الاستطاعة، حتى لا تتعرض الجماعة المسلمة للإبادة والتصفية الجماعية، بحجة مقاومة العنف والإرهاب. وبهذا يمكن الكمون والتربص فترة، ثم الظهور عند الفرصة والقدرة. وقد قال تعالى:

﴿فَانْقُضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث المتفق عليه: «إذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم»^(١). وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. وفي الحديث: «لا ضرر، ولا ضرار»^(٢).

مقاومة الكفر البواح:

وهناك عنف آخر مشروع، عبّر عنه الحديث الصحيح المتفق عليه، حين قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ»^(٣).

وذلك مثل: مقاومة الردّة العلمانيّة الصريحة، التي قال عنها العلامة أبو الحسن الندوي: «ردة ولا أبا بكر لها». الردّة التي ترفض قواطع الإسلام، وهذه المقاومة المشروعة في حدود الاستطاعة والإمكان، وإلا وجب الصبر والإعداد ليوم الخلاص».

(١) سبق تخريجه ص ٧٧، وفيه: «ذروني ما تركتكم».

(٢) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وقال منخرجه: حسن. وابن ماجه في الأحكام (٢٣٨١)، عن ابن عباس، والدارقطني في البيوع (٧٧/٣)، عن أبي سعيد الخدري، وقال النووي في الأربعين (الحديث الثاني والثلاثون): حديث حسن. رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسنداً، ورواه مالك في الموطأ مراسلاً عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضاً. وقال ابن الملقّن في خلاصة البدر المنير (٤٣٨/٢): وصحّحه إمامنا - أي الشافعي - في حرملة. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث (٢١٠/٢، ٢١١): وقد استدلل الإمام أحمد بهذا الحديث. قال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجّوا به، وقول أبي داود: إنّه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها؛ يشعر بكونه غير ضعيف، والله أعلم.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٢٤.



من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة

أعظم ما يؤذي الصحوّة الإسلاميّة، ويضر بها، ويعوق مسيرتها، ويمكن أعداءها منها: أن تتناكر فصائلها وأجنحتها المختلفة ولا تتعارف، وأن تتعادي ولا تتآخي، وأن تتفرق ولا تجتمع، وأن يتوجس بعضها من بعض، ويسيء بعضهم الظن ببعض، بل يكيد بعضهم لبعض، بل يعمل كثير منهم لهدم إخوانه، وبناء نفسه على أنقاضهم.

إنّه الداء الوبيل، والمرض الخطير، الذي سمّاه رسول الإسلام ﷺ: «داء الأمم»، وهو الحسد والبغضاء: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(١). بل هو الذي ضيع الدولة الإسلاميّة الكبرى من قبل، ومكن الغزاة من اختراقها، وسلط عليها الصليبيين من الغرب، والتتار من الشرق. وهو ما حذرنا الله تعالى ورسوله منه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(١) سبق تخريجه ص ٤٤.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»^(١). «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٢).

وإذا كان هذا مستنكراً بين المسلمين كافة، فهو أشد ما يكون استنكاراً إذا وقع بين العاملين لنصرة الإسلام، وبعث أمته، وإحياء حضارته، وتحكيم شريعته، وهم أبناء الصحوحة الإسلامية، الذين يفترض فيهم أنهم يحملون هموم الأمة، ويتقدمون الركب المنقذ لها، المدافع عن هويتها وانتمائها ورسالتها.

ولو جاز أن يكون البغض أو الكراهية أساساً للتعامل بين الناس - وما هي بجائزة - فلا يجوز أن تكون أساساً للتعامل بين العاملين للإسلام. إنما الذي يجب أن يسود بينهم هو قانون الحب، أن يحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا هو موجب الإيمان. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى لرسوله ممتناً عليه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٦.

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

وقال: «والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا»^(٢).

حتى من أساء إلى أخيه ينبغي أن يقابل إساءته بالإحسان والصفح، لا بالانتقام أو الحقد. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وإذا كان عنتره الشاعر الجاهلي يقول^(٣):

لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ مَنْ تَغْلُو بِهِ الرُّتْبُ وَلَا يَنَالُ الْعُلَا مَنْ طَبَعُهُ الْغَضَبُ!

فماذا ينبغي أن يقوله المسلم في هذا المقام؟ وإذا كانت قرابة الدم، وصلة العصبه جعلت الشاعر المسلم يقول^(٤):

وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفٍ جِدًّا	وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا	إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَزْتُ لُحُومَهُمْ
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدًا	وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي
وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدًا	وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيِّي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَلَيْسَ كَبِيرُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا!	وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٧٠٩)، عن أبي هريرة.

(٣) ديوان عنتره بشرح الخطيب التبريزي ص ٢٥، تقديم وفهرسة مجيد طراد، نشر دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٢م.

(٤) من شعر المقنّع الكندي، انظر: الحماسة لأبي تمام (٦٠٣/١، ٦٠٤)، تحقيق د. عبد الله عسيان، نشر جامعة الإمام، ١٩٨١م.

إذا كان هذا شأن الرجل المسلم الكبير في قومه مع إخوانه وأبناء عمومته، فيجب أن يكون هذا هو موقف الداعية المسلم مع جميع إخوانه ورفقائه في درب الدعوة، يوفر لحومهم، ويبنّي مجدهم، ويحفظ غيوبهم، ويهوى رشدهم، ولا يحمل حقداً عليهم.

موقف يوسف من إخوته:

وقد ذكر القرآن لنا نموذجاً يحتذى في تعامل الأخ القدوة مع إخوانه إذا أساءوا إليه، وكيف يسامح ويصفح؟! وإن بلغت إساءتهم إلى حد التآمر على القتل.

إنّها قصّة يوسف الذي أصابه من كيد إخوته وحسدكم ما أصابه من محن وابتلاءات استغرقت صباه وشبابه، وبعض كهولته، فلما مكنته الأقدار منهم، لم ينظر إليهم نظرة الحقود الذي يريد أن ينتقم، وأن يصفي الحسابات القديمة، بل عاملهم بطف ومحبّة، والتمس لهم العذر فيما صدر منهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، ففي قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فتح لباب الاعتذار عنهم والتماس مخرج لهم، أنّهم كانوا في مرحلة الجهل والطيش، فكان ردهم: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

وهنا كان الموقف اليوسفي السّمح الكريم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وحين دخل أبوه وإخوته عليه في مصر، وفي ظل سلطانه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رِيَّ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِيَّ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فذكر نعمة الله عليه إذ أخرجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجب حتى لا ينكأ الجراح القديمة، ونسب ما حدث بينه وبين إخوته إلى نزغ الشيطان عدو الإنسان، فكأنه يعتذر عنهم في هذا الموقف الذي أعزه الله فيه. وهكذا ينبغي أن يكون الرجال الكبار من أهل الإيمان والإحسان.

ومن النماذج الخلقية الرائعة ما ذكره الشاعر العربي قديماً عن قومه وقد قتلوا أخاه، وما أروع ما قال^(١):

قَوْمِي هُمُو قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي!
فَلَيْنَ عَفَوْتُ لَأَعْفُونَ جَلًّا وَلَيْنَ رَمَيْتُ لَأُوهِنَنَّ عَظْمِي!

فما أبلغ هذا الكلام وما أصدق، فإنه إذا أراد أن يثأر لأخيه من قومه، فرماهم بسهمه، فإنَّ السهم سيصيبه ويجرحه كما يصيبهم ويجرحهم؛ لأنَّهم منه، وهو منهم، ورميه لهم سيوهن عظمه كما يوهن عظمهم، فليس له إلا أن يعفو، وإن كان العفو أمراً جلاً، ولكن لا بديل عنه.

وقد كان مسطح من أقارب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، ولكنه أطال لسانه في عائشة رضي الله عنها، وشارك أصحاب الإفك في تناول عرضها بسوء، ولم يراع حق القرابة، ولا حق الإسلام. فلما أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، حلف أبو بكر ألا يصله بما كان يصله به من مال من قبل، جزاء على فعلته النكراء، وموقفه الخبيث. ولكن القرآن عاتب أبا بكر في ذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ

(١) بلفظ مقارب للحارث بن وعله الرقاشي انظر: شرح ديوان الحماسة (١١٨/١).

يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[النور: ٢٢]﴾. فلما قرأ أبو بكر الآية، قال: بلى أحب أن يغفر الله لي. وعاد إلى وصله وبرّه كما كان من قبل^(١).

موقف الإمام أحمد ممّن أسأؤوا إليه:

وانظر إلى موقف الإمام أحمد ممّن آذوه وعذبوه في المحنة المعروفة في تاريخنا بمحنة خلق القرآن، كيف صفح عنهم وجعلهم في حل؟! محتسباً أجره على الله.

فقد روي عنه: أنّه جعل كل من حضر ضربه وآذاه في حلّ، حتّى الخليفة العباسي الذي ضرب بأمره - وهو المعتصم - جعله في حل، وخصوصاً بعد أن فتح عاصمة «بابك» الخرمي الملحد المارق، وظفر به، وبعد فتحه لعمورية.

وكان ممّا دعاه إلى ذلك: ما قرأه في كتاب الله من مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقد روي في تفسيرها عن الحسن: إذا كان ذلك يوم القيامة جثت الأمم كلها بين يدي الله رب العالمين، ثمّ نودي: أن لا يقوم إلّا من أجره على الله، فلا يقوم إلّا من عفا في الدنيا^(٢)!

قال: ورأيت الله يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

[النور: ٢٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

(٢) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص ٤٦٥، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن

التركي، نشر دار هجر، ط ٢، ١٤٠٩هـ.

وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قضية مسطح، قال الإمام أحمد: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سببك^(١)!

فما أبلغها وأروعها من كلمة لا تصدر إلا عن «الإمام حقًا، وشيخ الإسلام صدقًا»، كما وصفه المؤرخ الكبير الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

هذه الروح الإيمانية المحلقة هي التي يجب أن تسري وتسود بين رجال الدعوة، وفصائل الصحة، في الساحة الإسلامية، لا روح التناكر والتباغض والتعادي التي نشهدها ونلمس آثارها المدمرة بأعيننا، فأبناء الصحة ينهش بعضهم بعضًا، ويذوق بعضهم بأس بعض، وهذا من عقوبات الله تعالى القدريّة، التي أنذر بها المشركين، حين كذبوا رسوله، وأعرضوا عن دعوته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والواجب على القيادات الدعوية والفكرية والتربوية، أن تهتمّ بعلاج هذه الظاهرة، وتُعطيها عناية أكبر؛ ظاهرة التفرق والتشاحن بين الجماعات الدينية المختلفة التي تكوّن الصحة الإسلامية.

ولا يمكن علاج هذه الظاهرة بمحاولة رفع الخلاف في المسائل الفقهية، والفروع الدينية، فقد بيّنّا بالأدلة أنّ الاختلاف في الفروع ضرورة ورحمة وسعة، وأنّ الاختلاف لا يضرّ، ولكن الذي يضر هو التفرق والتعادي، وأنّ الذين حاولوا إلغاء المذاهب، لم يزيدوا على أن زادوا بمحاولتهم مذهبًا جديدًا.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٦١/١١).

(٢) المصدر السابق (١٧٧/١١).

وكذلك نادى بعض المخلصين المثاليين - على المستوى الحركي - أن تتوحد الجماعات الإسلامية، والحركات الإسلامية، في جماعة أو حركة عالمية كبرى تضم الجميع في كنفها، وتلغي انتماءاتهم لجماعاتهم الأصلية، وهي أمنية عذبة، ولكنها بعيدة المنال من جهة الواقع.

فالناس لكي يكونوا أعضاء جماعة واحدة، لا بد أن يتفقوا على الأهداف وعلى ترتيبها، ثم على المناهج والوسائل الموصلة إلى الأهداف، ثم على القيادات والأشخاص، والاتفاق على هذا كله ليس بالأمر السهل.

ولهذا ناديت منذ زمن طويل بأنه لا مانع من أن تتعدد الجماعات والحركات العاملة لنصرة الإسلام، وبعث الأمة الإسلامية، وأن يعمل كل منها في الميدان الذي يختاره ويحسنه، فهذا يعمل في تحرير العقيدة من الشكوك والخرافات، وآخر يعمل لتحرير العباد من المبتدعات، وثالث يعمل لتربية النشء تربية إسلامية، وإنشاء المدارس الإسلامية، ورابع يعمل في مجال الاقتصاد وتأسيس المصارف والشركات الإسلامية، وخامس يعمل في مجال الفكر والثقافة والرد على الماركسيين والعلمانيين، وغيره يعمل في الميدان السياسي وخوض الانتخابات لإبلاغ كلمة الإسلام إلى المجالس التشريعية، وآخر يعمل في المجال الاجتماعي، والخيري، والإغاثة الإنسانية. وآخر يعمل في أكثر من مجال من هذه المجالات.

وهذا التعدد لا ضرر فيه ولا خطر، بل هو من «اختلاف النوع»، وهو من الظواهر الشائعة في الكون كله التي يعبر عنها القرآن باختلاف الألوان، ويعده آية من آيات الله؛ لأنَّ التنوع فيه إثراء للحياة، وإغناء لها.

وهذا بخلاف «اختلاف التضاد» أو «التناقض»، فهذا هو الذي يحمل الضرر والخطر، ومنه يتطايّر الشرر، ويتصارع البشر.

ومن المهمّ في هذا التعدّد أن يكون بين الجميع قدر من التفاهم والتنسيق، بحيث لا تتصادم المصالح، ولا تتعارض الاتجاهات، وأن يقف الجميع في القضايا المصيريّة والأحداث الكبرى، صفّاً واحداً، وجبهة مترابطة؛ وبهذا لا يضرُّ أبداً التعدّد التنظيمي، ولا الاختلاف الجزئيّ.

ولم أرَ في القادة والدعاة الإسلاميين من كان أحرص على جمع الكلمة، ولمّ الشمل، وتوحيد الصفوف بين الإسلاميين، وإزالة الجفوة بين بعضهم وبعض، مثل الإمام حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ، فقد كان أبداً يسعى لأن يجمع ولا يُفَرِّق، وأن يُقَرِّب ولا يبعد، وأن يبني ولا يهدم، ما وجد إلى البناء سبيلاً.

وحين أنشئ اتحاد الجمعيات الدينيّة في مصر، قدم مذكرة تتضمّن ما سُمّي بعد ذلك: «الأصول العشرين»، لتكون أساساً تلتقي عليه الجماعات الإسلاميّة. ولذا صاغها صياغة تميّز بالاعتدال والحكمة والمرونة، بحيث يتّفق عليها الجميع، وترك بعض القضايا دون حسم مثل قضية التوسّل؛ لأنّ الحسم فيها برأيٍ قاطع قد يؤدي إلى الاختلاف، وهو يهدف إلى الائتلاف.

وعلى كل داعية أو مفكر أو مُرَبٍّ يتحرّى إصلاح ذات البين، وتقريب فصائل الدعوة الإسلاميّة أو الصحوة الإسلاميّة بعضها من بعض، أن يحذو حذو الإمام حسن البنا حتّى يجتمع الشمل المشتّت، ويتوحد الصفّ الممزّق، ويلتقي الجميع على كلمةٍ سواء.

ضرورة معرفة الأسباب:

ولا بدّ لنا هنا أن نعرف أسباب هذا التناكر والتشاحن بين فصائل الصحوة؛ حتّى نستطيع أن نعالجها على بصيرة، فإنّ العلاج الصحيح لا يتمّ إلا بمعرفة الأسباب.

ورأيي أن هناك جملة أسباب تؤدّي إلى هذه الظاهرة المرّضية، التي لا يحسن السكوت عليها بحال من الأحوال. من هذه الأسباب:

١ - جهل الأطراف أو الفصائل المختلفة بعضها ببعض؛ ولهذا لا بدّ من جهد يبذل للتعرف على الآخرين، وتعريفهم بأنفسنا، دون استعلاء أو تطاول.

٢ - الإعجاب بالنفس، والتعصّب للرأي، واعتقاد أنّه هو الذي يملك الحق وحده، وأنّ الآخرين جميعاً على باطل، والإعجاب بالنفس أحد المهلكات.

٣ - سوء الظن بالآخرين، مع تحذير القرآن من ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١).

٤ - ضيق الصدر بخلاف الآخرين، واعتقاد أنّ الساحة لا تحتلّ الخلاف، مع أنّ الصحابة وتابعيهم والمسلمين في خير القرون اختلفوا، وظلّوا مع ذلك إخواناً متحابّين.

٥ - الاستجابة لوسائل المُفرّقين بين أبناء الأمّة من أعدائها المتربّصين بها، الذين تقوم سياستهم على قاعدة: فرّق تسدّ! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]،

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٦.

والسياق يدل على أنَّ المعنى: يردوكم بعد وحدتكم متفرقين، وبعد أخوتكم متعادين.

ضرورة وحدة الصف:

وأعتقد أن من المهم هنا أن يدرك الجميع ضرورة وحدة الصف، وجمع الكلمة بين العاملين لنصرة الإسلام، وخدمة قضاياءه، وإن اختلفت رؤاهم أو آراؤهم الجزئية في بعض الأمور، فليس من اللازم إذا اختلفت آراؤهم أن تختلف قلوبهم.

إننا نطمح إلى أهداف كبيرة نريد بها أن تنهض أمتنا، وأن نرقى بها ماديًا وروحيًا، وأن نضعها في مكانها الصحيح بين أمم الأرض باعتبارها: «الأمة الوسط» وبوصفها: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، نحن نريد أن نغير الأمة من داخلها، نغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها، وفق سنته التي لا تبدل.

نريد أن ننشئ الفرد الصالح، والبيت الصالح، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة، وهذه أهداف كبار، لا بد أن تتعاون عليها كل الجهود، وأن تفكر فيها معًا كل العقول، وأن تحشد لها كل الطاقات. والمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ويد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

إنَّ الأعمال الفردية - وإن كان لها فضلها وثوابها - لا يمكن أن تنهض بالأعباء الكبيرة وحدها، إنما تنهض بها الجماعات والمؤسسات؛ ولهذا دعانا الإسلام إلى التعاون وأمرنا به حين قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ونحن نرى خصوم الإسلام يعملون في صورة تجمعات وتكتلات كبرى، وبذلك يتمكنون من تحقيق أهدافهم الإقليمية والعالمية، بتكاتفهم وتساندهم، وفناء بعضهم في بعض.

وهم بذلك يطبقون ما أوجبه ديننا، فلو لم يكن هذا دينًا مفروضًا من الله علينا، لوجب علينا أن نقتبسه منهم، حتى لا نتخلف عنهم.

وإذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر، فلا يجوز لهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة، فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين، وأن المصائب يجمعن المصابين، وقديمًا قال الشاعر^(١):

عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَذْهَبُ الْأَحْقَادُ

ونحن الآن نعاني محنًا قاسية، وقوارع شديدة، في كل وطن من أوطاننا، وفي أمتنا بصفة عامة، وخصوصًا بعد أحداث (١١) سبتمبر (٢٠٠١م)، دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير، وموقف خطير، يستوجب منها عامة، ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة، أن ينسوا خلافاتهم الجانبية، ومعاركهم الهامشية، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع، ويتساند الجميع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُورَةٌ﴾ [الصف: ٤].

وإن من أشد المخاطر أن يتلاحم خصوم الأمة من أهل الكفر، ويوالي بعضهم بعضًا، في حين يتباعد أهل الإيمان ويتخاذلون، وهو

(١) الشعر لعويف القوافي. انظر: الأغاني (١٣٨/١٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١،



ما حذر منه القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، أي إن لم يوال بعضكم بعضاً، ويتكاتف بعضكم مع بعض كما يفعلون، تكون الفتنة والفساد الكبير؛ لأن معناه أن أهل الباطل يتجمعون، وأهل الحق يتفرقون، وأن هناك عملاً، وهنا فراغاً، هذا هو الخطر كل الخطر.

وقد رأينا غير المسلمين يتجمعون ويتوحدون، على الرغم من وجود أسباب للخلاف بينهم، بعضها تاريخي، وبعضها واقعي، كما رأينا في الاتحاد الأوروبي، الذي حدث بين بلاده بعضها وبعض، حروب وحروب، آخرها الحربان العالميتان، اللتان سقط فيهما ملايين الضحايا، ومع هذا طرحوا هذه المآسي وراءهم ظهرياً، ووجدوا مصلحتهم الكبرى في أن يتحدوا.

وقبل ذلك، رأينا التقارب بين المذاهب المسيحية بعضها وبعض، وبين المسيحية عموماً واليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما، حتى أصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح.

والمسلمون - وحدهم - الذين يختلفون ويتنازعون بعضهم مع بعض، مع توافر الكثير من أسباب الوحدة بينهم، وحسبهم أنهم جميعاً من أهل القبلة، وأنهم جميعاً من أهل: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وأنهم جميعاً رضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

ولقد ذكر القرآن الكريم في قصة موسى ﷺ: حادثة فيها تبصرة وعبرة لأولي الأبصار، وهي قصة هارون ﷺ مع قومه، ذهب موسى إلى مناجاة ربه أربعين ليلة، فأضلهم السامري، وأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى. وأطاعه القوم وعبدوا العجل، الذي

لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا يهديهم سبيلاً: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿[طه: ٩٠، ٩١].

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً لما فعلوه في غيبته، وألقى ألواح التوراة في الأرض غضباً لله وللحق، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قائلاً له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿ [طه: ٩٢ - ٩٤].

وقد رضي موسى بهذا الجواب، وأقرّه القرآن الكريم، فدلّ على أن ما رعه هارون أمر له اعتباره في ميزان الدين، وهو الحرص على وحدة الجماعة، حتّى لا تتمزق، والسكوت على منكر كبير، بل هو أكبر منكر - وهو الإشراف بالله تعالى بعبادة غيره سبحانه - حرصاً على وحدة الجماعة، وهو قطعاً سكوت مؤقت، حتّى يرجع موسى من رحلته، ويتفاهم الأخوان معاً في علاج الموقف الخطير بما يلائمه.

ولا يقول أحد: إنّ هذا كان شرع من قبلنا، فإنّما يذكر القرآن هذه القصص لناخذ منها العبرة والدروس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى لرسوله بعد أن ذكر له عدداً من أسماء رسله الكرام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

تأصيل فقه الاختلاف:

ويهمني أن أذكر هنا حقيقة لا غنى عنها، وهي حاجتنا إلى تبني «فقه الاختلاف» أو «فقه الائتلاف»، كما سمّاه أحد إخواننا الباحثين.

وهو الذي نعرف منه أنَّ الاختلاف في فروع الشريعة ضرورة ورحمة وسعة، وقد بينتُ ذلك بتفصيل في كتابي: «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

وقد اختلف في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وتابعوهم بإحسان، والأئمة المرضيون المتبوعون، فما ضرهم ذلك، بل اختلفت اجتهاداتهم، ولم تختلف قلوبهم، وصلى بعضهم وراء بعض، وأثنى بعضهم على بعض، وهذا شأن الراسخين في العلم. أما السطحيون والمهازيل فهم لا يطيقون أن يختلفوا مع أحد، أو يختلف معهم أحد.

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بتفصيل في الجزء الخامس من سلسلتنا: «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام»، وهو الخاص بالتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف، وقد حاولت فيه أن أوصل فقه الاختلاف، وأقيمه على أصول وركائز شرعية، وقواعد فقهية راسخة، بلغت تسع عشرة ركيزة مؤسسة على القرآن والسنة، وما اجتمع عليه أكابر علماء الأمة في خير قرونها، التي بها يقتدى فيهدى.

ركائز فقه الاختلاف:

ومن هذه الركائز والقواعد التي تجب رعايتها واعتبارها في فقه الخلاف:

- ١ - اعتبار أنَّ الاختلاف في فروع الفقه ضرورة.
- ٢ - اعتبار أنَّ الاختلاف في فروع الفقه رحمة وتوسعة للأمة.
- ٣ - اعتبار أنَّ الاختلاف في فروع الفقه ثروة في التشريع للأمة.
- ٤ - أن محاولة رفع الخلاف، وحمل الأمة كلها على رأي واحد، غير ممكن، وغير مجد.



٥ - احتمال الصواب في رأي المخالف.

٦ - إمكان تعدد الصواب.

٧ - المخطئ في الاجتهاد - ما دام من أهله - معذور، بل مأجور.

٨ - لا إنكار في المسائل الاجتهادية الخلافية.

٩ - إنصاف المخالف وذكر ما أحسن فيه.

١٠ - العدل مع الموافق ونقده بالحق.

١١ - التعاون في المتفق عليه.

١٢ - التسامح في المختلف فيه.

١٣ - التحاور في المختلف فيه.

١٤ - تسامح المختلفين وصلاة بعضهم وراء بعض.

١٥ - اعتبار المذاهب كلها على خير وهدى.

١٦ - الترحيب باختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

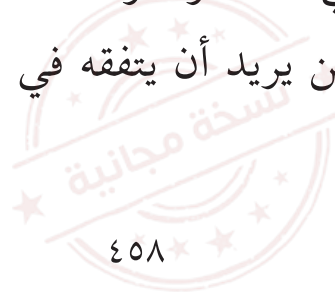
١٧ - تجنب المراء واللد في الخصومة.

١٨ - الأدب مع الكبراء والعلماء.

١٩ - اجتناب التأثيم والتكفير.

ركيزة التسامح في المختلف فيه:

وقد فصلنا القول في هذه الركائز التسعة عشر في فصول ضافية،
أنصح بالرجوع إليها لمن يريد أن يتفقه في الموضوع، ويحيط به علمًا،
أو يزداد به علمًا.





وأكتفي هنا بنقل أهم ما ذكرته عن الركيزة الثانية عشرة، التي تحدث عن «التسامح في المختلف فيه»، وهو الشق الثاني من «قاعدة المنار الذهبية»، التي دعا إليها العلامة السيد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ، والتي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، وأنا أحبذ أن أعرضها بقولي: ونتسامح فيما اختلفنا فيه.

ومما ينبغي ذكره هنا: أن بعض الإخوة من المحافظين - أو المتشددين - اعترضوا على هذه القاعدة، كما ذكرت ذلك في كتابي: «فتاوى معاصرة - الجزء الثاني». ولم يكن اعتراضهم على الشق الأول، وهو التعاون في المتفق عليه، بل كان منصبًا على الشق الثاني، وهو التسامح في المختلف فيه، وقالوا: كيف نعذر أو نسامح من يخالف النصوص من القرآن والحديث؟

وكان جوابنا: أنَّ النصوص القطعية الثبوت والدلالة لا عذر فيها ولا تسامح؛ لأن هذه هي الثوابت التي تجسد وحدة الأمة.

ولكن الكلام فيما يحتمل الخلاف في النصوص، فهذا يأخذ بالظاهر، وآخر يأخذ بالمقصد والفحوى، كاختلاف الصحابة في صلاة العصر في سيرهم إلى بني قريظة. وقد يأخذ بعضهم بالحقيقة، ويأخذ غيره بالمجاز، كاختلاف بعض الصحابة والتابعين والأئمة في مفهوم قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]. وقد يأخذ بعضهم بإطلاق النص أو عمومه، وغيره يقيده أو يخصصه، وقد يقبل بعضهم الحديث، وآخر يرفضه، إلى غير ذلك من الأسباب التي فصلها الإمام ابن تيمية في كتابه: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

ولهذا آثرت أن أنقل هنا هذا الفصل: «التسامح في المختلف فيه» لما أرى فيه من أهميّة وضرورة.

ومعنى «التسامح في المختلف فيه»: أن ننظر بصدر واسع، ومن أفق رحب، إلى المسائل التي اختلف فيها الأئمة، وتعددت فيها مذاهب الأمة، فلا تتعصب لرأي ضد رأي، ولا لمذهب ضد مذهب، ولا لإمام ضد إمام آخر. باعتبار أنّهم كلهم على هدى، وجميعهم على خير، وكل منهم بذل وسعه في طلب الحق، مبتغيًا وجه الله تعالى ورضاه، فيما نعلمه عنهم، ولا نعلم عنهم جميعًا إلا خيرًا.

وإذا آمنا بما ذكرناه من مبادئ وركائز، من حيث إنّ الاختلاف ضرورة لا بدّ منها. وإنّ رحمة وتوسعة للأمة، واحتمال صواب رأي المخالف، وإمكان تعدد الصواب، وعدم إمكان جمع الناس على رأي واحد، وعدم جدواه أيضًا، وأنّ المخطئ في اجتهاده من أهل العلم مأجور على خطئه أجرًا واحدًا، وأنّه لا إنكار في المسائل الاجتهادية أو الخلافية. فهذا كله وغيره يؤدي إلى نتيجة مهمة، وهي أن يسامح بعضنا بعضًا، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ولا يضيق بهذا الاختلاف أو ينظر إلى من خالفه نظرة عداوة أو ريبة وتنقص، إلّا من ضاق صدره، وضاق أفقه، ولم يستوعب المعاني السالفة، التي بيّناها وكشفنا الغطاء عنها، ولم يحط خبرًا بما كان عليه سلف الأمة في خير قرونها، ومن بعدهم من أعلام العلماء، وأفذاذ الفقهاء، ممّن أعز الله بهم الدين، ونفع بعلومهم المسلمين. فلم يكن الاختلاف بينهم في الآراء والفروع ليفرق جماعتهم، أو ليهدم أخوتهم، أو ليفتح ثغرة للشيطان ليقوع بينهم العداوة والبغضاء، كما يوقعها بين أهل الخمر والميسر.

والتسامح مع المخالف، والتماس العذر له، وأكبر من ذلك، احترام رأيه واجتهاده؛ هو الشائع بين أئمة السلف عليهم السلام؛ لهذا لم يكن يعيب بعضهم على بعض، بل كان بعضهم يعذر بعضاً، ويقدر بعضهم بعضاً، ويحب بعضهم بعضاً، ويصلي بعضهم خلف بعض، بل قد يدل أحدهم مستفتيه أن يذهب إلى عالم آخر، أو حلقة أخرى تيسر له، وتوسع عليه، بل قد يقلد مذهب المخالف عند الحاجة.

ولهذا أمثلة شتى:

احترام رأي المخالف في الفروع والعمل به عند الحاجة:

قال الإمام الأوزاعي في الذي يقبل امرأته: إن جاء يسألني قلت: يتوضأ، وإن لم يتوضأ لم أعب عليه^(١).

وقال الإمام أحمد في الركعتين بعد العصر: لا نفعله، ولا نعيب من فعله^(٢).

وتناظر علي بن المديني، ويحيى بن معين في مسجد الخيف حول مس الذكر، وهل ينقض الوضوء؟ بحضور أحمد بن حنبل، وقال يحيى: يتوضأ منه. واحتج بحديث بُسرة بنت صفوان، واحتج عليّ بحديث قيس بن طلق، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما هو بضعة منك»^(٣)، ثم احتج يحيى بقول

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٧٢/٢١)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

(٢) المصدر السابق (٣٧/١٣).

(٣) رواه أحمد (١٦٢٨٦)، وقال مخرجه: حديث حسن. وأبو داود (١٨٢)، والترمذي (٨٥)، والنسائي (١٦٥)، ثلاثهم في الطهارة، عن طلق بن عليّ.

ابن عمر، واحتج علي بقول عمار، فقال أحمد: عمار وابن عمر استويا، فمن شاء أخذ بهذا، ومن شاء أخذ بهذا^(١).

وذكر أبو داود في مسائله عن الإمام أحمد قال: قلت لأحمد: فرجل لا يرى من مس الذكر وضوءاً، أصلي خلفه، وقد علمت أنه مس؟ قال: نعم^(٢).

وقال ابن قدامة:

فأما المخالفون في الفروع كأصحاب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي؛ فالصلاة خلفهم صحيحة، غير مكروهة، نصّ عليه أحمد؛ لأنّ الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم يزل بعضهم يأتهم ببعض، مع اختلافهم في الفروع، فكان ذلك إجماعاً... فإن علم أنّه يترك ركناً أو شرطاً يعتقده المأموم دون الإمام، فظاهر كلام أحمد صحة الائتمام به.

قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله يُسأل عن رجل صلى بقوم وعليه جلود الثعالب؟

فقال: إن كان لبسه وهو يتأول: «أيما إهاب دبغ فقد طهر»، يصلي خلفه.

قيل له: أفتراه أنت جائزاً؟

قال: لا، نحن لا نراه جائزاً، ولكن إذا كان هو يتأول؛ فلا بأس أن يصلي خلفه.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١/١٣٦).

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني ص ٢٠، تحقيق طارق بن عوض، نشر مكتبة ابن تيمية، مصر، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ثم قال أبو عبد الله (أي أحمد بن حنبل): لو أن رجلاً لم ير الوضوء من الدم لم يصل خلفه! ثم قال: نحن نرى الوضوء من الدم، فلا نصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك، ومن سهل في الدم؟! أي بلى^(١).

وفي «التمهيد» لابن عبد البر قال - بعد أن ذكر قول الأئمة الثلاثة وغيرهم - في حكم من صلى الجمعة قبل الزوال:

كل هؤلاء يقول: لا تجوز الجمعة قبل الزوال، ولا يخطب لها إلا بعد الزوال، وعلى هذا جمهور الفقهاء وأئمة الفتوى. وقد كان أحمد بن حنبل يقول: من صلاها قبل الزوال لم أعبه، وقال الأثرم: قلت له: يا أبا عبد الله، ما ترى في صلاة الجمعة قبل زوال الشمس؟

فقال: فيها من الاختلاف ما قد علمت^(٢).

وقال الإمام أحمد: إنما ينبغي أن يؤمر الناس بالأمر البين الذي لا شك فيه^(٣).

وهكذا ترى تسامحهم في المختلف فيه، ولا يرمون المخالف بالنبال والسهام الجارحة - بل القاتلة - كما يفعل بعض أتباعهم في عصرنا.

وكان أبو حنيفة يفتي بأن المزارعة لا تجوز، ثم يفرع على القول بجوازها، ويقول: إنَّ الناس لا يأخذون بقولي في المنع؛ ولهذا صار صاحبا إلى القول بجوازها^(٤).

(١) المغني (٢٣/٣) وما بعدها.

(٢) التمهيد ابن عبد البر (٧٢/٨).

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (٥٩/٢)، نشر عالم الكتب.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨١/٣٠).

ومذهب أبي حنيفة وأصحابه: الوضوء من خروج الدم، ورأى أبو يوسف هارون الرشيد احتجم وصلى ولم يتوضأ. وكان مالك أفتاه بأنّه لا وضوء عليه إذا احتجم؛ وصلى أبو يوسف خلفه، ولم يعد الصلاة.

واغتسل أبو يوسف في الحمام، وصلى الجمعة، ثمّ أخبر بعد الصلاة: أنّه كان في بئر الحمام فأرة ميتة، فلم يعد الصلاة، وقال نأخذ بقول إخواننا من أهل الحجاز: «إذا بلغ الماء قلتين؛ لم يحمل الخبث»^(١).

ونقل عن الشافعي: أنّه اشترى الباقلاء من منادي السكك، فأكل - وهو يرى حرمة الأكل من الباقلاء، وغيرها ممّا تجب فيه الزكاة قبل إخراجها وقت الوجوب... وأنّه صلى بعد ما حلق، وعلى ثوبه شعر كثير، وكان وقتئذ يرى نجاسة الشعر على مذهبه القديم، فقليل له في ذلك، فقال: حيث ابتلينا نأخذ بمذهب أهل العراق^(٢).

وقال المناوي: حكى الزركشي أنّ القاضي أبا الطيب «من الشافعيّة» أقيمت صلاة الجمعة، فهتمّ بالتكبير، فزرق عليه طير، فقال: أنا حنبلي؛ فأحرم ولم يمنعه عمله بمذهبه تقليد المخالف عند الحاجة^(٣).

وقال ابن تيمية: ثمّ من المعلوم المتواتر عن سلف الأمة، أن بعضهم ما زال يصلي خلف بعض... فما زال الشافعي وأمثاله يصلون خلف أهل المدينة، وهم لا يقرؤون البسملة سرّاً ولا جهراً^(٤).

(١) انظر: رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (٧٥/١)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) انظر: عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق للبانى ص ٩٣، نشر مطبعة حكومة دمشق، ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م.

(٣) فيض القدير (٢١١/١) شرح حديث: «اختلاف أمتي رحمة».

(٤) مجموع الفتاوى (٣٦٥/٢٠).

وقال أيضًا: «مذهب أهل المدينة أنَّ الإمام إذا صلى ناسيًا لجنابته وحدثه، ثمَّ علم أعاد هو ولم يعد المأموم، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين كعمر وعثمان، وعند أبي حنيفة: يعيد الجميع، وقد ذكر ذلك رواية عن أحمد، والمنصوص المشهور عنه كقول مالك، وهو مذهب الشافعي.

واستخلف الخليفة أبا يوسف «صاحب أبي حنيفة» في صلاة الجمعة، فصلى بالناس، ثمَّ ذكر أنَّه كان محدثًا فأعاد، ولم يأمر الناس بالإعادة، ف قيل له في ذلك، فقال: ربَّما ضاق علينا الشيء، فأخذنا بقول إخواننا المدنيين! مع أن صلاة الجمعة فيها خلاف كبير لكون الإمام شرطًا فيها»^(١).

إحالة المستفتي إلى المذهب الأيسر عند الحاجة:

ومما أثر من أدب السلف عليه السلام أن يحيل أحدهم المستفتي إلى من يعلم أنَّه ييسر عليه في فتواه ولا يجد في ذلك حرجًا، ما دام العالم الآخر ثقة، غير متلاعب بالدين.

قال أبو بكر الخلال: أخبرني الحسين بن بشار المخرمي، قال: سألت أحمد بن حنبل عن مسألة في الطلاق؟ فقال: إن فعل حنث.

فقلت: يا أبا عبد الله، اكتب لي بخطك، فكتب لي في ظهر الرقعة «قال أبو عبد الله: إن فعل حنث».

(١) مجموع الفتاوى (٣٦٤/٢٠).

قلت: يا أبا عبد الله، إن أفتاني إنسان؟ يعني لا يحث.

فقال لي: تعرف حلقة المدنيّين؟

قلت: نعم - وكانت للمدنيّين حلقة عندنا في الرّصافة في المسجد الجامع - فإن أفتوني حلّ؟

قال: نعم^(١).

ترك بعض السنن لتأليف القلوب:

ومن دلائل تسامح السلف: أنّهم أجازوا ترك بعض السنن والمستحبات في العبادات ونحوها، من أجل تأليف القلوب، وعملاً بالحديث الشريف: «بشروا ولا تنفروا». متّفق عليه^(٢).

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بجمع (أي مزدلفة)، فلما دخل مسجد منى، فقال: كم صلى أمير المؤمنين، قالوا: أربعاً، فصلى أربعاً.

قال: فقلنا: ألم تحدثنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين وأباً بكر صلى ركعتين؟!

فقال: بلى وأنا أحدثكم الآن، ولكن عثمان كان إماماً، فما أخالفه، والخلاف شر^(٣).

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٤٢/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٨.

(٣) رواه البيهقي في الصلاة (١٤٤/٣).

وروي أَنَّ الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ، ترك القنوت في صلاة الصبح لما صلى مع جماعة الحنفيّة في مسجد إمامهم ببغداد، على خلاف مذهبه. وفسروا ذلك بأنّه فعله تأدبًا مع الإمام أبي حنيفة، أو تألفًا لقلوب أتباعه. وكلاهما من الأدب الرفيع.

وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: سمعت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم رَحِمَهُ اللهُ يقول: كان أبو إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم شيخنا يرفع يديه كلما خفض ورفع، على حديث ابن عمر في «الموطأ»، وكان أفضل من رأيت وأفقههم وأصحهم علمًا ودينًا.

فقلت له: فلم لا ترفع أنت فنقتدي بك؟!!

قال لي: لا أخالف رواية ابن القاسم؛ لأنّ الجماعة لدينا اليوم عليها، ومخالفة الجماعة فيما قد أبيع لنا ليس من شيم الأئمة^(١).

قال محمّد بن رافع: كنت مع أحمد بن حنبل، وإسحاق عند عبد الرزاق، فجاءنا يوم الفطر، فخرجنا مع عبد الرزاق إلى المصلى ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا من المصلى دعانا عبد الرزاق إلى الغداء، فقال عبد الرزاق لأحمد وإسحاق: رأيت اليوم منكما عجبًا؛ لم تكبرا!

قال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر، نحن كنا ننظر إليك: هل تكبر فنكبر؟ فلما رأيناك لم تكبر أمسكنا.

قال: أنا كنت أنظر إليكما: هل تكبران فأكبر^(٢)؟

(١) التمهيد لابن عبد البر (٢٢٣/٩).

(٢) رواه ابن عساكر تاريخ دمشق (١٧٥/٣٦). وانظر: سير أعلام النبلاء (٥٦٦/٩).

فانظر أدب الأكابر بعضهم مع بعض، ودع عنك الأصاغر الذين
حرموا الأدب!

وقال شيخ الإسلام في إحدى فتاويه: «إذا اقتدى المأموم بمن يقنت
في الفجر أو الوتر قنت معه، سواء قنت قبل الركوع أو بعده، وإن كان
لا يقنت لم يقنت معه. ولو كان الإمام يرى استحباب شيء والمأمومون
لا يستحبونه، فتركه لأجل الاتفاق والائتلاف كان قد أحسن».

ثم استدلل رَحِمَهُ اللهُ بقول النبي ﷺ لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد
بجاهليّة لنقضت لهم الكعبة، ولألزقتها بأرض، ولجعلت لها بابين؛
باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه»^(١). فترك الأفضل عنده لئلا
ينفر الناس.

وكذلك لو كان رجل يرى الجهر بالبسملة، فأمر قومًا لا يستحبونه أو
بالعكس ووافقهم فقد أحسن^(٢).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موضع آخر من «فتاويه»:

ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل
إذا كان فيه تأليف المأمومين.

فلو كان ممن يرى المخافة بالبسملة أفضل أو الجهر بها، وكان
المأمومون على خلاف رأيه، ففعل المفضول عنده، لمصلحة الموافقة
والتأليف التي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة كان جائزًا حسنًا^(٣) اهـ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٦)، ومسلم في الحج (١٣٣٣)، عن عائشة.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦٧/٢٢ - ٢٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩٥/٢٤، ١٩٦).



وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية»: «قال ابن عقيل في «الفنون»: لا ينبغي الخروج من عادات الناس إلّا في الحرام، فإنّ الرسول ﷺ ترك الكعبة، وقال: «لولا حدثان قومك بالجاهليّة...»^(١).

وترك أحمد الركعتين قبل المغرب لإنكار الناس لهما، وذكر في «الفصول» عن الركعتين قبل المغرب، وفعل ذلك إمامنا أحمد، ثمّ تركه، واعتذر لتركه بأن قال: رأيت الناس لا يعرفونه»^(٢).

ترك الإنكار على ما تعارف عليه أهل كل بلد:

ومن دلائل التسامح عند علماء السلف: تركهم الإنكار على ما تعارف عليه أهل كل بلد، ممّا توارثه الخلف عن السلف.

روى الدارمي بسنده، عن حميد قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: لو جمعت الناس على شيء؟ فقال: ما يسرني أنّهم لم يختلفوا. قال: ثمّ كتب إلى الآفاق أو الأمصار: ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم^(٣).

وهذا له أصل فيما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

فعن عبدة السلماني قال: قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: اقضوا ما كنتم تقضون، فإنّي أكره الاختلاف حتّى يكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٣٦٢.

(٢) الآداب الشرعية (٤٣/٢، ٤٤) نشر دار عالم الكتب.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة (٦٥٢).

(٤) رواه البخاري في المناقب (٣٧٠٧).

«وقد قال أحمد في رواية المروزي: لا ينبغي للفقهاء أن يحمل الناس على مذهبه ولا يشدد عليهم.

وقال مهنا: سمعت أحمد يقول: من أراد أن يشرب هذا النبيذ يتبع فيه من شربه؛ فليشربه وحده»^(١) اهـ.

وسئل أحمد عن رجل يصلي في مسجد، وهو يشرب من النبيذ ما يسكر منها، أيصلي خلفه؟ قال: إذا كان متأولاً ولم يسكر فأرجو، فإن سكر لم يصل خلفه^(٢).

قال: ونحن نروي عن كان يشرب^(٣). (أي: يراهم ثقات يروى عنهم الحديث ويؤخذ العلم).

قال ابن الجنيّد: سمعت يحيى بن معين يقول: تحريم النبيذ صحيح، ولكن أقف ولا أحرّمه، قد شربه قومٌ صالحون بأحاديث صحاح، وحرّمه قومٌ صالحون بأحاديث صحاح^(٤).

ودخل أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وزهير بن حَرْب على خَلْفِ بن هشام، يسألونه، فلما أرادوا الانصراف، قال لأحمد: أي شيء تقول في هذا يا أبا عبد الله؟ لقنينة نبيذ كانت أمامه. (وكانت الجارية تريد أخذها لما رأت قدومهم، فقال لها: دعيها يرى الله عَجَلُ شيئاً، فأكتمه عن الناس؟).

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١٦٦/١).

(٢) وهذا لأنّ الذين أجازوا شرب النبيذ لم يجيزوا منه ما يسكر. فإذا وصل إلى حد السكر؛ فقد أثم على مذهب المجيزين أنفسهم.

(٣) مسائل الإمام أحمد لصالح (٥٧٠)، تحقيق محمد بن علي الأزهرى، نشر دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط ١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م.

(٤) سؤالات ابن الجنيد للإمام يحيى بن معين (٣٠٩)، تحقيق محمد بن علي الأزهرى، نشر الفاروق الحديثة للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

قال أحمد: ليس ذاك إليّ، ذاك إليك. قال: كيف؟ قال أحمد: قال النبي ﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيّته»^(١)، والرجل راع في منزله ومسؤول عما فيه، وليس للخارج أن يغير على الداخل شيئاً^(٢).

وسئل ابن تيمية عمن ولي أمراً من أمور المسلمين، ومذهبه لا يجوز شركة الأبدان، فهل يجوز له منع الناس؟

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك، ولا من نظائره ممّا يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا ما هو في معنى ذلك^(٣). وأطال القول في بيان خطأ من فعل ذلك.

لا تُردُّ شهادة المخالف في الفروع:

ومن هذا التسامح: أنّهم لا يردون شهادة المخالف لهم في الفروع، في العبادات أم في المعاملات.

وذكر صاحب «كشاف القناع» في «باب رد الشهادة»: أن من عمل من الفروع المختلف فيها عند الأئمة اختلافاً شائعاً، كمن تزوج بلا ولي، أو بلا شهود، أو شرب من النبيذ ما لا يسكر، أو أخرج الزكاة، أو الحج متأولاً، أو مقلداً لمن يرى حله، لم ترد شهادته؛ لأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يختلفون في الفروع، وقبلوا شهادة كل مخالف فيها، ولأنّ اجتهاد سائغ، لا يفسق به المخالف، كالمتفق عليه^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٢) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٥٤/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧٩/٣٠ - ٨٠).

(٤) كشاف القناع (٤٢٢/٦)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

ضرورة الألفة والأخوة بين العلماء والدعاة:

ومن الركائز الأساسية لفقه الاختلاف أو فقه الائتلاف: الحرص على إشاعة الألفة والأخوة بين المسلمين بعضهم وبعض، وتثبيت دعائمها، حتى ترسخ جذورها، وتبسق أغصانها، وتمتد فروعها وأوراقها، وتؤتي ثمارها بإذن ربها.

وهذا مطلوب ومفروض بين المسلمين عامة، وبين علمائهم ودعاتهم خاصة، بوصفهم قادة الأمة في الفكر والعلم، وروادها في الدين والدعوة والأخلاق.

ومن أشد الأشياء خطرًا على الأمة: أن يكون اختلاف علمائها في الرأي في المسائل الفروعية سببًا في التفرق والعداوة والبغضاء، ومدعاة للولاء والبراء، أو الحب والبغض، وهو خلاف ما عليه سلف الأمة، والربانيون من علمائها الأتقياء الأنقياء.

وقد ألف عالم حلب ومحدثها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ كتابًا لطيفًا سمّاه: «رسالة الألفة بين المسلمين»، وفيها: أمر الإسلام بالتوحيد والائتلاف، وحظره التنازع والتفرق عند الاختلاف. وقد اقتبس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، كما ضمن كتابه رسالة للإمام الظاهري أبي محمد علي بن حزم في جواز الاقتداء بالمخالف في الفروع، وصلاة المسلمين بعضهم وراء بعض، وإن كان المأموم يعتقد أن إمامه قد أخل بشرط من شروط الصلاة في مذهبه هو. وسنحاول أن نقبس من هذه الرسالة، ومن تعليق الشيخ عليها ما نراه مهمًا للقارئ هنا.

قال الشيخ أبو غدة في بيان أهم الأفكار التي اشتملت عليها «رسالة الألفة»:

«سجد الطالب المنصف فيها أن التشدد والإنكار في الأمور الخلافية بين علماء الأمة وأئمتها، وجعلها أسباب الموالاة والمعاداة؛ أمر مرفوض في الشريعة.

ويجد أيضًا أن السنة لا تكون في جميع الأمور على وجه واحد فحسب، بل كثيرًا ما تتعدد وجوه السنة، بحيث من اختار منها وجهًا غير ما اختاره الآخر، لا يُبدع ولا يفسق، ولا يضلّ ولا يكفر، بإجماع الأئمة.

ويجد أيضًا أن الخلاف في كل قليل وكثير لا يوجب الهجران أو المعاداة، وأن المسلم مأمور من جهة الشريعة بالحفاظ على الألفة والعصمة والموالاة، وأن مناط الولاء ومداره على الإيمان والإسلام، لا على غيرها من الأسماء، وقد قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»^(١). وأن المؤمن أخو المؤمن ولو اختلفا في الرأي والاجتهاد لإدراك الصواب.

ومن فهم هذه الحقائق وعمل بالإنصاف؛ فقد - والله - فاز فوزًا مبينًا، وفقنا الله تعالى للاعتصام بحبله مجتمعين، وجمع شمل المسلمين، وسدد أحوالهم أجمعين، ووقاهم شر الفرقة والخلاف، وأنعم عليهم بنعمة الأخوة والائتلاف»^(٢).

(١) رواه البخاري في الصلاة (٣٩١)، عن أنس بن مالك. الذمة: العهد والأمان، والضمان والحرمة. وقوله: «فلا تخفروا الله في ذمته». يقال في اللغة: أخفر العهد وبالعهد، وأخفر فلانًا: نقض عهده وغدر به. فالمعنى: لا تنقضوا عهد الله وعهد رسوله لمن قام بذلك.

(٢) رسالة الألفة بين المسلمين ص ٢٠، ط ١، ١٤٧١هـ - ١٩٩٦م.

ثم نقل الشيخ فصلاً من «مجموع فتاوى ابن تيمية»: «في أن الائتلاف عماد الدين وأُسُّه، والحض على حفاظ الألفة مع الاختلاف في الفروع وجزئيات العقائد»^(١)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«اعلموا - رحمكم الله وجمع لنا ولكم خير الدنيا والآخرة - أن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان قد بعث إلى ذوي أهواء متفرقة، وقلوب متشتتة، وآراء متباينة، فجمع به الشمل، وألف به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان.

ثم إنه ﷺ بين أن هذا الأصل، وهو الجماعة، عماد لدينه. فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيضُ وجوه أهل السنة، وتسودُ وجوه أهل البدعة^(٢).

(١) هذا الفصل من مجموع الفتاوى (١٧٠/٢٤ - ١٧٦)، في رسالة للشيخ ابن تيمية رحمه الله إلى أهل البحرين، حينما أرسلوا إليه وفدًا للسؤال عن مسائل، واقتصرت هنا من تلك الرسالة على ما يأتي، لصلته بالموضوع. انظر: رسالة الألفة بين المسلمين ص ٩٩ - ١٠٧.

(٢) رواه الآجري في الشريعة (٢٠٧٤)، نشر دار الوطن، السعودية، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

فانظروا - رحمكم الله - كيف دعا إلى الجماعة؟! ونهى عن الفرقة، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فبرأ نبيه ﷺ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً. كما نهانا عن التفرق والاختلاف بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقد كره النبي ﷺ من المجادلة ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق، فخرج على قوم من أصحابه وهم يتجادلون في القدر، فكأنما فُقي في وجهه حبُّ الرُّمَّان، وقال: «أبهذا أُمِرْتُمْ؟! أم إلى هذا دُعِيتُمْ؟! أن تضربوا كتابَ الله بعضه ببعض، إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض»^(١).

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: فما أُغْبِط نفسي كما غبطتها، ألا أكون في ذلك المجلس، روى هذا الحديث أبو داود في «سننه» وغيره^(٢)، وأصله في «الصحيحين»^(٣).

(١) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وعبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٣٦٧)،

والطبراني في الأوسط (٢٩٩٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) لم أقف عليه عند أبي داود. وراه أحمد (٦٦٦٨)، وقال مخرجه: حديث صحيح، وهذا إسناد

حسن. وابن ماجه في المقدمة (٨٥)، عن عبد الله بن عمرو، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفتأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم». قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده.

(٣) روى مسلم في العلم (٢٦٦٦)، عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً،

قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

وروى البخاري في فضائل القرآن (٥٠٦٢)، عن النزال بن سبره عن عبد الله: أنه سمع رجلاً =

وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة^(١). وربما اختلف قولهم في المسألة العلميّة والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة، وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة - خلافاً لا يعذر فيه^(٢) - فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع.

فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه، وقالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية»^(٣). وجمهور الأمة على قول ابن عباس، مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها^(٤).

وكذلك أنكرت أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي. ولما قيل لها: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، فقالت: إنما قال: «إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق»^(٥). ومع هذا فلا ريب أن

= يقرأ آية سمع النبي صلى الله عليه وسلم قرأ خلفها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «كلاكما محسن فأقرأ». قال الراوي: وأكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم».

(١) لا مجاهلة، ولا تضليل ومشاقة!

(٢) ما ألزم هذا القيد وأدقه؟! والخلاف الذي لا يعذر فيه هو الخلاف بعد العلم ووضوح الحق.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٤)، ومسلم في الإيمان (١٧٧).

(٤) وهؤلاء هم السلف المشهود لهم بالخير بقول النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا موقفهم: لا تبديع ولا تشنيع، ولا تضليل ولا تكفير، رضي الله عنهم، ما أفقهم!

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٣٩٧٨)، ومسلم في الجنائز (٩٣٢).

الموتى يسمعون خفق النعال، كما ثبت عن رسول الله ﷺ^(١). وأم المؤمنين تأولت، والله يرضى عنها.

وكذلك معاوية، نُقل عنه في أمر المعراج أنه قال: إنما كان بروحه، والناس على خلاف معاوية رضي الله عنه. ومثل هذا كثير.

وأما الاختلاف في الأحكام، فأكثر من أن ينضبط. ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير.

وقد قال النبي ﷺ يوم بني قريظة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرکتهم العصر في الطريق، فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة، وفاتتهم العصر، وقال قوم: لم يرد منا تأخير الصلاة، فصلوا في الطريق، فلم يعب واحداً من الطائفتين. أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث ابن عمر^(٢).

وهذا وإن كان في الأحكام، فما لم يكن من الأصول المهمة، فهو ملحق بالأحكام.

وقد قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟». قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: رواه البخاري في الجناز (١٣٣٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٠)، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠).

الشعر، ولكن تحلق الدين!». رواه أبو داود، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ^(١).

وصح عنه أنه قال: «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصدُّ هذا، ويصدُّ هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» ^(٢).

نعم، صحَّ عنه أنه هجر كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، لما تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وظهرت معصيتهم، وخيف عليهم النفاق، فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم، حتَّى أمرهم باعتزال أزواجهم من غير طلاق خمسين ليلة، إلى أن نزلت توبتهم من السماء ^(٣).

وكذلك أمر عمر رضي الله عنه المسلمين بهجر صبيغ بن عسل التميمي، لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب، إلى أن مضى عليه حول، وتبين صدقه في التوبة، فأمر المسلمين بمراجعته ^(٤).

فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع، الداعين إليها، والمظهرين للكبائر، فأما من كان مستتراً بمعصية أم مسراً لبدعة غير مكفرة، فإن هذا لا يهجر، وإنما يهجر الداعي إلى البدعة، إذ الهجر نوع من العقوبة، وإنما يعاقب من أظهر المعصية قولاً أو عملاً.

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، وأحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي (٢٥٠٩)، وقال: حسن صحيح. وليس فيه: «لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين». وهي جزء من حديث الزبير بن العوام، رواه أحمد والترمذي، وقد سبق تخريجه ص ٤٤.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

(٣) روى قصتهم بطولها: البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك الأنصاري.

(٤) رواه الدارمي في المقدمة (١٥٠).

وأما من أظهر لنا خيراً فإننا نقبل علانيته، ونكل سريره إلى الله تعالى، فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم، ويكل سريرتهم إلى الله، لما جاؤوا إليه عام تبوك يحلفون ويعتذرون.

ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر من قبله وبعده من الأئمة: كمالك وغيره، لا يقبلون رواية الداعي إلى بدعة، ولا يجالسونه، بخلاف الساكت، وقد أخرج أصحاب «الصحيح» عن جماعات ممن رُمي ببدعة من الساكتين، ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع^(١).

والذي أوجب هذا الكلام أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتى ذكروا أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة.

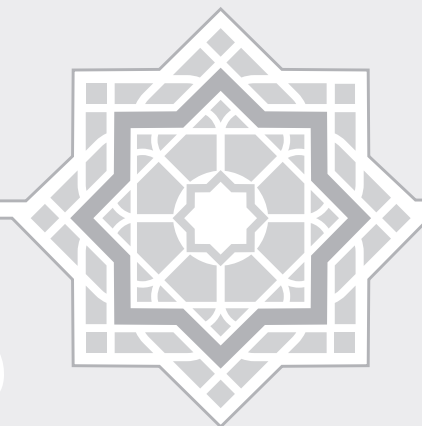
فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله هو المسؤول أن يؤلف بين قلوبنا وقلوبكم، ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام، ويخرجنا من الظلمات إلى النور». انتهى.

* * *

(١) بل قد أخرجوا لبعض الدعاة أيضاً، كما أخرج البخاري لعمران بن حطان من دعاة الخوارج، وفي المسألة تفصيل وبحوث تولت كتب مصطلح الحديث وأصول الفقه شرحها واستيعابها.



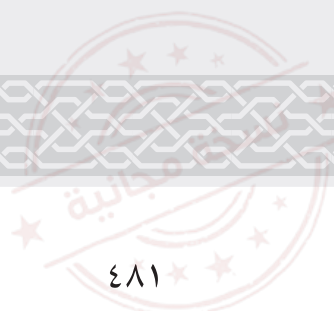
مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١	٣٤٤
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٣٥٣ ، ٢٧٠
﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	٣٤١
سورة البقرة		
﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾	٤ ، ٥	٣٩
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾	١١	٣٩٤
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٢٥	٨٨
﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	٣٤	٤٣٢
﴿فَلَنَقْصُصَ آدَامَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	٣٧	٤٣
﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾	٤٠ - ٤٤	٨٢
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	٧٤	٣٧٤ ، ٢٩٧
﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْمِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾	٨٥	٤٢١
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾	٨٩ - ٩١	٢٨٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِ ﴾	٩٦	١٣٧
﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ ﴾	١٠٩	٢٨٩، ٤٢
﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾	١١١ - ١١٢	٢٨٩، ١٤٨، ١٢٤، ٢٥
﴿ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾	١٤٠	٢١٣
﴿ فَادْكُرُوا فِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾	١٥٢ - ١٥٥	٣٨
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾	١٧٠	٢٨٨، ١٤٧
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾	١٧١	٢٨٨
﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾	١٧٧	٦٥
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾	١٨٣	٨٦
﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾	١٨٥	١٨٢، ١٨٤، ١٨٧
﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾	١٨٧	١٨٨، ١٨٥
﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾	١٨٩	٤١٥
﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا ﴾	١٩٠	٣٨٦، ٣٩٨، ٤٠٨، ٣٩٩
﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾	١٩١	٤٠٨، ٣٩٩
﴿ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٩٢	٤٠٨
﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾	١٩٣	٤٠٨، ١١٢
﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾	١٩٤	٤٢٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	١٩٤	٣١
﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	١٩٥	٨٦، ٤٤٠
﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾	٢٠١	٨٩
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	٢٠٤	٧٥
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾	٢١٣	٢١٤، ٢٦٣
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾	٢١٧	٩٤، ٤٠١
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾	٢١٩	٦٢، ١٩٧، ٣٢٥
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾	٢٢٠	١٨٧
﴿نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي شِئْتُ﴾	٢٢٣	٢١٢
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾	٢٥٦	٣٩٩
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُولَمُونَ﴾	٢٦٠	١٢٨
﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾	٢٨٠	١٨٩
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	٢٨٦	٤٤٠
سورة آل عمران		
﴿الْفُرْقَانِ﴾	٤	٢٤١
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾	١٢، ١٣	١٢٣
﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾	٢٠	٤٠٨
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾	٣١	٥٧
﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا﴾	٦٤	٣٦٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِعَهُ إِلَيْكَ﴾	٧٥	٢٩٠
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ﴾	١٠٠	٤٥٠
﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	١٠١	٢٤
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	١٠٢	٢٨٧، ٣٢
﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	١٠٣	٢٨٧، ٢٥٥ ٤٤٢
﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾	١٠٤	٤٧٢
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾	١٠٥	٤٧٢، ٤٤١ ٤٧٣
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾	١٠٦	٤٧٢
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	١٠٧	٤٧٢
﴿حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	١١٠	٤٥١، ٢٨٩
﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾	١١٣، ١١٤	٢٩٠
﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾	١٢٠	٣١
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾	١٣٧	١٥٦
﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾	١٤٠	٢٢٣
﴿فَقَانَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾	١٤٨	٨٩
﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾	١٥١	٢٨
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾	١٥٢	١٣٥
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾	١٥٦	٧٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾	١٥٩	١٣٢، ٢٢٦، ٢٣١، ٣٣٥
﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾	١٦٥	١٣٥، ١٤٠
﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	١٧٥	٣٨
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	١٩٠	٢٢
سورة النساء		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾	١	٣٥٤
﴿وَعَايَنتُمُ إِحْدَهُنَّ وَقَطَّارًا﴾	٢٠	٤٧
﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾	٢٨	١٨٢، ١٨٤
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾	٢٩	٤٤٠
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾	٣١	٢٢٩، ٣٣٤، ٤١٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾	٤٣	٦٣، ١٩٨، ٣٢٥
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٤٩	١٢٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾	٥٩	١٢٩، ٤٧٤
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	٥٧
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾	٧٥	٢٩٧، ٣٩٩
﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	٨٠	٥٨
﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾	٨٣	١٢٩
﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ﴾	٩٠	٣٩٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا لَهُمْ وَلِقُوا إِلَهُكُمْ أَلْسَلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُواهُمْ﴾	٩١	٣٩٩
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾	١٠٠	٣٤
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾	١٠٣	٨٨
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾	١٠٥	٤٥
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾	١١٠	٢١٩
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾	١٢٣	١٢٤
﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾	١٢٨	٢٧١
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾	١٣١	٣٢
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾	١٣٥	١٢١، ١٢٣
﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾	١٤٣	٢٥٤
﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	١٥٥	٢٤٢
﴿بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾	١٧٤	٢٤١، ٤٨
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	٢	١٠٧، ٤٥١
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾	٣	٧، ٣٦٢
﴿أَوَلَمْ تَسْتُمِ الْنِسَاءَ﴾	٦	١٨٢، ١٨٤، ٤٥٧
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾	٨	١٢١، ٢٩٩
﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾	١٣	٣٧٤
﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾	١٥	١٩٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	٢٣	٣٨
﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾	٢٧	٤٢، ٣١
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾	٢٨	٢٦
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	٤٢
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾	٣٨	٣٥٥
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾	٤٨	٤٥
﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾	٤٩	٤٢٠، ٤٥
﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾	٥١	٤٣٤، ٣٨٨
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾	٨٢	٤١٠، ٢٩٣
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾	٩٠	٦٣
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾	٩٠	١٣٨، ١٩٨، ٣٢٥
﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	٩٨	٣٤٤
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾	١٠١	١٩٨، ٧٩
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾	١٠٥	٤١٧
سورة الأنعام		
﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يَعْلَمُونَ﴾	٥٥	٣٤١
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾	٥٩	٢٤٠
﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾	٦٥	٤٤٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ۚ﴾	٧٦ - ٧٩	٣٦٩
﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۚ﴾	٧٩	٢٤
﴿أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۖ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ﴾	٨٠ - ٨٢	٢٧
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۚ﴾	٨٢	٢١٦
﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۚ﴾	٨٩	٨
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ أَقْتَدِ ۚ﴾	٩٠	٤٥٤، ٥٦
﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ ۚ﴾	١٢٠	٤٠
﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ۚ فِي النَّاسِ ۚ﴾	١٢٢	٢٤
﴿نَبْعُوهُ بِعِلْمٍ ۖ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾	١٤٣	١٤٨
﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۚ﴾	١٤٨	١٤٨
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾	١٥٢	٨٨، ٥٤
﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۚ﴾	١٥٥	٦٤، ٥٣، ٤٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ﴾	١٥٩	٤٧٣
سورة الأعراف		
﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾	٣	٥٣، ٤٥
﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۚ﴾	٢٣	٤٣
﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ ۚ﴾	٣٠	١٢٨
﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۚ﴾	١٥٠	١١٦
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۚ﴾	١٥١	٢١٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾	١٥٦	٢١٨
﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾	١٥٧	١٨٥، ١٩٦
﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾	١٥٨	٣٧٤
﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾	١٦٤، ١٦٥	٩٧
﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾	١٨١	٨
﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾	١٨٥	٢٢، ١٤٨
﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾	١٨٦	١٤٨
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾	١٩٩	٤٧
سورة الأنفال		
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢	٢٥، ٣٩، ٤٦، ٨٤، ١١٥
﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾	٣	٢٥، ٣٩، ٨٤
﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾	٤	٢٥، ٣٩، ٨٤
﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾	١٢	١٣٦، ١٣٧
﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾	٢٥	٤٢٠
﴿ يَتَايَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾	٢٩	٣١
﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا ﴾	٣٢	٢٨٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٣٦	٩٤
﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾	٣٩	٤٠٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُخْزِيَكُمْ﴾	٤٦	١٣٦، ٤٤١
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٤٩	٢٨
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾	٦٠	١٣٦، ٤٠٣
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	٦١	٤٠٣
﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ﴾	٦٢	١٣٦، ١٥٦، ٤٠٣، ٤٤٢
﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	٦٣	١٣٦، ٤٤٢
﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾	٦٥	٤٠٣
﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾	٦٦	١٨٤، ٤٠٣
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾	٧٣	٤٥٣
سورة التوبة		
﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾	٤	٣١، ٤٠٢
﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾	٥	٤٠٢
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾	٦	٤٠٢
﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾	٧	٤٠٢
﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾	١٣	٣٩٩، ٤٠٢
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	٢٩	٤٠٢، ٤٠٣
﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾	٣٢	٩٤، ١١٢
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾	٣٣	٤٠٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَقَدِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْدِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾	٣٦	٤٠١
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾	٥١	٢٨
﴿قُلْ أَدْنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٦١	٣٧٥
﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَالًا وَأَوْلَدُوا﴾	٦٩	٣٢٢
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	٧١	٣٦٦، ٢٦٣
﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَیَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾	١٠٥	١١٠، ٨٤
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	١٢٣	٣١
﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾	١٢٤	٤٦
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾	١٢٨	٤٠٧، ٣٧٥، ٢٣١
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾	١٢٩	٤٠٧
سورة يونس		
﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾	٥٧	٣٧٥، ٥٢، ٤٠٧
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾	٥٨	١١٥
﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	٦٢، ٦٣	٣١
﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	٩٠	٤٠٠
﴿ءَاَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾	٩١	٤٠٠
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾	٩٩	٤٠٠، ٣٩٩، ٢٩٨
﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾	١٠١	١٤٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة هود		
﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾	٧	٨٦ ، ٨٥ ، ٥٤
﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾	٢٨	٤٠٠
﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾	٧٧	٢٨٤
﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا ﴾	٨٤	٣٠١
﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾	٨٨	١٣ ، ٤
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ ﴾	١١٤	٢٢٩
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾	١١٨ ، ١١٩	٤٠٠ ، ٣٥٠ ، ٢٩٨
سورة يوسف		
﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٢١	١١٢
﴿ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾	٢٣	٢٧
﴿ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾	٣٢	٢٧
﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾	٣٣	٢٧
﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾	٤٧ - ٤٩	١٥١
﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾	٥٣	٣١٣
﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾	٦٤	٢١٩
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾	٧٦	١٢٩
﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴾	٧٩	٤٧
﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾	٨٧	٢١٦ ، ٩٥ ، ٣٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾	٨٩	٤٤٤
﴿ تَأْتِيهِ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾	٩١	٤٤٤
﴿ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾	٩٢	٤٤٤ ، ٢١٩
﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾	١٠٠	٤٤٤
﴿ حَتَّى إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾	١١٠	٢١٦
﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾	١١١	٤٥٤
سورة الرعد		
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾	٦	٣٤٤
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾	١١	١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٤١٩ ، ٤٣٩
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾	٢٨	٢١٦
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾	٤	٩١ ، ١٩١
﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	١١	٣٨
سورة الحجر		
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾	٩	٩
﴿ لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	٤٠ ، ٣٩	١٢٧
﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾	٤٧	٣١٦
﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿	٥٠ ، ٤٩	٣٤٤ ، ٢١٨
﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾	٥٦	٢١٦ ، ٩٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النحل		
﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٨	٢٨١
﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٣٢	٨٥
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾	٤٣	١٤٦
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾	٤٤	٢٤١، ٩
﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾	٨٩	٤٠٧، ٣٧٥
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾	٩٧	٩٠، ٨٩
﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾	١٠٦	١٨٥
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾	١٢٥	٢٩٢، ٨٨، ٥٤ ٣٦٨
سورة الإسراء		
﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾	١١	١١٨
﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤	٥٤
﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٥٣	٨٨
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾	٧٠	٢٩٨
﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨٢	٣٧٥
﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٨٥	١٢٩
سورة الكهف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٧	٨٦، ٥٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾	٣٠	٨٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ * قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴿	٧٢ ، ٧٣	١٨٩
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿	١٠٣ ، ١٠٤	١٢٧
سورة مريم		
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾	٤٢ - ٤٥	٣٦٩
﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْبَلْ لَمَّا تَتْلُو تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾	٤٦ ، ٤٧	٣٦٩
﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾	٦٣	٣١
﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧١ ، ٧٢	٣١
سورة طه		
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾	٥	٢٦٩
﴿رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿	٢٥ ، ٢٦	١٨٤
﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيِّنُ فِي ذِكْرِي﴾ * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿	٤٢ - ٤٤	٣٧٠
﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴿	٩٠	٤٥٤
﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾	٩١	٤٥٤ ، ٤١٨
﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿	٩٢ - ٩٤	٤٥٤ ، ٤١٨
﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	١١٤	٢٥٦ ، ١٢٩
سورة الأنبياء		
﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	٨٣	٢١٩
﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾	١٠٥	٢٢٤
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	١٨١ ، ١٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٤ ، ٤٠٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾	١	٣١
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾	٣٢	٣٢
﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾	٣٧	٣٧
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	٤٠، ٣٩	٤٠٩، ٣٩٩
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾	٧٧	١٠٦
﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾	٧٨	١٨٢، ١٠٦ ٤٠٤، ١٨٧
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾	٩ - ١	١٧٠، ٨٠، ٣٥
﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	٥٢	٢٦٣
﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٩٦	٥٤
﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾	١١٨	٢١٩
سورة النور		
﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾	١٦	٢٤٦
﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾	٢٢	٤٤٦، ٤٤٥
﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾	٢٧	٤١٥
﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾	٣١	٢٨٧، ٣٩ ٣٣١
﴿يَكَادُ زِينَتُهُنَّ يُضْيِئُهُنَّ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوِّرُّ عَلَىٰ نُورٍ﴾	٣٥	١١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾	٥٤	٥٧، ٤٠٨
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	٥٥	٢٢٢
سورة الفرقان		
﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾	٢٦	١٨٤
﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ بِتَأْخُذِهِمْ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾	٤١، ٤٢	٢٨٨
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾	٤٣، ٤٤	١١٧، ٢٩٦
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾	٥١	٢٦٧
﴿فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾	٥٢	٢٦٧، ٤٠٥
﴿فَسَتَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾	٥٩	١٢٩، ١٤٦
سورة الشعراء		
﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٢	٢٤١
﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	٨٧ - ٨٩	٣٢، ٤١، ٦٥
﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفِقُونَ﴾	١٠٥ - ١٠٩	٣٠٠، ٣٦٨
﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْفِقُونَ﴾	١٧٦، ١٧٧	٣٠١
سورة النمل		
﴿وَجَاهِدُوا بِهَا وَأَسْأَلْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	١٤	٤٢
﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَاٍ يَقِينٍ﴾	٢٢	٣٠٧
﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ﴾	٢٤	١٢٧
﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾	٣٤	٣١٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنطَهُرُونَ﴾	٥٦	١١
﴿قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٦٤	١٤٨
﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾	٧٩	٢٨٧
﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾	٨٢	٣٥٤
سورة القصص		
﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾	٥٠	٣٥٥، ١١٧
﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾	٥٥	٨٠
سورة العنكبوت		
﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾	٦	٤٠٥
﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾	٤٦	٢٩٥، ١٨٠
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٦٩	٤٠٥
سورة الروم		
﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾	٢ - ٥	٢٩٥، ١٥٣
﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٦	١٠
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٧	٢٢٣، ١٥٦، ١٣٦
سورة السجدة		
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾	٢٤	٣٩
سورة الأحزاب		
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾	٥	٢٢٥، ١٨٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ كَثِيرًا﴾	٢١	٥٦
﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾	٢٢	٢٩
﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾	٦٧	١٤٨
﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ	٧٢، ٧٣	٢٥٥
سورة سبأ		
﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾	٤٦	١٤٨
سورة فاطر		
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾	٨	١٢٦
﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾	١٤	١٢٩، ١٤٦
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾	٣٢	٢٢٥
سورة الصافات		
﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ إِلَّا زَهِيمٌ﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ	٨٣، ٨٤	٣٢
﴿يَبْنِيْ اِنِّيْ اَرَى فِي الْمَنَامِ اَنِّيْ اُذْبِحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾	١٠٢	٢٦
سورة ص		
﴿يَدَاوُدُ اِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيفَةً فِي الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى﴾	٢٦	١١٧
﴿وَاِذَا جَاءَكَ الضُّعْفُ فَلَا تَحْنَتْ﴾	٤٤	٢٠٦
﴿يٰٓاٰدَمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیْدَیْ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِیْنَ﴾	٧٥، ٧٦	٤٣
﴿قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِیْمٌ﴾ وَاِنَّ عَلَیْكَ لَعْنَتَیْ اِلٰی یَوْمِ الدِّیْنِ	٧٧، ٧٨	٤٣
﴿قُلْ مَا اَسْأَلُكُمْ عَلَیْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُسْتَکْلِیْنَ﴾	٨٦	٧٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزمر		
﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾	٩	٢١٧ ، ١١٥
﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾	١٨ ، ١٧	٣٠٦ ، ٥٤
﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾	٥٣	٢١٨ ، ٣٨
﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ ﴾	٥٥	٥٣
سورة خافر		
﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾	٣	٣٤٤
﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾	٥	٧٥
﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾	٧	٢١٨
﴿ أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾	٢٨	٣١٩
﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	٥١	١٣٦
﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾	٨٥ ، ٨٤	٤٠٠
سورة فصلت		
﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقَرْ ﴾	٥	٢٨٨ ، ٢٤٢
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾	٢٦	٢٨٨ ، ١٣٨
﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	٣٤	٤٤٣ ، ٨٨ ، ٥٤
﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾	٤٤	٥٢
سورة الشورى		
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾	١١	٢٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾	١٥	٢٩٨
﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾	٣٨	١٣٢
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾	٤٠	٤٤٦، ٤٢٨
سورة الزخرف		
﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾	٣١	٢٨٨
﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	٤٣	٢٨٧
﴿صَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾	٥٨	٧٥، ٥
﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٧٢	٨٥
سورة الدخان		
﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ﴾	٥٨	٢٤١
سورة الجاثية		
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	١٨، ١٩	٢٠١
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾	٢٣	١١٧
سورة الأحقاف		
﴿أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٤	١٤٨
سورة محمد		
﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ﴾	٤	٣٨٧
﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾	٧	١٥٦
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾	٣٨	٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾	٤	٢٧
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾	٢٨	٤٠٧
سورة الحجرات		
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾	١٠	٤٤٢، ٣٠٠
﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾	١١	٦٢
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبْنَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾	١٢	١٧٨، ٢٣٦، ٣٣٥، ٤١٥، ٤٥٠
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾	١٥	٢٥، ٨٥، ٤٠٤
سورة ق		
﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَفِينِ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾	٣١ - ٣٣	٣٢، ٦٥
سورة الذاريات		
﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ءَافَلَا تَبْصُرُونَ﴾	٢٠، ٢١	٢٢
سورة النجم		
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾	٢٣	١٤٧
﴿وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾	٢٨	١٤٧
﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾	٣٢	١٢٢
سورة القمر		
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾	١٧	١٩٠، ٢٤١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرحمن		
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾	٧ - ٩	٣٢٣
سورة الحديد		
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾	١٦	٤٥
﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾	٢٠	٣٤٤
سورة الممتحنة		
﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾	٧	١٢٤
﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾	٨ ، ٩	٢٩٣ ، ٤٠٩
سورة الصف		
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾	٢ ، ٣	٨٢
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ۖ كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴾	٤	١٣٦ ، ٤٥٢
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾	٩	٢٢٢
سورة الجمعة		
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾	٢	٢٦٣
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ	١٠	١٣٤
سورة التغابن		
﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾	٨	٤٨
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ	١١	٢٤
﴿فَأَنْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾	١٦	٤٤٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الطلاق		
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	٣، ٢	٣٠
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾	٤	١٨٤، ٣٠
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ * وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾	٥	٣١
﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾	٧	١٨٤
سورة الملك		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	١	٥٤
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٢	٥٤، ٨٥، ٨٦، ١٢٦، ٨٨
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾	١٥	١٣٣، ٩٠
سورة نوح		
﴿يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْيَاكُمْ﴾	٢ - ٤	٣٦٩
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾	١٠ - ١٢	٨٩
سورة المائدة		
﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي النُّفُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾	٨ - ١٠	١٨٤
سورة الإنسان		
﴿وَيُطِيعُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ * مَشْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾	٨، ٩	٣٧
سورة النازعات		
﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزْكَى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾	١٨، ١٩	٣٧٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البروج		
﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُوذِ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُوذِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾	٩ - ٤	٩٦
﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُعِيدُ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾	١٢ - ١٤	٣٤٤
سورة الشرح		
﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿	٦ ، ٥	٢١٦ ، ١٨٣
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءُ﴾	٥	٣٨
﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾	٨	١١٥
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٣ - ١	٨٥
سورة الماعون		
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿	٥ ، ٤	١٧٠ ، ١٣٨
سورة الإخلاص		
﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿	٤ ، ٣	٢٣

* * *







فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أأددت شفرتك، قبل أن تضجعها	٣٧٨
أشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟!	٣٥٥
اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن	٦٧
اتقوا الله في هذه البهائم الموعمة، فاركبوا صالحة، وكلوها صالحة	٣٨٠
أثقل شيء في الميزان يوم القيامة خلق حسن	٦٧
أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا	٧٣
أحصوا لي: كم يلفظ الإسلام؟	١٤٩
أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه	٣٦٢، ٣٥٠
إذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم	٤٤٠
إذا بلغ الماء قلتين؛ لم يحمل الخبث	٤٦٢
إذا سمع بكاء طفل خلفه خفف صلاته	٢٣٥
إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم	٣٣٦، ١٠٠
أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات	٢٢٨
أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً	٢١

رقم الصفحة	الحديث
٣٧٧	ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول
٣٥	أرخصنا بها يا بلال
٤٢٦	اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِلَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ، رأسه زبيبة
٣٥	أسوأ الناس سرقةً: الذي يسرق من صلاته، لا يُتِمُّ ركوعها ولا سجودها
٣١٣	أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل
٣٨٥	أعفَّ الناس قِتْلَةً: أهلُ الإيمان
١٣٣، ١٥١	اعقلها وتوكل
٣٨١، ٣٨٠	اعلم أبا مسعود أن الله عز وجل أقدر عليك منك على هذا الغلام
٥٩	أفتان أنت يا معاذ؟!
٢٥٣	أفتوا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا!
٨٧	أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به مَنْ سبقكم، وتسبقون به مَنْ بَعْدَكُمْ
١٦٨، ١٩٣، ٣٣٤، ٢٢٥	أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق
١٤٩	اكتبوا لي: من تَلَفَظَ بالإسلام من الناس
٤٢٦	ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم
٤٧٥	ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف
٦٧، ٤١، ٣٣	ألا إن في الجسد مُضْغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ
٣٧٣	اللهم، اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون
٥٠	اللهم ربَّ الناس، أذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك
٢١٥	اللهم لا طيرَ إلا طيرُكَ، ولا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا إلهَ غيرُكَ
٣٤	أما صدقتك على سارقٍ، فلعله أن يستعفف عن سرقة



رقم الصفحة	الحديث
٣٨١	أما لو لم تفعل، للفتك النار، أو لمستك النار
١٨٠	أمتهوكون فيها - أي: متحIRON أو مترددون - يا ابن الخطاب!؟
٢٥٦	أمر بلالاً أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة
١٧٢	أملك، قال: ثم من؟ قال: «أملك»، قال: ثم من؟ قال: «أملك»، قال: ثم من؟
١٧٨، ٧٥	إن أبغض الرجال إلى الله تعالى: الألد الخصم
٨٠	إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً
٧١	إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة
١٨٥	أن الله تعالى قد استجاب هذا الدعاء
٢٠٢	إن الله تعالى لم يبعثني مُعَنَّتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني مُعَلِّماً ميسراً
١٩٣، ١٨٦، ٥٩	إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه
٢٣٢	إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس
٧٨	إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع هات
٣٧٠	إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله
٣٧٢، ٣٧١	إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف
٢٢٢	إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها
٣٧	إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً
١٨٥	إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم
١٨٧	إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني
٧١	إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي
٨٦	إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة
١٣٠	إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم



رقم الصفحة	الحديث
٦٦، ٤١	إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَصُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ
٢٢٦، ١٨٥	إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنَّسِيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ
٣٤٦، ١٠٤، ٨	أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا
٨٢	إِنَّ اللَّهَ يُبَغِّضُ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ بِلِسَانِهَا
١٩٣، ١٨٦، ٥٩	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ
١٦٥	إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ
٦٨	إِنَّ الْإِيمَانَ بِضَعُ وَسْتُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةً مِنَ الْإِيمَانِ
١٥٣	إِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ
٤٧٣	أَنْ تَضْرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بِعُضِّهِ بِيَعُضٍّ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا
٥٦	إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ كَانَ الْقُرْآنَ
٣٧٧	إِنْ رَحِمْتَهَا؛ رَحِمَكَ اللَّهُ
٢١٨	إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي
٣٧٨	إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا
٣٨٣	أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ يَسْمُ فِي الْوَجْهِ
٣٧١	إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ
١٣٣	إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ
٣٧٣، ١٣١	إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ، يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى: الْحِلْمَ وَالْأَنَانَةَ
١٠١	إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فُسَيْلَةٌ - نَخْلَةٌ صَغِيرَةٌ -
٣١٦	إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا - أَيْ نَصِيرًا - وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرِ
٢٣٥	إِنْ مِنْكُمْ مَنْفَرَتَيْنِ، فَمَنْ أَمَّ بِالنَّاسِ فَلْيَخَفْ، فَإِنْ فِيهِمُ الْمَرِيضُ
٤٢٠	إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ



رقم الصفحة	الحديث
٤٤	أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركته وشركه
٤١١، ٢٩٣	أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة
١٧٨	أنا زعيم بيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محققاً
٢١٩	أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه
١٣١	الأناء من الله، والعجلة من الشيطان
٢٣٥	أنت إمام قومك، وأقدر القوم بأضعفهم
٢٨٥	انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
٥٢	إنك رجل مفؤود، انت الحارث بن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبّب
٦٦، ٣٣	إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى
١٨٨	إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام
١٥٤	إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي
١١٦	إنما أنا بشر، أَرْضَى كما يَرْضَى البَشَرُ، وأغضب كما يغضب البشر
١٨١، ٢٩٧، ٣٧٥، ٤٠٧	إنما أنا رحمة مهداة
٦٧، ٥٦	إنما بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ أَوْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
٢٥٦	إنما جعل الإمام ليؤتم به
٥١	إنما الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، أو شرطة مخجم، أو كية نار
٣٠٧	إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم
٤٧٣	إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب
٤٥٩	إنما هو بضعة منك
٣٤٣	أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً

رقم الصفحة	الحديث
٣٧٧	أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك
٨٧	أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إنَّ بكلَّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةٌ
٤٤، ٤٢	إياكم والشُّعْ، فإنَّ الشُّعْ أهلك من كان قبلكم
٤٥٠، ٣٣٥، ٢٣٦	إياكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث
٣٢٣، ١٨٨	إياكم والغلو في الدين، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين
٧٨	إياكم وكثرة السؤال
٥٠	إياكم ومُحَدَّثَاتِ الأمور، فكلُّ بدعةٍ ضلالة
٤٦٠	أيما إهاب دبغ فقد طهر
٣١٦	أي النَّاسِ كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة
٨٥، ٦٨، ٢٦	الإيمان بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون - شعبة، فأفضلها: لا إله إلا الله
٢٩٢	أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب
٢٣٤، ١٩٥	أيها الناس، إن منكم منفرين، فأئكم ما صلى بالناس، فليؤجز
ب	
٤٢٤، ٤٢٨، ٤٤٠	بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في: منشطنا ومكرهنا
٢٧٣، ٦٦، ٣٣٦	بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم
١٠١	بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء
٤٠٩، ٤٠٥	بعثت بالسيف - بين يدي الساعة - حتَّى يعبد الله وحده
١٨٦	بُعِثْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمَّحَةٍ
٤١٧، ٨٤	بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيت شحًّا مطاعًا
٣٨٠	بيننا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها



الحديث	رقم الصفحة
ت	
التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله	٣٧٣
تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء	١٩٦
تداؤوا عباد الله؛ فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاء	٥١
تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة	١٩٣، ١٦٩
تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب قرص الشمس	٣٥
ث	
ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه	١٧٨، ٤٠
ج	
جاء رجل إلى النبي ﷺ، يستأذنه في الجهاد فقال: «أحيي والداك؟»	١٦٧
جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري	٤٠٦
جمع بين الصلاتين في غير سفر؛ رفعاً للخرج عن الأمة	٢٠٥
ح	
الحج المبرور، ليس له جزاء إلا الجنة	٣٧
حديث هرقل ملك الروم	٤٢
الحياء والعبي شعثان من الإيمان، والبذاء والبيان شعثان من النفاق	٨١
خ	
خذوا ما عليها ودعوها	١١٨
خلهم يعملون	٣٠٨
خمس صلوات في اليوم واليلة قال: هل علي غيرهن؟	١٦٨
خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم	٤٢٤

الحديث	رقم الصفحة
د	
دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة	٤٤١، ٤٤
دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها	٣٧٩
دعوها فإنَّها ملعونة!	٢١٠
دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء - أو ذنوباً من ماء -	٣٧٢، ٢٢٥، ٥٩
دنت مني النار حتَّى قلت: أي رب! وأنا معهم	٣٨٠
ذ	
ذروني ما تركتكم، فإنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة أسئلتهم	٧٧
ر	
الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء	٣٧٦
رأى النبي ﷺ امرأة مقتولة في بعض الغزوات، فأنكر قتل النساء والصبيان	٣٨٤
رُبَّ صائمٍ، ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائمٍ، ليس له من قيامه إلا السهر	٦٧، ٣٦
﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أن الله تعالى قد استجاب	١٨٥
رجل قتل تسعة وتسعين نفساً	٢٢٧
رحم الله امرأً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى	١٨٩
ز	
زادك الله حرصاً، ولا تعد	٢٢٦
ص	
الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان	٤١٢، ٣٣٤، ٢٢٨



الحديث	رقم الصفحة
ع	
العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله	١٢٤
عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقته	٣٧٩
علم أبا محذورة الإقامة شفعا كالأذان	٢٥٦
علموا، ويسرروا ولا تُعسروا	٢٠٣
على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية	٤٢٦
عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا!	٣٢٤
العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما	٢٢٩
ف	
إذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله	٤٣٤
إن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم	٤٧٤
فلا تخفروا الله في ذمته	٤٧١
فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة	٤٢٧
ق	
قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال	٥، ٦١، ١٢٩، ١٣٠، ٣٤٢
قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا	٢٢٧
قصة هرقل ملك الروم	٤٢
قل لخالد: لا تقتلن امرأة، ولا عسيفا	٣٨٥
ك	
كالبيان يشد بعضه بعضا	٢٦٣

رقم الصفحة	الحديث
٢٦٣	كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، اشتكى كله
٤٢٢	كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي
٤١٤	كل أمتي معافى إلا المجاهرين
٢٢٦	كلُّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون
٤٦٩	كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيّته
٣١٣	الكلمة الحِكْمَةُ ضالّة المؤمن، أتى وجدّها؛ فهو أحقُّ بها
١٦٥	كلمة واحدة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم، سبعين خريفاً
٩٤	كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها
٣٧٣	كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدٌ نجْراني غليظ الحاشية
ل	
٤٧٦	لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين
٤٤٢	لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا
٤٤٢	لا تختلفوا؛ فإن كان قبلكم اختلافوا فهلكوا
٨	لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضُرُّهم من خذلهم أو خالفهم
١٨٨	لا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم، فإنّ قومًا شدّدوا فشّدّ الله عليهم
١١٧، ٤٤	لا تغضب، فردد مراراً، قال: لا تغضب
٣٨٥	لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا
٢٣٧، ٦٠	لا تكن عوناً للشيطان على أخيك
٦٠	لا تكونوا عونَ الشيطانِ على أخيك
٢٣٧، ٦٠	لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ: إنّه يحبُّ الله ورسوله
٣٧٧	لا تُنزع الرحمة، إلّا من شقي



رقم الصفحة	الحديث
٤٤٠	لا ضرر، ولا ضرار
١١٩	لا طلاق ولا عتاق في إغلاق
١٠١	لا يأتي على أمتي زمان إلا والذي بعده شر منه
٢٣٠	لا يبلغ عبد درجة المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس
١٧٣	لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد، إلا بإذنه
٤٧٦	لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا
٢٣٢، ٤٣	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر
٤٧٥	لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة
١١٩	لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان
٤٤٣	لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه
٣٨٢	لعن الله الذي رسمه
٣٨٣	لعن الله من فعل هذا
٣٧٨	لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً
٣٨٣	لعن من يسم في الوجه
٣٤	لقد خلفنا بالمدينة أقواماً، ما سلكننا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر
٣٨١	للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلف إلا ما يطيق
٣٧٦	لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم!
٢٩٧	لو دعيت إلى مثل في الإسلام أجبت
٤٦٦	لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت لهم الكعبة، ولألزقتها بأرض
٤٦٧، ٤١٨، ٣٦٢	لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم
٣٨٢	لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك

رقم الصفحة	الحديث
٢٢٢	لِيُبْلَغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ - أَيَّ أَمْرٍ هَذَا الدِّينُ - مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
٢٨٥	لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيَّةٍ، أَوْ قَاتَلَ عَلَى عَصِيَّةٍ، أَوْ مَاتَ عَلَى عَصِيَّةٍ
١٨٧، ٥٩	لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ
م	
٤٧٤	مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، فَقَالَتْ: إِنَّمَا قَالَ: إِنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ الْآنَ
١٦٦	مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ
١٧١	مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ
٣٨٢	مَا خَفَّفْتَ عَلَى خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ؛ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مُوَازِينِكَ
٣٧٢، ٣٤٣، ١٩٥	مَا خَيْرٌ رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا
١١٠، ٧٥، ٥، ١٧٨	مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هَدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ
٣٥٨، ١٥٥، ١٥٤	مَا لَنُخْلِكُكُمْ؟! قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ
٣٧٨	مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عَصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، إِلَّا يَسْأَلُهُ اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٣٩٦	مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ
٢٥٤	مِثْلُ الْمَنَاقِقِ كَمِثْلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَوْلَاءَ مَرَّةٍ
٢٦٣	الْمُسْلِمُونَ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ
٢١٢	مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا
٤٢٤	مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ - عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ - يَرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ
٣٤	مَنْ أَتَى فَرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ
٤٢٦	مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ
٣٧٢	مَنْ أَعْطَى حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ؛ فَقَدْ أَعْطَى حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حَرَمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ



رقم الصفحة	الحديث
٤٢٦	من أهان سلطانَ الله في الأرض؛ أهانه الله تعالى
١٦٣	من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر طبع الله على قلبه
١٣٠	من تطبَّب، ولم يُعلم عنه طبٌّ؛ فهو ضامن
٣٧	من حجَّ هذا البيت، فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه
٤٢٥	من حمل علينا السلاح؛ فليس منا
٤٢٣، ٤٢٥	من خرج من الجماعة؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتَّى يراجعه
٤٢٥	من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ فميتته جاهليَّة
٤٢٣	من خلع يدًا من طاعة الله؛ لقي الله ولا حجة له
٤٢٢	من رأى من أميره شيئًا يكرهه، فليصبر
٩٢، ٢٦٧، ٣٩٠، ٤١١، ٤١٤، ٤٢٧	من رأى منكم منكراً فليُغيِّرْهُ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه
٣٧٩	من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟، فجاء فتى من الأنصار
٣٤	من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازلَ الشهداء، وإن مات على فراشه
٢٢٩	من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه
٤٧١	من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا
٣٨٢	من ضرب سوطًا ظلمًا؛ اقتص منه يوم القيامة
٣٨١	من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأتِه أو لطمه، فإنَّ كفارته أنْ يعتقه
٣٨١	من ضرب مملوكه ظلمًا؛ أُقيد - أي: اقتص - منه يوم القيامة
٤٢٣، ٤٢٥	من فارق الجماعة شبرًا؛ فكَانَ خلع ربقة الإسلام من عنقه
٣٧٩	من فجع هذه بولديها؟ ردُّوا ولديها إليها. ورأى قرية نمل قد حرقناها



رقم الصفحة	الحديث
٢٢٩	من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه
٢٨٥	من قُتِلَ تحت راية عَمِّيَّة، ينصر عَصْبِيَّة، أو يغضب لعصْبِيَّة؛ فَقَتَلَتْهُ جاهليَّة
٣٨١	من قذف مملوكه بريئًا ممَّا قال؛ أقيم عليه الحد يوم القيامة
٤٢٢	من كره من أميره شيئًا، فليصبر عليه
٣٧٧، ٣٧٦	مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ
٣٨١	من لطم مملوكًا له أو ضربه، فكفارته أن يُعتقه
٢٦١	من لقي الله، وليس في عنقه بيعة لإمام؛ مات مِيتَةً جاهليَّة
٦٧، ٣٦	من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه
١١٨	من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: انزل عنه، فلا تصحبنا بملعون!
٣٥٠	من يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين
٤٧٥	الموتى يسمعون خفق النعال
ن	
١٢٨	نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم
٢٦٩	نزوله تعالى في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا
١٦٩	نعم، قال: والله لا أزيد على ذلك شيئًا
٧٩	نهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال
٣٨٣	نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوَسْم في الوجه
٧٨	نهى عن عُضَلِ المسائل
هـ	
٤٣٤	هَلَّا شَقَقْتَ عن قلبه
٣٢٣، ١٨٨	هلك المتنطعون



الحديث	رقم الصفحة
و	
والجمع في الصلاة للمسافر، بل قد صح عن رسول الله ﷺ الجمع بين الصلاتين	٢٠٥
والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا	٤٤٣
والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تَذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِكُمْ يَذْنِبُونَ	٢٢٧
وإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ	٢١
وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنَِّّي أَبَيْتُ يُطْعِمَنِي رَبِّي وَيَسْقِيَنِي	٣٦
وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ	٣٥
وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ - أَيْ لَا طَاقَةَ - لَكَ بِهِ	٤١٧
وَمَنْ لَا يُغْفِرَ، لَا يُغْفَرُ لَهُ	٣٧٦
وَيْلَكَ، قُدَّهَا إِلَى الْمَوْتِ قَوْدًا جَمِيلًا	٣٧٨
ي	
يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي!	٢٢٠
يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»، قُلْتُ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟	٣٧١، ٢٩٧
يَا عَائِشَةُ، لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً، لَوْ مَزَجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لِمَزَجْتَهُ	١٦٥
يَا عَبْدَ اللَّهِ - أَوْ يَا مُسْلِمَ - هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ	٢٢٢
يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانَ أَنْتَ؟ أَوْ «أَفَاتِن» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «فَلَوْلَا صَلَّيْتُ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ	٢٣٥
يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَقِيَامَهُ إِلَى قِيَامِهِمْ	٣٩٥
يَسِّرُوا وَبَشِّرُوا	٢٠٥
يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا	١٨٢، ٥٨ ٢٠٤، ١٨٣ ٢٣٠، ٢١٤ ٤٦٤، ٣٧٢



رقم الصفحة	الحديث
١٧٤	يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْنَ
٤٢٤	يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي
٢٦٩	ينزل تعالى في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا

* * *



فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤
- ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥
- **تقديم** ٧
- خصائص مرحلة المراهقة ١٥
- **تمهيد** ١٥
- الجماعات تمرُّ بالمراهقة أيضًا ١٦
- اهتمامي بترشيد الصحوة ١٧
- الخطوط العشرة لترشيد الصحوة ١٨
- ❖ ١ - من الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر ٢٠
- الإيمان بين الشكل والجوهر ٢١
- إيمان القرآن والسُّنة ٢٤
- الإيمان قوّة هادية ٢٤
- قوّة حافزة ٢٥
- قوّة ضابطة ٢٦



- ٢٧..... مصدرٌ للسكينة
- ٣٠..... التقوى بين الشكل والجوهر
- ٣٨..... طاعات القلوب
- ٣٩..... معاصي القلوب
- ٤٤..... اتباع القرآن بين الشكل والجوهر
- ٤٨..... موقف المسلمين اليوم من القرآن
- ٥٥..... الخلق القرآني
- ٥٧..... اتباع السنة بين الشكل والجوهر
- ٦٣..... بركة السنة
- ٦٥..... دعوى من قال ليس في الدين شكل وجوهر
- ٧٠..... ❖ ٢ - من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل
- ٧٠..... الكلام عن أمجاد الماضي
- ٧٢..... الكلام عن أخطاء الماضي ومآسيه
- ٧٣..... الكلام عن أخطاء الآخرين
- ٧٤..... الجدل العقيم
- ٧٧..... الخوض في الأغاليط
- ٨٠..... الثثرة الفارغة
- ٨٢..... القول المخالف للفعل
- ٨٣..... ضرورة العمل
- ٨٥..... أيكم أحسن عملاً
- ٨٨..... العمل المطلوب



- ٨٩..... العمل للدين والدنيا معًا
- ٩٠..... العمل السياسي وحده لا يكفي
- ٩٢..... العمل العسكري، لمن لا يقدر عليه
- ٩٤..... المعوقات عن العمل المنشود
- ٩٥..... عائق اليأس من جدوى العمل
- ٩٨..... عائق المثالية الحالمة
- ١٠١..... دور أحاديث الفتن وأشرار الساعة
- ١٠٢..... الاتجاه إلى العمل بدل الانتظار
- ١٠٤..... من يُجدّد الدين؟
- ١٠٦..... منتظرو الدولة الإسلامية
- ١٠٨..... لا بديل عن العمل
- ١٠٩..... حسن البنّا والعمل
- ١١٠..... مراتب العمل السبع

❖ ٣ - من العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية ١١٤

- ١١٤..... العاطفة جزء من الكيان الإنساني
- ١١٦..... ما ننكره، هو تغليب العاطفة على العقل
- ١٢١..... عاطفية الجماعات
- ١٢٢..... مظاهر العاطفية في الصحوة
- ١٢٢..... تمجيد الذات
- ١٢٤..... الإسراف في الحبّ والبغض
- ١٢٤..... الاستغراق في الأحلام



- ١٢٥..... الاستعجال في قطف الثمرة
- ١٢٥..... الاعتماد على حسن النية، دون تحرّي الصواب
- ١٢٨..... خطوات في طريق البحث عن الصواب والأصوب
- ١٣٠..... العجلة والارتجال
- ١٣٣..... التوكل دون أن يعقل الناقة
- ١٣٤..... إغفال السنن في الكون والمجتمع
- ١٣٧..... اعتماد المبالغة
- ١٣٨..... التهريج و«الديماغوجية»
- ١٣٩..... السطحية في فهم القضايا ومعالجتها
- ١٤٣..... إلى العلمية والتخطيط
- ١٤٣..... معنى «العلمية» المنشودة
- ١٤٤..... ١ - سيادة الروح العلمية
- ١٤٥..... سمات الروح العلمية المطلوبة
- ١٤٧..... ٢ - سيادة العقلية العلمية لدى أبناء الصحو
- ١٤٨..... ٣ - استخدام لغة الأرقام والإحصاء
- ١٥٠..... ٤ - التخطيط للمستقبل
- ١٥٣..... ٥ - إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية
- ١٥٥..... ٦ - مراعاة السنن في الأنفس والآفاق
- ١٥٧..... ❖ ٤ - من الفروع والذبول إلى الرؤوس والأصول
- ١٥٨..... مخاطر التركيز على الفروع والجزئيات
- ١٥٨..... ١ - أنه مخالف للمنهج القرآني والنبوي



- ٢ - أن مفردات الجزئيات الفرعية والهامشية، لا تكاد تتناهى..... ١٥٩
- ٣ - أن هذه الجزئيات الفرعية، مظنة الخلاف دائماً أو غالباً..... ١٦٠
- رفع الخلاف غير ممكن لأسباب..... ١٦١
- من النوافل إلى الفرائض..... ١٦٢
- مرتبة الفرض أو الواجب..... ١٦٢
- فرض عين..... ١٦٢
- فرض كفاية..... ١٦٢
- مرتبة المندوب، أو النافلة، أو السنة..... ١٦٢
- الحكمة في شرعية السنن والنوافل..... ١٦٤
- أداء الفرائض أولاً..... ١٦٧
- أخطاء بعض المتدينين..... ١٦٨
- ١ - التشديد في النوافل..... ١٦٨
- ٢ - تقديم النوافل على الفرائض..... ١٦٩
- ٣ - تضييع الحقوق اللازمة، بسبب النوافل..... ١٧٣
- من المختلف فيه إلى المتفق عليه..... ١٧٥
- حمل الخلاف إلى أوروبا وأمريكا..... ١٧٦
- مآخذ على هذا الاتجاه..... ١٧٧
- المولعون بالبحث عن نقاط التمايز..... ١٧٩
- ❖ ٥ - من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير..... ١٨١
- الرسول يأمر بالتيسير لا التعسير..... ١٨٢
- معنى التيسير المأمور به..... ١٨٣



التعسير المضاد للتيسير.....	١٨٦
مظاهر التيسير.....	١٨٩
التيسير في أمر الدين.....	١٨٩
تيسير الدين للفهم.....	١٩٠
توخي السهولة والتوسط.....	١٩١
ثانيًا تيسير الفقه للعمل والتطبيق.....	١٩٢
المقصود بالتيسير هنا.....	١٩٣
١ - مراعاة جانب الرخص.....	١٩٣
٢ - تقديم الأيسر على الأحوط في زماننا.....	١٩٤
٣ - التضييق في الإيجاب والتحرير.....	١٩٧
٤ - التيسير فيما تعم به البلوى.....	١٩٨
مراعاة قواعد الشرع الميسرة.....	٢٠١
تيسير التعليم والدعوة.....	٢٠٢
من مظاهر التعسير والتشديد.....	٢٠٥
١ - إغفال الرخص مع ميسر الحاجة إليها.....	٢٠٥
٢ - التوسع في مفهوم البدعة.....	٢٠٧
٣ - التوسع في التحريم والإيجاب.....	٢٠٩
التشديد في غير محله يضيع مصالح إسلامية كثيرة.....	٢١١
التشديد على الناس ولو بتغيير أحكام الشرع.....	٢١٢
من التنفير إلى التبشير.....	٢١٤
١ - من مظاهر التبشير تغليب الأمل والتفاؤل.....	٢١٥



- ٢ - تغليب جانب الرحمة والعفو..... ٢١٧
- إغفال الخوارج والمعتزلة لجانب الرحمة..... ٢٢٠
- التبشير بمستقبل الإسلام..... ٢٢١
- ٣ - الدين يسع الناس جميعًا..... ٢٢٤
- الرفق بالمخطئ والمُذنب من التبشير..... ٢٢٥
- ٥ - التدرُّج في الدعوة والتعليم..... ٢٢٧
- من مظاهر التنفير..... ٢٣٠
- الغلظة والفظاظة في التعامل مع الناس..... ٢٣١
- سوء المظهر بين الناس..... ٢٣١
- تقديم الإسلام في صورة منفرة..... ٢٣٢
- إطالة بعض الأئمة في الصلاة..... ٢٣٤
- تغليب سوء الظن..... ٢٣٦
- ❖ ٦ - من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد..... ٢٣٨
- الحجر على أهل العلم أن يجتهدوا..... ٢٤٠
- دعوى العجز عن فهم النصوص، بدون الأئمة..... ٢٤٠
- دعوى انقطاع الاجتهاد بعد الأئمة..... ٢٤٢
- كلمة قويّة للشوكاني..... ٢٤٣
- ابن القيم يرد بقوة..... ٢٤٦
- التقليد والتمذهب عند ابن القيم..... ٢٤٨
- التمذهب والتقليد عند الشوكاني..... ٢٥٠
- كلمة شارح «مُسَلَّم الثبوت»..... ٢٥٣



هل يُعدُّ من ترك مذهبه في بعض المسائل مذبذبًا؟ ٢٥٣

كل التقليد مذموم ٢٥٧

شيوع الجمود في فصائل الصحوة الإسلامية ٢٥٩

حزب التحرير ٢٦٠

جماعة الدعوة والتبليغ ٢٦٢

جماعة الجهاد ٢٦٥

جماعة السلفيين ٢٦٨

ولكن من هم السلفيون؟ ٢٦٨

الإخوان المسلمون ٢٧٤

ضرورة تجديد الوسائل ٢٧٧

حسن البنّا لم يكن جامدًا ٢٧٨

الجمود آفة خطيرة ٢٧٩

ما أخشاه على الحركة ٢٨٠

تطوّر محمود لدى الإخوان ٢٨١

❖ ٧ - من التعصّب والانغلاق إلى التسامح والانطلاق ٢٨٤

ما معنى التعصّب؟ ٢٨٤

ليس من التعصّب ٢٨٦

من دلائل التعصّب المقيت ٢٨٧

من دلائل التسامح، والتحرر من التعصّب ٢٩٠

التسامح الديني ٢٩١



- ٢٩١..... الحوار الإسلامي المسيحي
- ٢٩٢..... علاقة المسلم بغير المسلم
- ٢٩٣..... نؤمن بالحوار
- ٢٩٤..... ماذا نريد من الغرب؟
- ٢٩٤..... مجالات مشتركة للتعاون الإسلامي المسيحي
- ٢٩٥..... التركيز على القواسم المشتركة
- ٢٩٦..... التعاون لمواجهة الإلحاد والإباحية
- ٢٩٦..... مناصرة قضايا العدل والشعوب المستضعفة
- ٢٩٧..... إشاعة روح التسامح لا التعصب
- ٢٩٨..... الأساس العقائدي لتسامح المسلم مع مخالفيه
- ٢٩٩..... التسامح مع المواطنين غير المسلمين
- ٣٠١..... التسامح الفكري
- ٣٠٢..... النظر إلى القول، لا إلى قائله
- ٣٠٤..... الاعتراف بالخطأ
- ٣٠٥..... الترحيب بنقد الآخرين
- ٣٠٨..... النقد الذاتي
- ٣١٠..... طلب النصح والتقويم من الآخرين
- ٣١١..... التنازل عن بعض الآراء الجزئية لجمع الكلمة
- ٣١٢..... الاستفادة ممّا عند الآخرين
- ٣١٤..... الثناء على المخالف فيما أحسن فيه



❖ ٨ - من الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال..... ٣٢١

انحسار الوسطية في بعض الفترات..... ٣٢٤

اهتمامي بمقاومة الغلو..... ٣٢٧

الملاحظة الأولى..... ٣٢٨

والملاحظة الثانية..... ٣٣٠

مظاهر الغلو ودلائله..... ٣٣٣

١ - عدم الاعتراف بالرأي الآخر..... ٣٣٣

٢ - إلزام جمهور الناس بالعزائم والتشديد..... ٣٣٣

٣ - التشديد في غير محله..... ٣٣٤

٤ - الغلظة والخشونة..... ٣٣٥

٥ - سوء الظنّ بالناس..... ٣٣٥

٦ - السقوط في هاوية التكفير..... ٣٣٦

مقاومة التفريط والتسيّب أيضًا..... ٣٣٧

معالم تيار الوسطية..... ٣٣٨

معالم الفكر الوسطي بإيجاز..... ٣٣٩

المعالم الأساسية لتيار الوسطية..... ٣٤١

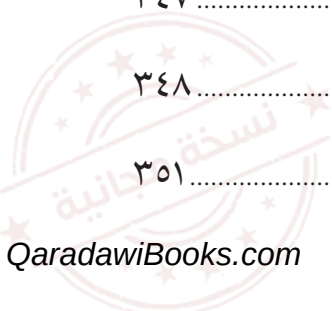
١ - تبني التيسير والتبشير..... ٣٤٢

٢ - الجمع بين السلفية والتجديد..... ٣٤٤

مفهوم التجديد..... ٣٤٧

نحو فقه جديد..... ٣٤٨

٣ - المصالحة بين السلفية والصوفية..... ٣٥١





- ٤ - الاعتدال بين الظاهرية والمؤولة..... ٣٥٣
- ٥ - الموازنة بين الثوابت والمتغيرات..... ٣٥٦
- الثوابت والمتغيرات..... ٣٥٦
- ٦ - مراعاة الواقع..... ٣٥٩
- مبادئ ثلاثة تراعى في تغيير الواقع..... ٣٦١
- أ - رعاية الضرورات..... ٣٦١
- ب - ارتكاب أخف الضررين..... ٣٦١
- ج - مراعاة سنة التدرج..... ٣٦٢
- ٧ - الدعوة إلى التسامح والتعايش مع الآخرين..... ٣٦٣
- ٨ - تبني الشورى والحرية للشعوب..... ٣٦٥
- ٩ - إنصاف المرأة باعتبارها شقيقة الرجل..... ٣٦٦
- ١٠ - إحياء الاجتهاد..... ٣٦٧
- ❖ ٩ - من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة..... ٣٦٨
- منهج الدعوة يقوم على الرفق..... ٣٦٨
- الرسول يدعو إلى الرفق وينكر العنف..... ٣٧٠
- الإسلام دين الرحمة..... ٣٧٣
- الرحمة في حالة الحرب..... ٣٨٤
- فقه جماعات العنف..... ٣٨٧
- العنف الداخلي..... ٣٨٨
- مبررات جماعات العنف ومدى اعتبارها..... ٣٨٨
- فتوى ابن تيمية..... ٣٨٩



- ظاهرة العنف إسلامية أم عالمية؟ ٣٩٢
- أسباب العنف في العالم الإسلامي ٣٩٣
- أسبابه ٣٩٣
- حقيقة فضائل العنف ٣٩٤
- حسن النية لا يبرر الأعمال الطائشة ٣٩٥
- جوانب الخلل في فقه جماعات العنف ٣٩٧
- ١ - الخلل في فقه الجهاد ٣٩٧
- من أحكام القتال في القرآن ٣٩٨
- ١ - القتال لمن يقاتل المسلمين ٣٩٨
- ٢ - ليس القتال لإكراه الناس على الإسلام ٣٩٩
- ٣ - القتال لمنع الفتنة في الدين ٤٠٠
- آية السيف ٤٠١
- بين الجهاد والقتال ٤٠٤
- حديث «بعثت بالسيف» ٤٠٥
- العلاقة بغير المسلمين ٤٠٩
- ٢ - الخلل في فقه تغيير المنكر بالقوة ٤١١
- شروط تغيير المنكر باليد (أي بالقوة) ٤١١
- الشرط الأول أن يكون محرماً مجمّعا عليه ٤١٢
- الشرط الثاني ظهور المنكر ٤١٤
- والشرط الثالث لتغيير المنكر بالقوة القدرة الفعلية على التغيير ٤١٥
- إذا كان المنكر من جانب الحكومة ٤١٦



- الشرط الرابع عدم خشية منكر أكبر..... ٤١٧
- تغيير المنكرات الجزئية، ليس علاجًا..... ٤١٩
- ضرورة الرفق في تغيير المنكر..... ٤١٩
- ٣ - الخلل في فقه الخروج على الحكام..... ٤٢٠
- الأحاديث تأمرنا بالصبر على جور الأئمة..... ٤٢٠
- باب الصبر على جور الأئمة، وترك قتالهم، والكف عن إقامة السيف..... ٤٢٢
- وقفة مع الحكام المعاصرين..... ٤٣١
- ٤ - الخلل في فقه التكفير..... ٤٣٣
- بين العنف والإرهاب..... ٤٣٥
- نرفض الإرهاب..... ٤٣٦
- هل هذا العنف مفيد؟..... ٤٣٨
- لا فائدة من هذا العنف..... ٤٣٨
- فقه التغيير..... ٤٣٩
- العنف الوحيد المشروع..... ٤٣٩
- مقاومة الكفر البواح..... ٤٤٠
- ❖ ١٠ - من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة..... ٤٤١
- موقف يوسف من إخوته..... ٤٤٤
- موقف الإمام أحمد ممن أساءوا إليه..... ٤٤٦
- ضرورة معرفة الأسباب..... ٤٥٠
- ضرورة وحدة الصف..... ٤٥١
- تأصيل فقه الاختلاف..... ٤٥٤



- ٤٥٥ ركائز فقه الاختلاف
- ٤٥٦ ركيزة التسامح في المختلف فيه
- ٤٥٩ احترام رأي المخالف في الفروع والعمل به عند الحاجة
- ٤٦٣ إحالة المستفتي إلى المذهب الأيسر عند الحاجة
- ٤٦٤ ترك بعض السنن لتأليف القلوب
- ٤٦٧ ترك الإنكار على ما تعارف عليه أهل كل بلد
- ٤٦٩ لا تُردُّ شهادة المخالف في الفروع
- ٤٧٠ ضرورة الألفة والأخوة بين العلماء والدعاة
- ٤٨١ • فهرس الآيات القرآنية الكريمة
- ٥٠٧ • فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ٥٢٣ • فهرس الموضوعات

* * *



